

AL - MARIFA المعرفة

مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٩٤ - السنة ٥٢ - ربيع الثاني ١٤٣٤ هـ - آذار ٢٠١٣ م

الإبداع في التكريم .

مفهوم الثقافة . . وصل إلى أين ؟

الأنثى في أدب الشرق العربي القديم .

عنتر بن شداد وعقدة النقص .

الآلهة وعبادة الأسلاف في الشرق القديم .

سيكولوجية الذاكرة والنسيان .

تصنيف جديد لأمراض البشرية .

القصة القصيرة عند قمر كيلاي .

آلهة الموسيقى عند الإغريق .

حلب الخالدة - للفنان الكبير ناجي عبيد

تعويذات ووصفات طبية أثرية



أقدم التعويذات التي اكتشفت في سورية، يعود تاريخها إلى الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، حيث اكتشف في إبلا (تل مردوخ) مجموعة من الكتابات المسمارية المدونة عليها تعويذات تلبية حاجات روحية ونفسية كان يعتقد أنها تساعد الناس في حل كثير من أزماتهم، وكان يقوم بكتابتها أدباء ورجال المعابد والكهنة، وفق صياغات أدبية، وبلغة تصويرية مميزة، تختلف عن لغة نصوص الحياة اليومية والاقتصادية والسياسية والعقود التجارية، وقد استمرت هذه التعويذات في حضارات آكاد وبابل وآشور وكنعان وأرام في بلاد الشام وبلاد الرافدين..

من خلال مقارنة نصوص هذه التعويذات، نجدها تشترك بصيغة معينة، فهي عبارة عن نداءات وابتهالات موجهة إلى الآلهة، وترافقها طقوس دينية معينة، تهدف إلى كسب رضا الآلهة، وطلب المساعدة منها في حل أزمة معينة يصرح بها، ويرجح أنهم كانوا يتلونونها وينشدونها في احتفالات طقسية تقدم فيها الأضاحي، وقد تبين أن بعض هذه التعويذات كانت تهدف إلى علاج حالات صحية عديدة، مثل أمراض الأطفال الرضع، وأمراض العين، والإمساك، وأمراض المخاض، والفم، ومعالجة الحروق، واليرقان، ومقاومة ارتفاع الحرارة في الجسم، والهلع والإرتعاش، وعض الأفاعي، وتمجيد القلب، وتحقيق الخير، ودفع الشر، واستدراج عطف الآلهة، ونيل رضاها، وطلب مؤازرتها للمريض لتخليصه مما يعاني من عوارض مرضية أو نفسية..

اللافت للنظر أن بعض هذه التعويذات، كانت وصفات طبية، تحتوي على طرق وعلاجات نباتية، وخلطات زيتية ومراهم وأعشاب وخلاصات عطرية، مازالت مستخدمة حتى يومنا هذا في الطب الشعبي والنباتي.



المعرفة

AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٩٤ - السنة ٥٢ - ربيع الثاني ١٤٣٤ هـ - آذار ٢٠١٣ م

دعوة إلى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية.
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ كلمة.
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:
- اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً.
- ترجو المجلة من كتابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم.
- ترجو المجلة أن تردها بالإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها.
- تلتزم المجلة بإعلام الكتاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلمها، ولا تعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة
الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة
رئيس تحرير مجلة المعرفة
تلفاكس: ٣٣٣٦٩٦٣
www.moc.gov.sy

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

سعر النسخة ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

رئيس مجلس الإدارة

أ. الدكتور بسانة مسروح
وزيرة الثقافة

رئيس التحرير

د. علي القيم

معاون وزير الثقافة

أمانة التحرير

سمر الزركي

الهيئة الاستشارية

- د. طيب تيزيني
- د. حسام الخطيب
- أ. وليد إخلاصي
- د. بدر الدين عروذكي
- أ. شوقي بغدادي
- أ. محمد قججة

الإشراف الفني والطباعة

أنس الحسن

التصميم والإخراج

أحمد إسماعيل

التنظيد

ريما محمود - ابتسام عيسى

في هذا العدد

قصة

-
 ١٦٧ بائع الصحف يكرر النداء

 ١٧٢ ومضات من حياة رجل

 ١٧٢ مظهر الحكيم

أفاق المعرفة

-
 ١٧٧ الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

 ١٨٤ إمبراطورية الكتاب

 ١٩٠ النساء يسمعن نداء رواية قصة

 ١٩٦ الترجمة: أحمد العمري

 ١٩٦ الكتابة للأطفال.. الأهداف والتقنيات

 ٢٠٥ سيكولوجية الذاكرة والنسيان

 ٢١٤ د. فايز حداد

 ٢٢١ الهندسة النفسية وإدارة الذات

 ٢٢٦ الترجمة: وفام الجراد

 ٢٢١ الخلود عند كارل جاسبرز وعلاقته بالدين

 ٢٢٦ تصنيف جديد لأمراض البشرية

 ٢٢٦ د. ناصر ملوحي

 ٢٢٩ السياسات الحكومية والصحافة والعلاقات العامة في عالمنا المعاصر

 ٢٤٦ د. محمد البخاري

 ٢٥٦ جيو إستراتيجيات حربية عبر التاريخ

 ٢٤٦ الترجمة: محمد الدنيا

 ٢٥٦ الزواج وتاريخه.. بين الدائم والمؤقت!

 ٢٥٦ منيب هائل اليوسفي

حوار العدد

-
 ٢٦٣ مع الأديب الإعلامي إسماعيل مروة

 ٢٦٣ إعداد: حسني هلال

متابعات

-
 ٢٧٣ صفحات من النشاط الثقافي

 ٢٧٣ إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

-
 ٢٨٥ قطرات الشاعر الكبير سليمان العيسى

 ٢٨٥ عبد اللطيف الأرنؤوط

آخر الكلام

-
 ٢٩٣ النواذر السلطانية

 ٢٩٣ رئيس التحرير

أ. الدكتورة لسانة مشوح
 وزيرة الثقافة

كلية الوزارة
 الإبداع في التكريم

كلية العدد

مفهوم الثقافة.. وصل إلى أين؟

وحيي الصيغ
 رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

-
 ١٥ القصة القصيرة عند قمر كيلاني

 ٢٩ د. خليل الموسى

 ٤٢ الكتابة عن الذات سردياً

 ٥١ د. عادل الفريجات

 ٦٤ الأنثى في أدب الشرق العربي القديم

 ٥١ نزار مصطفى كحلة

 ٦٤ مادة البحث الأدبي

 ٧٦ د. ممدوح أبو الوي

 ٩٠ الثورة الجزائرية في الكتابة الروائية

 ١٠٢ د. سيدي محمد بن مالك

 ١١٦ عنتر بن شداد وعقدة النقص

 ١٣١ إبراهيم محمود الصغير

 ٩٠ روسو المتخيل القلق

 ١٠٢ ترجمة: د. ماري شهرستان

 ١١٦ قبسات من دفتر الأيام

 ١٣١ عبد الباقي يوسف

 ١٤٢ آلهة الموسيقى عند الإغريق

 ١٥٤ د. نبيل اللو

 ١٣١ اكتساب اللغة عند الطفل

 ١٤٢ سهام شباط

 ١٥٤ التربية السكانية وثقافة الحاجة

 ١٥٤ د. هشام سعيد الحلاق

 ١٥٤ الآلهة وعبادة الأسلاف في المشرق القديم

 ١٥٤ د. بسام جاموس

 ١٦٣ شعر

 ١٦٣ إلى ثانوية المأمون بحلب

 ١٦٥ سليمان العيسى

 ١٦٥ التروبادور الشرقي

 ١٦٥ د. شاكر مطلق



أ.الدكترة ليسانة مسّوح
وزيرة الثقافة

الإبداع في التكريم

لا شكّ في أنّ حماية الأوطان وبناءها وضمان تقدّمها يقع على عاتق كلّ فرد فيها أياً كان موقعه.

لكنّ مسؤولية البناء لا تتوزّع بالتساوي على الناس جميعاً بل تتعاظم كلّما ازداد المرء علماً، وتعمّق معرفة، وارتقى فكراً وعملاً إلى مراتب أسمى. لذا كان لأهل العلم والفكر الحظ الأوفر من أعباء النهوض بالمجتمعات الإنسانية وقيادتها، وكان للمبدعين شرف كسر قوقعة الخمول الذهني وإشعال جذوة الفضول لإنقاذ العقول من الانغلاق والنمطية والتحليق بها في فضاءات رحبة. هؤلاء لهم فضل منح العقل نشوة الترحال، وتسليحه بأدوات التفكير والبحث والاكتشاف قبل أن يرسو على موانئ الحضارة والنور.

وكما تقع على العلماء والمبدعين مهام جسام تجاه أوطانهم والإنسانية جمعاء، تقع على الأوطان مسؤولية كبيرة، ألا وهي تأمين التربة الخصبة لإنبات بذور الإبداع وتفتح براعمه، وتهئية البيئة الحاضنة لي طرح ثماره ويعمّ خيره.

ومن هذا المنطلق، وإيماناً بأهمية المبدعين في بناء العقول والأوطان أصدر السيد رئيس الجمهورية المرسوم التشريعي رقم ١١ لعام ٢٠١٢ القاضي بإحداث جائزتين في مجال الأدب والفنون، الأولى تسمى جائزة الدولة التقديرية، والثانية هي جائزة الدولة التشجيعية، ترسيخاً لضرورة رعاية الفنون والآداب في وطن لطالما كان منارة للإبداع بشتى صوره، وتأكيداً أن للثقافة والمثقفين في سورية الحضارة مكانة مميزة الأمر الذي اقتضى التنويه بهم ورعايتهم لأنهم أحد الدعائم الأساسية في بناء الوطن وضمان تقدمه وإعلاء كلمته، والحفاظ على المكانة التي تبوأها عن جدارة بين شعوب العالم.

ولا تقارن القيمة المادية لهذه الجوائز، وإن كانت مجزية، بقيمتها المعنوية. فهي وسام على صدر مستحقيها، وشهادة تميز أعمالهم وتيسر لها سبل الشهرة والانتشار. والدولة إذ تمنح هذه الجوائز إنما ترد لأصحاب الحق بعضاً من حقهم في التنويه والرعاية، وتؤسس لمفاهيم جديدة يفترض أن تنعكس إيجاباً على الحياة الثقافية والإبداعية فتكون أحد حوافز التميز والابتكار في الإنتاج الأدبي والفكري والفني.

لكن الدولة ليست بالضرورة الجهة الوحيدة التي يفترض أن يعول عليها في دعم الإبداع والمبدعين، فهناك مؤسسات غير حكومية دخلت هذا الميدان المشرف وأخذت تعمل في هذا الاتجاه لأغراض مختلفة ليس هنا مجال بحثها. وثمة جوائز ذاع صيتها في العالم لا تمنح من جهة رسمية بل ينفق عليها من أموال منظمات أو أموال خاصة إما تعظيماً لمآثر من تحمل اسمه كجائزة سنغور، أو تكفيراً عن ذنب اقترفه كجائزة نوبل، أو نيلاً لشهرة لم يدركها كجائزة غونكور.

وجائزة غونكور الأدبية تمنحها كل عام أكاديمية غونكور، في السابع من شهر تشرين الثاني، في باريس عاصمة الأنوار. وهي رمزية بقيمتها المادية التي لا تتجاوز عشرة يورو!!! لكنها عظيمة بقيمتها المعنوية التي لا تقدر بثمن، فهي محط أنظار الكتاب والقراء على حد سواء، فمن يتوج بها يدخل تاريخ الأدب والشهرة من أوسع أبوابه وتدرج روايته على قائمة أهم الكتب وأكثرها رواجاً، تتلقفها أيادي

القرّاء وتشبعها أقلام النقاد درساً وتحليلاً. وهو اليوم حال جيروم فيراري آخر الفائزين بالجائزة لعام ٢٠١٢ عن روايته عظة حول سقوط روما.

ولجائزة غونكور الأدبية قصة تروى. هي جائزة تمنحها كل عام أكاديمية غونكور الفرنسية التي هي كناية عن ناد أدبي أسس عام ١٩٠٠ تنفيذاً لوصية خطّها إدمون دو غونكور (١٨٢٢-١٨٩٦) وأودعها الكاتب بالعدل قبل ستة أعوام من وفاته، أعرب فيها عن رغبته ورغبة أخيه الأصغر جول دو غونكور (١٨٣٠-١٨٧٠) أن يخلّد ذكرهما بتأسيس المجمع وبمنح جائزة سنوية لعمل روائي ينشر في العام نفسه.

لم يكن الأخوان دو غونكور من الأدباء ذائعي الصيت في زمانهما، ولا وصلت مؤلفاتهما إلى القرّاء في عصرنا. لكنهما حلما بشهرة جافتها، وما كان لهما أن ينالاها لولا تأسيس الأكاديمية وتخصيصها لتلك الجائزة الأدبية التي كُنيت تيمناً بهما فخلدت اسمهما.

ولد إدمون دو غونكور في مدينة نانسي الفرنسية عام ١٨٢٢، ورأى أخوه جول النور بعده بثمان سنوات أثناء الاضطرابات السياسية التي اندلعت عام ١٨٣٠. ما لبث الطفلان أن أصبحا يتيمي الأب، وسرعان ما خطف الموت أختهما، فعاشا وحيدين في كنف أمهما التي أغدقت عليهما من حنانها وحرصت على أن يتسلحا بالعلم، على الرغم من ثروة طائلة ورثاها. لكن الموت عاجل أمهما عام ١٨٤٨ فوقعا فريسة حزن لا يوصف على فراقها، وبدا العالم وكأنه ينهار من حولهما. تملّك الأخ الأكبر عندئذ شعور راسخ بأنّه مسؤول عن أخيه، فكتب مخاطباً أمه وهي في الدار الآخرة: «أمي، عندما كنت مستلقية على سرير الموت، وضعت يد ابنك الحبيب المفضل في يدي وتركته في عهدي، ورمقتني عيناك بنظرة لا يمكن أن تنسى».

هجر إدمون مهنة المحاسبة التي برع فيها ليتفرّغ للعناية بأخيه جول. نعم الشقيقان بفضل ميراثهما بحياة ميسورة، وانصرفا للأدب والفن في مجتمع

باريسي نشطت فيه الحركة الأدبية والفكرية حتى بلغت أوجها، وبات ارتياد الصالونات الأدبية إحدى سماته المميزة.

تنقل الشقيقان بين مهن عدة فكانا مؤرخين وصحفيين، ومارسا الرسم المائي والنقش، ثم أصبحا روائيين. لكن شغفهما بجمع التحف والأواني المزخرفة طبع أسلوبهما الأدبي، فانصرفا جُلَّ اهتمامهما إلى وصف البيئة المادية المحيطة أكثر من عنايتهما بالإنسان والغوص إلى عوالم النفس البشرية. عيب عليهما إفراطهما بتصوير التفاصيل الدقيقة للموجودات، فتراهما ينفقان صفحات طوالاً من كتابهما تاريخ الثورة الفرنسية في وصف مفروشات عصر الثورة وأوانيه ومجوهراته من قلادات وخواتم مرصعة بأحجار كريمة، بدل التفصيل في سرد الأحداث التاريخية التي لا يأتیان على ذكرها إلا نادراً. هذا الميل الشديد لوصف الأشياء بدقة متناهية أنتج ما أسماه بـ «الكتابة الفنانة» *l'écriture artiste* حيث تحتل التفاصيل الحيز الأكبر وتتغلب على ما عداها، ويشكل الواقع الملموس بكل دقائقه مادة الأديب الفنية من دون منازع. لكن المبالغة في النزعة الواقعية جعلت عشرات الروايات التي نشرها لا تلقى أي رواج.

لم يثنهما فشلهما في نيل تقدير الأوساط الأدبية عن السعي للشهرة بشتى الوسائل، فبدأا بارتياح صالون الأميرة ماتيلد دو بونايرت الأدبي، ثم صار لهما صالونهما الأدبي الخاص، ولما فشلا في نيل مجد مستحق ذهب إدمون إلى حد اتهام الروائي الكبير إميل زولا بأنه سرق منه ريادة تيار النزعة الطبيعية في الأدب ونسبها إلى نفسه!!

انصرف الأخوان دو غونكور في أوقات فراغهما لكتابة يوميات تعد أهم ما أنجزاه. فقد اتخذوا منها ملاذاً للهرب من ضجيج الحياة الباريسية الصاخبة، بثا فيها كل ما اعتل في نفسيهما من ألم وأمل ومتعة، وكل ما خرجا به من انطباعات متطابقة عن الناس والأشياء من حولهما، فكانت بمثابة صوت واحد لروحين توءمين. خطأ بيد واحدة وثيقة تاريخية اجتماعية تعد مرجعاً للباحثين. لكنّها جلبت عليهما حنق الوسط الأدبي والفكري إذ فضحت عجرفتهما وسلطنة

لسانيهما وميلهما للتجريح. فقد هجيا فيها بقسوة من عاصرهما من الأدباء، فوصفا الأديب بلزك بـ «الجاهل المقزز»، والكاتب والمؤرخ والفقيه جوزيف إرنست رونان بأن «له وجهاً أحمر خشناً كقفا القرد»!! ولم يجدا ما يدفعان به عنهما تهمة التمرس بالنميمة والتجريح إلا التذرع بـ «الحرص الشديد على الصدق في التعبير والنزور من القبح»!! وأياً كانت حقيقة الأمر، فإن الاقتصار في تلك اليوميات على الملاحظة والتدوين والتعليق بدل خلق عالم يعج بالحياة بناسه وأشياءه وأحداثه جعل منها عملاً لا يرقى لمصاف الإبداع الأدبي.

عاش إدمون دو غونكور أواخر أيامه وحيداً حائفاً لعدم نيله الشهرة التي طالما تاق إليها. لكنه وجد السبيل إلى الخلود بذكاء قل نظيره حين أوصى بتأسيس أكاديمية تحمل اسمه وتؤول إليها كل ثروته.

واليوم غدت جائزة غونكور مفخرة لمن يفوز بها ولن يمنحها على حد سواء. ولعلّ للأسماء الكبيرة التي تتألف منها لجنة التحكيم بعض الفضل في ذلك. فهي تتكون من أعضاء الأكاديمية أنفسهم وعددهم عشرة، انتخبوا لسمعتهم ولعلو شأنهم في ميادين الأدب والنقد. منهم الصحفي والأكاديمي ريجي دوبري رفيق نضال تشي غفارا وبابلو نيرودا وسلفادور ألندي، والكاتب والسينمائي الشهير فيليب كلوديل، والصحفي والناقد الأدبي برنار بيفو الحاصل على عشرات الجوائز الأدبية والنقدية والإعلامية، والكاتب والصحفي بيير أسولين. ومنهم روائيون فازوا بالجائزة ثم كرموا ثانية إذ انتخبوا أعضاء في الأكاديمية، ومن هؤلاء الأدبية إدموند شارل رو الفائزة بالجائزة عام ١٩٦٦ عن روايتها انسوا باليرمو وهي ترأس الأكاديمية منذ عام ٢٠٠٢، وقد ترجمت كتبها إلى ثماني عشرة لغة، والأديب مغربي الأصل الطاهر بن جلون الحائز على الجائزة عام ١٩٨٧ عن روايته الليلة المقدسة، والروائي السينمائي ديديه دوكون الفائز بالجائزة عام ١٩٧٧ عن روايته جون الجحيم، وباتريك رامبو الحائز على الجائزة عام ١٩٩٧ عن روايته المعركة التي نال عليها أيضاً الجائزة الكبرى للرواية من مجمع اللغة الفرنسية.

الشرط الوحيد لترشح عمل للجائزة أن يكون عملاً روائياً مكتوباً باللغة الفرنسية وأن يكون الناشر فرنسياً، وللناشر وحده الحق بتسليم أعضاء لجنة التحكيم نسخاً عن الرواية المرشحة. أمّا المعايير التي تمنح على أساسها الجائزة فيترك أمرها لذائقة الحكام وتقييم كل منهم للعمل الروائي.

تجربة كهذه يزيد عمرها على قرن ونيف تستحق التأمل في أسباب نجاحها وربما الاستئناس بها وبسواها من التجارب العريقة وصولاً إلى أفضل صيغة ملائمة لتطوير آليات ومعايير منح الجوائز الوطنية.

فإذا كان تكريم الإبداع واجباً وطنياً، فإنّ الإبداع في التكريم هو أحد الأسس التي تضمن تحقيق هذا التكريم لأهدافه على المدى المباشر والبعيد، وعلى الصعيدين الشخصي والوطني؛ بل إن أثر التكريم قد يمتد ليشمل الحركة الإبداعية الإنسانية، إذا ما أخذنا بالحسبان أن الأعمال المكرمة مرشحة لأن تترجم فتجوب أصقاع الأرض وتصبح رسل فكر وحضارة... وملهمة إبداع.





د. علي القميم
رئيس التحرير

مفهوم الثقافة.. وصل إلى أين؟

عملي المتواصل منذ أكثر من أربعين عاماً، في حقول الآثار والتراث والمتاحف والثقافة بشكل عام، جعلني أحرص على متابعة مفهوم الثقافة من عصر إلى آخر، ومن مجتمع متقدم إلى مجتمع متخلف، ومن مفهوم فئة من الناس إلى مفهوم فئة أخرى، ومن عالم إلى عالم آخر، فوجدت أن هناك عدم اتفاق كامل في الرأي حول هذا المفهوم كمصطلح، حيث يراه العامة، وكذلك العلماء من زوايا وعناصر متعددة، فتختلف تعاريفه في تباين كبير، بل وقد يراه البعض سهلاً ميسوراً، ولكن يظل تعريفه مهما اتسع قاصراً عن الإحاطة بكل الجوانب المكونة للثقافة، ومثيراً للجدل، بل ولاحتتمالات اللبس، واختلافات التأويل..

مفهوم الثقافة اختلف باختلاف الوطن، وباختلاف التيار الفكري والسياسي والأيدولوجي الذي ينتمي إليه المثقف، وباختلاف الحقبة التاريخية، واختلاف أحلامها وأهدافها، وهذا أمر طبيعي، لأن الثقافة إن لم تكن نتاجاً للتفاعل الاجتماعي، فهي أحد عناصره، وبالتالي فهي ابنة التاريخ، وقد تكون تلك الابنة التي تأخذ بيده لترشده في شيخوخته، وعندما نتعامل معها لابد وأن نضع في اعتبارنا أننا نتعامل مع التاريخ ومع

الواقع، أي مع أمر له ثقله الضاغط، ولذا من الصعب تغييرها بقرارات، لأنها هي نتاج جهود الإنسان لتحقيق الأنسنة، أي لتحقيق استمرارية الحياة، وللتخفيف من حدة الصراع من أجل البقاء، ولتنمية القدرات الفكرية للإنسان، وللتقليل إلى أقصى حد من العنف والعدوان، فالعنف والعدوان والوحشية والتعصب مما يتنافى مع الأنسنة، وبالتالي أي ثقافة تحتوي على هذه الجوانب لا تكون ثقافة حقيقية.

في تاريخنا العربي، ارتبط مفهوم الثقافة بشدة بوظيفتها وعند ابن خلدون، الفيلسوف الاجتماعي التاريخي، انحصرت الثقافة في وظيفة الكتابة، وذهب إلى أن هذه الوظيفة غير ضرورية. وأن قدر الحاجة إليها هو الذي يحدد علاقتها بالسلطة، وإن كانت في كل الحالات شأنها شأن السيف: «آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره» ففي بداية الدولة لا يحتاج صاحب السلطة للتعلم أي (الثقافة بلغتنا) إنما يحتاج للسيف فحسب، ليعمد الملك، وليوفر له الاستقرار، فإذا ما تحقق ذلك في «وسط الدولة» يتحول إلى الاهتمام ب«أرباب الأقلام».

في القرن الخامس الهجري، يرى اللغوي حفص بن عمر بن مكي الصقلي في افتتاحية كتابه «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان»، أن الثقافة تلعب دور الأصول والمعايير التي تضبط بها اللغة والتي تثري الجنان.

في العصر الحديث كان عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين أول من طرح إشكالية الثقافة، وكتب عن رؤيته لها ولدورها المنتظر في مستقبل مصر العربية، ومن الملاحظ أن المفهوم لم يكن واضحاً في ذهنه، فلم يميز بوضوح بين الثقافة والحضارة، بل خلط بينهما، ونظر للثقافة نظرة الحالم «اليوتوبي» صاحب المشروع الإصلاحية، وظهرت بعد ذلك آراء ومفاهيم عديدة تعرّف الثقافة حسب الظروف والأحوال التي مرت بها أمتنا العربية مثل: «الثقافة الموجهة» «الثقافة ومسايرة التطور» و«الثقافة بطبيعتها تقدمية»..

وبعد حرب عام ١٩٧٣م تطورت نظرة العرب للثقافة كثيراً، وأصبح ينظر إليها على أنها نتاج للعملية الاجتماعية في المجتمع، وهي بطبيعتها تنزع للتجاوز والاختلاف حتى مع ذاتها.. الثقافة أساسها الحوار وليس الصدام، واللافت أن مفهوم الحوار، شديد التعقيد،

ولكنه في الوقت نفسه آلية خطيرة لتحقيق التواصل، ولو أحسن استخدامها يمكن تحقيق كل ما عجزت عنه آليات السلطة والسيطرة والقوة المادية، ولابد من الاعتراف بأن الحوار مفهوم جديد ليس على ثقافتنا فحسب بل على الثقافات الأخرى كذلك، وفي الحوار يكون كل طرف مقيداً بالطرف الآخر أو بالأطراف الأخرى، وأول هذه القيود، القيد المعرفي، بمعنى أن الحوار لا يمكن أن يستمر إلا إذا كانت كل العناصر تعرف بعضها معرفة جيدة، ولابد لكل طرف أن يعرف عن الآخر قيمه ومعاييره وتوجهاته وأهدافه وعقيدته وعاداته وتقاليدته وتاريخه.. أي ثقافته..



في السنوات القليلة الماضية، اتسع مفهوم الثقافة ليشمل كل الأشكال والصيغ الإبداعية (تقانة- فنون- أدب..) التي تعبر عن الذات الجماعية، وبالتالي تميزها، فهي دالة على كل أنماط وأساليب الفكر والفعل والإحساس (النشاط الفكري والمعرفي- الإنتاج التقني- سبل السلوك والتصرف- سبل التعبير الفني والجمالي) المستندة كلها إلى جملة من القيم والمثل والالتزامات السلوكية والأخلاقية، والكل يؤكد خصوصية المجموعة، يعني هويتها، حيث تمثل نسيجاً معقداً لوحدة تكوين هذه الذات الجماعية، وفي الوقت نفسه هي وسيلة تأكيد وتجديد لهذه الذات من حيث التمايز مع الآخرين..

إذا كانت الثقافة، كما قلنا، تعبيراً، وتأكيداً وتجديداً للذات الجماعية فهي في الوقت نفسه تمثل كل أشكال وصيغ التفاعل والتبادل والاتصال، ويتم هذا الاتصال بوساطة دلالات ورموز مادية معنوية سواء كانت كلمات أو حركات أو مخطوطات أو آثاراً فنية.. في الحقيقة إن كل أشكال وصيغ الإبداع الفكري والجمالي والتقني، ليست فقط تأكيداً وتجديداً للذات الجماعية بل هي الوسيلة المثلى للالتقاء والاتصال..

أما غاية الثقافة فتكمن في إعداد الإنسان المدرك لحقيقة وجوده والوثاق بقدراته على التغيير نحو الأفضل، والثقافة تمثل خيارات في سلم لها أبعادها الاجتماعية، الاقتصادية، الإعلامية، البيئية، السياسية، فعلى الصعيد السياسي، مثلاً، لا يمكن الحديث عن الديمقراطية، من دون مثقفين ديمقراطيين، أو خارج الإطار الثقافي، ومن الملاحظ اليوم

أن الديمقراطية الشعبية هي صمام الاستقرار، لابل إنها مصدر القوة للدولة السائرة على طريق النمو..

ولعل من تعريفات الثقافة الأكثر شيوعاً في الغرب، ذلك التعريف الدارج الذي يرى: إنها جماع القيم المادية واللامادية، التي يخلقها الإنسان في سياق تطوره الاجتماعي وتجربته التاريخية، وهي تعبر عن مستوى التقدم التكنولوجي والإنتاج الفكري والمادي والتعليم والعلم والأدب والفن الذي وصل إليه المجتمع في مرحلة معينة من مراحل نموه الاجتماعي والاقتصادي.. وعلى هذا يستخدم اصطلاح الثقافة ليشمل مجموع الإنجازات التي حققها الإنسان ابتداء من الأدوات البدائية التي قام بوضعها ليؤمن طعامه ومسكنه وأمنه وحركته ابتداء من العصر الجليدي مروراً بالعصر الحجري وانتهاءً بإنجازات العصر الحديث الذي أفاد فيه الإنسان في تطويع البيئة المحيطة، وتحقيق الرفاهية والنماء المتواصل..

والثقافة تضم إلى جانب المصنوعات اليدوية والإنتاج الصناعي المتطور والتكنولوجيا المعاصرة، عناصر متعددة من طبيعة مختلفة غير مادية أطلق عليها اسم «المبتكرات العقلية» تضم اللغة، التي هي من أهم المبتكرات العقلية، حيث إنها مجموعة من الرموز والمفاهيم العقلية، التي تعد العنصر الأساسي في الثقافة التي مكنت الإنسان من الاتصال ببيئته الاجتماعية، ونقل التراث من جيل إلى آخر، وتسجيل ما يستجد فيه من تطوير وتنقيته من الشوائب والإضافة إليها ومن دونها يستحيل التخاطب العقلي والتفاهم وتبادل المعلومات.

وتتضمن المبتكرات العقلية الكم الهائل من المعلومات والإنتاج الأدبي والنظريات العلمية والعلوم الإنسانية التي تكدست في سجل التراث الإنساني خلال قرون طويلة من حياة الإنسان على الأرض، كما تضم طرق الفكر المختلفة والقيم الروحية والأيدولوجيات السياسية والفلسفية والدساتير الأخلاقية والأساطير المختلفة..



التعريفات الثقافية لم تتوقف، وفي الوطن العربي، شاع وانتشر تعريف الدكتور حامد عمّار، الذي اقتصر على الجانب المعرفي والوجداني للحضارة: «الثقافة هي جملة الأفكار والمعاني والقيم والرموز والانفعالات والوجدانات التي تحكم حياة المجتمع في علاقاته مع الطبيعة والمادة، وفي علاقات أفرادها ببعضهم وبغيرهم من المجتمعات، وبهذه الألوان من الفكر والمعاني والتعبير يتميز المجتمع الإنساني باعتباره صانعاً وناقلاً للسيرة في مسالك حياته، وتدفعه أضواؤها الخضراء إلى الانطلاق والاندفاع على الطريق المنشود، وتوقفه أضواؤها الحمراء عن الاتجاه في طريق لا طائل من ورائه، وتدعوه أضواؤها الصفراء إلى اتخاذ مواقف التدبر والترث، حين تستلزم حياة المجتمع هذا النوع من السلوك.. ولهذا كله تمثل الثقافة محركات العمل ومثيراته ودوافعه التي تحفز الإنسان للنشاط والسعي، وتدعوه للخوف والقلق، أو تبعث فيه الطمأنينة والرضى، أو السخط والتذمر، كما أنها تشيع في النفس إحساساً عاماً بمعنى الحياة وقيمتها في جزئياتها وتفصيلها اليومية، وبمعنى العلاقات القائمة بين الأشياء وطرق تنظيمها وتوازنها».

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «اليكسو» بدورها لم تقصّر في وضع التعاريف للثقافة، وقد أفردت لها صفحات مطولة في «الخطة الشاملة للثقافة العربية» ووضعت لها أكثر من معنى قيمى واجتماعى وأنثروبولوجى شمل فعاليات الإنسان كافة، وقد ركزت التعاريف على اعتبار الثقافة ظاهرة إنسانية، ومحور الحياة الاجتماعية وظيفياً وسلوكياً، بمعنى أنها نشاط إنسانى بالغ التعقيد والعمق والتشعب، أو إنجاز تراكمى مستمر النمو، فيه الإبداع والعطاء والإضافة الجديدة، وفي الوقت نفسه المحافظة على التراث السابق مع التجديد في كل ما يتضمنه من قيم روحية وفكرية ومعنوية، والعمل على التحديث من أجل طموحات مستقبلية..

مشكلتي مع مفهوم الثقافة، أنني كلما اطلعت على تعريف جديد، كان عليّ أن أعيد ترتيب معلوماتي.. قد لا تختلف المفاهيم والتعاريف كثيراً لأنها في المجمل تركز على الفعل والنشاط الإنساني، وهذا السبب المهم الذي دفع العلماء وأصحاب الاختصاص إلى القول بأن الثقافة أصبحت تمثل ميداناً مستقلاً، حيث لم يقتصر مفهوم الثقافة على تعدد تعريفاتها وتتابع الدراسات عنها، بل ظهرت تخصصات عديدة تعنى بدراساتها مثل «علم

الثقافة» الذي يرى الثقافة مسألة قائمة بذاتها، وأن دراستها تشكّل مجالاً له استقلاليتها، و«علم الأنثروبولوجيا الثقافية» الذي يركّز على دراسة الثقافة وعناصرها وسماتها، إضافة إلى ظهور كثير من المفاهيم ذات العلاقة بالثقافة كالتراكم الثقافي، والتغيير الثقافي، والصراع الثقافي، والاتصال الثقافي، والتطور الثقافي، والتكامل الثقافي..

باختصار شديد لقد وجدت أن الثقافة أسلوب حياة، يكتسبها الفرد من مجتمعه، لكنه لا يحمل كل ما في ذلك المجتمع، لذلك تقسم الثقافة إلى عموميات وخصوصيات وبدائل، فهناك عناصر ثقافية عامة يشترك فيها جميع أعضاء المجتمع كبعض الأفكار العامة والعادات والقيم واللغة، وهي ما تسمى بالعموميات الثقافية أو النمط العام للثقافة، وإلى جانبه تختص بعض الجماعات بسمات أخرى وهي ما يطلق عليها «الخصوصية الثقافية» أمّا عناصر البدائل فهي دخيلة على ثقافة المجتمع، تتسرّب إلى الثقافة بسبب اتصالها بثقافات أخرى، وتظل لفترة موضع التجريب حتى يتقبلها المجتمع ويضمها إلى ثقافته أو يرفضها..

ختاماً، لا بدّ من القول بأنه قد أُعطي للثقافة -حتى الآن- أكثر من مئة وخمسين تعريفاً، ويبدو أنه من الواجب الإشارة إلى ما جاء في إعلان «مكسيكو» أثناء انعقاد مؤتمر المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» عام ١٩٨٢م، الذي عرّف الثقافة بأنها: «هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية المتمثلة، والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي وعن طريق الثقافة نهتدي إلى القيم، ونمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرّف على ذاته، والبحث من دون ملل عن مدلولات جديدة وحالات إبداع».

اليوم، وأكثر من أي ظرف تاريخي مضى، نحن بحاجة إلى ثقافتنا الوطنية التي تحمي قيمنا الإنسانية التي نوّمن بها، وتبعدنا عن النزاعات والأزمات التي تحيط بنا، وليس بغير الثقافة الواعية المتسامحة المحبة، المنفتحة، نجد المخارج والحلول..



القصة القصيرة عند قمر كيلاني



د. خليل الموسى



قمر كيلاني (١٩٢٨-٢٠١٢م) أديبة دمشقية متميزة، وهي روائية قاصّة دارسة وكاتبة مقالة متميزة، ولكنّها لم تأخذ حقّها في الدراسات النقدية عن القصة القصيرة في سورية، على الرغم من أنّه صدر لها ست مجموعات عن دور نشر معروفة، وهي كالآتي:

- عالم بلا حدود، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢م.

٢- الصيادون ولعبة الموت، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨م.

٣- اعترافات امرأة صغيرة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٠م.

✽ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

٤- امرأة من خزف، دار الأنوار، دمشق، ١٩٨٠م.

٥- حلم على جدران السجون، الدار العربية للكتاب، طرابلس- تونس، ١٩٨٥م.

٦- المحطة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٧م.^(١)

وإذا عدنا إلى دراسات القصة القصيرة في سورية- وهي قليلة بالقياس إلى دراسات الشعر والرواية- وجدنا- فعلاً- أنَّ حظَّ قمر قليل بالقياس إلى زميلاتها وزملائها.

وربما عاد ذلك، من وجهة نظري- إلى سببين: الأول أنَّ هذه الكاتبة لم تتغلَّ المشكلات في قصصها، خاصة للوصول إلى الشهرة، كما هي الحال في بعض الكتابات الروائية والقصصية، فهي لا تهتمُّ بالجنس، ولا تقف طويلاً عند قضايا تهميش المرأة في المجتمع العربي، وربما تكون قد أخرجت هذه الأمور لمواجهة العدو الصهيوني الواقف على الأبواب، ولذلك كانت يداً بيد مع الكاتب الرجل إزاء هذه القضية المصيرية، وهذا ما يلمحه القارئ بعد الانتهاء من قراءة مجموعاتها القصصية، فإذا حذفنا اسم المؤلفة من الغلاف، فلا يبقى هناك دليل قاطع على أنَّ كاتب هذه القصص امرأة أو رجل.

ومن هنا فإنَّ قصص قمر لا تتدرجُ

تحت ما يُسمَّى بـ ((الأدب النسوي))، وإنما هو أدب واقعي قومي بامتياز.

أمَّا السبب الثاني فهي لم تذهب قصداً ومباشرة إلى الفنتازيا لاستجلابها قسراً إلى بنية القصة إذا لم تكن ضرورية وموظفة، كما يفعل كثيرون وكثيرات، وهي لا تُغرق قصتها بالشاعرية غير الموظفة أيضاً بحيث يختلطُ الجنس الأدبي على القارئ، ولا تذهب إلى استدراج الصور العجائبية والغرائبية.

إذن، هي لم تأت عفواً، ومن هنا كانت القصة القصيرة لدى قمر كيلاني رصينة، وذات بنية طبيعية، وهي تهتمُّ بالفكرة أكثر من اهتمامها بسواها من عناصر القصة، فهدفها الأول نشر الوعي القومي، خاصة في المرحلة التي أنجزت فيها هذه المجموعات، وهي مرحلة انتشار المد القومي بامتياز في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، واختصاراً للدراسة وموضوعها سيقصر كلامي هنا على المجموعتين الأولى والأخيرة لتحديد موضوعاتها وتقنياتها وأساليبها.

- ١ -

في المجموعة الأولى ((عالم بلا حدود)) اثنتا عشرة قصة مكتوبة بين عامي ١٩٦٥م و١٩٧٠م، وهي فترة انتشار المد القومي من

جهة، وذروة النضال الفلسطيني والعمل
الفدائي من جهة أخرى، ولذلك كانت هذه
المجموعة تشع بالأمل، وهذا ما يتجلى في
الإهداء:

إلى فلسطيني صغير.. صغير.. قضت
عليه الحرب قبل أن يولد..
وإلى فلسطينيين آخرين صغار.. يولدون
رغم الدم والنار والعذاب^(٢)

لموضوع فلسطين الحضور الأول في
هذه المجموعة، ولمشاركة المرأة العربية في
الصراع العربي الإسرائيلي الحضور الثاني
الموازي لذلك، ففي القصة الأولى ((عالم بلا
حدود)) ١٩٦٥م حكاية قرية صغيرة تدعى
((دير القمر))، وهي تقع على الحدود
الفاصلة بين ضفتين: ضفة عربية وأخرى
سليبية، وقد مات أهلها يوم المذبحة، وفي
أحد أكواخها رجل وامرأة بزي عسكري،
وقطة حامل تموء في الخارج، فأحبت المرأة
هذا المناضل وأحبت أن تتجرب منه طفلاً
يشبهه، لكن الرجل يرفض هذه الفكرة قبل
أن يهيئ لطفله مكاناً يعيش فيه، خاصة أنه
تذكر المعاناة التي عاشها مع أسرته حين
طُرد من بيته إلى لبنان قسراً، في حين أن
المرأة كانت تقول: ((المهم أن يعيش.. سوف
يدافع يوماً عن عالمه. بل هو يستطيع أن
يخلقه))^(٣).

إن هذه القصة هي الأساس، وهي
تمثل القصص الأخرى في المجموعة، بل
تتقاطع معها وتمدها بأفكارها، فهي أولاً
احتلت عنوان المجموعة، وهي ثانياً طرحت
مشكلة القرية التي كانت هادئة ومسالمة،
ثم جاء الغرباء، فذبحوا أهلها وحولوها إلى
ركام، وهي ثالثاً تطرح بقوة قضية النضال
الفلسطيني العربي لاسترجاع الحق المسلوب،
بما فيه الأرض، وهي رابعاً تقدم المرأة
العربية على أنها قادرة على أن تأخذ دورها
كالرجل تماماً في النضال المسلح، وهذا ما
يطالعنا في القصص الأخرى، ففي القصة
الثانية ((يوم احترقت الغابة)) ١٩٦٧م امرأة
تروي حكاية رجل جُنَّ بعد مقتل طفله في
قرية حدودية مهجورة، فأخذ يحفر قبره
في الصخر، ولكنها تكتشف أنه ضمن رجال
آخرين يحفرون قبورهم، وهم ثوار يخزنون
فيها السلاح والمتفجرات للثأر، وهكذا، فلما
فاجأهم العدو أحرقوا قبورهم، فتفجرت
قبور الغابة بمن فيها، وكانت المرأة شاهدة
على هذا العمل البطولي النادر.

وفي القصة الثالثة ((قبله على أرض
غريبة)) ١٩٦٥م الراوية ثريا تسأل في مدينة
الرداذ (لندن) عن حازم الذي وهب نفسه
لقضية بلاده، وتذكر عباراته لمجموعته:
((نحن يا إخوة نكرس أنفسنا للقضية.. أن
نقع فريسة الظلم فذاك ليس خطانا.

أما أن (نريد) أن نرفع عنّا هذا الظلم فهذه أصعب تجربة يمكن أن نمرّ بها. لن يكون لنا فرح حقيقي قبل أن تتحوّل الجموع المجهولة إلى تصميم.. إلى عزم.. إلى إرادة.. إلى عمل^(٤).

والمهمّ في هذه القصة أنّ ثريا دمشقية وحازم فلسطيني، ممّا يُعزّز الفكرة القومية في المجموعة، ثمّ إنّ برتقال يافا غريب في لندن في أرض غريبة، ولا يقتصر الأمر على ذلك، ولكن ثريّا تعتزّ أيضاً بالرجل الأسمر العربي الممتلئ حياةً وحيوية على نقيض الرجل الإنكليزي البارد، فتقول: ((وجهه إنكليزيّ تافه يبدو شمعيّاً بارد البياض.

نظرتي مصلوبة فوق عينين فاتحتين بلون الخرز. أية أشباح ميّنة تتراءى لي الآن: هذه الوجوه الباهتة من البلاستيك كم أفتقد معها اللون الأسمر الحارّ وقد أرضعته الشمس. كم أحنُّ إلى عيون عميقة السواد.. عميقة الغور والأحزان^(٥))).

وفي القصة الرابعة ((رجوع.. وجسر دامية)) تُدينُ الراوية الرجل المثقف الذي يتحدّث عن الأمم المتحدة واجتماعات القادة العرب وجامعة الدول العربية، ولا يكلف نفسه أن يذهب لمشاهدة خيام النازحين، وتقصّ حادثة رجوع الفتاة النازحة الفلسطينية التي تعيش في سورية، وقد

ذهب ابنُ عمها وخطيبها في عملية فدائية، وفي القصة الخامسة ((صغير.. كبير آخر)) الراوية معلّمة وكاتبة تصل إلى المدينة، وفي الباصر طفل تخاطبه وتُناجي نفسها، ولكنّ الطفل لا يريد أن يسمع حكايات عن التاريخ والشعر، وإنّما يقذف بوجهها عبارة مثل رصاصة:

- أين البندقية؟ أنا أريد بندقية! ألا تملكين بندقية؟ ثوب عسكري بدون بندقية. أنت جبانة.. أنت..^(٦).

هكذا تسير القصص الأخرى في المجموعة لتتهلّل من ينبوع واحد، وهو القضية الفلسطينية، والملاحظ على قصص هذه المجموعة أنّها مفعمة بالأمل والانتصار، والطريق الوحيدة إلى ذلك المقاومة، وهذا في زمن كان فيه الأدب الحزيراني البكائي مهيمناً على الشعر والمسرح والرواية، ولذلك كانت قصص كيلاني مختلفة في اتجاهها ورؤاها، وهي تتضح من الواقعية الاشتراكية، وتنتظر الفجر الفلسطيني القادم، وهذا ما يجده القارئ في القصة السادسة ((الأعياد الحزينة)) والقصة السابعة ((اللعبة الخطرة)) التي تحكي حكاية أطفال فلسطين رجال المستقبل، فقد كان على أبي همام أن يسرع إلى سليم لتوزيع الأسلحة التي خبّئوها في القبو قبل أن يصل الجنود الإسرائيليون،

فما كان من أطفال القرية إلا أن تسرّبوا إلى مخبأ تحت الأرض بقيادة همّام ليزرعوا الألغام في طريق هؤلاء الجنود، وكذا شأن قصة ((البركان)) أو الرجل البركان التاجر المقدسي الذي يسوق شاحنة مليئة بالخضار والفواكه والمتفجرات، لينسف سوقاً، وجنود الصهاينة يتطايرون أو يهربون، وهو يتمنى الخروج من السجن ليفعل ما فعله.

وتحدّثنا قمر في القصة التاسعة ((المرأة)) عن أولئك الذين سيكتبون ملاحم النضال والبطولات، في حين ترشّ الطائرات الصهيونية اليوم فوقهم الموت والنار والعذاب، وكذا شأن القصتين العاشرة ((أريد أن أنسى)) والحادية عشرة ((نهاية العالم وطوق الياسمين)).

أمّا القصة الأخيرة ((الخطيئة)) فهي كالقصة الأولى في علاماتها الفارقة، قصة بهية التي فقدت زوجها منذ عشرين عاماً، وقد رفض الانصياع للأوامر العسكرية بالانسحاب، ثم أنقذ رفيقه من أحد سجون الأعداء، ليُصاب ويُستشهد، في حين عاد رفيقه إلى أطفاله السبعة وزوجته وأمه، ولذلك اتّهم أهل القرية بهيئة بأنها المخطئة لأنّها دفعت زوجها إلى الموت، ولكنها ظلت صابرة، وهي تخرج في الليل إلى الجبل لتطبخ لأكثر من عشرين شخصاً، ثمّ سحبت

ابنها من المدرسة لتعلّمه الرمي، وجعلت بيتها مركزاً لاجتماع الثوار وانطلاقهم نحو أهدافهم، ولكنّ خطيئتها حين كان الطرق القويّ على بابها، فظنّت أنّهم جنود الأعداء، مما دفعها إلى أن تطلق الرصاص على نفسها، ولكنّهم كانوا ثواراً آخرين يلتحقون بهذا المنزل.. بهية مثال المرأة المناضلة التي تتوجّج بها قمر كيلاني مجموعتها القصصية ((عالم بلا حدود)).

وفي المجموعة الأخيرة ((المحطة)) تسع قصص قصيرة مكتوبة في الثمانينيات من القرن الماضي، وقد أهدتها لأختها الراحلة الزهراء، وهي لا تختلف عن مجموعتها الأولى إلا في توسيع دائرة الموضوعات التي اقتضتها الأحداث الجديدة، خاصة ما جرى في لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٨٢م، كذلك كان لدمشق وبطولات الثوار السوريين في أثناء الاستعمار الفرنسي نصيب منها، ففي القصة الأولى ((السرّاب)) تشرب الراوية- وهي قاصّة- كأس ماء، فتشعر بأنّها تموت، فتحدّث القارئ عن موتها على طريقة السياب في قصيدته القناع ((المسيح بعد الصلب))، لتذكر لنا الثائر مسعود الذي استشهد برصاص الفرنسيين في الغوطة، ولذلك تُصبح دمشق مركزاً للعالم ببطولات أبنائها الأسطورية: ((روحي تطير في جهات

دمشق الأربع. أراها مدينةً بحجم راحة الكفّ. تكبر.. حتى تُصبح هي العالم^(٧)، وتعود في قصّتها الثانية ((وقت لفقدان الذاكرة)) إلى المرأة العربية المناضلة وصورة الرجل العربي الحقيقي الذي يُضحّي بكل شيء في سبيل قضايا أمته المصيرية، فالزهرة أدبية مثقفة ومعلّمة، وهي تخاطب الطبيب ملهم ابن القرية النقي الذي يقوم بواجبه الوطني في علاج الجرحى من المناضلين، وكذلك كان للمرأة دور وللرجل آخر، فصورة البطل في قصصها إيجابية دائماً (صورة البطل الإيجابي)، وهي تنتقي أبطال قصصها من الفدائيين أو ممّن يقدمون خدماتهم المجانية لهؤلاء، كما هي الحال في هذه القصة.

ولذلك كان الوطن في الدهاليز تحت الأرض وليس فوقها، فهناك يكون المناضلون والجرحى الذين يقوم ملهم بمدّواتهم، وهناك بالمقابل من يقوم بالمؤامرات على هذا الوطن، كما تقول الراوية في خطابها للملهم: ((وأنتظر.. والوطن أمامي يمتدّ تحت الأرض.. في السرايب حيث المرضى والجرحى.. في خنادق المقاتلين.. في دهاليز المؤامرات والخيانات.. في كهوف الدعارة والرقص والجنس.. في بحيرات النفط التي تغلي بجشع من يعرفون طريقها. وأنت..

كيسوع.. توزّع زيت الشفاء.. وخمر الدواء. وأنا مثل نجمة تهوي باردة منطفئة^(٨))). في القصة الثالثة ((الوجه الآخر)) الراوية، وهي تتاجي مصعباً، تهاجمها أسماء مرعبة وحشية (شارون- بيغن- شامير..)، وهو الذي شهد مذابح صبرا وشاتيلا، فهل يستطيع أن يكون بديلاً عن أخيه قاسم الذي يشبهه تماماً ٩١..، ثم إنَّ الراوية تحكي في القصة الرابعة ((سيّدة الحزن والصمت)) حكاية صديقة الطفولة وفاء التي أحبّت فلسطين من أجل ذلك الشاب الذي تزوّجته، وهي تزورها بعد دهر من الزمان وبعد أن مات حفيدها لتظلّ صامته، في حين أنّ البغاء تردّد عبارة ((لكن الحقيقة لا تموت^(٩)))، وهي تموت، ثمّ جاء دور الشهيذة البطلة سناء (محيدي) في القصة الخامسة ((حكاية بلا بداية أو نهاية))، وقد ذهبت في طريق الفداء، وكأنّها تذهب إلى عرسها، فيتغيّر حساب الأمور العظيمة، فإذا تاريخ الاستشهاد تاريخ الميلاد الحقيقي: ((التاريخ.. تاريخ ميلاد النجمة ١٩٨٥/٤/٩ م. والخميس يوم فرحك.. يوم الفداء يوم زفافك في بيت أبيك. العروس هي سناء.. والعريس هو الجنوب))^(١٠). وثمة لياً في القصة السادسة ((احتراقاً حتى الموت))، وهي في قرية من قرى فلسطين

العربية تتغيّر شيئاً فشيئاً، وهذا ما عرضه في هذه الأوراق.

ففي الورقة الأولى يرفض هذا المواطن أن يُباع ويُشترى في وطنه، ويصف في ورقة أخرى مهزلة أن يكون طالباً جامعياً، ولكنه يدرس في جامعات الأعداء، ويعيش الفلسطيني في الورقة الخامسة غريباً، وهو في منفى المنفى في القدس، ويخاطب في الأوراق الأخرى حبيبته زهرة والأرض، وهو يسمع في القدس لغة غريبة تأكل لغته.

وفي القصة الأخيرة ((المحطة)) تطالعنا الراوية المسافرة إلى قرية العبادية، فإذا المحطة في حالة عجائبية، وتواجهها هناك طفلة تأخذ خاتمتها ورجل عجوز دعاها إلى سيّارته القديمة في رحلته الأخيرة، فإذا الطفلة ابنته، ويسوق العجوز سيّارته بسرعة جنونية، ليصطدم بمقبرة السيارات القديمة، فتستجمع قواها لتخرج من السيارة التي تحطمت، لتري المحطة التي تبعد والحارس والرجل العجوز الذي يشبه أباهما، ويُلاحظ أخيراً على موضوعات المجموعة الأخيرة ((المحطة)) أنّها اتّسعت وتوّعت، ولم تقتصر على الهمّ الفلسطيني، وإنما شملت المقاومة في سورية ولبنان ومصر، فضلاً عن فلسطين، وهذا ما فرضته حقيقة التغيّرات التي طرأت على المنطقة في الثمانينيات في القرن الماضي.

تنتظر إبراهيم الذي اعتقله جنود الاحتلال، وهو ممّن تعرّضوا للتعذيب والقتل، وتعرض قمر بأسلوب شاعري عذب ومؤثر في القصة السابعة ((إنّه من سليمان)) لحادثة واقعية جرت في سيناء بعد معاهدة كامب-ديفيد، وهي حادثة لجندي يُدعى سليمان من قرية مصرية ((أكباد)) اتّهم بقتل سبعة صهاينة رفضوا أن ينصاعوا لأوامره، وهو يحرس نقطة ممنوعة، ويُشاع في قريته أنّ المحكمة برّأته، وسيخرج من سجنه يوم الاثنين، ويفرح الشعب المصري لذلك، ويتهياً لاستقبال هذا البطل، وخاصة أمّه وأختيه وداليا عروسه، والمهزلة الكبرى أنّ المحكمة المصرية اتهمته بالجنون، فها ((ليت كلّ أمّ مصرية إذن تلد مجنوناً مثل سليمان يدافع عن عزّة مصر.. وكرامة مصر))^(١)، ولكنّ المهزلة لم تنتهِ هنا، وكما تكون هذه المهزلة مقبولة لدى العدو المتحكّم في نتائج الأمور أعلن النبا عند الفجر وقبل خروجه من سجنه أنّ سليمان انتحر، فما كان من أكباد وأمّ سليمان ومصر إلا أن يودّعوا هذا البطل المصري الهمام بما يليق أن يودّع به، وفي القصة الثامنة «من أوراق المواطن (م)» عدد من الأوراق التي خلفها المواطن الفلسطيني (م) الذي خرج من أحد المخيمات في الأرض المحتلة، ووصل إلى القدس، فإذا ملامحها

-٢-

في متاهة أين منها الصحراء؟ وهي تبحث عن حازم من دون جدوى بين هذا الازدحام وهؤلاء القوم الأغراب، ولذلك كان التمهيد للمكان من جهة، وللنفس المثقلة والعذاب من جهة ثانية: ((في هذه اللحظة.. وفي هذا المكان الصلب الواسع من العالم أحاول أن أذيب المي. أحس ثقل الأشياء. كأنما الجسور تضغط فوق رأسي. قلبي يجهد في كأس من العذاب. تبدو لي الدنيا لحظة بلا لون كالقرمز في قاع البحار كل شيء لا فائدة فيه: أن تمتلئ عينا بدهوة الجديد أو أن تطير ضلوعي عندما ينبثق الواقع المجهول))^(١٢).

وربما كان هذا التمهيد الشعري القصير الشفاف لتوضيح طبيعة الشخصية القصصية، فصديق الراوية يدعوها إلى أن يعيش الحياة اللاهية العابثة كما يعيش معظم الناس من حولهم، ولكن ما يعانيه أبناء شعبها في المخيمات خاصة الفتاة الفلسطينية رجوع في قصة ((رجوع وجسر دامية)) يدعوها إلى أن تشارك هؤلاء في الأهم اليومية، ولذلك تقع الشخصية بين قطبي صراع الواجب القومي واللامبالاة بشؤون الآخرين.

وهذا ما يوضحه هذا التمهيد الافتتاحي للقصة: ((تسمع الصمت القاسي من حولها

استخدمت قمر كيلاني في مجموعاتها القصصية، خاصة في المجموعتين المذكورتين، تقنيات وأساليب معاصرة، صحيح أن معظم قصصها تضع الفكرة في رأس اهتمامها، وتقدمها على أي لعبة فنية أو فنتازيا جمالية، ولا سيما الفكرة القومية منها، ولكن الصحيح أيضاً أن هذه المبدعة قدمت أفكارها ضمن تقنيات مختلفة، ولذلك فإننا نجد في مجموعاتها القصة الرسالة، والقصة المونولوج، والقصة الشعرية، والقصة الرمز.. إلخ.

- أولاً: القصة الشعرية: كانت الشعرية في مجموعة قمر الأولى ((عالم بلا حدود)) خجولة، وهي بسيطة شفافة لا تثقل على السرد ولا تزاخمه على المكان، وإنما تكون في الافتتاحية قصيرة وموظفة، ووظيفتها سردية خالصة، وهي وسيلة لا غاية، فقمر لا تهجم على موضوع القصة مباشرة، وإنما تمهد له تمهيداً قصيراً للدخول في مناخ السرد الذي يأتي حينذاك مرتاحاً، ولا يحتاج إلى تعريف أو تقديم أو مسوغات، وقد يكون هذا التمهيد الشعري للمكان، كما هي الحال في قصة ((قبلة.. على أرض غريبة))، فالراوية البطلة في لندن، وكأنها

يتحطم.. ملايين القطع الزجاجية الحادة تمزق قلبها.. ليكون، لعل هذا يخلصها من الضغط الرهيب الذي يثقل صدرها ويخفف من حدة الأفكار الشرسة المهاجمة باستمرار.

شيء ما في أعماق عقلها يصرخ وعملية إصغائها أضحت جزءاً من محنة حياتها اليومية، لم تعد تستطيع أن تفلت من هذا الإسار وهي دائماً في عذاب لا ينقص^(١٣). لكن مستوى الشاعرية ودرجاتها يرتفع في مجموعتها الأخيرة ((المحطة))، وانتقلت من التمهيد إلى أماكن أخرى في بنية القصة، لتجدها في التمهيد والعرض والخاتمة ضمن انسيابية شفافة، وشاعرية وهاجة، وديباجة مشرقة، وكأنك إزاء قصائد من شعر البحري الذي قيل فيه ((أراد أن يشعر فغنى)).

ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر قصة ((وقت لفقدان الذاكرة))، ففيها تمهيد شاعري طويل للتعارف بين الراوية والطبيب ملهم، ومنه هذا المقطع: ((اللحظات الأولى للقاء كانت فريدة بين شخصين يتعارفان وهما متعارفان.. أمامنا انبثقت من ثمار وأنهار. كان هو فيها مثل طفل يلهو.. وكنت أنا أحاول أن أقطف النضارة من كلمات يابسة. وبيننا كانت الصبغة الجميلة التي

أسمها (الزهرة). وجوده إلى جانبي بدا مفعماً بعطر سماوي. انتشينا بكلام كثير.. وامتدت أمامنا سهول معشبة كان فيها يركض مثل جواد أصيل بينما (الزهرة) تضحك حتى تدفع عيناها الماسيتان^(١٤).

وغير بعيد عن هذا التمهيد تعود الشاعرية مرة أخرى، ولكنها أكثر وهجاً وتدفعاً وإيقاعاً في مناجاة الراوية للطبيب الإنساني الوطني المناضل ملهم، فتقول: ((لكنني ظلت حزينة.

وأحزان نفسي تساقطت ونحن معاً يا ملهم نخترق الغابة الجليية. أنا شجرة منخورة بالحب وثمارها تخطفها الريح.. لكنه لا يزال في غصن طيري أخضر. اجعني من جديد أرتجف لعذوبة الماء.. للهواء الصافي حتى الدمع.. للشمس المختبئة بين الأغصان فأنا لا أريد أن أترك كتاب الحب المقروء في صدر الطبيعة.

أنت بحر زاخري ملهم..

وأنا نبعة مجهولة في قلب غابة.

أنت موج وضوء وامتداد للأنهاية.

وأنا بين أجضان دمة تآبي السقوط.

أمّا (الزهرة) فهي بيننا وكأنها مقطوفة من حلم.. تراك وتراني كما تحب.. وتلمس أوتار الطبيعة كما تحب^(١٥).

وليست هذه القصة وحيدة في هذا

داخلها. لا تستطيع أن تنظر إلى الوجوه التي تتضح بالعرق والعذاب والخيبة والمرارة. تتمنى لحظة لو تنقذ من النافذة. كل ما حولها يتحرك بشكل غامض: العيون تنغرز بوقاحة أو تميل عنها بتراخ كسول. عالمان متناقضان: بعضهم يندمج بغيره بصورة لا تصدق والآخر يكاد لا يشعر بوجود الآخرين^(١٧).

يتعمق المونولوج الداخلي ويمتد في المجموعة الأخيرة ((المحطة)) ليصبح وسيلة للرؤيا والتذكر، كما هي الحال في قصة ((السراب)) التي تهل من قصيدة المونولوج القناع ((المسيح بعد الصلب)) للسياح، فالراويّة تشرب كأس ماء لمتوت به أو تشعر بذلك، فتتذكر المناضل مسعوداً الذي استشهد برصاص الفرنسيين في الغوطة، وتصبح حينذاك دمشق مركزاً للعالم، وكما هي الحال في قصة ((المحطة))، حين تجنح الراوية المسافرة للحديث إلى نفسها عن الفتاة التي اختفت فجأة: ((إحساس حادّ يجرح قلبي.. لا.. لا يمكن أن أتركها للمجهول سأبحث عنها. أركض في كل اتجاه. أصرخ بملء حلقي. هيه.. أنت.. يا بنت.. يا من أخذت الخاتم. أين أنت؟ وصوتي يرتد إلى مبعثراً على أجنحة الهواء. ليخف الخاتم.. ولتضع الأوراق.. لكنّه يجب أن أعثر على الطفلة))^(١٨).

المجال، فالشاعرية تلف قصص المجموعة كاملة، والشاهد الأخير في هذا المجال من قصة ((إنّه من سليمان))، وهذا المقطع الدال:

((وانت يا داليا.. يا عروس البطل وابنة العم.. لا تطبقي الجفن على الجفن.. ولا تنامي على الحلم الكاذب بأنّه سيخرج من السجن بعد عدة سنوات، يأتيك غداً.. بالطلعة المصرية.. بالقامة غير المحنية.. بالوجه الطفولي العنيد.. بقلب البطل الصنديد.. يا رجال.. يا نسوان.. يا صغار ويا كبار انصبوا الزينات.. أشعلوا الأفراح. يا طبّالين.. يا زمارين.. يا منشدين.. يا قوالين. دقوا. وغنوا. قولوا مع من قال:

يا شرقية قولي الحق

ابنك بطل واللا لأ

زغردوا.. لماذا لا تزغردون))^(١٩).

- ثانياً: القصة المونولوج: تتخذ بعض قصص قمر شكل المونولوج الداخلي، وهي تقنية في مخاطبة الذات فيما تراه، وكأنّها تؤكد للقارئ صدق هذه الرؤيا وواقعيتها، خاصة أن قصص كيلاني ذات نزعة واقعية يفرضها الاتجاه القومي والأحداث التي تمرّ بها البلاد، ويتجلّى هذا المونولوج في المجموعة الأولى في قصة ((صغير.. كبير آخر))، ومنه ((تشعر أن قبيلة ما تدوي في

- ثالثاً: **القصة الرسالة**: هي القصة التي تتخذ في طابعها شكل الرسالة، أو هي خطاب تقوم من مرسل إلى مرسل إليه، كما هي الحال في قصة ((قبلة.. على أرض غريبة))، فهي رسالة موجهة من ثريا إلى حازم، وهي تشرح له فيها المتاهة التي تعيشها في مدينة الرذاذ لندن، تبحث عنه، ولكن من دون جدوى، تصرخ، ولا من مستمع: ((في الشارع وحيدة. حازم.. أين أهرب منك يا حازم؟ هل يلحق الحجر الأصم من بين أهدابي بريق الحنين إليك؟ أشتاقك يا حازم وأكره هزيمتي. لا شيء يحزّرني منهما: شوقي وهزيمتي))^(١٩)، ويستمر شكل الرسالة ضمن الخطاب، وتبوح له في الرسالة ما لم تكن تستطيع أن تبوح به في حضرته، لتقول له: ((في صدري طائران حزينان.. ليس لي طفل يشتهي ثديي الأبيض. أزحف.. من أجل قبلة منحتها لبرتقالة غريبة في ليلة غريبة.. فوق أرض غريبة))^(٢٠).

- رابعاً: **القصة الحوارية**: هي القصة التي تتكئ على الحوار بين شخصياتها، ويكون فيها للحوار نصيب يتساوى والسرد، ينقص قليلاً أو يزيد، وشاهدنا على ذلك قصة ((اللعبة الخطرة))، فقد كان الحوار أولاً بين الزوجين أبي همام وأم همام حول موّال شعبي:

- هذه أغنية أبي يا (أم همام). سمعتها منه قبل أن يتركنا.
فأجابت:
- وما رجع..
أضاف:
- وما رجع.. ولكنه قام بواجبه.^(٢١)
واستمرت هذه القصة موزعة بين بنيتي السرد والحوار، حتى إنَّ القارئ يلمح مقاطع تتفرّد بالحوار لولا أسلوب السرد الحواري ((قال- أجاب- أردف.. إلخ))، وهذا ما يتجلّى في هذا الشاهد الطويل، حتى إنَّ لغة الحوار تقترب من الحديث العادي كما هي الحال في المسرحيات:
قال همام: - أنتم تتوهّمون.. أبونا لا يبيكي.
وقالت نداء: - إنّه يصلح البندقية.. أنا رأيته.
ثمّ همد الثلاثة جميعاً. لم يفهموا شيئاً ولكنّ الألم عصرهم بشكل مجهول.
قالت الأم بصوت مخنوق بالألم: - إذن، السفر غداً.
وأجاب الأب: - مع الصبح بإذن الله.
أردفت: - هل ستذهب وحدك؟
قال: - لا... سيكون معي (أبو قاسم) و (سليم).
الم أقل لك؟

- نعم ولكنّ عقلي ليس معي.

- والفلوس؟ هل يكفيك ما أعطيتك؟

بيعي أي شيء من البيت.

وتتهدّت المرأة.. ونظرت في زوايا البيت الصغير. هناك أشياء كثيرة باعوها. لم يبق إلا ما ليس له قيمة تُذكر.

أجابت: -المهم أن تعود بالسلامة. متى ستعود؟^(٢٢)

- خامساً: القصة الرمزية: القصة القصيرة في أدب قمر كيلاني واقعية بامتياز، ولذلك ذهبت إلى الواقع وأحداثه، لا لتسجيل البطولات القومية كما يفعل المؤرخون، ولكنّ لتخليد هذه البطولات في أذهان الأجيال ضمن مناخ فني جمالي، ولذلك كان عليها أن تلجأ إلى المباشرة والتسمية والتحديد، ومن هنا خلّدت بطولة سناء محيدلي في جنوب لبنان والمجنّد سليمان في مصر، وكانت التسميات للمدن والقرى: القدس- دمشق- بيروت.. إلخ، ولكنّها حاولت أيضاً أن تشتغل على الرمز الشفاف الذي يُخرج قصتها من دائرة الواقعية، وهذا ما فعلته في قصتها «من أوراق المواطن (م)»، فابتعدت عن التحديدات في التسمية، لتُضفي على القصة شيئاً من الغموض البسيط الذي لا يحتاج إلى جهد كبير من القارئ للوصول إلى مبتغاه، وذلك في موضعين: الأوّل في تسمية

المواطن بالحرف (م)، وهو قابل لمئات الأسماء والصفات التي تبدأ بهذا الحرف، ثمّ إنّ عدم التحديد يجعل هذه الحادثة غير مقيدة بزمان ومكان، وإنّما هي صالحة للماضي والحاضر والمستقبل، ويمكن أن ينسحب هذا الحرف على الحروف الأخرى في اللغة العربية، حتى إنّ المخيم الذي خرج منه هذا المواطن غير محدّد أيضاً.. هكذا بدأت هذه القصة في الافتتاحية وقبل الدخول في أوراق المواطن:

((محمد.. محمود.. منذر.. ميلاد.. كلّها أسماء تبدأ بحرف (م). وكلمات أخرى أيضاً وصفات: مقاتل.. مناضل.. مقاوم.. مجاهد.. وفي القائمة السوداء لديهم (مخرب). لم يعرف اسمه أحد. لكنّه يظلّ في ضمير التاريخ الفلسطيني المواطن (م) من أحد المخيمات في الأرض المحتلة خرج في ليل قاتم خرج.. بينما القدر.. قدره يخبئ له قصة مثيرة إلى درجة البكاء))^(٢٣).

أمّا الموضع الثاني في هذه القصة فهو في اسم الحبيبة (زهرة) الذي بدأ يظهر بدءاً من الورقة الرابعة، وهو يروي لها معاناة الإنسان الفلسطيني، فإذا هي ما كان يحلم به، وهي ليست أنثى وحسب، وإنّما هي كما يقول في الورقة السابعة: ((أنت كنت المدينة يا زهرة... والمدينة كانت أنت))^(٢٤)، ثمّ يقول

لها في الورقة الثامنة: ((يا سيدتي المرأة..
يا سيدتي الأرض))^(٢٥)، ويقول لها في نهاية
الورقة التاسعة: ((يا امرأة هي الوطن))^(٢٦)،
ثم هو يوصيها بعد استشهادها بهذه العبارات
في نهاية الورقة العاشرة: ((ولا بأس أن
تتزوجي غيري.. فأنا أريد أطفالاً آخرين
للوطن ولو أنهم ليسوا أطفالاً)).
ولا بأس أن يُقام في حيكم فرحنا
الشعبي... روجي سوف تسعد لو خلدوني
بمؤال.. أو أهزوجة نصر.
أموت.. وتظلي أنت المرأة الوطن.. حرة
كالهواء.. شامخة كالسماء))^(٢٧).

ويكتمل هذا الرمز (زهرة) في الحاشية،
ليظل عدم التحديد صفة ملازمة له، وإن
تحدّد بالوطن والحببية:

حاشية: ((عثر أحد المقاومين الذين
نجّوا على أوراق في كيس المواطن (م) ولما

أراد أن يسلمها إلى زهرة وجد أن الأمر
مستحيل. فمن هي زهرة؟ أين تُقيم؟ في
أي قرية أو بلدة؟ قرأ الأوراق.. أحرقها..
وأطعم رمادها للريح))^(٢٨).

هذا غيض من فيض في القصة القصيرة
عند قمر كيلاني موضوعات وتقنيات
وأساليب، ولا شك في أننا لم نتوقف في هذه
الورقة عند قصة الفلاش باك والقصة
السيرية وسواهما لضيق المجال، وبالجمل
فإن قمر كيلاني أديبة كبيرة من بلدي
أسهمت بدور فعال في الحركة الأدبية في
سورية رواية وقصة ودراسة وكتابة مقالات،
فضلاً عن دورها في التعليم والمجالات
الأخرى، وهي تستحق فعلاً أن تُقام على
أعمالها الأدبية دراسات أكاديمية جادة
لوضعها في مكانها المناسب من جهة، وإحياء
لجهودها وذكرها من جهة أخرى.

الهوامش

١- انظر: الموسى، د. خليل: المقالة في سورية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠١م، ص ٨٧.

٢- كيلاني، قمر: عالم بلا حدود، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢م، ص ٣.

٣- المصدر نفسه، ص ٣.

٤- المصدر نفسه، ص ٣١.

٥- المصدر نفسه، ص ٣٢.

٦- المصدر نفسه، ص ٥٦.

٧- كيلاني، قمر: المحطة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٧م، ص ١٩.

- ٨- المصدر نفسه، ص ٣٣.
- ٩- المصدر نفسه، ص ٦٨.
- ١٠- المصدر نفسه، ص ٧٢.
- ١١- المصدر نفسه، ص ١٠٤.
- ١٢- عالم بلا حدود، ص ٣٠.
- ١٣- المصدر نفسه، ص ٣٧.
- ١٤- المحطة، ص ٢٥ - ٢٦.
- ١٥- المصدر نفسه، ص ٢٧ - ٢٨.
- ١٦- المصدر نفسه، ص ٩٣ - ٩٤.
- ١٧- عالم بلا حدود، ص ٤٨.
- ١٨- المحطة، ص ١٣٨.
- ١٩- عالم بلا حدود، ص ٣٠.
- ٢٠- المصدر نفسه، ص ٣٦.
- ٢١- المصدر نفسه، ص ٦٥.
- ٢٢- المصدر نفسه، ص ٦٧ - ٦٨.
- ٢٣- المحطة، ص ١١٥.
- ٢٤- المصدر نفسه، ص ١٢٣.
- ٢٥- المصدر نفسه، ص ١٢٤.
- ٢٦- المصدر نفسه، ص ١٢٧.
- ٢٧- المصدر نفسه، ص ١٢٩.
- ٢٨- المصدر نفسه، ص ١٣١.



الكتابة عن الذات سردياً



د. عادل الفريجات

الذات. وعليه، فهذا اللون السردى ضارب الجذور في أعماق الزمن.

ولا شك في أن الذاكرة في هذا النسق الكتابي تبدو في أقوى تجلياتها، فالكتابة عن الذات هي فن التذكر الأول، وهي الفن الذي يتم به ترويض الزمن، كما يقول الفيلسوف الفرنسي (بول ريكور). ويقع فيه أيضاً تنظيم الوقائع والأحداث في خيط تتابعي ينظمه، أو غير تتابعي، ولكنه ينتهي إلى عمل يلبي هاجساً من النفس الإنسانية. وربما كان التحرر أهم هاجس يلبيه هو (التذكر)، فنحن حين نكتب ما نتذكر، نتحرر من ضغطه وتنغيصه.

بيد أن التحرر وحده ليس هو السبب الوحيد للكتابة عن الذات، بل قد يكون هناك أسباب أخرى، مثل التعبير عن أزمة

تعددت أشكال الإبداع السردى، من حيث المسعى الذي يروم الكاتب أن ينشئ إنتاجه من خلاله، ومن حيث السمات المهيمنة على السرد، فصار في تاريخ السرد روايات تاريخية، وأخرى اجتماعية، وثالثة نفسية، ورابعة بوليسية، وخامسة تجمع بين هذه وتلك.. إلخ. وأخيراً كان هناك روايات تتحدث عن الذات. وهذه الأخيرة ربما كانت هي الأقدم بين أشكال الرواية المختلفة. وهي تنتزل منازل، وتتلون ألواناً، وتتوزع أشكالاً، منها ما هو اعترافات، وما هو مذكرات، وما هو يوميات، وما هو رحلات، وما هو رسائل، وما هو مقابلات، وما هو سيرة ذاتية غير فنية، وما هو سيرة ذاتية فنية. وثمة من يرى أن اعترافات القديس أوغسطين (القرن الرابع الميلادي) من أوائل أشكال الكتابة عن

✻ ناقد وأستاذ جامعي.

وبالمقابل قد تكون السيرة الذاتية تعبيراً عن ذات متشظية وفاقدة لليقين كما في «أوراق شخصية»، للطيفة الزيات، و«أيام الإنسان السبعة» لعبد الحكيم قاسم. (انظر مجلة ألف، القاهرة ٢٢/٢٦).

وقد يكون تحدي الموت واحداً من أسباب كتابة السيرة الذاتية، كما هي الحال مع إدوار سعيد في كتابه «خارج المكان» إذ حاول (سعيد) ها هنا، وهو المريض بسرطان الدم، أن يقاوم الفناء ويتحدى الموت. وأن يثبت فلسطينيته وعروبته. وقد هوجم (سعيد) من محام يهودي اتهمه بأنه لم يقل الحق، فهو ليس من القدس ولم يولد فيها. وقول المحامي اليهودي هراء في هراء. والحقيقة أن الموت والحب -كما يقول نجيب محفوظ- جوهران موكلان بالباب الذهبي يقولان للطارق: تقدم فلا مفر.

وربما كانت السيرة الذاتية تعبيراً عن آثار المنفى لدى كاتبها وعن الحنين إلى الوطن، كما هي الحال عند (حليم بركات) الذي كتب يقول يوماً: «في روايتي طائر الحوم، وهي رواية سيرة ذاتية، حاولت أن أعبر عن تجربتي في المنفى في مختلف أبعادها، في المنفى أجد شجرة الوطن تغرق جذورها عميقاً في داخلي، فأنقل ذهاباً وإياباً، ومن خلال التداعي النفسي وعلى أجنحة المخيلة بين الكهولة والطفولة بين مدينة أمريكية هي واشنطن، وقرية سورية

نفسية. وهذا نلقاه كثيراً عند بعض من تعرض للتككيل والتعذيب وللقهر الاجتماعي، كما في العديد من الروايات التي تتحدث عن السجن أو البؤس الاجتماعي أو حوادث الطلاق التعسفي، أو غير ذلك. ومن الأمثلة عليه رواية «تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم، و«الخبز الحافي» لمحمد شكري، و«يوميات مطلقة» لهيفاء بيطار، و«حياتي صرختي» للمغربية رشيدة يعقوبي.

وقد يكون سبب الكتابة إثبات الذات إزاء العواصف التي تلم، أو ألمت بها، كما هي الحال مع طه حسين في «الأيام» التي نشرها إثر العاصفة التي هبت عليه بعد نشره كتابه «في الشعر الجاهلي» في العام ١٩٢٦م.

ونرجسية طه حسين تتضح في «الأيام» حين يقول لابنته في الفصل الأخير: ألتست ترين أن أباك خير الرجال، وأكرمهم (انظر دراسة أكرم السيسي: السيرة الذاتية لطله حسين وجان جاك روسو، مجلة ضاد، القاهرة، عدد ١٠، ص ٥٤).

والاحتفاء بالعصامية كثير الظهور في روايات السيرة الذاتية كما يذكر (صبري حافظ) فهو موجود عند (سيد قطب) في «طفل من القرية» و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«سبعون» لنعيمة، و«في الطفولة» لابن جلون، و«حصاد العمر» لتوفيق يوسف عواد، و«حياتي» لأحمد أمين، و«أنا» للعقاد.

هي الكفرون. كل ذلك في مناخ نفسي تأملي متوتر معاً. وفي زمن محدود هو بضعة أيام. أنتقل بين المهجر والوطن كما تنقل السندباد من جزيرة إلى جزيرة، وأبحث عن جذوري ضائعاً كيوليسيس مستنطقاً التاريخ السحيق» (فصول، القاهرة مج ١٧/١، ص ٤٤).

وتبدو الذات في أنساق الكتابة عنها على ثلاث حالات: ذات فاعلة، وهي التي قامت بالأفعال قبل السرد، وذات منفعة، وهي التي تقوم بفعل السرد وإنشاء المتن، وذات موضوع للانفعال، وهي التي تدور حولها المتن السردية، وفق ما تقدمه عملية التذكر.

ولا مرأى في أن التجربة الذاتية التي يعاد إنتاجها يداخلها كثير من النسيان والقطع والاختيار والبناء والتشكيل، على نحو يتيح للتخييل أن يفعل فعله، ويحول العمل إلى بنية فنية، وليس إلى تقرير طبي عن جثة هامة.

وقد رأى (أندريه موروا) أن كاتب السيرة يعاني أكثر مما يعاني كاتب الرواية. وبسبب اشتباك السيرة الذاتية، بالرواية السيرة الذاتية، وبالعنصر الذاتي في الرواية، التبتت الحدود فيما بينها. وقد عبر عن مفهوم اللبس هذا الناقد (صبري حافظ) بأنه نوع من التصحيف الذي يخل بالمطابقة ما بين الوقائع التي حدثت للذات، والوقائع التي تحكيها الذات.

يقول (حافظ): «ولكن عملية الحكى ذاتها، وخاصة إذا ما كان حكيماً استعدياً، لا تسجيلاً سردياً لما تراه العين، هي في حقيقتها عملية تخيلية بالدرجة الأولى تتحول فيها الأشياء بمجرد اختزالها في الذاكرة، ثم تتحول مرة ثانية عند استجلابها من مخزون الذاكرة، وتجسيدها في سرد متعين على الصفحة، بما تتطوي عليه عملية الكتابة ذاتها من تصحيف» (انظر: رقص الذات لا كتابتها، مجلة ألف، مج ٢٢ ص ٨). وقد حصر الباحث (حسام عقل) ميدان النشاط التخيلي في نص السيرة الذاتية في ثلاثة مسائل هي:

- ١- طرائق رسم الشخص.
 - ٢- تشكيل الأبنية الزمنية.
 - ٣- معالجة الوقائع (نقلاً عن دراسة ممدوح فراج النابي في مجلة الرواية، القاهرة، ع ٧، ص ٣٤٨).
- ورغم الالتباسات في فهم هذا اللون السردى، فإن النظرية النقدية المعاصرة حاولت تحديده وحصره، فكتب الناقد الفرنسي (فيليب لوجون) معرفاً السيرة الذاتية: «هي حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وتاريخ شخصيته بصفة خاصة. ويشترط فيه أن يصرح مباشرة أو غير مباشرة بأن ما يكتبه هو سيرة ذاتية» (انظر: السيرة الذاتية-

وهذا أيضاً أمر آخر يعدل شروط كتابة السيرة الذاتية، حسب (لوجون) فليست المسألة كلها نثراً. أمّا إدوار خراط، فيكتب سيرة ذاتية مغايرة لما قننه (لوجون) أيضاً، من حيث إصراره على الكتابة عبر النوعية، وبحثه عن شكل يعبر عن تصفية عالم متشظ.

وينتهي (الحلاق) دراسته بالقول: إنَّ العلاقة بين الفردي والجماعي عند درويش لا يشبه ما هو عليه في الثقافة الأوروبية، وما كتبه الخراط في السيرة فيه رفض لكل جنس أدبي يقنن. (انظر دراسة الحلاق: السيرة الذاتية وتعدد الأصوات، مجلة فصول، القاهرة مج ١٧/ ١ صص ٨٠٧١). ويبدو أن شأن الإبداع هو التجاوز دوماً. وقواعد كتابة جنس أدبي لا توضع إلا لتخرق.

وفي دراسة حول كتابة الأنا وكتابة التاريخ في الرواية الفرنسية تستعرض الدكتور (سلمى مبارك) نماذج من إبداعات سيرية تزعزع الإطار الذي وضعته النظرية الأدبية لكتابات الذات. ومنها مثلاً ما كتبه (رولان بارت) بعنوان: «رولان بارت بقلم رولان بارت» وفيه دحض لفكرة الحقيقة السائدة في كتابات السيرة الذاتية، واستخدام الصورة الفوتوغرافية لمصاحبة نص السيرة، وذوبان ضمير الأنا الداعم الأساسي للسيرة الذاتية وسط ضمائر عدة

الميثاق والتاريخ الأدبي، ص ٣٢٩). ويضيف فيليب لوجون: «السيرة الذاتية تتطلب عقد قراءة صريح يعلن فيه المؤلف أنه سيروي قصة حياته الخاصة. وهي تستدعي اتباع خط زمني يصعد من الولادة إلى لحظة الكتابة المقرفة».

ولا بد من التطابق في السيرة ما بين المؤلف والراوي والبطل. ولكن هذا التعريف لم يكن جامعاً مانعاً، ولم يستوف ميزات السير الذاتية كلها. ومن أشكال التمرد على حصره في أدبنا العربي عملان وقف عندهما الناقد (بطرس حلاق) هما «ذاكرة للنسيان» لمحمود درويش (بيروت عام ١٩٨٧م) و«حريق الأخيلة» لإدوار خراط (الإسكندرية عام ١٩٩٤م) وكانت وقفة الناقد عند ذينك الأثرين لقيمتيهما النموذجية، فمعناهما منوط بالزمن والموت.

وبما أن السرد حارس للزمن ومعاند للموت، فالسيرة هنا تفعل الفعل ذاته. في عمل محمود درويش تعدد للأصوات، وفيه ما يناقض ميثاق السيرة الذاتية لفيليب لوجون، وما يعدل مقاربتنا لجنس السيرة الذاتية، فالفرد عند محمود درويش يتحدث عن مجموع هو الشعب الفلسطيني، لا عن فرد بعينه، وهذا يضعنا في مواجهة مفهوم الفرد/ الجماعة.

وبدلاً من السرد الخالص في هذا العمل نجد خليطاً من الأجناس كالشعر وغيره،

كما فعل بيكيت في سيرته الذاتية. وهناك تناوب ما بين مقاطع متخيلة ووقائع حقيقية عند (جورج بيرك). وهو المصطلح الذي صكه (سيرج دوبرفسكي) عام ١٩٧٧م، فيما صار يعرف بـ «خيال ذاتي» في وصفه لكتابه «الابن» والذي يتحرر فيه من الالتزام بالحقيقة فيتلاعب بالأحداث وبالزمن. (انظر: كتابة الأنا وكتابة التاريخ في الرواية الفرنسية المعاصرة، لسلمى مبارك، مجلة الرواية قضايا وآفاق، ع ٥٥ ص ٢٠٩. ٢١٠).

ووقف عند هذا المصطلح الناقد (محمد الداوي) فرأى العملية الإبداعية المنضوية تحت ما يسمى «التخييل الذاتي» تخلف لدى القارئ انطباعاً مفاده أن الكاتب يكتب محكياً لا صلة له به. ثم يمضي فيفصل في السمات العامة للتخييل الذاتي (انظر: الحقيقة الملتبسة، للداوي، ص ١٥٧. ١٥٨).

تاريخ الكتابة عن الذات:

يبدو للمتتبع لهذا اللون من السرد الذي نناقشه هنا، أن مدونته العالمية والعربية واسعة جداً. وربما كانت الكتابة على القبور عند المصريين، وهي عبارات قصيرة، من براعم كتابة السيرة الذاتية، فهي قد تشير إلى شيء من تاريخ الشخصية ومن صفاتها، وتروم، كغيرها من الكتابات المطولة، محاربة الفناء ومقاومة الزمن.

وهناك من عد كتاب «اعترافات القديس أوغسطين» التي كتبها في شمالي أفريقيا

في القرن الرابع الميلادي من أوائل السير الذاتية، كما ذكرنا. وفيها وصف أيام الطفولة والشباب. وقد تابع (أوغسطين) في الغرب (جان جاك روسو) في «اعترافاته». وكذلك فعل شارل ديكنز في روايته «ديفيد كوبرر فيلد» وغوته في «أحزان فتر» وسومرست موم في «الرق البشري» وهنري مللر في مدار السرطان وجيمس جويس في «صورة الفنان في شبابه» (انظر مجلة الرواية قضايا وآفاق، القاهرة ٢٠١٢، ع ٧، ص ٣٣٢).

وفي محيطنا العربي هناك من يرجع تاريخ الكتابة عن الذات إلى زمن متأخر، فيشير إلى ما كتبه (حنين بن إسحق) عن نفسه في كتابه «طبقات الأطباء»، وكذلك الغزالي، وابن سينا، وابن خلدون، والسيوطي.

ولكن مثل تلك الآثار هي أقرب إلى الترجمة الذاتية منها إلى السيرة الفنية. لذا نرى بعض الباحثين يقفز إلى منتصف القرن التاسع عشر ليسجل أن كتاب «الساق على الساق فيما هو الفاريق» لأحمد فارس الشدياق، هو أول نص في السيرة الذاتية العربية (انظر صبري حافظ، مجلة ألف ع ٢٢٤ / ص ١٨). ويرى الناقد (حافظ) أن هذه السيرة حكمتها ثلاثة خيوط هي:

- ١- خيط النشأة.
- ٢- خيط الرحلة.
- ٣- خيط اللغة.

وهذه الخيوط اشتركت فيها العديد من السيرذاتية العربية.

ولا تصح الاستهانة بالكتابة عن الطفولة في السيرة الذاتية، فهي عمل معقد، ويتطلب قدرات خاصة، يقول (دويت رينولد) في هذا الصدد: «يفترض نوع السيرة الذاتية عن الطفولة حساسية تجاه الشكل، وقدرة على تكييف المادة الخام غير المتوازنة والمشوهة، مع تناسق التعبير الأدبي، من دون إفراط في تشويه الحقيقة، ويشترط إدراكاً للبعد الملحمي والانضباط الصارم للإيقاع يشترط معرفة بالذات». (انظر رينولد في: السيرة الذاتية في الأدب العربي- الفكرة المغلوطة عن الأصول الأوروبية، مجلة الكرمل، ٧٦ع، ص٨٩). ويرادف الكتابة عن الطفولة ما يسمى سرد سنوات التكوين، وقد خصصت مجلة الهلال المصرية باباً شهيراً بعنوان سنوات التكوين حرر فيه العديد من الكتاب والمفكرين والأدباء والفنانين سنوات تكوينهم بأقلامهم. ثم أصدرت تلك المقالات في كتاب مستقل في شهر فبراير من العام ١٩٩٨م (انظر: محمد كامل الخطيب، أعشاب الماضي، دراسة في السيرة الأدبية، دمشق ٢٠١٠م، ص٣١).

ومن الأمثلة على روايات التكوين في الأدب السوري رواية غادة السمان: «الرواية المستحيلة- سيفساء دمشقية» فالعلاقة ما بين الطفلة (زين) بطلة الرواية و(غادة

السمان) تكاد تكون متطابقة فكلتاها نشأت يتيمة الأم وكلتاها مولودة لامرأة قدمت من اللاذقية إلى دمشق، ووالد كل منهما محام وأستاذ جامعي... إلخ. (انظر كتابنا: الخطاب وتقنيات السرد في النص الروائي السوري المعاصر، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٣١).

أمّا الرحلة، فنطالعها أيضاً في سير توفيق الحكيم، والمازني، وأحمد أمين، ونوال السعداوي، ورضوى عاشور، وجبرا إبراهيم جبرا، وفدوى طوقان، وهشام الشرابي، وبديع حقي... إلخ. والرحلة تنقل الذات الساردة من مكان إلى مكان. ولا ريب في أنها تترك آثارها في تفكيره وسلوكه وتوجهاته. ورحلات نعيمة ما بين موسكو وواشنطن مثلاً، تركت بصماتها بقوة في تفكيره وسلوكه. وكذلك كانت رحلة طه حسين إلى فرنسا، ورحلة عبد المجيد بن جلون.

أمّا هاجس اللغة، فلا أراه ضربة لازبة عند كتاب السيرذاتية، فمرامي الكتاب ليست واحدة، ومعاناتهم اللغوية لا تبدو واضحة في سيرهم الذاتية، كما هي عند الشعراء الذين مثل عليهم صبري حافظ في دراسته المذكور ب: نزار قباني والبياتي وصلاح عبد الصبور وأدونيس.

ومن اللافت للانتباه أن الرواية السيرذاتية، وإن كُتبت في مراحل العمر المختلفة، كانت في كثير من الأحيان الرواية

الأولى لكثير من الكتاب، والأمثلة كثيرة منها. زينب لهيكل، والأيام لطف حسين، ويوميات مطلقة لهيفاء بيطار. ونشر الباحث خيرى دومة دراسة عن الروايات النسائية في مصر في تسعينيات القرن العشرين، فوقف عند سبع روايات، كانت كل منها الرواية الأولى لمؤلفتها. وتلك الروايات هي: الخباء لميرال الطحاوي، ودنيا زاد لمي التلمساني، وقميص وردي فارغ لنورا أمين، ومرايا الروح لبهجة حسين، والسيقان الرفيعة للكذب لعفاف السيد حسين، ودارية لسحر الموجي، وأوراق النرجس لسمية رمضان (انظر مجلة نزوى، عمان، ع ٣٦/٢٠٠٣م).

وهذه ظاهرة تؤيد قول (كليف جيمس) وهو لا بد أن تكون الرواية الأولى سيرة ذاتية لكتابتها. ولكن هذا القول لا ينطبق على الكتاب برمتهم، فحنا مينة وبديع حقي وإحسان عباس وإدوار سعيد وأحمد أمين وآخرون، لم تكن الرواية السير ذاتية أولى رواياتهم، بل كتبوها بعد أن بلغوا من العمر عتياً.

ويبدو أن الكتابة النسوية عن الذات انتشرت انتشاراً كبيراً، حتى إن الباحثة السورية (نوار الحسن جولي) نشرت بالإنكليزية كتاباً عنوانه «قراءة السير الذاتية للروائيات العربيات». وصدر عن مطبعة جامعة تكساس في العام ٢٠٠٣م.

وعقد الباحث المغربي (محمد الداوي)

في كتابه «الحقيقة الملتبسة» فصلاً عنوانه «محكي الحياة النسائية». ووقف فيه عند كل من الكاتبات المغربيات فاطنة البيه وليلى لحلو ورشيدة اليعقوبي. ولكل منهن رواية سير ذاتية. منتهيا إلى القول: إن كل ساردة تحكي نوعاً من المغامرة الداخلية الموجهة إلى هم التوضيح وشفاء الذهن والانسجام وتطهير الذات مما تركته التجربة المريرة من آثار. (انظر الحقيقة الملتبسة، ص ١٠٣). وهذا الغرض مكن كتابة السيرة عند النسوة أن تقترب من غرضها عند (نعيمة) الذي قال: «إن كتابة سيرته سيساعده على تصحيح حساباته مع نفسه ومع الناس ومع الكائنات التي كان لها في حياته نصيب» (سبعون ١/١٢). ويضاف هذا الحافز إلى حوافز التطهر ومجابهة الزمن والموت التي كانت وراء إنتاج السير ذاتية المختلفة.

ووقف الناقد السعودي (معجب الزهراني) في دراسة له عند أربع روايات درسها تحت عنوان «القراءة الحوارية لعلاقات السيرة الذاتية بالرواية». وهي: (تلك الرائحة) لصنع الله إبراهيم و(الخبز الحافيف) لمحمد شكري و(ثلاثية أطياف الأزقة المهجورة) لتركي الحمد، و(الحزام) لأحمد أبو دهمان. ورأى أنها تقع تحت عنوان «الرواية السيرية». وأشار إلى ثلاثة اتجاهات تحتقبها، هي فضح السلطات القائمة للكائن الفرد، مع الاحتفاء بانتقال

السورية في تلك الآونة. (انظر الشجرة التي غرستها أمي، لحقي، ص ٨٦).

وفي مصر العربية يشير أحمد أمين إلى ما جره نشوب الحرب العالمية الأولى على مصر، ولكن بإيجاز وتكثيف، يقول: «جاءت الحرب العالمية الأولى، وكانت أحداثها وقوداً لإلهاب الشعور الوطني، فخلع الخديوي عباس وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر وولي الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر، فأثرت في شعورنا الطريقة التي عين بها، فقد كان والي مصر يعين من قبل سلطان الآستانة بفرمان يحمله مندوب سام من قبل السلطان، فرأينا في هذه المرة أن تعيين سلطان مصر يتم بخطاب وجهه متولي أعمال الوكالة البريطانية.

وعانت مصر ويلات الحرب من سوء الحالة الاقتصادية وتعديات الإنجليز على الأهالي وتشغيل العمال المصريين رغم أنوفهم، وأخذت السلطة الإنجليزية الدواب والمحصولات جبراً وتحليق الطائرات الألمانية فوق القاهرة وإصابتها بعض الأهالي وتسفير العمال المصريين إلى فرنسا والعراق ونزع سلاح المصريين.

كل هذا ربي شعورنا الوطني (حياتي، ص ١٨٥). ولا ريب أن (أمين) هنا يكثف في سطور ما يمكن للمؤرخ أن يسود فيه صفحات كثيرات.

وعليه فنحن، وإن لم نجد تاريخاً كاملاً

الضحية من موقع إلى موقع. ومثاله هنا (تلك الرائحة) و(الخبز الحافي).

والاتجاه الثاني يتمثل باستغلال الشكل الروائي قناعاً فنياً لإعادة تشكيل التجربة الشخصية بأقصى قدر من الحرية والموضوعية ومثاله عليه (أطياف الأزقة المهجورة) لتركلي الحمد. والثالث يتمثل بإعادة صياغة التجربة الفردية من منظور احتفالي تبرز معاناة الذات خلال سيرورة التعلم والوعي. والمثال على هذا الاتجاه رواية «الحزام» لأحمد أبو دهمان (انظر الرواية العربية «ممكّنات السرد»، الكويت ٢٠٠٩م، ص ٩٧).

والحق أن الذات التي تكتب نفسها تكتب معها أشياء كثيرة، لعل أهمها التاريخ العام إلى جانب التاريخ الشخصي، يقول سلامة موسى في هذا الصدد: «أنا في هذه السيرة لست مؤرخاً لنفسي فقط، إنما أروي تاريخ العصر الذي عشت فيه وتاريخ الجيل الذي كنت أحد أفراد».

وفي قطرنا العربي السوري يمكن للمرء أن يقع على إشارات دالة على واقع الحالة الاقتصادية في بعض السير الذاتية، فحين يكتب (بديع حقي) أن الراتب التقاعدي لوالده في أربعينيات القرن العشرين كان إحدى وعشرين ليرة سورية، فإنه يشير إلى رخص السلع السورية آنذاك، وإلى قوة الليرة

للزمن الذي تنشر فيه السيرة، فإننا واجدون إشارات ربما تكون ذات قيمة حتى للمؤرخ المختص. ولا غرو في ذلك فالذات الساردة هي مرآة لعصرها.

والتاريخ الفردي هو شكل من أشكال التاريخ العام. ولكن الوظيفة الإشارية للغة هنا تتفوق على وظيفتها الأدبية، طبقاً لمصطلح (جابر عصفور) الذي رأى أن الذات في «الأيام» لطفه حسين لم تكف عن الإشارة إلى تاريخها الذي هو عام وخاص في الوقت نفسه. ولكن غلبة الأدبي في تلك الرواية جعلها تنتسب إلى حقل الأدب، في الوقت الذي يراها المؤرخ وثيقة تاريخية دالة. (انظر زمن الرواية، لعصفور، ص ٢١٧).

ولم يكن الالتباس بين العام والخاص في النص السيرذاتي الالتباس الوحيد في هذا اللون السردى، بل نرى لباساً آخر يتمثل بأمحاء الخط الفاصل ما بين العنصر الذاتي في رواية ليست سيرية، وشخصية الكاتب نفسه خارج أعماله الكتابية.

وقد اعتاد الكثير من الروائيين أن يعزف عن السيرة، بحدودها المعروفة، وينزع إلى الرواية ببنيتها التخيلية. لأن الرواية تعبر عن الجوهرى في أنفسنا، يقول (جان بول سارتر) بعد أن نشر جانباً من سيرته الذاتية: «إنه قرر أن يكمل عمله في قالب التخيلي للرواية، لأن الحقيقة لا يمكن قولها إلا في قالب تخيلي». (جابر عصفور:

زمن الرواية، ص ٢٥٠). وقد حفلت الروايات الغربية والعربية بحالة تشبه التماهي ما بين الكاتب المعروف خارج روايته، وإحدى شخصيات الرواية التي أخرجها للناس. ومما يؤثر عن الروائي الفرنسي (غوستاف فلوبير) قوله: «أنا هي السيدة بوفاري». والسيدة بوفاري هي حاملة اسم رواية فلوبير «مدام بوفاري» بل هي الشخصية المحورية في تلك الرواية. ويؤثر عن (نجيب محفوظ) قوله: «أنا» هو (كمال عبد الجواد). وعبد الجواد هو الشخصية الأبرز في الجزء الثالث والأخير من ثلاثية نجيب محفوظ المعروفة (انظر: أعشاب الماضي، للخطيب، ص ٤٣) وفي دراسة لي عن رواية «الربيع والخريف»، وجدت علاقة قوية ما بين بطلها (كرم) وكاتبها حنا مينه، فكل منهما عاش في الصين، وعمل مدرساً في جامعة بكين، ثم في جامعة بودابست، إضافة إلى سمات أخرى مشتركة كثيرة... وربما ينطبق الشأن ذاته على شخصية (يوسف) في روايتي فتحي غانم: الرجل الذي فقد ظله، وزينب والعرش، ومؤلف الروايتين. وعلى شخصية (ميخائيل) في روايات إدوار الخراط: رامة والتين، والزمن الآخر، وترابها زعفران، وبنات إسكندرية. وشخصية الخراط نفسه.

ولعل هذا الاختزال يظلم الروايات التي تحمل شخصياتها شيئاً من سمات وسمات

كاتبها، فالرواية أوسع من ذلك وأعقد. وهناك من يرى في «الثلاثية» صورة لتاريخ مصر بين الحربين العالميتين، وليست صورة لنجيب محفوظ. والشيء ذاته يصدق على أبطال حنا مينه في ثلاثيته: بقايا صور والمستنقع والقطاف، فهي تتحدث عن سورية أكثر مما تتحدث عن حنا مينه نفسه.

وقد تطرف بعض النقاد، فاخترلوا الرواية ببنياتها العامة ودلالاتها ومراميها بالعنصر الذاتي فيها، فقررروا أن ما بين أيديهم من هذا اللون السردى هو رواية سيرذاتية. وفي دراسة للنقاد السعودى (صالح بن معيض الغامدى) وقفة عند أشكال من رؤية الرواية السعودية على أنها سيرة ذاتية لكاتبها، فهو يشير إلى أن منصور الحازمي يرى أن أكثر الروايات السعودية سيرذاتية لأصحابها، يصح هذا على رواية «فكرة» لأحمد السباعي ورواية «البعث» للمغربي، ورواية «ثمن الضحية» لحامد المنهوري، و«ثقب في جدار الليل» و«سفينة الموتى» لإبراهيم الناصر.

والحكم السابق يصدق على روايات لرجاء عالم وحزمة بوقرة وعبد الخال، وعلى رواية شقة الحرية لغازي القصبي. ويشترك في الحكم السابق كل من النقاد السعوديين محمد الشنطلي وسلطان القحطاني وحسن الحازمي وحسين المناصرة ومعجب الزهراني. ولكن هذا الفهم للروايات

السعودية المذكورة جوبه بالرفض من قبل كل الروائيين عبده الخال وتركى الحمد وغازي القصبي (انظر في ذلك دراسة، الغامدى: سيرذاتية الرواية العربية السعودية، مجلة علامات في النقد، جدة ع ٥١/ ص ٣٩. ٦٢).

وقبل أن ينكر بعض الروائيين السعوديين التطابق التام بين شخوص رواياتهم وشخصياتهم خارج تلك الروايات نفى توفيق الحكيم أن تكون «عودة الروح» و«عصفور من الشرق» و«يوميات نائب في الأرياف» سيرة ذاتية له، لأن التشابه بين أبطال رواياته وحياته لا يمكن أن يعطي للنقاد أو الدارس الحق في اعتبارها وثائق تاريخية دقيقة، لأن عوامل كثيرة وعناصر مختلفة اختلطت بها، منها ما هو حقيقي، ومنها ما هو غير حقيقي.

وفعل الفعل ذاته عباس محمود العقاد حين أنكر أن يكون (همام) بطل روايته «سارة» هو العقاد ذاته، ورفض بهاء طاهر الربط بين شخصية الصحفي في روايته «الحب في المنفى» وشخصيته ذاتها لأن روايته كما يرى أساسها الخيال رغم وجود أشياء حقيقية فيها. وعليه يترتب على الناقد أن يقرأ بعضاً مما يشير إلى سيرة الكاتب في رواياتهم بحذر، فعلى الرغم من التداخل القوي بين سيرة الكاتب خارج الرواية وما يشبهها داخل الرواية، فإن مكرراً قد يقع،

وبعضاً من الأعياب الفن تستغل... وفي هذا الصدد يقول الروائي الجزائري (واسيني الأعرج): «عندما أكتب شخصية قريبة مني أو تشبهني، كأن تكون أستاذاً جامعياً أو فناناً، هذه الشخصية فيها مني، لكنها ليست أنا في تفاصيلها، قد تكون أنا في روحها» (انظر الرابط w.w.w.mahjoob.com).

وفي حوار للكاتب (الأعرج) مع كمال الرياحي على الشابكة (النت) ذكر (الأعرج) أن روايته «ذاكرة الماء» هي الأقرب إلى سيرته الذاتية. ويضيف: فيها الكثير مما حصل معه ومع ابنته وزوجته. ولكن ليس ذلك ما حصل بالفعل وبكل دقة. الرسائل الموجودة صحيحة وبعضها غير صحيح. إنها ألعاب فنية فواحدة من الرسائل هي رسالة أحلام مستغانمي، وليست رسالة زينب. وكلام واسيني الأعرج يظهر بوضوح أنموذجاً من مزج التخيل بالوقائع في العمل الروائي.

وربما يعود إنكار الكتاب لعلاقة التطابق ما بينهم من جهة، وبين أبطال رواياتهم من جهة أخرى، وما يستتبع ذلك من أن الرواية التي تحتقب هذا التطابق هي رواية سيرية، إلى حقيقة مآلها: أن السيرة الذاتية بنية مغلقة ومنتهية لأنها تنتهي مع حياة كاتبها، وهي بهذا لا تمتد في المستقبل، وتلغي كل بعد في هذا الاتجاه.

أمّا الرواية فتبدو منفتحة على كل الأزمنة، فهي تصوّر حياة متطورة نامية.

كما أن السيرة تفتقد، أو قد تفتقد، بعضاً من عناصر الرواية، فكتاب السيرة أو صاحبها قد لا يكون معنياً كثيراً بعنصر التشويق والحبكة الدرامية، بقدر اعتناؤه بسرد وقائع حياته بأسلوب عفوي وطبيعي. (انظر فضاء المتخيل، لحسين خمري، دمشق ٢٠٠١، ص ٢١٨، وبنية التشابه بين المؤلف وشخصيات الرواية، لعبد الرحمن عمار، دمشق، ٢٠٠٧، ص ٤٠).

ومن الأوهام المتصلة بإدراج العنصر الذاتي في الرواية، وخاصة عند النساء، تحدي المحرمات من زاوية بعض رجال الدين، وهذا ما عانت منه الكاتبة نوال السعداوي لاتهامها بانتهاك المحرمات، وعفاف السيد التي فقدت حريتها وارتدت الحجاب بعد أن أقنعها الأصوليون بأن الإبداع فعل شيطاني. فأعجب بذلك (انظر مجلة الرواية، ع ٧٤ ص ٣٤٥).

وهكذا تبدو الكتابة عن الذات عملاً سردياً عريقاً، ومدونته في الأدبين العربي والغربي كبيرة ومتسعة. ولها أشكال وبنى مختلفة، والخيال غير غائب عن نماذجها. وهي كما تؤرخ للأفراد تؤرخ للأمم والأجيال والأمصار. ودوافعها عديدة ومتباينة. ومحاولة تحديدها في النظرية الأدبية المعاصرة لاقت تجاوزاً واختراقاً مستمرين، كما هي الحال في ذاكرة للنسيان لمحمود درويش، وحريق الأخيلة للخراط.

وعلى الرغم من سطوع العنصر الذاتي في بعض الأعمال السردية، وزعم الكتّاب أن واحداً من أبطالهم يمثلهم كما هي الحال مع مدام بوفاري وفلوبير، وكمال عبد الجواد ونجيب محفوظ، فإن روائيين آخر رفضوا ما زعمه النقاد من تطابق ما بين أبطالهم وشخصياتهم خارج الرواية، كما فعل غازي القصيبي وعبد الخال والعقاد وبهاء طاهر وغيرهم. وذلك لاعتقادهم بأن ما فعلوه هو تخييل، وظيفه اللغة فيه أدبية لا إشارية. ولأنهم يرغبون بأن تفهم آثارهم الفنية على أن لها بنى مفتوحة وغير مغلقة البتة. ولأن الرواية، في النهاية، هي فن مراوغ، يصعب تقنيته في قوالب حجرية جامدة. وكل رواية هي نوع أدبي في ذاتها -وجوهرها- كما يقول (شليجل). يكمن في فرديتها. (انظر الملحمة والرواية، لباختين، ترجمة جمال الشحيد، ١٩٨٢، ص ٢٢).

المراجع

- السيسي، أكرم: السيرة الذاتية لطفه حسين وجان جاك روسو، بين التعتيم والتعميم وبين التصريح والتخصيص، مجلة ضاد، القاهرة، ٢٠٠٨م، ع ١٠.
- حافظ، صبري: رقص الذات لا كتابتها تحولات الإستراتيجية النصية في السيرة الذاتية، مجلة ألف، القاهرة، ٢٠٠٢م، ع ٢٢.
- بركات حليم: رواية الغربية والمنفى، مجلة فصول، القاهرة، ١٩٩٨م، ١/١٧.
- النابي، ممدوح فراج: تداخل الأنواع الأدبية وتوالد السرد (رواية السيرة الذاتية نموذجاً)، مجلة الرواية قضايا وآفاق، القاهرة، ع ٧.
- لوجون، فيليب: السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلمي، بيروت ١٩٩٤م.
- الحلاق، بطرس: السيرة الذاتية وتعدد الأصوات، مجلة فصول، القاهرة ١٩٩٨م، مج ١/١٧.
- مبارك، سلمى: كتابة الأنا وكتابة التاريخ في الرواية الفرنسية المعاصرة، مجلة الرواية قضايا وآفاق، القاهرة، ٢٠١٠م، ع ٥.
- الداهي، محمد: الحقيقة الملتبسة، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.
- رينولدز، دويت: السيرة الذاتية في الأدب العربي، مجلة الكرمل، ١٩٩٢م، ع ٧٦.
- الخطيب، محمد كامل: أعشاب الماضي دراسة في السيرة الأدبية، دمشق ٢٠١٠م.
- الفريجات، عادل: الخطاب وتقنيات السرد في النص الروائي السوري المعاصر، دمشق ٢٠٠٩م.
- دومة، خيري: رواية السيرة الذاتية، قراءة في بعض روايات البنات في مصر في التسعينيات، مجلة نزوى، عمان، ٢٠٠٩م، ع ٣٦.
- نعيمة، ميخائيل: سبعون، بيروت، ١٩٥٩م.

- الزهراني، معجب: القراءة الحوارية لعلاقات السيرة الذاتية بالرواية، دراسة ضمن كتاب الرواية العربية «ممكّنات السرد»، الكويت ٢٠٠٩م.
- حقي، بديع: الشجرة التي غرستها أمي، دمشق، ١٩٨٦م.
- أمين، أحمد: حياتي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- عصفور، جابر: زمن الرواية، القاهرة ١٩٩٩م.
- الغامدي، صالح: سير ذاتية الرواية العربية السعودية، مجلة علامات، جدة، ع٥١.
- الأعرج واسيني، حوار معه، على الرابط w.w.mhjoob.com.
- الخمري، حسين المتخيل السرد، دمشق ٢٠٠١م.
- عمار، عبد الرحمن: بنية التشابه بين المؤلف وشخصيات الرواية، دمشق ٢٠٠٧م.



الأنثى في أدب الشرق العربي القديم



نزار مصطفى كحلة

دورة الإنجاب والولادة لديها بدورة القمر
والخصب والزراعة.

أمّا، والحالة هذه، فكان لا مندوحة أمام
الذكر سوى تقديسها وجعلها السيدة والإلهة
الأولى، فقد ترسخت هذه الأيديولوجية
المبكرة في عقله، رسوخ الإيمان الحقيقي في
قلب ناسك متعبد، جاعلةً من العقل الجمعي
لإنسان ذلك العصر صورةً حقيقيةً وانعكاساً
جلياً لمكانة عالية مُثَلَّتْ ونُحِتَتْ في تلافيف
وحنايا خلاياه النبيلة، والتي تحولت إلى
سلوك واقعي، تمثل في جعل المرأة تحظى
بالمرتبة الأولى، والتي انعكست في الكثير من
الدمى الطينية، التي تمثل حالة المرأة كرمز
للعطاء والخصب والأمومة، في عصر ما قبل
الكتابة.

لطالما حظيت المرأة بمكانة سامية،
أفرزتها جملة من التراكمات والمشاهدات،
والتي بقيت تدغدغ مشاعر نصفها الآخر
تارةً، وطوراً استطاعت الوصول إلى مكنونات
عقله، جاعلة إياه في حالة من الذهول
والانبهار، فأمام هذه المشاهد المتراكمة من
عبقريّة المرأة، وهذا الإرث الذي ما فتئ
يدفعه نحو تقديسها. والذي ترسخ في العقل
الجمعي منذ عصور ما قبل التاريخ، وحتى
آخر تجليات الإلهة الأنثى كأم «للإله» متمثلة
بالسيدة العذراء. فمنذ أن كانت المرأة إلهة
الصيادين الأوائل، وحتى اكتشافها الزراعة،
وعلى اعتبارها الطيبة والصيدلانية
والكيميائية الأولى، وأمام ارتباط وتشابه

✽ أدب وبارك سورري.

أمّا، وقد استطاع الإنسان الكتابة، فكان أهم انعكاس لهذه المكانة العالية للمرأة لديه، قد تجلّى في الأدب والشعر، ومن غيرهما الأقدر ليصبح صورة للمجتمع ومراة للفكر والسلوك والعقل الجمعي.

فقد تحولت المرأة لمادة شهية دغدغت مشاعر وأحاسيس شعراء وكتاب ذلك العصر. وعلى اعتبارهم مراة عصرهم، وخير شاهد عليه، كان شعرهم ونثرهم خير ممثل لما ينتاب المرء من مشاعر وأحاسيس تجاه المرأة، والذي صُبَّ في العديد من القصائد التي صورت لنا المرأة كإلهة أم، وسيدة جميلة، وأم حنون، وعاشقة ملهمة، فكنا نراها تمثل كافة الأدوار، وتسير أقلام الشعراء حسبما تشاء.

فكان أول دور لعبته الأم هو مشاركتها في خلق الإنسان، حيث نقرأ في أحد نصوص التكوين البابلية:

أنت الرحم الأم

يا خالقة الجنس البشري

اخلقي الإنسان ليحمل العبء

ويأخذ عن الآلهة عناء العمل

فتحت «نتو» فمها وقالت:

لن يكون لي أن أنجز ذلك وحدي

ولكن بمعونة «أنكي» سوف يخلق الإنسان

فليعطني «أنكي» طيناً أعجبه.

ومن خير من الأنثى في تمجيد ذاتها ومعرفة كنه حقيقتها، فهي الشاعرة (أنخيدو- أنا)^(١) تقول في تمجيد الإلهة إنانا:

عندما تتردين جلايب الآلهة

الآلهة القديمة جداً

سيغني ذوو الشعور السوداء^(٢)

سيمدحونك بأغنية.

وفي ابتهاج لجوديا ملك لاغاش^(٣)، إلى الإلهة، حيث يصف المرأة بأنها ملكة، فهي تحتل المركز الأول في السماء وتقدم الخير للجميع، وهي أم، وبنّت لاغاش، وهي التي ترعى اليتيم وتدافع عن الأرملة، وتقف ضد الظلم، حيث يقول فيه:

أي مليكتي، يا ابنة السماء الصافية

التي تنصح بكل ما هو خير

أنت التي تحتلين المركز الأول في السماء

والتي تمنحين الحياة للبلاد

أنت الأم التي أسست لاغاش

أنت الرجل التقى الذي توجهين نظرك إليه

تطول حياته

ليس لي أم، أنت أمي

ليس لي أب، أنت أبي

فبالنسبة للسومريين، كانت الإلهة

(نانشي) هي:

التي تعرف اليتيم وتعرف الأرملة

التي تعرف ظلم الإنسان للإنسان

وهي أم اليتيم نانشي تعتني بالأرملة

وتحقق العدالة لأفقر الناس

إنها الملكة التي تستجلب الملتجي إلى حجرها

والتي تجد ملاذاً للضعيف.

وفي كتاب قديم يدعى (كتاب الرعد)

نراها تتحول إلى الأم العظمى، فهي أم

الجنس البشري، ولها دورها في عملية

الخلق والإبداع، إنها رمز العطاء، كما إنها

تعطي الحكمة والمعرفة، وهي العقل، كما

أنها الحرب والسلام والقوة والشرف والعار،

وهي الخشية والخزي.

ويرد هذا النشيد على لسان كينونة

أنثوية تتكلم عن نفسها والذي نقتبس منه

هذه المقاطع:

أنا الأولى والأخيرة

أنا المكرمة والمحتقرة

العاهرة والقديسة

والزوجة والبكر

الأم والبنت

أنا العاقر وكثيرون هم أولادي

أعراسي لا تحصى ولم أقترب ببعل

أنا العروس والعريس

زوجي ولدني

وأنا أم أبي وأخت زوجي وهو ابني

أنا المعرفة أنا الجهل

أنا العار والخزي

أنا القوة وأنا الخشية

أنا الحرب وأنا السلام

أنا الصمت الذي لا يَكُنْهُ

وفي مقطع آخر تقول:

أنا الحكمة (صوفيا)

وأنا المعرفة (غنوص)

أنا الأم العظمى التي لا تسقط، وصوفيا

الحكمة التي سقطت

أنا العقل والكلمة والصمت والصوت

أنا ذلك الذي وحده يوجد ولا أحد

يحكم عليّ.

وفي طقوس الجنس المقدس الخرافية^(٤)

تتحول المرأة من ربة (إنانا) في السماء

إلى كاهنة تلعب دور إنانا في الزواج المقدس

(الرمزي المعنى) على الأرض، والذي كان

يجري بغية استمرار الخصب والحياة

كانعكاس لما يجري في السماء.

ففي شعر غرامي رائع يجمع في صورته

بين العري المنزه، والمشاعر الأعظم رقة،

تقصُّ علينا الترانيم الملكية الأكثر وضوحاً،

وهي ترنيمة (أدين - داجان)^(٥) مواسم هذا

الزواج كما يدور على الأرض، في غرفة

بغطاء فاخر، وكانت الربة قد استحمت

واستلقت عليه، وفاحت من الأرض رائحة

زيت الأرز العطرة. ويتقدم منها الملك، حيث

يقول الشاعر:

يقترّب الملك، والرأس مرفوع من حجرها المقدس.

ويقترّب، مرفوع الرأس من حضن إنانا المقدسة.
وينطرح (أما - أشوم جال - أنا) ^(٦) إلى جانبها،
ويدغدغ أحضانها.
وعندما استلقت الرّبة المعلمة فوق السرير.
وفي أحضان (الملك) المقدسة
عندما استلقت إنانا الطاهرة فوق السرير
في أحضانه المقدسة
قالت إلى أدين داجان:
أنت حبيبي والحق.

وبعد أن يتم القران يُفَتَح باب الدخول
للجمهور المحمل بالتقدمات، وكذلك
للموسيقين، وتقدم مائدة بهذه المناسبة.
وأمام المجتمع الذكوري القادم بقوة
مع اقترابنا من ميلاد السيد المسيح، هذا
المجتمع الذي بدأ ينازع المرأة مكانتها
السامية، فإنّ المرأة لم تقف مكتوفة الأيدي
أمام هذا الامتهان لكرامتها، فنهاها تنفض
لتغسل عن كاهلها غبار التبعية ولتذكر الذكر
بقوتها وعظمتها، ففي أحد النصوص ^(٧)
التي تعبّر عن خلاله عن نفسها، فهي ما
تزال ترى في نفسها القدرة القادرة على فعل
كل شيء، فهي تمثل كل ما في الوجود، حيث
تقول عشتار وهي بالتأكيد إيزيس مصر:

أنا الأول، وأنا الآخر
أنا البغي، وأنا القديسة
أنا الزوجة، وأنا العذراء
أنا الأم، وأنا الابنة

أنا العاقر، وكثرهم أبنائي
أنا في عرس كبير ولم أتخذ زوجاً
أنا القابلة ولم أنجب أحداً
وأنا سلوة أعاب حملي
أنا العروس وأنا العريس
وزوجي من أنجبني
أنا أم أبي، وأخت زوجي
وهو من نسلي.

كما تناول الأدب الشرقي القديم مكانة
الأم في كثير من القصائد الرقيقة والجميلة،
ففي قصيدة لشاعر من أوغاريت كُتِبَتْ في
القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وتعبّر عن
عاطفة شاعر نحو أمه بقوله:

أمي كنوز الأفق

غزال الجبل

ونجم الصباح المتألق

وحلي ابنة الملك الساحبة بفتنتها

وتمثال الرخام على اللازورد

وروح العاج الكامل المملوء بالفتنة

أمي هي المطر في الوقت الجيد

وأول ماء الزرع، والمحصول الوفير، والقمح الرفيع

وشمار الربيع ومنتوج نيسان، والجدول

الناقل للمياه العذبة إلى السهل

ومن النصوص التي وجدت في أوغاريت
أيضاً، والتي تنسب إلى الأدب السومري
الأكادي، وهو عبارة عن رسالة ربما كانت
خيالية كتبها شخص عُرِفَ عنه من مصادر

أخرى بأنه شاعر يوصي فيها ناقلها المتوجه إلى نيبور^(٨)، بأن ينقل سلامه إلى أمه ويقول له:

«إذا كنت لا تعرف أُمي، فأني سأعطيك علامة فارقة لها» ويعطيه هذه العلامة الفارقة في القسم الأول من هذه المقطوعة، ثم يتابع النص بقوله:

«وسأعطيك علامة فارقة ثانية لأُمي» وهنا القسم الثاني من النص المكتشف في رأس شمرا، والذي يقول فيه: أُمي هي ومضة السماء، وبهاء الخيال، هي نجمة الزهرة. والضيء المشع

هي اللازورد من بلاد بابل، والبلور من (مرحشي).^(٩) هي حلبة ابنة ملك تفيض سحراً هي قطعة فيروز، ووعاء فاخر

هي سوار من معدن أبيض، وخاتم من حديد ثمين. هي قطعة من ذهب، وفضة خالصة. هي حلبة نفيسة مدلاة على العنق. هي تمثال من الرخام على قاعدة من اللازورد.

هي لوحة عاجية كاملة ملأى بالسحر.

ثم يتابع النص بقوله:

وسأعطيك علامة ثالثة لأُمي

أُمي هي الغيث يأتي في أوانه، وهي القطرة الأولى للمزروعات.

هي الغلال الوافرة، والقمح المحصود

هي حديقة غناء مفعمة بالبهجة والحبور.

هي صنوبرة مروية تزينها جوزاتها.

هي أول ثمار العام، ونتاج نيسان.

هي جدول ماء، يجلب الخير إلى البساتين

هي البلح العسلي من بلاد دلمون^(١٠)، أطيّب

أنواع البلح.

ثم يتابع النص بالعلامات الرابعة والخامسة بأسلوب شعري بعيد عن التحديد.

ولا بد وأن هاتين القصيدتين تنتميان لمدرسة شعرية واحدة، تتميز بالرقّة والرومانسية والشعر الوجداني المفعم بالحب والأحاسيس والمليء بالانفعالات التي تظهر دائماً بشكل واضح من خلال الكلمات الشعرية الرقيقة تارة والهائجة طوراً لكي تعبّر عن مكنونات الشاعر.

وهنا نراها معبرة بشكل صادق عن مشاعر الحب والاحترام للأم، معطية المثل الأعلى في الوفاء، للأم خاصة، وللأنثى بشكل عام، مؤكدة على دور الأنثى كواحدة من أعظم المخلوقات وأعلاها مرتبة.

وعندما نتكلم عن الأم فإننا نتكلم أيضاً عن الأخت والابنة لأن كليهما في مرحلة ما ستصبح أماً وتعامل معاملة خاصة كرمز للطاء والخصب والأمل.

أما عن الغزل في حياة المرأة، فقد كان له تواجد كبير في أدب ذلك العصر، ففي أول قصيدة غزلية سومرية موغلة في القدم، تتحدث عن دعوة عاشقة لحبيبها نسمع:

نم في بيتنا يا حبيبي

حتى ينبلج الفجرُ

أغمرنِي بمداعباتك

أنت يا من أحبني

نم في بيتنا حتى الفجر

جسدي جميلٌ لذيذٌ كالعسل

مد يدك إليه

امسح كفك عليه

وها هنا تطل علينا الشاعرة السومرية

بُلبالة^(١)، مخاطبة حبيبها في قصيدة رقيقة

تخاطب فيها حبيبها وتصفه بكل الصفات

الجميلة التي تدل على عشقها له، فتناجيه،

وتطلب منه أخذها لكي يتزوجها، مع كثير

من الجرأة بالألفاظ، تقول:

«أيها العريس الحبيب إلى قلبي

جمالكَ باهر حلو كالشهد

أيها الأسد الحبيب إلى قلبي

جمالكَ باهر حلو كالشهد!

لقد أسرت قلبي فدعني

أقف بحضرتك وأنا خائفة مرتعشة.

أيها العريس! سيأخذونني إلى غرفة النوم

لقد أسرت قلبي فدعني

أقف بحضرتك وأنا خائفة مرتعشة

أيها الأسد ستأخذني إلى غرفة نومك،

أيها العريس

دعني أدلك

فإن تدليلي طعمٌ وشهي

وفي حجرة النوم الملاى بالشهد

دعنا نستمتع بجمالكَ الفاتن.

أيها الأسد، دعني أدلك

فإن تدليلي أطعم وأشهى من الشهد!

أيها العريس! لقد قضيتَ وطر لذك مني

فأبلغ أُمي وستعطيك الأَطايِب

أما أُمي فسيغدق عليك الهبات

وروحك، أنا أعرف كيف أبهج روحك،

وقلبك، أنا أعرف كيف أدخل السرور إلى

قلبك!

أيها العريس، نم في بيتنا حتى انبلاج الفجر،

أيها الأسد، نم في بيتنا حتى انبلاج الفجر،

وإنك لأنك شهواني

هبني بحقك شيئاً من تدليلك وملاطفتك.

يا مولاي الإله، ويا سيدي الحامي

موضعك جميل حلو كالشهد فضع يدك عليه

قرب يدك عليه كرداء الجشبان

إنها غناء بُلبالة

من قصائد إنانا.

وفي قصيدة عاطفية على شكل أغنية

الحب مأخوذة من التاريخ المصري القديم،

نرى الرجل فيها يُعبر عن مشاعر الحب

تجاه الحبيبة، ويدعوها لزيارته، وفيها

الكثير من مشاعر الحب والصور الشعرية

الجميلة، تقول:

يا حبيبتي تعالي إلي في الحديقة

إن حبيبتي مثل كل زهرة تنفح عطرها

فارعة العود ممشوقة القوام كنخلة بشبابها

وفي كل خد من خديها وردة حمراء.

وفي قصيدة أخرى، نرى الشاعر يشبّه
النسمات القادمة من النساء، بنسيم الشمال
البارد، وبنسيم الشرق المنعش، الذي يفتح
نوافذ السماء، والتي سوف يدخل منها الإله
رع إلى الحياة الآخرة، عبر صورٍ شعرية
جميلة وساحرة. نقرأ:

هذه النسمات المقبلة إليّ من أولئك الصبايا!

إنّها نسيم الشمال الذي يحيق بجزر إيجة،

ويمد ذراعيه حتى أطراف البلدين

والليل بانتظام يعيره فائق عنايته!

هذه النسمات المقبلة إليّ من أولئك الصبايا!

إنها نسيم الشرق الذي يفتح نوافذ السماء

ويخط الطريق الجميل لـ«رع»^(١٢) وعليه

ينتصب

فيأخذني «رع» بيدي ويجلسني بين الخيزران

حيث أرى كالثور «آبيس» وأشبع مثل «سات»^(١٣)

منعش هو نسيم الشرق وبه أعيش!

ولا بد وقبل الختام، من ذكر الشاعرة

بيلتي^(١٤) الكنعانية الأصل، والتي يعني اسمها

(سيدتي)، وهي من أرق الشعاعرات، وصاحبة

جرأة كبيرة في الشعر، ففي قصيدة عن

مناجاة الأم نقرأ:

مناجاة أم

تغسلني أُمّي في العتمة وتلبسني وضح النهار

وتسرحني في النور وإذا ما خرجت تحت ضوء القمر

فإنها تشد لي حزامي وتعهده عقدة مضاعفة وتقول لي

العبي مع العذارى وارقصي مع الأطفال الصغار

ولا تنظري من النافذة، ابتعدي عن حديث الشباب

ولا تثقي بالأرامل.....

سيأتيك أحدهم ذات مساء.... كما للأخريات ليأخذك

إلى وسط الحفلة الكبرى حيث «ثميانون» الصاخبة

والمزامير العاشقة

في ذلك المساء عندما تذهبين يا «بيليتو» ستركين لي

ثلاث قرع مرة.... واحدة للصباح وأخرى للظهيرة

والثالثة الأكثر مرارة... الثالثة لأيام العيد.

وفي قصيدة بعنوان: بيلتي، تتحول إلى

عاشقة تطلب من حبيبها أن يأخذها كما

هي، نقرأ:

بيلتي

تتشع امرأة، بالصوف الأبيض وأخرى بالحرير والذهب

وثالثة تتغطى بالزهر... بأوراق العنب الخضراء

وأنا لا أعرف أن أتمشّي إلا عارية... فخذني يا

حبيبي كما أنا

بلا ثوب ولا حلي ولا خف فها هي بيلتي مجردة

شعري أسود بذاته وشففتاي حمراوان بطبيعتهما

وجدائلي تتموج حولي طليقة دائرة كالريش

خذني كما خلقتني أُمّي في ليلة حب بعيداً

وإذا كنت أرضيك هكذا فلا تنس أن تقول لي!

فيها قصب السبق في الإنجاز والعطاء، حيث استطاع هذا الأدب بما يحمل في طياته من إمكانات اعتباره صورة للواقع، فقدم لنا المرأة بكل تجلياتها، من اعتبارها إلهة عظمى، ومربية فاضلة، وكاهنة تنذر حياتها للخير والعطاء، وأم حنون، ومنبع للحكمة والمعرفة، وفتاة عاشقة كسرت قيود الخوف، وخرجت تناجي حبيبها بكل جرأة، عبر قصائد شعرية جميلة، ستبقى البذرة الأولى لكل ما أتى وما سيأتي بعدها من شتلات وورود وأشجار الشعر والأدب في عصرنا الحالي.

وفي الختام وكما في البدء، نقول: لقد كان للمرأة دور كبير في مجتمع الشرق العربي القديم، أملت عليها عوامل كثيرة، فرضتها سيرورة وصيرورة التاريخ. فمع المزيد من مغامرات العقل الإنساني، كانت المرأة تكتسي حلاً جديداً، ملؤها التقديس والإكرام وعلو الشأن والمكانة، باتت واضحة من خلال العديد من مفردات الحضارة العربية، وفي مقدمتها العدد الكبير من الدمى الطينية ذات الأهمية الكبرى في علو مكانة المرأة، كرمز للعطاء والحكمة والبهاء، وتوجت بأدب جميل مُعبّر عن مرحلة تاريخية كان للمرأة

الهوامش

- ١- ابنة الملك الشهير سرجون الأكادي ٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ ق.م، وكانت شاعرة تدون مؤلفاتها باللهجتين السومرية والأكادية، حيث تعتبر أنخيدو. أنا، أقدم شاعرة في العالم، وكثيراً ما كانت تكتب الشعر كصلوات محبة وشعائر ولاء للإلهة إنانا أو عشتار.
- ٢- الشعور السوداء، أو الرؤوس السود، وقد وردت في شريعة حمورابي للدلالة على عدم التفرقة بين عناصر السكان «سومريين. أكاديين...».
- ٣- الملك الثاني عشر من سلالة لاغاش الثانية وأعظم ملوكها على الإطلاق، حكم ما بين ٢١٤٤ - ٢١٢٤ ق.م.
- ٤- هناك من يعتبر هذه الطقوس هي فقط طقوس رمزية، وإنها لم تكن تحدث في الواقع.
- ٥- (أدين- داجان) ثالث ملك في سلالة إسين الرافدية.
- ٦- وهو لقب من ألقاب دموزي.
- ٧- وجدت هذه القصيدة كنص كتيب أحد الفنوصيين المصريين في القرن الرابع الميلادي عن لسان عشتار (إيزيس)، وتم اكتشافه في إحدى مخطوطات منطقة (نجع حمادي) في صعيد مصر منتصف الأربعينيات من القرن العشرين.
- ٨- وهي مدينة نمر السومرية المقدسة (فهي مركز ديني كبير) في بلاد الرافدين.
- ٩- مرحشي: اسم مدينة أو مكان غير معروف حتى الآن.
- ١٠- دلمون: وهي جزيرة البحرين الحالية والمناطق المحيطة بها.

- ١١- بُلْبَالَة: شاعرة سومرية كانت تعمل مع فرقة «إنانا» التي كانت تغني في البلاط السومري أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، في عصر مملكة أور الثالثة السومرية، حوالي ٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م.
- ١٢- الإله رع: إله الشمس عند المصريين، ومركز عبادته في هيليوبوليس.
- ١٣- أبيس: الثور أبيس، وقد اعتبره المصريون أنه الصورة الحيّة للإله بتاح (إله الفنانين والحرفيين، أي: الحدادين والنحاتين). أما سات: فهو على الأغلب سيت: وهو الإله المحارب بخدمة رع وخصم أوزيريس، ويصوّر على شكل حيوان خرافي، له خرطوم وأذنان طويلتان، وهو أخو أوزيريس.
- ١٤- بيلتي: شاعرة كنعانية فينيقية، عاشت حياة مليئة بالأحداث، مثلتها في أشعارها الشجيرة، وقد كانت بيلتي قد ولدت في بداية القرن السادس قبل الميلاد، من أم فينيقية، ووالدها يوناني، لذا فقد حملت اسماً فينيقياً بمعنى (سيدتي).

المراجع

- ١- إحسان هندي: أشهر شاعرات الحب في بلاد الشرق والغرب -تراجم ومختارات شعرية، القسم الأول، مجلة أفاق ثقافية، العدد ١١٢، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٢م، ص ١٦.
- ٢- جان نوغايرون: نصوص جديدة من أوغاريت- بالمسمارية البابلية، ت. فيصل الصيرفي، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ١٤، ١٩٦٤م، ص ٣٣٥ - ٣٣٧.
- ٣- خضر الحموي: التفاعل القانوني في حوض البحر المتوسط- دراسة مقارنة للقوانين منذ خمسة آلاف سنة، دار بيسان للنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ط ١، ص ٢٧-٢٨.
- ٤- علي القيم: المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٨، ص ٥٦.
- ٥- عيد مرعي وفيصل عبد الله: تاريخ الوطن العربي القديم- بلاد الرافدين، دمشق، ط ٤، ٢٠٠١-٢٠٠٢م، ص ١١٨.
- ٦- فايز مقدسي: بحث في الغنوصية السورية، مجلة المعرفة، العدد ٥٤٢، ٢٠٠٨م، وزارة الثقافة، سورية.
- ٧- فراس السواح: قراءة في ملحمة جلجامش، سمر للدراسات والنشر، قبرص، الطبعة السورية، دمشق، ١٩٨٧م، ط ١، ص ٢٤٤.
- ٨- ليونار كوتريل: زوجات الفراعنة، ت. فيليب عطالله، دار الزوائج الجديدة، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٢٥٨.
- ٩- محمد مظلوم: صور عشتار في مرايا العراق المشروخة، مجلة فكر، الحزب السوري القومي الاجتماعي، العدد ١٠٧، ٢٠٠٩م، ص ٧.
- ١٠- موسوعة دمشق: مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، جريدة الثورة، بالتعاون مع دار التواصل العربي، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.
- ١١- نعيم فرح: معالم حضارات العالم القديم، دار الفكر، ١٩٧٣م، ص ٥٠.
- ١٢- وديع بشور: مبدعون سوريون في تاريخ الإنسانية، مكتبة الميراث، اللاذقية، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ٢٨، ٣١، ٣٤.

مادة البحث الأدبي



د. ممدوح أبو الوي

النثر يكثر بعد ذلك شيئاً فشيئاً، فعلى سبيل المثال، الأدب العربي في بداياته أي في العصر الجاهلي كان في معظمه شعراً وأما الأدب العربي الحديث في معظمه نثر، وما ينطبق على الأدب العربي ينطبق على الآداب العالمية الأخرى. كان الأدب في البداية شعبياً، إذ نحن لا نعرف اسم المؤلف، وبعد ذلك أصبح فردياً، ويرتبط باسم كاتب معين. ومرّ الأدب بخمس مراحل:

- ١- ارتبط بالطبيعة.
- ٢- ارتبط بالسحر.
- ٣- ارتبط بالديانات الوثنية.
- ٤- ارتبط بالديانات السماوية.
- ٥- ارتبط بنظريات بعض المفكرين والفلاسفة.

يقول الدكتور شوقي ضيف «معروف أنّ مادة البحث الأدبي هي الأدب بفرعيه من الشعر والنثر، وما امتد على كل فرع من غصون مختلفة»^(١) ويتابع الدكتور شوقي ضيف، ويرى أنّ الأدب يخاطب العواطف، التي يجللها الغموض، إذ لا توجد مقاييس نقيسها بها، ولا لدينا مختبرات يمكن أن نحللها فيها.

قد أوافق الدكتور شوقي ضيف في رأيه الأنف الذكر، إلا أنني أريد أن أضيف أنّ الأدب لا يكتفي بمخاطبة العواطف الإنسانية، وإن كان يركّز عليها، ولكنّه يخاطب العقل الإنساني أيضاً.

وإذا عدنا إلى تاريخ الأدب نجد أنّه كان في القديم في معظمه شعراً، وأخذ

✱ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

٢- تعريف ميخائيل نعيمة للأدب:

ولن أذكر ما قاله النقاد العرب والأجانب عن الأدب نظراً لكثرة التعريفات واختلافها ولكنني أجد نفسي مضطراً لأن أذكر قولاً لميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨م) عن الأدب نظراً لأهميته، ولقد جاء هذا الرأي في دستور الرابطة القلمية التي تأسست في مدينة نيويورك ما بين عامي ١٩٢٠-١٩٣١م: «ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس أدباً، ولا كل من حرر مقالاً، أو نظم قصيدة موزونة بالأديب. فالأدب الذي نعتبره هو الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها... والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خص برقة الحس، ودقة الفكر، وبعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير...»^(٢) ويتابع ميخائيل نعيمة آراءه عن الأدب في أعماله العديدة فهو يرى أن الأدب ليس إلا رسوياً بين نفس الكاتب ونفس القارئ، والأديب الذي يستحق أن يدعى أديباً هو من يزود رسوله من قلبه ولبه. ومن ثم فهناك أدب رفيع وأدب مؤذ، والأدب الرفيع الذي يصدر عن موهبة حقيقية ويفيد المتلقي ويتصف بمستوى فني جيد، ويحمل مضموناً جيداً ومنسجماً مع الشكل، فالأدب الذي يشجع على الإحرام ويحرض على الإباحة هذا أدب ضار، وإن كان ذا

ولقد كان الأدب في مراحل الأولى أدباً شفوياً ثم أصبح مكتوباً مع ظهور الكتابة، وهذا شأن الآداب العالمية كلها. ومع ظهور المطبعة، أصبح الأدب مطبوعاً، إذ ظهرت المطبعة عام ١٤٥٣م على يد المخترع الألماني غوتنبرغ. وكانت بدائية، وأخذت تتطور شيئاً فشيئاً.

إذاً ما هو الأدب، هل هو فنٌ أو علم؟ أم هو فنٌ وعلم بالوقت ذاته؟ وهل الطابع العلمي هو الصفة الغالبة في الأدب أم الصفة الفنية؟

١- تعريف عبد الرحمن بن خلدون

للأدب:

لا بأس، قبل الإجابة عن التساؤلات السابقة، من الإشارة إلى تعريف ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) للأدب الذي جاء في مقدمته الشهيرة، وبالتحديد في الفصل السادس والثلاثين، الذي يحمل عنوان «في علوم اللسان العربي» «أنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف، يريدون علوم اللسان...»^(٣)، وكان ابن خلدون دقيقاً في تعريفه للأدب، فجعله علماً وفناً، ولم ينسب هذا التعريف إلى نفسه، وإنما نسبته إلى العرب، وفهم أن الأدب يتأثر بالعلوم الإنسانية كافة، مثل علم الاجتماع، وعلم النفس وغيرهما.

مستوى فني جيد، فلا بدّ للأدب من حمل رسالة أخلاقية إضافة إلى المستوى الفني الرفيع أو أن يقوم بمهمة قومية أو وطنية.

٣- تعريف الدكتور محمد مندور

للأدب؛

أمّا الدكتور محمد مندور (١٩٠٧-١٩٦٥) فيعرف الأدب في كتابه «النقد المنهجي عند العرب» بما يلي: «كلّ المؤلفات التي تكتب للمتلقين كافة، لتثير لديهم بفضل خصائصها الجمالية صوراً خيالية أو انفعالات شعورية أو إحساسات فنية»^(٤).

٤- تعريف الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر:

ولقد عرّف الناقد الفرنسي جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠م) الأدب: «الأدب كشف للإنسان والعالم»^(٥) وذلك في كتابه «ما هو الأدب» (١٩٤٧م) وبين سارتر أنّ غاية الأدب هي الإنسان وتكوينه الوجداني والأخلاقي، أمّا حقل الأدب فهو كلّ نشاطات الإنسان والطبيعة.

٥- تعريف الروائي الروسي ليف

تولستوي:

أمّا الأديب الروسي العظيم ليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠م) فلقد عرّف الأدب في كتابه «ما هو الفن» (١٨٩٧م): «الأدب واحد من وسائل اتصال الناس فيما بينهم، إنّ كلّ عمل أدبي يجعل الإنسان المستقبل

أو القارئ، يدخل في اتصال مع المبدع»^(٦) وبذلك فإنّ تولستوي يفهم أنّ الأدب رسالة يوجهها الأديب إلى المتلقي، ولذلك يجب أن تكون الرسالة واضحة وخالية من الغموض، فلقد انتقد تولستوي المدرسة الرمزية لأنّ ممثليها يلجؤون إلى الغموض، ويكتبون للنخبة، وليس للجماهير ومن هؤلاء الشاعر الفرنسي بودلير (١٨٢١-١٨٦٧م) وكان تولستوي يرى أنّ معظم الأدباء يكتبون للنخبة، والأدب الشعبي، برأيه، هو الأدب الذي يصل إلى عامة الشعب، وكان يقصد بعامة الشعب الفلاحين، ولذلك أخذ تولستوي يكتب للفلاحين قصصه القصيرة الشعبية، وهي موجهة للفلاحين، وعن حياتهم، وتعبر عن القيم التي يؤمنون بها. فكان تولستوي يطرح الأسئلة التالية ماذا نكتب؟ ولماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟

٦- تعريف الناقد أحمد أمين:

ولا بأس هنا من ذكر تعريف أحمد أمين (١٨٨٧-١٩٥٤م) للأدب، الذي جاء في الجزء الأول من كتابه «النقد الأدبي»: «وخير تعريف للأدب أنّه التعبير عن الحياة أو بعضها بعبارة جميلة»^(٧) ويتابع أحمد أمين آراءه عن الأدب ويرى أنّ الأدب يعتمد على الذوق والعاطفة، وتختلف عواطف الناس من شعب لآخر ومن فرد لآخر، لأنّ الأدب هو مرآة الأمة، وتعبير عن عصر معين من

ينقل عاطفته إلى المتلقي، أو إلى عدد كبير من المتلقين.

العاطفة من أهم عناصر الأدب إضافة إلى الخيال والمعاني والأسلوب. ويرى أحمد أمين أن العاطفة قد تكون قوية أو ضعيفة. وقد تكون العاطفة قوية ولكنها لا تدوم فترة طويلة. وقد تكون العاطفة كاذبة، وقد تكون صادقة، فلم يكن البحري صادق العاطفة في أغلب الحالات، ويشير إلى هذه النقطة الدكتور طه حسين، ويقدم د. طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) تحليلاً لشخصية البحري (٨٢١-٨٩٦م)، ويرى أن شخصيته لا تخلو من النفاق، ويقدم أمثلة على ذلك، فلقد مدح البحري الخليفة: «المنتصر وأثنى عليه، وما دالت دولته حتى هجاه. وولي المستعين، فمدحه وأكثر من مدحه، وعندما خلع المستعين هجاه، وأسرف في هجائه، إسرافاً لا يحتمل من رجل كريم..

ثم لم يقف اضطراب البحري عند الخلفاء، بل صنع مثل هذا مع القواد والأمراء والوزراء، ويحدثنا الرواة أنه هجا من هؤلاء أكثر من أربعين، كان قد مدحهم جميعاً، وإنما هجاهم عندما تكرر لهم الأيام. مدح كاتباً من كتاب المستعين، هو شجاع، ثم لما غضب المستعين على شجاع، وسجنه، أسرف البحري في الشماتة به، ودخل على

العصور التي تمر بها أمة معينة، ويختلف أسلوب كل أديب عن الآخر، فهذا أديب واقعي وآخر رومانسي، وهذا أديب غيري وآخر ذاتي، بمعنى أن الغيري هو الأديب الذي يصور عواطف الآخرين والذاتي هو الذي يعكس تموجات عواطفه الذاتية في أدبه. وقد يكون الأديب ذاتياً وغيرياً في الوقت ذاته، وقد تغلب الذاتية في أدبه، على الغيرية أو العكس. ويرى بعض النقاد ومنهم أحمد أمين أن عناصر النص الأدبي أربعة: وهي العاطفة والفكر والخيال والأسلوب.

العاطفة في الأدب:

ويقول ابن رشيق القيرواني (٣٩٠-٤٥٦هـ، ١٠٠٠-١٠٦٣م) في كتابه «العمدة في محاسن الشعر وآدابه»: «قواعد الشعر أربعة: الرغبة، والرغبة، والطرب، والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرغبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والوعيد والعتاب» وبهذا يكون ابن رشيق قد بين بواعث المدح والهجاء والغزل والاعتذار. كان الشاعر يذكر في ممدوحه صفات معينة مثل العقل والشجاعة والكرم والعدل والعفة. أما الغزل فهو نوعان عذري وحسي. هناك عاطفة المبدع وعاطفة المتلقي، ويستطيع المبدع أن

المستعين وأنشده قصيدة، يحرضه فيها على قتله واستصفاء أمواله.

وأقبح من هذا في أخلاق البحري، أنه مدح أكثر من عشرين رجلاً من كبار الأشراف في بغداد وغيرها في ذلك العصر، فلما تغيرت حالهم، ودالت دولتهم، نقل هذه المدائح عنهم إلى غيرهم، ومحا أسماءهم، وأثبت مكانها الأسماء الجديدة. فهو إذا لم يتردد في بيع شعره، كأقبح ما يبيع الشعراء أشعارهم»^(٨)

وكان البحري شديد الإعجاب بنفسه، ويشبهه د. طه حسين بأحد خطباء أثينا واسمه (كليون)، الذي كان في أثناء خطبه يصول ويجول، ويتقدم ويتراجع، ويمشي نحو اليمين واليسار، ويحرك عنقه يميناً وشمالاً، وكذلك كان يفعل البحري، حتى إن الخليفة المتوكل كان يغضب من حركاته، وكان البحري لا يهتم بمظهره ولباسه. وكان ضعيفاً لا يستطيع الابتعاد عن قصور الخلفاء لحاجته إلى مالهم وعزهم. ولكن البحري كان صادقاً في مدحه للمتوكل.

ويرى د. طه حسين أن شعر البحري يدل على عبقرية مؤلفه: «فشعر البحري من أجمل ما ترك لنا الأدب العباسي...»^(٩) وأجمل شعره ذلك الذي قاله في الخليفة المتوكل، يقول فيه:

أكرم الناس شيمه، وأتم الناس
س خلقاً، وأكثر الناس رفداً
هو بحر السماع والجود فازدد
منه قرباً، تزدد من الفقر بعدا
شبيه النبي خلقاً وخلقاً
ونسب النبي جداً فجداً
فابق عمر الزمان حتى نوذي

شكر إحسانك الذي لا يؤدي^(١٠)
نلاحظ مبالغة البحري في مدح الخليفة المتوكل، فالخليفة كريم، وهو يشبه النبي العربي الكريم، صلى الله عليه وسلم، يشبهه في أخلاقه وفي خلقه، ويعود بنسبه إلى الرسول، وجرت حرب بين أفراد قبيلة تغلب، في ذلك الوقت، فكلف الخليفة المتوكل وزيره الفتح بن خاناقان ليصلح بين المتحاربين، فقال البحري بهذه المناسبة:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها
تذكرت القربى ففاضت دموعها^(١١)

العاطفة في شعر المتنبي:
كانت عاطفة المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥ م.) صادقة حين مدح سيف الدولة الحمداني أمير حلب:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظن أن الليث يبتسم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

إِنْ كَانَ سِرْكُكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا

فَمَا لَجِرِحَ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فَيَعْجِزْكُمْ

وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرْمُ^(١٢)

نلاحظ في هذه القصيدة الميزة التي

تتميز بها قصائد المتنبي وهي مزجه بين غرضه الأساسي وهو هنا المدح، وبين غرض الفخر والاعتزاز بالذات، وبين ترصيع شعره بحكم عامة تصلح لأزمنة متعددة وأمكنة كثيرة. يقول المتنبي: لأي شيء أخفي حب سيف الدولة؟ وحبّه يضنّيني ويتعبّني، في حين تتظاهر الأمم في حب سيف الدولة، وهي قد لا تحبه فعلاً.

ويرى الدكتور طه حسين في كتابه «مع المتنبي» (١٩٣٦م) أن المتنبي يبالي في مدح الأمير سيف الدولة الحمداني: «هذا الشاعر العظيم الذي يفاخر العراء ويستعلي عليهم، ويسرف في الكبرياء والخيلاء، يتمنى أن يكون فرساً يحمل الأمير إذا سار، أو خيمة تظل الأمير إذا أقام»،^(١٣) ويدل على ذلك البيت التالي للمتنبي:

لَيْتَ أَنَا إِذَا ارْتَحَلْتُ لَكَ الْخَيْلَ

لُ، وَأَنَا إِذَا نَزَلْتُ الْخِيَامَ

أما عاطفة المتنبي حين مدح كافور الإخشيدي لم تكن صادقة، فيقول في مدحه:

إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خُلَاصاً مِنَ الْأَذَى

فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوباً وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا

إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِي بِالْنَدَى

فَإِنَّكَ تَعْطِي فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا

وَتَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احْتِقَارَ مُجْرِبٍ

يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا وَحَاشَاكَ فَانِيَا

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْمَلِكُ بِالْمُنَى

وَلَكِنْ بِأَيَّامِ أَشْبَنِ النُّوَاصِيَا.^(١٤)

يتصف هنا مدحه، كعادته، بالمبالغة، وتوافر الحكمة. إضافة إلى الفخر والاعتزاز بالذات ويعود المتنبي ويهجو كافور الإخشيدي هجاءً لاذعاً وذلك عام ٣٥٠ هجري يوم عرفه. يقول في هجائه:

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْساً مِنْ نَفُوسِهِمْ

إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عَوْدُ

لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ

إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسُ مَنْكَبِدُ

مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنِ

يَسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مَحْمُودُ

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمُخْصِيَّ مَكْرُمَةً

أَقْوَامُهُ الْبَيْضُ أَمْ أَبَاؤُهُ الصَّيْدُ^(١٥)

يخاطب المتنبي في البيت الأول العيد، ويقصد عيد الأضحى، ويتمنى ألا يكون هذا العيد كالأعياد السابقة الحزينة، ومعنى البيت الثاني: أن الشعراء يحسدونه على علاقته بكافور الإخشيدي، وهو باك بما يلقي من كافور وبخله ومعنى البيت

لومه، لأنَّ زيادة اللوم تؤدي إلى نقيض غايتها، ويقول في الشطر الثاني: إنَّه يطلب الخمرة ليتداوى بها من ذاتها. كقول قيس ابن الملوَّح:

تداويت من ليلى بليلى وحبها

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر.^(١٨)

ويقول أبو نواس في البيت الثاني: إنَّ الخمرة تبعث الفرح في الحجر القاسي، فكيف بالإنسان؟ فهي عدوة الأحزان.

هذان بيتان جميلان لأبي نواس، وإنَّ كان الشاعر لا ينادي بالأخلاق العفيفة التي كان ينادي بها شاعر عباسي آخر وهو أبو العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧م) إذ يقول:

ولو أني حببت بالخلد فرداً

لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا هطلت علي ولا بأرضي

سحاب ليس تنتظم البلاد

ويقول المعري في قصيدة أخرى:

لو كان لي أو لغيري قدراً نمل

فوق التراب لكان الأمر مشتركاً

ويقول المعري:

أيا أنفساً ما صومها وصلاتها

بدين لها، بل تركها الظلم دينها

ويقول أبو العلاء المعري:

وأما الخمر فهي تُزيل عقلاً

فتحت به مغالِقُ مُبهمات

الثالث: إنَّ قوم كافور كذابون، لا يحسنون إلى ضيفهم وبالوقت ذاته لا يمكنونه من الرحيل، ومعنى البيت الرابع: إنَّ قوم كافور يجودون بالأقوال لا بالأموال.

وقد تثير العاطفة لدى المتلقي الحزن أو السرور، وهي من أهم عناصر الأدب.

المضمون في الأدب

والعنصر الثاني في النص الأدبي هو المضمون أو المعنى أو الفكر، ويتابع أحمد أمين قوله: «يُستنتج من هذا أنَّ الأدب الراقي ينبغي أن تكون له صفة أخلاقية»^(١٩) ويعود إلى هذه النقطة ويرى أنَّ الأدب لا ينبع من الأخلاق وليس الشاعر واعظاً يبشر بالأخلاق السليمة، فهناك شعر جميل، وإنَّ كان يخلو من أية مواظ أخلاقية، فنعجب بخمريات أبي النواس وغزله، لأنَّ الأدب يصف الطبيعة الإنسانية ويشرحها، ويعرض ما فيها من خير أو شر، وما تحمله من شهوات حادة أو معتدلة، وليس الفن محاضرات في الأخلاق والسلوك، فمثلاً عندما يقول أبو النواس (٧٦٢-٨١٣م) (١٤٥-١٩٩هـ):

دع عنك لومي فإنَّ اللوم إغراء

وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزلُ الأحزانُ ساحتها

لومسها حَجَرٌ مَسْتُه سراءُ^(٢٠)

يخاطب الشاعر أحد رؤساء المعتزلة، واسمه النظم، ويطلب منه أن يكف عن

من كبار مؤسسي هذه المدرسة الأدبية، وأصبحت معالم هذه المدرسة واضحة بعد رواية «الأم» (١٩٠٦م) لغوركي، كما يعد حنا مينه (مواليد ١٩٢٤م)، وسعيد حورانية من ممثلي هذه المدرسة في القطر العربي السوري ومن أعلامها المسرحي الألماني بريخت (١٨٩٨-١٩٥٦م)، والشاعر الإسباني لوركا (١٨٩٨-١٩٣٦م)، والأديب التركي ناظم حكمت (١٩٠٢ - ١٩٦٣م) والشاعر الروسي مايكوفسكي (١٨٩٣ - ١٩٣٠م)، الملقب بشاعر الثورة الروسية. وكان لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) يرى أن الأديب الحر هو الذي يخدم الكادحين، وهم الأكثرية في المجتمع، ولا يخدم المستغلين، وهم الأقلية. ويرى المفكر الهنغاري جورج لوكاتش (١٨٨٥-١٩٧١) أن الواقعية الاشتراكية في حركة دائمة، فهي لا تعرف السكون، من حيث المضمون والشكل، وبذلك فهي تطوير للمدرسة الواقعية النقدية، وكذلك دعا إلى الالتزام المفكر الروسي تروتسكي (١٨٧٩-١٩٤٠م).

ويرى أنصار هذا الاتجاه الأدبي أن الأديب لا يكتفي بتصوير أوضاع مجتمعه، فيجب على الأديب أن يعيش المشاكل التي تقلق الطبقة، التي ينتمي إليها. وبهذا المقياس الملتزم، لا يعد الأثر الأدبي جيداً، إلا إذا عبر بوضوح عن موقف

تذيع السر من حُر وعبد
وتعرب عن كناثر مُبهمات
ولا تُخبر شؤنوك، واجعلنها
سراثر، في الضمير، مُكتمات
وما الجارات إلا جاريات
بعيبك، إن وُجدن مهيمات
فلا تسأل: أهند أم ليس
ثوت في النسوة المتخيمات
ولا ترمق بعينك رائحات
إلى حمامهن، مكّمات^(١٩)
أي إن الخمر تجردك من عقلك الذي
بوضح لك كبريات القضايا، فهي تذيع
الأسرار الخفية التي لا تريد كشفها ويقول:
لاترمق، أي لا تسترق النظر إلى جاراتك.
أمّا في العصر الحديث، فلقد انقسم
الأدباء إلى فريقين كبيرين، ورأى الفريق
الأول أن على الأدب القيام بمهمة اجتماعية
معينة. أي يجب أن تلقى على عاتق الأدب
مهمة عملية نفعية واضحة، ورأى الفريق
الثاني أن على الأدب أن يخدم نفسه فقط،
وطرحوا شعار الأدب من أجل الأدب، أو
الفن للفن.

وطرح الفريق الأول مقياس الالتزام في
الأدب. ولعل مدرسة الواقعية الجديدة أو
الواقعية الاشتراكية هي إحدى المدارس التي
تبنت مبدأ الالتزام في الأدب، ويعد الأديب
الروسي مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦م)

ومع هذا فلا بدّ للإنسان من الاختيار، لأنّ المرء إذا أذاب وجوده في غيره من الناس، وكان سلبياً.

فإنّهُ يلغي وجوده، وإذا اختار الإنسان لنفسه موقفاً معيناً من قضايا عصره، فلا بدّ من الالتزام بهذا الموقف. يقول الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه «الأدب المقارن» (١٩٥٣م): «ولهذا يسمى الأدب الوجوديّ القائم على الفلسفة الوجوديّة: أدب الالتزام أو أدب المواقف، وفيه يحدد الكاتب موقفه من مسائل عصره تحديداً تاماً»^(٢١) فالأدب في نظر المدرستين المذكورتين وسيلة وليس غايةً بحدّ ذاته.

أمّا موقف الفريق الثاني فيتلخص في أنّ الفن يجب أن يخدم ذاته، وأنّ يكون هدفاً بحدّ ذاته وليس وسيلةً لغايات اجتماعية. فلو سئل أحدهم ما هو الهدف من كتابة رواية معينة؟ لأجاب الرواية غاية بحدّ ذاتها، المهم أن تكون الرواية جميلة وجيدة، وليس الجمال خادماً للحق. ومن أعلام هذه المدرسة الشاعر الروسي «فيت»، ويطلق النقاد على هذه المدرسة اسم المدرسة البرناسية، نسبة إلى جبل برناس في اليونان، موطن الإله أبوللو.

أمّا في أدبنا العربي الحديث فلقد نادى الاتجاه الواقعيّ في الأدب بقضايا أمّتنا والمطالبة بحرية الإنسان والأرض

صاحبه من قضايا عصره وأمّته، وخاصة في الفترات، التي تتحول فيها الأمّة من عالم الإقطاع والرأسمالية إلى عالم الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. ولقد طالبت المدرسة الأدبية المذكورة الأدباء بالالتزام بثلاثة شروط:

الشرط الأوّل: وهو تصوير البطل الإيجابي، الذي يتبنى قيماً ومبادئ معينة ويناضل في سبيل تحقيقها.

الشرط الثاني: أن يبيّث الكاتب في تصويره للشر طرق التخلص منه، وأن تكون نظرته للمستقبل نظرةً متفائلة.

الشرط الثالث: أن يصوّر الواقع من وجهة نظر الفكر الاشتراكيّ.

ويقول غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦م) في بحث له بعنوان «الفن»: «الفن أساسه صراع، في سبيل شيء ما، أو ضد شيء ما، ليس هناك، ولا يمكن أن يكون فن لا مبال،...»^(٢٠)

ولقد تبنت مبدأ الالتزام في الأدب مدرسة أدبية أخرى، وهي المدرسة الوجودية، ويعد الكاتب الفرنسي جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠م) من أبرز أعلامها. ويرى سارتر أنّنا ملتزمون قبل أن نلتزم، أي أنّنا لا نختار أسرتنا ولا بيتنا، ولا قوانا الجسميّة والعقليّة، فهي مفروضة علينا. فوجود الإنسان سابق على ماهيته التي يحققها بذاته.

ينسجم المضمون مع الشكل، فلا يطغى أحدهما على الآخر، وأحياناً يشبهون الشكل بالوعاء، والمضمون بمحتوى الوعاء، أو بالثمرة وقشرتها. وتحدث عن هذه النقطة بشكل رائع الشاعر الهندي طاغور (١٨٦١-١٩٤١م) في مقاله بعنوان «مضمون الأدب»: «يؤثر العالم الخارجي على وعينا، ويثير فيه عالماً آخر، وهو عالم مفعم بالألوان والصور والأصوات وأمور أخرى آتية من العالم الخارجي، ومرتبطة ارتباطاً عضوياً بمفاهيمنا عن الخير والشر والرعب، والدهشة والحزن والفرح، والتعبير المتنوع لهذا العالم الخارجي مرتبط بغنى عالمنا الروحي».^(٣٣)

ولقد أشار شيخ النقّاد الروس بيلينسكي (١٨١١-١٨٤٨م) إلى أهمية ذاتية الكاتب في إبداع مضمون العمل الأدبي في بحثه بعنوان «نظرة إلى الأدب الروسي خلال عام ١٨٤٦م» وفي «نظرة إلى الأدب الروسي خلال عام ١٨٤٧م» كما أشار تشيرنيشيفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩م) في بحثه بعنوان «الصدق في النقد» إلى أن مضمون العمل الأدبي لا يمكن أن يتشكل دون الأساس الذاتي.

الخيال في الأدب:

والعنصر الثالث في الأدب هو الخيال، وهو موهبة أو ملكة تزود الفكر بالصور التي يحتاج إليها، ولقد أشار إلى هذا العنصر

من المستعمر، وبحرية المرأة، والعدالة الاجتماعية، ونادى الأدب بالالتزام بقضية أمتنا الأولى ألا وهي قضية فلسطين، وكلنا نحفظ منذ الطفولة قصيدة بعنوان «وردة من دمنا» للأخطل الصغير، بشارة الخوري (١٨٨٥-١٩٦٨) التي يخاطب بها فلسطين:

يا فلسطين التي كدنا ما

كابدته من أسى ننسى أسانا

نحن يا أخت على العهد الذي

قد رضعناه من المهد كلانا

شرف للموت أن نطعمه

أنفساً جبارة تأبى الهوانا

انشروا الهول وصبّوا ناركم

كيفما شئتم فلن تلقوا جباناً^(٣٤)

فمفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث، يختلف عن مفهوم الالتزام في الآداب الأوروبية، وذلك بسبب خصوصية المرحلة التاريخية التي تمرّ بها الأمة العربية.

لأننا مازلنا نعانى من الاحتلال الأجنبي لجزء من تراب وطننا، ونعانى من مشاكل اجتماعية لا تقلق الواقع الأوروبي في العصر الحديث، ولذلك دعا الأدب العربي المعاصر إلى التحرر من المستعمر وإلى التخلص من واقع التجزئة وإلى مواجهة التحديات التي تعترض الأمة العربية.

أمّا من الناحية الفنية، فيجب أن

الجمع بين عناصر متفرقة، لا توجد رابطة بينها عادة^(٢٥) ولقد فرق الشاعر والناقد الإنكليزي كولريدج (١٧٧٠-١٨٥٠م) في كتابه «النظرية الرومانسية في الشعر - سيرة ذاتية» (١٨١٧م) بين نوعين من الخيال:

١- الخيال الأولي: وهو ضروري لكل الناس، وليس فقط للآدباء والمبدعين.

٢- الخيال الثانوي: ويتميز به الشعراء، وهو يقدم المحسوسات ممزوجة مع العواطف والمشاعر، ويزيل التناقض بين الذات والموضوع، وبين القلب والعقل، وبين الروح والمادة والشعر الذي يبدعه الخيال هو شعر الطبعة والعفوية، وهو أقرب إلى شعر الإلهام منه إلى شعر الصنعة، فكان الشاعر يوحى إليه، أو يتلقى قصائده من قوى خفية. إذا اتصف الشاعر بخيال خصب، فإنه ينظم قصيدة ذات وحدة عضوية، وإذا لم يتمتع الشاعر بالخيال الخصب فإنه ينظم قصيدة مفككة لا روح فيها، ولذلك فالخيال صفة من صفات الشعراء العباقرة، ومن الصعب ترجمة الشعر العظيم الذي يتصف بالوحدة العضوية، أما إذا افتقر إلى الوحدة العضوية، فإنه يترجم لأنه مفكك وغير متماسك البنية.^(٢٦)

قد يسمح الأديب لنفسه بتصوير أشياء لم يرها وإنما يتخيلها، ويقدر ما يكون خيال الأديب خصباً، بقدر ما يقدم أدباً رفيعاً،

أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في كتابه «فن الشعر» وواضح كذلك مما قلناه أن مهمة الشاعر ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلاً، بل رواية ما يمكن أن يقع.. إما بحسب الاحتمال، أو بحسب الضرورة وذلك أن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بكون أحدهما يروي الأحداث شعراً والآخر يرويها نثراً، فقد كان من الممكن تأليف تاريخ هيرودوتس نظماً، ولكنه كان سيظل مع ذلك تاريخاً سواء كتب نظماً أو نثراً، وإنما يتميزان من حيث كون أحدهما يروي الأحداث التي وقعت فعلاً، بينما الآخر يروي الأحداث التي يمكن أن تقع.. الشعر بالأحرى يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئي.^(٢٧) قلل أرسطو من شأن الخيال، وكان أرسطو يخشى الخلط بين الخيال والوهم. وانتقلت أفكار أرسطو إلى النقاد العرب القدماء، فأكد ابن سينا على الفكرة ذاتها. وكان الجاحظ يرجع الصنعة على المعاني، ويرى أن المعاني مطروحة على قارعة الطريق، يعرفها الناس كلهم، المهم كيفية صياغة هذه المعاني، وبذلك فهو يركز اهتمامه على المبنى أكثر من اهتمامه بالمعنى.

يقول الناقد الإنكليزي ريتشاردز، والذي كان أستاذاً في جامعة كامبردج في كتابه بعنوان «مبادئ النقد الأدبي» الذي صدر عام (١٩٢٨م): «هناك معنى للخيال وهو

فمثلاً قول الشاعر الجواهري (١٩٠٠-١٩٩٧م):

يا شام، يا لمح الكواكب في دجى

يا موكب الأعراس في صحراء

هنا يصف الشاعر محمد مهدي الجواهري الشام بأنها نور كوكب في ليلة ظلماء، وبأنها موكب أعراس في منطقة قاحلة صحراوية، وهو بذلك يشير إلى أن دمشق هي الأكثر بين الدول العربية تمسكاً بالمصالح العربية، وهي التي تضحي في سبيل أهداف الأمة.

أو مثلاً قول المتنبي:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه

أي بما أنا بأك منه محسود
أي أنني لم أجد في حياتي سوى المصائب،
ومع هذا أجد من يحسدني حتى على
مصائب، ونرى الخيال المجنح في قصيدة
المتنبي التالية:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فيقول إنك تجد الحياة مظلمة في وجهك
لدرجة أنك تجد الشفاء من حالتك هذه في
الموت. ويتابع قوله:

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

بمعنى، إذا كرمتم فلا تعقب كرمك
بالمنية والأذية لأنك إن فعلت ذلك فلن يبقى
المال ولن تحصل على الحمد والشكر.

خلقت ألوفاً لو رحلت إلى الصبا

لفارقت شبيبي موجع القلب باكياً

أي إنني إذا اعتدت على ظروف معينة
استصعبت فراقها حتى لو قيل لي وأنا شيخ:
عد إلى شبابك، لعدت وفي قلبي وجع وألم.

ففي هذه الأبيات الثلاثة السابقة للشاعر
العظيم المتنبي نجد الخيال المجنح والتعبير
الجميل كما نجد فكراً سليماً. وبالتالي فإن
الأديب لا يقوم بتسجيل أحداث معينة أو
يعكس أحداثاً معينة وإنما يصور أحداثاً
يمكن أن تقع ولكي يقوم بهذا العمل لابد
من أن يتمتع بخيال خصب.

الهوامش والمصادر

- ١- الدكتور شوقي ضيف، البحث الأدبي، طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، القاهرة، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ص ٩.
- ٢- ابن خلدون- المقدمة، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٣م، ص ٣٤٣
- ٣- ميخائيل نعيمة، المؤلفات الكاملة، المجلد الأول المرحلة الثانية، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م، ص ٤٤٦.
- ٤- د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص ١٤.

- ٥- جان بول سارتر، ما هو الأدب، ترجمة: محمد غنيمي هلال، بيروت، دار العودة، ١٩٨٤م، ص ٧١.
- ٦- ليف تولستوي، ما هو الفن، ترجمة: محمد عبدو النجاري، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩١م، ص ٢٣.
- ٧- أحمد أمين، النقد الأدبي، الجزء الأول، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة ١٩٦٧م، ص ١٧.
- ٨- د. طه حسين، المؤلفات الكاملة، المجلد الخامس، البحري وشعره، ص ٦٦٧.
- ٩- المصدر السابق، ص ٦٨٢.
- ١٠- ديوان البحري، الجزء الأول، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، مصر، ١٩١١م، ص ١٢٨.
- ١١- ديوان البحري المجلد الثاني، تحقيق: حسن الصيرفي، طبعة ٣، القاهرة، دار المعارف، ص ١٢٩٩.
- ١٢- ديوان أبي الطيب المتنبّي، بشرح أبي البقاء العكبري، بيروت، دار المعرفة، ص ٣٦٤.
- ١٣- د. طه حسين، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس، ص ٢٠٣.
- ١٤-
- ١٥- ديوان المتنبّي، شرح أبي البقاء العكبري، الجزء الرابع، بيروت، دار المعرفة، ص ٢٨١.
- ١٦- ديوان المتنبّي، شرح أبي البقاء العكبري، الجزء الثاني، بيروت، دار المعرفة، ص ٣٩.
- ١٧- أحمد أمين، النقد الأدبي، مصدر سابق، ص ٥١.
- ١٨- ديوان أبي نواس، الجزء الأول، تحقيق: إيليا الحاوي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص ٢١.
- ١٩- ديوان قيس بن الملوّح، القاهرة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ص ١٦٠.
- ٢٠- ديوان لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري، تحقيق: د. كمال اليازجي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م، ص ١٩١.
- ٢١- مكسيم غوركي، المؤلفات الكاملة في ثلاثين مجلداً، مجلد ٢٧، موسكو، ١٩٥٥، ص ٤٤٤، المصدر باللغة الروسية.
- ٢٢- د. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، بيروت، دار العودة، الطبعة الخامسة، ص ٤٠٧.
- ٢٣- ديوان الأخطل الصغير، بيروت، وردة من دمناء، ص ١٨٠.
- ٢٤- طاغور، المؤلفات الكاملة، مجلد ٨، موسكو، ١٩٥٧م، ص ٢٩٩، المصدر باللغة الروسية.
- ٢٥- أرسطو، فن الشعر، بيروت، دار الثقافة ١٩٧٣ ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٢٦.
- ٢٦- ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٩٦٣م، ص ٣١١.



الثورة الجزائرية في الكتابة الروائية بين التخيل والأيدولوجيا



د. سيدي محمد بن مالك

الانتقال من وعي قائم مترسب ومتجذر في ذهن الإنسان بفعل ظروف تاريخية واجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية متعدّدة إلى وعي ممكن لا يحضر إلاّ كحلم جميل يراود خياله ويدعوه إلى ترجمته في نصّ إبداعيّ متخيّل.

ويتجسّد هذا الصّراع الفكري، في النصّ الروائي، من خلال الشّخصيات اللّغوية الورقية التي يحكم الكاتب صنعها نفسياً واجتماعياً وأخلاقياً وفكرياً حتّى تضطلع بالتعبير عن الانقسام الوجودي والشّعوريّ الذي ينتابه حيال العالم الاجتماعيّ؛ فمهما حاول الكاتب التّمويه على القارئ بتتويع ضمائر السّرد ووضعها على لسان الراوي العليم أو الشّخصية الفاعلة والمتكلّمة

تعدّ الرواية جنساً سرديّاً يشخّص الوجود عبر تطويع اللّغة المعيارية بغرض تقديم واقع متخيّل يسمو على الواقع الفعلي ويتجاوزه إلى طرح رؤية ممكنة التّحقّق، ذلك أنّ الرواية تضطرب، في تشخيصها للعلاقة بين الفرد والمجتمع، بين وعي قائم يمثّل جملة من الأهواء والهواجس والأفكار والاختيارات والالتزامات والآمال الماثلة في ذهن الفرد الاجتماعيّ ووعي ممكن يمثّل، غالباً، نقضاً للوعي القائم من حيث إنّهُ يعبر عن رفض كلّ ما يشدّ الإنسان إلى القيم البالية والآداب البائسة وينشد واقعاً اجتماعياً جديداً تَعَمَّرُهُ قيم وآداب مختلفة.

ويخوض الكاتب، باعتباره فرداً اجتماعياً مثقّفًا، صراعاً فكرياً وهو يحاول تشخيص

✻ أستاذ محاضر في جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - الجزائر.

وتقديم خطابات الشخصية المباشرة وغير المباشرة، تظل رؤيته للعالم الفلك الذي تحوم حوله الرؤى والأيديولوجيات المشخصة في النص؛ فالكاتب يخضع التعدد الأيديولوجي الموجود في الواقع إلى إستراتيجية مسبقة تخدم نواياه وأفكاره.

وتكون الشخصية المحورية أو البطلة، عادة، هي الممثل لشخص الكاتب النفسي والنطاق بلسانه والمعبر عن وعيه الاجتماعي، حيث تدخل هذه الشخصية في نزاع أفعالي وكلامي مع الشخصيات الأخرى لتعرب عن تأملاتها في الإنسان والحياة.

إضافة إلى دخولها في جدال نفسي حادّ تسائل فيه ذاتها باستمرار رامية إلى نقد آرائها وتصحيح أخطائها وإعادة صياغة خواطرها. إن الشخصية الروائية أيقونة أدبية يتوسل بها الكاتب التلميح أو التصريح بحقيقته التي تتوزع بين الصراع الخارجي مع المجتمع والعالم والصراع الداخلي مع مبادئه وإنسانيته.

ويكاد يغلب على وعي الشخصية المحورية أو البطلة، في عرف النقاد الاجتماعيين، البعد الإشكالي الذي يجعلها أسيرة أحلام لا تستطيع تحقيقها في أرض الواقع (واقع الرواية طبعاً) بسبب تذبذبها بين الإرادة والفعل، وبين النية والعمل، ذلك أن ظهور الرواية قد ارتبط بالبرجوازية

التي نبذت القيم الأصيلة نظير السّماحة والمحبة والخير والعدل والإيثار والتعاون وراحت تشيع، في المجتمع، قيماً جديدة هي قيم السوق التي سلبت الفرد كرامته وحرّيته وحولته إلى آلة منتجة ومستهلكة؛ فاعتراه التجرّ ولازمه الاغتراب واكتنفه اليأس، ولم يُلّف حلاً سوى البحث عن قيمه الأصيلة التي ضيّعها المجتمع؛ بحثاً يفتقر إلى العزم والحرص. من هنا، كانت الرواية «قصة بحث متدهور (يُسمّيه لوكاتش «جنونياً»؛ بحث عن قيم أصيلة في عالم متدهور أيضاً، لكن في مستوى آخر متقدّم عليه وبصيغة أخرى»⁽¹⁾. ومثالها رواية «التربية العاطفية» لـ «فلوبير» التي تعرض للانقسام الذي تعيشه الشخصية الإشكالية بين رضاها بما يجود به الواقع واستحالة الثورة عليه في الآن ذاته.

وتمتاز الشخصية الإشكالية عن سواها من الشخصيات الروائية بإحساسها المرهف الذي يجعلها لا تقوى على تحمّل تعقيدات الحياة وتناقضات المجتمع؛ فتلوذ بالماضي والشعر والفن لتستحضر معاني الفطرة والطّيبة والجمال والانسجام والتوافق الغائبة أو المغيبة عن العالم ولتحتمي بها من الخوف والوحشة اللذين يُثيرهما الواقع في نفسها، وكأنّها تتشدّ للحمّة مع المجتمع مثل ما تجسّده الملاحم القديمة ويشخصه

«زمن الازدراء» و«الأمل» لـ «أندريه مالرو»، حيث إن هاتين الروائيتين تشخصان النضال الثوري الذي تخوضه شخصيات تنتمي إلى فئات اجتماعية مختلفة يجمعها رافد الثورة الذي تمثله الطبقة العاملة والحزب الشيوعي.

ومن ثم، فإن الأيديولوجيا الثورية، في نظر صانعيها ومعتقيها، هي رؤية فلسفية للمجتمع والعالم تنطلق في تفسير الوجود الإنساني من أن الصراع هو الذي يؤسس تاريخ البشر وأن البروليتاريا أو الطبقة العاملة هي طبقة اجتماعية تستطيع من دون سواها من الطبقات فهم الاختلالات والانقسامات الاجتماعية وإقامة مجتمع جديد تنتفي فيه الصراعات الطبقيّة التي يُحفرها التّشيؤ، وهذا المجتمع هو مجتمع الكادحين الذي يؤلف طبقة عالميّة.

غير أن الرؤية الثورية ليست رؤية خاصّة بالطبقة العاملة فحسب، بل هي شعار المضطّهدين والمقهورين والمُهمّشين في العالم؛ فقد عرف مصطلح الثورة انزياحاً عن مدلوله الماركسيّ ذي الصّفة الكونيّة إلى مدلولات دينية وقومية ووطنية. وهذا ما ينطبق على الثورة الجزائرية التي أخذت، في البداية، بعداً دينياً ووطنياً قبل أن تتحوّل إلى ثورة اشتراكيّة تبدّت، بعد الاستقلال، في محاربة الاستغلال والتخلف والجهل

الشّعْر والْفنّ: تلك اللُّحمة التي انفصمت عراها بسبب قيم السّوق التي «أفسدت» الدّهر وأخضعت الشّعْر والْفنّ نفسيهما لقانون العرض والطلب.

والشّخصية الإشكالية، لذلك، لا تريد الانغماس في الواقع ولا تروم تغييره فعلياً، لأنّ التّفكير في التّعقيدات والتّناقضات يستنفد وقتها والتّظهير للحلول والمشاريع يستهلك طاقتها.

إنّ الشّخصية الإشكالية تتمتّع، بلا شكّ، بالاستقامة ودماثة الأخلاق، ولكنها تتمتّع، على وجه الخصوص، بالقدرة على إدراك جوهر التّعقيدات وأصل التّناقضات، وهو ما يؤهلها لأن تمثّل ضمير الكاتب في النّص الروائي، «كما لو كان الوعي الإشكاليّ يوحد، بشكل لا متكافئ، بين البطل الإشكالي والمبدع الذي همّشته الحياة بسبب وعيه الإشكالي»^(٢).

ولكنّ إشكاليّة الشّخصية لن تطول بعد أن تكتشف البنيوية التكوينية احتمال تغيير الفكر والحسّ والإرادة عن طريق الأيديولوجيا الثورية التي أرسى مداميكها ماركس وإنجلز في مجال الاقتصاد السياسي؛ فقد سعى أحد أهمّ رائديّ هذه النّظرية، وهو غولدمان، إلى تأكيد حضور الرؤية الثورية، التي تُنتجها الشّخصيّة الإيجابية، في عدد من الروايات الغربية مثل روايتي

من خلال الثورات الزراعية والصناعية والثقافية، بل إن الثورة الجزائرية قد سلكت، في خضم التحولات التاريخية، مساراً قومياً وعالمياً بمعارضتها لحركات التحرر في الوطن العربي والعالم كله.

١ - الثورة الجزائرية موضوعاً وموضوعة:

حظيت الثورة الجزائرية باهتمام الروائيين الذين راموا التاريخ، سردياً، لمرحلة هامة وحساسة من وجود الأمة الجزائرية الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني عبر مجموعة من النصوص الإبداعية التي فاق احتفاؤهم فيها بالثورة احتفاءهم بموضوعات أخرى نظير الخصاصة والبطالة والتخلف والعنف والإرهاب والفساد وسواها من الموضوعات التي أرقّت مضاجع الروائيين الجزائريين باعتبارهم النخبة المثقفة القادرة على استكناه أسباب الاضطرابات والتناقضات الحاصلة في المجتمع.

بل إننا نلفي بعض الكتابات الروائية قد جعلت من موضوعة الثورة التحريرية ثم من موضوعة الثورة الزراعية موضوعة أدبية مركبة تتضمن موضوعات فرعية كالاستغلال والمحابة وأزمة السكن والإيمان بالقدرية والتواكل، حيث إن استلهاهم روح الثورة وتحقيق الثورة الزراعية، في رأي

المرحوم عبد الحميد بن هدوقة مثلاً، هما البلسم الشافي من تلك الأمراض الاجتماعية.

ويجوز لنا تبرير انكباب الروائيين الجزائريين على تشخيص موضوع الثورة التحريرية ذي الخصاصة الواقعية والتاريخية في شكل موضوعة روائية متماز بالتخييل الأدبي والتشكيل الجمالي بالقول إن ذلك كان من قبيل التعريف بعظمة هذه الثورة وفردتها في تاريخ الثورات العالمية.

ولكننا سنحذر من تبرير انكبابهم على تشخيص الثورة الزراعية حين نعلم أن «السلطة كانت تمارس تحكماً قوياً في مجريات الأحداث الريفية بوساطة الثورة الزراعية، وفي الاستحواذ على الرأي العام داخل المدن عن طريق الجامعات والمعاهد العليا والإعلام، بصفتها وسائل دعائية قوية وفعالة في استقطاب اهتمامات الذات الوطنية المتحكمة فيها أطر معرفية تنتمي، في تصنيفها، إلى التعلق بالأرض، وبالموت من دون الشرف والحرية، وقد يكون ذلك التحكم هو الذي أعجز حركية الزمن السياسي وآلياته عن جر الذات الوطنية نحو الابتعاد عن التعامل وفق تلك القيم والرموز، لأن هذه القيم هي التي أملت على الرعيل الأول لثورة التحرير الكبرى أن يجعل

٢ - أطروحة الثورة والتخييل:

لقد كانت الثورة التحريرية وما تزال، إذاً، المعين الذي يغترف منه الكتاب الجزائريون مادة نصوصهم الروائية؛ فمنذ أن ألف ابن هدوقة رواية «ريح الجنوب»، التي تُعتبر أول رواية جزائرية مكتوبة باللغة العربية تستجيب لشروط الكتابة الروائية على صعيدي البنية والدلالة، مارست موضوعة الثورة حضوراً طاغياً في المشهد الروائي والنقدي على حد سواء، حيث أثارت هذه الرواية ومثيلاتها الكثير من الأسئلة النقدية التي غلب عليها الطابع الأيديولوجي الدعائي المتوجه نحو شرح المضامين الاجتماعية وتفسيرها تفسيراً طبقياً يركن إلى رؤية للعالم تتسم باليقينية والشمولية باجتزاء المقاطع السردية الدالة على الصراع الطبقي بين طبقة برجوازية استعمارية خلفت وراءها جماعة من الإقطاعيين الجزائريين الذين تمكّنوا من التغلغل في بعض المصالح الحكومية وطبقة العمال الصاعدة التي تشرّب لوضع أسس نظام جديد يقوم على العدالة الاجتماعية. وبهذا الشكل، غدت الرواية الجزائرية، بتشخيصها للثورة التحريرية والدفاع عن مكتسباتها ومباركة مشاريع السلطة الفتية وتثمين قراراتها السياسية، رواية أطروحة Roman à thèse لا يستكف كاتبوها من إظهار انتمائهم للفكر الاشتراكي في ثنايا

الدّفاع عن الأرض وحماية الدين مبدأين أساسيين من مبادئ هذه الثورة. فلا غرابة، إذن، إن كان محور الأرض هو الذي تكثف حوله زمن الخلق، وإن كان عنصر الدين هو الذي زوّد زمن الخلق بالجدة في الطرح وفي الرفض للبديل عنهما»^(٣).

من هنا، غلبت على طرح موضوعة الثورة الزراعية، في سبعينيات القرن العشرين، النزعة الأيديولوجية التي اتّصفت، عموماً، بالإشادة بجدوى الفكر الاشتراكي وتمجيد الخطاب السياسي والتركيز على محاسن المشاريع التي اعتزمت السلطة تطبيقها. فيما تخلّلت طرح موضوعة الثورة التحريرية نزعة إنسانية أضفت على الفعل الثوري قداسةً، من دون إغفال الحديث، العابر غالباً، عن بعض الأخطاء التي صاحبت تحرير الأرض والإنسان من أغلال الاحتلال الفرنسي، وهي أخطاء لا تسلم منها أية ثورة تتشد التغيير الجذري للأوضاع والأفكار.

غير أن الرؤية الإبداعية للثورتين التحريرية والزراعية ستعرف تحولاً في التخييل والتشكيل مع انعتاق الروائي من أسر الرؤية الأيديولوجية الواحدة وسلطة لغتها الدعائية والتوجيهية، حيث سيمتزج التخييل بالنقد، وتتشكل الأيديولوجيا بجمالية اللغة.

نصوصهم الإبداعية بأسلوب يبرز تسلط هذا الفكر على التخيل الأدبي وعلى متخيله معاً. وتمتد سلطة الأطروحة لتطال متلقي هذا التخيل، حيث يبتغي الكاتب بتشخيص أطروحة ما تحويل تسلطها عليه إلى القارئ، وكأنه يروم الدخول في تواصل فكري ينقل فيه معرفته الأيديولوجية أو العلمية أو الدينية أو الفلسفية المشتغلة كسلطة إلى المتلقي بهدف تلقينه وإقناعه⁽⁴⁾.

ويتوسل ابن هدوكة، لتشخيص الثورة والدفاع عنها والتنبية إلى خطر الأيديولوجيات الأخرى التي ترمي إلى تقويض أركان الدولة الجديدة في رواية «نهاية الأمس»، لغة سهلة لا تتطلب إعمالاً للذهن من أجل فهم معانيها العميقة وحبكة بسيطة لا تستغل على القارئ إذا ما جرب ترتيب مادتها الحديثة وأسلوباً في السرد يعتمد على التسلسل Enchainement الذي نلفيه في الحكاية مع توظيف اللواحق Analepses، في بعض الأحيان، لإلقاء الضوء على ماضي الشخصية الرئيسة واستعمال ضمير الغائب الدال على حضور ذات شاهدة على الأحداث وعليمة بأفكار الشخصيات ونواياها وأفعالها؛

هذه الذات الراوية التي تحرص على تقديم «البشير» كشخصية ملتزمة مع نفسها فكراً وسلوكاً وتصبو إلى الانحام مع المجتمع

مرة أخرى بعدما أعيتها الحياة في المدينة بزيفها ورياء أهلها؛ فالبشير يريد العودة إلى القرية ليُجسد حلمه الاشتراكي الذي حارب من أجله المحتل الفرنسي وكابد في سبيله آلام الفراق ونوازل الأسى والحيرة، حيث يعتقد «أن البداية الحقيقية لكل إصلاح هي إعادة النظر في قضية الملكية.

لا يمكن أبداً أن تتحقق ديمقراطية في التعليم أو في العمل أو في السياسة ما لم تتغير هذه الأوضاع الظالمة للملكية الأرض. حتى التصنيع نفسه مرتبط بالأرض»⁽⁵⁾.

ولهذا، يستلزم الحديث عن الثورة الزراعية الحديث عن الثورة التحريرية، وهما حديثان أيديولوجيان لا شك ونصيب التخيل من الخطاب الأدبي الذي يحويهما يسير. ولكن الحديث الأول يفرض بكثافته وسعته حضوراً أنيباً في حيز الرواية، بينما يُحَيِّن الحديث الثاني عبر شهادة الراوي الذي يُفَعِّل ذاكرة «البشير» فتجود بأحداث تفيد في بناء حاضر الشخصية ورؤيتها للعالم.

يقول الراوي: «وتحلّق به الذكريات من جديد: إلى تونس حيث حُمِلَ إليها جريحاً. ويعلم الله ما قاساه من آتاع وأهوال حاملوه.. ثم إلى ألمانيا الشرقية.. وتمضي الأيام متشابهة في العلاج أولاً ثم في التمرين على السير، ثم في النقاهاة. وتطول الأيام

وهذه القصص الفرعية هي: قصة ما قبل زواج «البشير» و«رقية»، وقصة زواجهما، وقصة حمل «رقية» ووضعها وعذابات المخاض والفراق، وقصة اغتصابها من قبل جنود الاحتلال، وقصة إطلاع «الشيخ حمودة» والد «البشير» على قصة الاغتصاب، وقصة استشهاد، ثم قصة استشهاد «العجوز سعدية» والدة «البشير».

ويسعى الراوي، بحديثه عن الثورة التحريرية ارتدادياً تارة وتكثيفاً تارة أخرى، إلى التفرغ لسرد يوميات «البشير» في القرية التي تتسم بالصراع مع «ابن الصخري» الذي يمثل الفكر الإقطاعي القديم المتجدد؛ القديم من حيث الرؤية التي توجه علاقة الشخصية الإقطاعية بالآخرين الذين هم أدوات طيعة تخدم مصالحها ولا تستطيع معارضة مشاريعها والحد من طغيانها ومحاربة نزواتها، والمتجدد من حيث اصطناع الشخصية الإقطاعية صورة مغايرة لتلك التي يظهر بها، عادة، هذا الضرب من الشخصية وهي صورة المحافظ والجشع والأناني والمراوغ والغليظ كما يجسدها «عابد بن القاضي» في «ريح الجنوب»؛

ف«ابن الصخري» يتظاهر بالتقوى والورع بترتيله للقرآن الكريم مع الإمام بالجامع كل مساء، ويساهم في خلية الحزب بالقرية، ويشارك في الثورة التحريرية بماله وأولاده،

حتى لكانها القرون! وتتقطع نهائياً أخبار الزوج الرووم وطفلها المنتظر (...) ويدب اليأس مع الأيام إلى نفسه فيحتل ثناياها ثيلاً فثيلاً حتى لا يبقى منها إلى الأمل في اللقاء مقرر. ويزهد في نفسه وفيما حوله.

تحاول تلك الفتيات الشقراوات الألمانية تهوين الأمر عليه، وإدخال السرور إلى نفسه ما وجدن إلى ذلك منفذاً (...) ولكن تحببهن وتقربهن ومحاولاتهن المستمرة في التخفيف وإرجاع الأمل إلى نفس مريضهن لم يكن موفقاً دائماً. فقد كنّ ينجحن يوماً ويخفخن أياماً. كان المريض متمرد الروح عنيد الطبع. وكانت زوجته الحبلى البعيدة تقف حائلاً بينه وبين جميع الناس^(١).

كما يعمد الراوي، لبيان أهمية الحديث عن الثورة التحريرية ووظيفته في بناء حبكة النص، إلى تكثيف الحوافز المشكلة لتلك الموضوعية من خلال تأطير Encadrement أو تضمين Enchâssement مجموعة من القصص الفرعية في الفصل الثالث من الرواية يكشف فيها الراوي بعض الوقائع التي ظلت سراً في خلد «رقية» زوج البشير، ويتباهى بمعرفته بالعادات والتقاليد والاعتقادات والأباطيل الشائعة في القرية، وينتقد بعض المفاهيم التي استوطنت عقول الناس فيها نظير مفهوم الشرف.

ويبدي اعتدالاً في حياته الأسرية كما يعكسه ثياب ابنته وأثاث بيته.

والراوي إنّما يقصر الصراع بين هاتين الشخصيتين المنتجتين لأيديولوجيتين متناقضتين، فلكي يبرز الخطر الذي تمثله الأيديولوجيا الإقطاعية على المجتمع الاشتراكي الذي بدأ يتكوّن حديثاً. هذا المجتمع الذي يساعد «البشير» في عملية إصلاح الأوضاع الاجتماعية بالقرية كما يمثله المجاهد «بوغرارة» وصاحب المقهى والمهندس والأكاديمية والبلدية.

ويشير الراوي، في الوقت نفسه، إلى خطر «الشيخ» الذي يتحالف مع «ابن الصخري» ضد «البشير»؛ فخطره نابع من رؤيته النافية للآخر الذي يمثّل، في نظره، الكفر والإلحاد. وهو ما يدفع «البشير» إلى التوجس من الدور الذي يضطلع به «الشيخ» بقوله على لسان الراوي: «بقدر ما كان هذا النمط من الناس أثناء الاحتلال عاملاً من عوامل الحفاظ على الشخصية وعدم الذوبان في المستعمر بقدر ما سيكونون في المستقبل عرقلة في وجه كلّ إصلاح وحاجراً أمام كلّ تقدّم»^(٧).

إنّ عناية الراوي بآنية الثورة الزراعية واستحضاره من حين إلى آخر للثورة التحريرية يعبر عن الارتباط الحثيث بين الماضي والحاضر، حيث لا يمكن بناء

مستقبل اشتراكيّ إلا بتضايف هذين الزمّنين المتواصلين تاريخياً وأيديولوجياً. وهو ما يجعل شخصية ملحمة مثل «البشير» مؤهلة للنهوض بهذا البناء، لأنها تجمع بين الزمّنين رغم الانقطاع الزمّني والفكري الذي وسم وجودها حين استسلمت لإغراءات الحياة العصرية في المدينة، ورغم أنّ «البشير» يلوذ بالقرية من أجل تلقين الأحداث أبجديات القراءة والكتابة وتغيير الذهنيات التي استغرقها الإيمان بالقدرية والانتهازية والتخلّف والجهل، لكنّه يهتدي، بعد معاينة واقع القرية المتخّم بالاستغلال والبطالة والخمول، إلى أنّ «المدرسة الجزائرية الحقيقية هي تلك التي ستُخلَق يوم أن تبرز القرى الزراعية إلى الوجود»^(٨).

وبهذا الشكل، تمثّل رواية «نهاية الأمس» توقّ «ابن هدوقة» إلى انبثاث النظام الاشتراكيّ، الذي اقتنع به ودافع عنه في منابر الحزب وفضاء الإبداع منتقداً بعض أخطائه هنا وهناك، في المجتمع الجزائري كبديل عن النظام الإقطاعي الذي يُعدّ سبب التدهور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. وهو توقّ يعكس وعياً ممكناً لم يستتب بعد، لأنّ الإقطاع مازال يملك إمكانات تسمح ببقائه ولو إلى حين، ولأنّ تحالف «الشيخ» معه يقف عائقاً أمام اكتمال اللحمة الاجتماعية.

٣ - أطروحة الثورة وأطروحة الرواية:

وتكاد تنفرد رواية «طيور في الظهيرة» لـ «مرزاق بقطاش»، فيما نعلم، بالحديث عن أنية الفعل الثوري التحرري من خلال وعي الطفل «مراد» الذي يطوّعه الكاتب تطويعاً أيديولوجياً لا يخرج عن دائرة ما وقر في عقله وقلبه من التزام بالدين وحُبّ للوطن، حيث يتضافر الإسلام والوطنية، وهما عاملان متأصلان في الإنسان الجزائري، في تأليف نظرة بقطاش للثورة التي يعكف على تشخيصها في باكورة أعماله الإبداعية.

والكاتب إذ يعزو رؤيته هذه إلى شخصية لم يستو عودها من حيث النضج الأيديولوجي والممارسة السياسية، فهو يبتغي التّصل من سلطة الأيديولوجيا السياسيّة التي أرادت أن تضفي على الثورة بعداً اشتراكياً تبرّر به ثورتها الزراعيّة والصناعيّة خاصّة، والإعراب، في الآن نفسه، عن رضاه بسلطة الثورة باعتبارها عقيدة وممارسة غير وافدتين أو دخيلتين على المجتمع الجزائري، وكأنّه، باستثماره شخصيّة غير راشدة لم تلمس جيلتها مثاليّة الأيديولوجيا أو نفعيتها أو هما معاً، يروم التأكيد على عفوية هذه الثورة وبراعتها من التّلفيقات الأيديولوجية والحسابات السياسية التي بدأت تلوح مع فجر الاستقلال، تماماً مثل عفوية الطفل «مراد» وبراعته في تلقّف أخبار

الثورة واستقبال أصدائها؛ فهي مجردة، لديه، من أيّ تفسير طبقيّ يختزل الصّراع بين الأصيل والدّخيل إلى نزاع ماديّ محموم حول موضوع الأرض.

بل إنّ التّفسير أو التّقدير، على الأصحّ، الذي تهتدي إليه الشخصية هو تقدير ينبني على شعور داخليّ يُخالجها حيال ما تراه يوماً من فوارق واختلافات جوهرية بين قيم الإنسان الجزائري وقيم الإنسان الأوروبي؛ فتخلص، بذلك، إلى أنّ الصّراع مع الآخر هو صراع ديني بين «النّجمة» و«الصّليب» من جهة، وصراع بين جنس العرب وجنس الأوروبيين من جهة أخرى.

ثمّ، إنّ الكاتب يحاول التّأصيل للثورة الثقافية، التي نهضت السّلطة بعد الاستقلال بتطبيقها عبر سياسة تعميم التّعليم ومجانيتها وسياسة التّعريب، حين يجعل الامتناع عن تعلّم اللّغة الفرنسيّة من صميم الجهاد ضدّ الاحتلال؛

فقد تناهى إلى سمع «مراد» وهو يندسّ بين التّلاميذ الذين يفوقونه سنّاً خبر «قرار خطير اتّخذه المجاهدون، وهو أن يكفّ أبناء الجزائريين عن تعلّم لغة العدو. وتعبّ كيف أنّه لم يسمع بمثل هذا القرار في الحيّ، ربّما لأنّه معزول عن بقيّة الأحياء الأخرى، أو لأنّه بعيد عن قلب المدينة!

لعلّ هذا القرار اتخذ أخيراً، وإلاّ لكان قد سمع به هو وأطفال الحيّ جميعاً. يستحيل أن يصدر المجاهدون قراراً ويبقى مقصوراً على ناحية واحدة من المدينة^(٩). وبالتالي، يُنزل «بقطاش» موضوع الثورة التحريرية منزلتها الطبيعيّة وهي المنزلّة الإسلاميّة والعربيّة والوطنية بالجمع بين الجهاد بالنفس من أجل استرداد الأرض وصون الدين والعرض ومحاربة مظاهر التغريب الفكري بالكفّ عن تعلّم لغة المحتل. وهو، حينئذ، يُسلم بسلطة الأطروحة (أي سلطة الثورة) ويرفض أطروحة السلطنة (أي اشتراكية الثورة) في هذه الرواية.

ومن أجل تشخيص رؤيته للثورة في إطار رؤية شاملة للمجتمع والعالم وتأسيساً على خطاطة روائية معدّة سلفاً، يعهد «بقطاش» إلى الراوي العليم بانتقاء الأحداث التي تنمّي في «مراد» الإحساس بتميّزه وبني دينه وجلدته عن الأوروبيين وتبعث في نفسه عاطفتي الخوف والحقد تجاههم، نظير حدث اقتياد الشبان الأربعة إلى مكان اغتصابهم للفتاة العجربة بغرض تمثيل الواقعة على مرأى من الشرطة وسكان الحي الذين أبوا إلا أن يتعرّفوا إلى مرتكبي هذا الفعل الذي أثار عبوس الشرطة وزاد من حقدهم على العرب. وحدث الشجار الذي وقع بين «نوربير»

الإسباني و«والد روني» المالطي والذي أمارط القناع عن حقيقة الأوروبيين المستترّين خلف أخلاق مصطنعة وطبيعة مُفتعلة. وحدث مواجهة «مراد» للمعلّمة اليهودية التي «صوّبت نحوه سبابتها متوعّدة، وسألته: «لم لا تريد أن تتعلّم الفرنسية؟». وأحس لحظتها بالدماء تغادر وجهه كلّ، ثمّ شعر بنظرات زملائه من التلاميذ تقع عليه، وتحته على الامتناع عن الجواب، لكنّه اندفع يُجيبها بقوله:

«لأنّني لا أحب الفرنسية». ولم يكمل جملته تلك حتّى كانت صفعه قويّة تنهال على خده، فيسيل الدم من أنفه. وتراجعت المعلّمة وهي تنظر إلى سحنة مراد، والدم الراعف منه. ووقفت مرتبكة فوق المصطبة. ثمّ، إنّ مراد قام من مكانه، واندفع نحو الباب، والدم يسيل على شفّتيه ورقبته. وتبعه التلاميذ وهم ينظرون بحقد إلى المعلّمة التي وقفت بكاء لا تقوى على القيام بأيّ شيء^(١٠).

ولكي يحافظ على تميّز الشخصية البطلة واتزانها واستقامتها، يحرص الراوي على بسط انفعالات «مراد» وفق ما طفق يتشكّل في وعيه من التزام بتعاليم الدين الإسلاميّ التي تحته على إبداء معارضته لأيّ عمل يسيء إلى القيم الإسلامية التي تجب مراعاتها قبل الإقدام على تصرف طائش أو اتّخاذ قرار غير صائب يشوّه صورة

الإنسان العربي الجزائري، ذلك أن «مراد» يحاول تبرير سلوك عبد الله، وهو أحد الشبان الأربعة الذين تورطوا في اغتصاب الفتاة العجيرة، بدعوى أنه فتى هادئ ويُقيم الصلاة ويحفظ بعض السور القرآنية التي علمه إياها هو نفسه، ولكنه يتراجع عن ذلك بعدما يوقن أن ما اجتريه ذلك الفتى خطأ لا تمحوه إلا التوبة.

ويستهجن انصراف عمه إلى معايرة الخمر والحرب قائمة، ويوفر «في نفسه أن المجاهدين لم يعملوا على تصفية كل شارب الخمر؛ فالخمر حرام»^(١).

ويُنكر على عجوز قيامها بأعمال السحر التي تُعدّ كفرًا يستوجب النار. وتأكله الحسرة حين يشارك صديقه «أرزقي» و«محمد» سرقة حبة الجوز الهندي من الدكان.

ويصدر «مراد» في ردود أفعاله تلك عمّا أخذه عن شيخ المسجد من آداب إسلامية ونصائح دينية، ممّا يشي بأن هذا النمط من الشخصيات؛ أي الشيخ، يُعدّ رائد الدعوة إلى الحفاظ على قيم الشخصية الإسلامية في المجتمع الجزائري الرّازح تحت سلطة غاشمة تستبيح المحرمات والمقدّسات، وحامل لواء الجهاد كما تعكسه صورة الخطيب الذي راح يحث الرجال والنساء، بمناسبة الذكرى الثانية للفتاح من نوفمبر، على مواصلة الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي.

أمّا المعلم فقد بدا حزيناً في تذكير التلاميذ برمزية هذا اليوم تلافياً للمضايقات التي قد يتعرض لها من قبل لجنة التربية بالمدرسة؛ فقصارى جهده أن يبيث في الناشئة حب الوطن عبر تعليمهم الأناشيد الوطنية.

غير أن تقلبات الحياة ومفاجآتها، كما يومئ الراوي، ستغدو دروساً لا يتعلمها «مراد» لا في المسجد ولا في المدرسة. وهو ما يُنبئ بإمكانية تطوّر فكر الشخصية مع مرور الزمن من خلال احتكاكها بالواقع اليومي المتجدّد والمتغيّر، ومن ثمّ، احتمال تغيير الفكر، الذي يحضن الثورة ويوجّه خطاها نحو بلوغ غايات محدّدة، مستقبلاً.

فضلاً عن الإلماح إلى أن الوعي الممكن الذي يزود عنه «بقطاش» ويرغب في تحقيقه على صعيد الكتابة على الأقلّ، وهو الوعي الديني القومي الوطني، قد تعترضه إشكالات وعوائق تؤخّر أو تحول من دون انبثاقه في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال.

ولا يغفل الراوي الإشارة إلى أن «مراد»، رغم تميّزه ذاك واتّزانه واستقامته، يحب اللّعب ويهاب الكلاب ويتنابه التردّد ويتملّكه الخجل وتعترّيه الغيرة وتخذه الحكمة ويعوزه الفعل مثل أي طفل آخر. وربّما شكّل ذلك ذريعة لأن يهيمن صوته؛ أي صوت الراوي العليم، على مجموع الأصوات

الحاضرة في النص وتحتكر رؤيته السردية المنظور السردية؛ إذ نلفيه يُبطئ في السرد مسترسلاً في اقتفاء أحداثه المتعاقبة التي تجري في حي شعبي بالجزائر العاصمة من نهاية العطلة الصيفية إلى الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، ويسرع في الوقفات الوصفية التي كادت تغيّبها سلطة السرد، ويؤسّل الخطابات والأقوال عبر تسريدها وعرضها إلا ما جاء منها من كلام مباشر على لسان بعض الشخصيات.

الهوامش

- 1- Lucien Goldmann : « Pour une sociologie du roman », Gallimard, Paris, 1964, p 23.
- ٢- فيصل درّاج: «نظرية الرواية والرواية العربية»، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط. ١، ١٩٩٩م، ص ٤٤.
- ٣- بشير بويجرة محمد: «بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري ١٩٧٠م - ١٩٨٦: المؤثرات العامة في بنيتي الزمن والنص»، ج ١، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران (الجزائر)، د. ط، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م، ص ١٤٥، ١٤٦.
- 4- Susan Rubin Suleiman : « Le roman à thèse ou l'autorité fictive », P.U.F, Paris, 1983. نقلاً عن: «معجم السرديات»، مجموعة من المؤلفين، إشراف: محمد القاضي، الرابطة الدولية للنّاشرين المستقلين، (تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب)، ط. ١، ٢٠١٠م، ص ٢٠٨.
- ٥- عبد الحميد بن هدوقة: «نهاية الأمل»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، ١٩٧٥م، ص ١٣٤.
- ٦- المصدر نفسه، ص ٢٣، ٣٤.
- ٧- المصدر نفسه، ص ٦٢.
- ٨- المصدر نفسه، ص ٢٢٩.
- ٩- مرزاق بقطاش: «طيور في الظهيرة»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، ١٩٨١م، ص ٦٤.
- ١٠- المصدر نفسه، ص ٦٧، ٦٨.
- ١١- المصدر نفسه، ص ٦٣.



«عنتر بن شداد وعقدة النقص»



إبراهيم محمود الصغير



لم يُعرف رجل، في
العصر الجاهلي، ناضل
وكافح بقوة وشجاعة،
من أجل نيل حريته
وعتقه من العبودية، إلا
عنتر بن شداد. فقد
واجه هذا الرجل، بصبر
وجلد، تغت قبيلته
وقوانينها وعاداتها
الظالمة المجحفة بحقه.
وتحمل في سبيل ذلك
الأذى والظلم من
أهله وأقاربه وقبيلته.
واستطاع، أخيراً، أن

✽ أديب وباع في التراث العربي.

يظفر بحريته بذكائه الحاد وشجاعته النادرة في القتال وخوض الحروب، وبشعره الرائع الأخاذ الذي يأسر به الباب سامعيه، والذي يثير فيهم النخوة والحماسة، حتى غدا أيقونة بني عبس وتميمتها التي تحميها من الأعداء، وتفخر بها بين القبائل. ومع أنه نال حريته، وتحرر من العبودية، وأصبح سيداً

من سادات عبس، إلا أن لونه الأسود، وكون أمه عبدة حبشية سوداء ظلاً كالسد المنيع أمامه، وظل هناك حاجز خفي بينه وبين الكثير من أفراد قبيلته، من الحساد والشامتين، وحتى من القبائل الأخرى التي ظلت تعيره بسواده وبأمه السوداء.

وقد ظل يعاني من هذا الأمر إلى نهاية حياته. ونعرف هذا من خلال قصائده، التي جمعت في ديوان فيما بعد، وفيها الكثير من الشكوى من القبيلة ومن الناس ومن كل من تعرض لسواده وسواد أمه.

ولعل الكثير لا يعرف قصة عنتر وحياته، فهو أبو المغلس عنتر بن شداد بن عمرو بن قراد. وقيل شداد هو جده غلب على أبيه. وقيل عمه كفله بعد أبيه.

والعنتر في الأصل الذباب الأزرق والواحدة

عنتر. وأمّه زبيبة، وهي أمة حبشية سوداء، سباهها شداد في إحدى الغارات وكان أبوه قد استعبده على عادة العرب في استعباد أبناء الإماء.

وقد عمر عنتر طويلاً، ويقدر مولده عام (٥٢٢م)، ووفاته عام (٦١٥م). استطاع عنتر أن ينتزع حريته بشجاعته حين وعده أبوه أن يمنحه الحرية إذا تمكن من رد غزو قامت به بنو طيء إذ استاقت إبل عبس. وقد نجح عنتر في رد الغزو واستنقاذ الإبل، ونال بذلك حريته، وألحقه أبوه بنسبه. كما شارك عنتر في حروب داحس والغبراء، التي قامت بين قبيلتي عبس وذبيان، وأبلى فيها بلاءً حسناً. وقد أحب ابنة عمه عبلة وخصها بأروع شعره.

وامتاز بخصال حميدة جعلته محط تقدير الكثير من أبناء قبيلته والقبائل الأخرى، منها فروسيته المشهورة وشجاعته النادرة، وخلقته السمع.

وقد نسجت حوله قصص وحكايات غريبة وأسطورية جعلته محط إعجاب الأجيال، فكتبت سيرته الشعبية في القرن الخامس الهجري، واستغلت لتحريك روح القتال في الناس لمواجهة الغزو الأجنبي.

الفرسان الأحرار المشهورين بين العرب فوجد أنهم يمتازون بالفروسية والشجاعة، والأخلاق الكريمة، وبالإباء للقبيلة، ويقول الشعر، وبالإفتخار باتخاذهم حبيبة يتغزلون بها، فوطن نفسه على أن يكون مثلهم، بل ويحاول أن يتفوق عليهم خاصة وأنه مؤهل لهذه الأشياء بالفطرة، فأخذ يتدرب على ركوب الخيل وعلى القتال. وجعل الأخلاق الكريمة ديدنه وجزءاً من شخصيته، وتغلب على شرسته وغضبه السريع باللين وسعة الصبر. وجعل قبيلته عبساً محط افتخاره وولائه.

أمّا الشعر فأخذ يكثر من حفظه وترداده واختلاطه بالشعراء من قبيلته ومن القبائل الأخرى. أمّا الحبيبة، التي يتغزل بها فقد وجدها في شخص ابنة عمه عبله.

لقد اختار عنتره أن يكون فارساً مشهوراً بين العرب، فقط ليكتسب حريته، وليتخلص من عقدة النقص التي يعانيها من جراء سواد لونه وانتسابه لأمه الحبشية، ونحن نعتقد أنه لو لم يكن أسود وأمه زبيبة لما كان عنتره المشهور الذي تعرفه كل العرب. ولو كان حراً كغيره من أفراد القبيلة لظل مغموراً خاملاً لا يذكره أحد.

ولعل الشيء المميز في عنتره أنه منذ وعى الحياة كان يتصرف تصرف السيد الحر، وليس تصرف العبد الذليل، كغيره من العبيد. وقد عرف عنه الإباء والأنفة والاعتداد بالنفس، وظل كذلك إلى نهاية حياته. كان يدرك أن أباه شداد عربي أصيل ومن سادات عبس وأشرافها، وكان يؤمن بأن على الابن أن يتبع أباه ويكون مثله في الشرف والحسب. ولكن هذا اللون الأسود والشفاه الغليظة وأمه زبيبة الحبشية السوداء، كانت كلها عائقاً أمام طموحاته، وكانت تسبب له القلق والشعور بالنقص والدونية، وهو ما كان يرفضه في أعماقه، ويجعله ثائراً متمرداً على هذا الوضع الذي فرض عليه ولم تكن له يد ولا رغبة فيه، فكثرت منازعاته ومشاجراته مع الكثير من أفراد القبيلة بسبب ذلك. فأرسله أبوه إلى حيث يرمى الإبل والأغنام، ليبعده عن النزاع والمشاجرة مع الآخرين

وهناك وسط الطبيعة، في البراري والمراعي لانت نفسه، وتهذبت أخلاقه، واشتد ذكاؤه، وتعمقت حكمته، وأخذ يطيل التفكير في كيفية الحصول على حريته، والتخلص من العبودية. وأخذ يدرس سير

وقد كان عنتره في الذكاء والفتنة بحيث أدرك أن الفروسية الحقه والشجاعة النادرة هما جواز سفره لنيل الحرية، إلى حد أنه أصبح يساوم بهما القبيلة ويبتزها في الأوقات العصيبة التي تمر بها القبيلة في مواجهة الغارات والغزوات من قبل القبائل الأخرى. وقد تحقق له ذلك، كما مر معنا، عندما وعده أبوه بالحرية إن هو استنقذ الإبل التي استاقتها قبيلة بنو طيء في غزوها بني عبس. ونجح عنتره في رد الغزو واستنقاذ الإبل، فاعترف به أبوه أمام بني عبس كلها وألحقه بنسبه.. وأصبح عنتره، بين ليلة وضحاها، حراً وواحداً من فرسان بني عبس المعددوين.

ولكن هل تخلص عنتره، فعلاً، من عقدة النقص، التي كانت تقلقه وتزعجه قبل نيله الحرية، ولم يعد أحد يدعوه: ابن زبيبة، أو العبد، أو الأسود؟

بالعكس، لقد زادت الهجمة عليه من قبل أعدائه وحساده والمنكرين حريته، لأن بعض سادات عبس كانوا ينكرون تماماً إعطاء العبيد حريتهم مهما تكن أفعالهم ومزايهم، فالعبد يجب أن يبقى عبداً. والذي كان يؤلم عنتره أكثر، أن من يعيونه

بسواده هم أبناء قبيلته وأهله. وقد فطن إلى أنهم يستغلون فروسيته وشجاعته لمصلحتهم وحماية أعراضهم وأموالهم. فزادت معاناته من عقدة النقص هذه، وزادت شكواه من ظلم قومه وأهله إلى نهاية حياته. ولكنه لم يسكت بدوره أبداً، فكان يرد الصاع صاعين، ويهجو بشعره اللاذع كل من يتعرض له ويعيبه بسواده وسواد أمه وإخوته. وأخذ يتهمهم صراحة بالنفاق والخداع والمحابة حين يقول:

يُنَادُونَنِي فِي السَّلْمِ يَا ابْنَ زَبِيْبَةٍ

وَعِنْدَ صَدَامِ الْخَيْلِ يَا ابْنَ الْأَطَايِبِ

كما يشبه قومه بالدهر الظالم المتقلب الذي لا يهنا بصحبته الأحرار:

دَهْرٌ يَرَى الْغَدْرَ مِنْ إِحْدَى طَبَائِعِهِ

فَكَيْفَ يَهْنَأُ بِهِ حُرِيٌّ صَاحِبُهُ؟

ويتهمهم بالخبث والمكر والتقلب، وأن أفعالهم القبيحة من السوء بحيث أنها أشد سواداً من لونه:

يَعِيبُونَ لُونِي بِالسَّوَادِ وَإِنَّمَا

فَعَالَهُم بِالْخَبْثِ أَسْوَدُ مِنْ جِلْدِي

وهو يعتبر أن سواده فخر واعتزاز له، لأنه يظهر خصاله الحميدة، بل ويبالغ في الافتخار بنفسه حتى إنه ليقول:

يعيبون لوني بالسواد جهالة

ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

وإن كان لوني أسوداً فخصائي

بياض ومن كفي يستنزّل القطر

ويقول، كذلك، في موضع آخر، مفتخراً

بسواده وشمائله وأفعاله التي تتفوق على

النسب:

سواي بياض حين تبدو شمائي

وفعلي على الأنساب يزهو ويفخر

وهو يقول لقومه صراحة، بأن سواده

الذي يعيبونه به، هو نسبه الذي يفتخر به

وقت الحرب:

لئن يعيبوا سواي فهو لي نسب

يوم النزال إذا ما فاتني النسب

ويحاول، هنا، أن يخرسهم بأنه، وإن

كان عبداً، فإن شجاعته وهمته هما اللتان

تصنعان المجد والعلل له، وليس النسب

والقراية:

إن كنت في عدد العبيد فهمتي

فوق الثريا والسماك الأعزل

أو أنكرت فرسان عبس نسبتي

فسنان رُمحي والحسام يُقرلي

وبذابلي ومهندي نلت العلا

لا بالقراية والعديد الأجرل

وأن سواده، واسم أمه زبيبة، لا يضرانه

أبداً، طالما الأعداء عاجزون عن إدراك

مكانته في علو الهمة وبلوغ المجد، وإن يكن

لونه أسود، فالمسك لونه أسود أيضاً:

ما ساءني لوني واسم زبيبة

إن قصرت عن همتي أعدائي

لئن أكن أسوداً فالمسك لوني

وما لسواد جلدي من دواء

والشيء الوحيد الذي يملكه عنتره،

ولا يملكه أعداؤه، وبه يتفوق عليهم، هو

الشجاعة النادرة والخارقة في القتال

وخوض المعارك، ومعرفته لنفسيات أعدائه

وأساليبهم في القتال، وتقديره الحكيم متى

يهجم ومتى يتراجع، من دون تهور منه أو

تسرع. حتى بات اسمه يدب الذعر والخوف

في قلوب أعدائه ومنازليه ومبارزيه. وبات

قومه يتفائلون به ويستظلون تحت شجاعته

وأقدامه في كل المعارك والحروب. وقد عرف

عنتره هذا، واستغله لمصلحته، وصار يتغنى

ويفتخر بشجاعته وفروسيته في كل الأماكن

والمناسبات، مستخدماً شعره الحماسي

والبطولي «ولا شيء أجمل من الشعر في

الدفاع عن الهوية، وإثبات الذات، والبرهنة

على سمو النفس، ونبيل الأخلاق، لإقناع

الناس بأن السواد لا صله له بالشخصية إذا عظمت، وبالنفس إذا كرمت، وبالعزيمة إذا كبرت. فكان لا مناص لعنتر، لكي يصبح شخصية مرموقة أن يقول الشعر، ويحب فتاة، ويبلي في ساحة الحرب لكي يدافع عن القبيلة، التي لولا تدخله لكانت تعرضت للفضاء والعار، كما تزعمه الأخبار».

لقد اكتسب عنتر الإعجاب والتقدير من أعدائه قبل أصحابه، وبات مضرب المثل في الشجاعة والإقدام، ليس من العرب وحدهم، بل ومن المستشرقين والأدباء الأجانب. فهذا (غوته) شاعر الألمان الأكبر، يبدي إعجابه الشديد بشجاعة عنتر، وخاصة في بيته من المعلقة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها

قيل الفوارس ويك عنتر، أقدم

ذلل ركابي حيث شئت مشايحي

لبي وأحضره بأمر مبرم

فهو يعجب بهذا التفاخر الرائع بروحه القتالية وأمجاده في ساحة الوغى، وكيف تعود إليه حيويته، وكيف تشفى نفسه عندما يمتطي ظهر حصانه، وإن كل مطايا تلين له إلى حيث يتجه ويعاونه على أفعاله عقله الحكيم بالأمر المحكم والسديد.

وقد وصل الافتخار بنفسه وبشجاعته إلى حد المبالغة القصوى، وذلك في قوله:

ولو صلت العرب يوم الوغى

لأبطالها كنت للعرب كعبة

وليس المبالغة هنا إلا محاولة ذكية لصرف أنظار الناس عن سواده، ولإثبات شجاعته للناس واكتساب إعجابهم واحترامهم. ويقول للجميع أن سواد اللون لا يمكن أن يكون عائقاً أمام النفس الأبية والكريمة، وأن لكل إنسان الحق أن يعيش حراً كريماً، وكأنه بذلك يؤكد للناس قوله الخليفة (عمر بن الخطاب) المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

ومن أبياته المشهورة في الفخر والاعتداد بالنفس، والتي يحفظها كثير من الناس:

حصاني كان دلال المنايا

فخاض غمارها وشرى وباعا

وسيفي كان في الهيجا طبيباً

يداوي رأس من يشكو الصدا

ولو أرسلت رمحي مع جبان

لكان بهيبيتي يلقي السباعا

وفي مكان آخر يقول مفتخراً أيضاً:

محوْتُ بذكرني في الوري ذكر من مضى

وسدَّت فلا زيدُ يقال ولا عمرو

سيدُكرني قومي إذا الخيل أقبلت

وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

والبيت الثاني يذكرنا ببيت (أبي فراس

الحمداني) المشهور، والذي أخذ معناه، ولا

شك، من بيت عنتره هذا:

سيدُكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم

وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

ونورد هنا بعض أبياته الأخرى في الفخر

والشجاعة وعزة النفس والإباء:

خلقتُ من الحديدِ أشدَّ قلباً

وقد بليَ الحديدُ وما بليتُ

وليسَتْ سباعُ البرِّ مثلَ ضباعه

ولا كلُّ من خاض العجاجة عنترُ

ومن قال إني سيدٌ وابن سيدٍ

فسيُفي وهذا الرمحُ عمي وخاليا

لا تسقني ماءَ الحياة بذلةٍ

بل فاسقني بالعزَّ كأسُ الحنظلِ

ماءُ الحياة بذلةٍ كجهنمِ

وجهنمُ بالعزَّ أطيَّبُ منزلِ

ومثلما افتخر عنتره بفروسيته وشجاعته،

افتخر، أيضاً، بأخلاقه الفاضلة وشمائله

الكريمة وصفاته النبيلة. لأن الناس تعجب

بالفارس الخلق ذي النفس العفيفة والنبيلة.

وقد نجح عنتره في أن يكسب إعجاب الناس

من هذا الباب الذي صدق فيه قولاً وفعلًا.

وقد أنشد النبي محمد -صلى الله عليه

وسلم- بيت عنتره الذي يقول فيه:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله

حتى أنال به كريم المأكَلِ

فقال: «ما وُصف لي إعرابي قط فأحببت

أن أراه إلا عنتره». كما أعجب (غوته) شاعر

ألمانيا الأكبر، أيضاً بأخلاق عنتره في بيتيه

اللذين يقول فيهما:

أثني عليَّ بما علمتِ فإنني

سمُحٌ مخالفتي إذا لم أظلم

وإذا صَحَوْتُ فما أقصُرُ عن ندى

وكما علمتِ شمائلي وتكرُمي

لأنَّ هذين البيتين يمثلان الأخلاق

العربية. ومن هنا تبدو عبارة (غوته): «ألا

ما أطيِّبهم وأحبهم إلى النفس!» قريبة كل

القرب من هذه السجايا التي يتغنى بها

الشاعر الجاهلي. وما أروع هذا الشاعر

العفيف الذي يترفع عن الفواحش حين

يقول:

ولكن تبعدُ الفحشاء عني

كبعد الأرض عن جوفِ السماءِ

وهو الذي يغض بصره، أيضاً، إذا مرت
به نساء الجيران:

وَأَغْضُ طَرِيفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي

حتى يُوَارِي جَارَتِي مَاوَاهَا
وعنتره في عون جاره دائماً، كما يقوم
بحق الضيف ويبتهج به:

وَأِنِّي لِأَحْمِي الْجَارَ مِنْ كُلِّ ذَلَّةٍ

وأفرح بالضيف المقيم وأبهج
وهو يفضل الموت ولا أن يمد يده طالباً
الإحسان من الآخرين:

وَأَيْسُرُ مِنْ كَفِّي إِذَا مَا مَدَدْتَهَا

لنيل عطاء مد عنقي لذابح
وهو لا يمكن أن يتصف بطبع اللئام،
ويرى البخل عيباً، وأن المكارم هي مطلبه،
وأنه نادراً ما يغضب لأنه حليم في أكثر
الأوقات:

تَجَافَيْتُ عَنْ طَبْعِ اللَّئَامِ لِأَنِّي

أرى البخل يشني والمكارم تُطلب
وللحلم أوقات وللجهل مثلها

ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب
وعندما يقاتل عنتره فهو لا يسعى لنيل
المغانم والأسلاب لأن هذا يدل على الجشع
والطمع:

يَخْبُرُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وأما عقدة النقص الثانية، التي سببت
لعنتره القلق الدائم، والعذاب المستمر فهي
إعراض عبله عنه وعدم استجابتها لحبه.
وظل يعاني من صده ورفضها طوال حياته.
مع أنه حاول وفي استماتة أن يسترضيها
بشعره، وشجاعته، وبأخلاقه الكريمة،
ولكن من دون طائل ولم يكن يفقد الأمل،
فكان يسترضيها، وأحياناً يستعطفها، وفي
أحيان أخرى يعتب عليها، بل ويغضب منها
ويهجرها، ثم يعود ويلين ويعيد الكرة. فما
هو هذا السر في حبه هذا الغريب؟ مع أن
كثيرات غيرها، جميلات وشريفات، عرضن
أنفسهن عليه، ولكنه كان يعتذر ويقول
متألماً:

لَوْ كَانَ قَلْبِي مَعِي مَا اخْتَرْتُ غَيْرَكُمْ

ولا رضىت سواكم في الهوى بدلاً
لكنه راغب في من يعدبُه

وليس يقبل لوماً ولا عدلاً
ويقول في مكان آخر، مستسلماً لحبها،
راضياً بقضاء الله:

إِنْ عَشْتُ فِيهِ الَّتِي مَا عَشْتُ مَا لَكْتِي

وإن أمت فإليالي شأنها العبر
ويقول الدكتور (مصطفى ناصيف): «إن
عبله الإنسانية، قد تتحول إلى رمز يجسد كل

هموم عنتره، آماله وآلامه، ومن ثم يشمل حاجات المجتمع العليا. ولكننا نبدأ من عبلة (الإنسانه، الموضوع) أولاً. ففيها يتحقق انسجامه مع الحياة، ومنها إلى عبلة الآمال والأحلام، حيث تتصفي الصورة وتميل إلى التجريد، بعد أن تتبع من خط الحياة الأولى».

وعنتره يعلم، حق العلم، أن عبلة بعيدة المنال، وأن مكانها في السماء بينما هو عاجز على الأرض:

مقامك في جوف السماء مكانه

وباعي قصير عن نوال الكواكب

لكنه، مع ذلك، يستمر في التمسك والتغزل بها، لأنها تظل دائماً الرمز الذي يبحث عنه ويناضل من أجل الحصول عليه، تماماً كما تفعل الفراشة التي تظل حائمة حول النور حتى لو احترقت.

«إن حبه لعبلة أجج في قلبه رسيس الهوى فأنطقه بما أنطق، وألهمه بما ألهم فجعله يخاطبها وهي بعيدة عنه، معاتباً إياها عن عدم مساءلتها عن بلائه في الحروب، ومتابعها لمقاماته في الوعى، وكيف أن الخيل كانت تعرفه لفروسيته، وكيف أن الفرسان كانت تتهيبه لشجاعته، إلا هي ظلت جاهلة،

أو متجاهلة، بما كان يجب عليها أن تعلم من أمره، وتعرف من شأنه:

هلا سالت الخيل يا ابنة مالك

إن كنت جاهلة بما لم تعلمي؟

بل وهو في ساحة الحرب، وسط الضرب والقتل والطعن، وصهيل الخيل، وأنين الجرحى، وصراخ الفرسان، وتطاير الغبار من كل الجوانب، يتذكرها فجأة ويتخيل وجهها الجميل فيناجيتها قائلاً:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل

مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق تغرك المبتسم

وهو يقوم بكل هذه الأعمال والبطولات ويصفها لعبلة من أجل ماذا؟

لعل عبلة تضحي وهي راضية

على سوادي وتمحو صورة الغضب

يا عبل قومي انظري فعلي ولا تسلي

عني الحسود الذي ينبيك بالكذب

ويقول في موضع آخر في المعنى نفسه:

فلو أن عينيك يوم اللقاء

ترى موقفي زدت لي في المحبة!

وهو يأمل في حبها، حتى عند اليأس، لأن

في قلبه من الحب الشيء الكثير والكثير:

يا عبل مثل هواك أو أضعافه

عندي، إذا وقع الإياس، رجاء

بل إنه يخاطبها من بعيد ويحييها ويدعو

لها:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي

وعمي صباحاً، دار عبلة، واسلمي

وقد يكون هذا البيت، كما يقول النقاد،

من أجمل الشعر العربي زخرفة، وقد سألته

أحدهم أن يصف له عبلة فقال:

لعوب بألباب الرجال كأنها

إذا أسفرت بدر بدا في المحاشد

كأن الثريا حين لاحت عشيّة

على نحرها منظومة في القلائد

منعمة الأطراف خود كأنها

هلال على غصن من البان مائد

حوى كل حسن في الكواكب شخصها

فليس بها إلا عيوب الحواسد

ومن صفات الفرسان، كما ذكرنا سابقاً،

الولاء للقبيلة، والاعتزاز بالعرب.

وقد عرف عن عنتر الولاء الشديد

لقبيلته عبس. وهو إن جارت عليه قبيلته

وظلمته وعاملته معاملة العبيد، واستغلتها

لمصلحتها، فإنه سرعان ما ينسى كل ذلك

وينصرها ويحميها إذا تعرضت للأخطار

والغارات والغزو، وكأنه يتمثل بقول

الشاعر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة

وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام

لذلك فهو يفتخر ويقول:

إني امرؤ من خير عبس منسباً

شطري وأحمي سائري بالمنصل

كما يقول في موضع آخر أيضاً:

وأيّ اليوم أحمي عرض قومي

وأنصر آل عبس على العداة

وهو يقول أن قبيلة عبس كريمة ومن

خير كرام العرب:

لله در بني عبس لقد نسلوا

من الأكارم ما قد تنسل العرب

ويفتخر عنتر بالعرب كلهم لأنه من نسل

عربي أصيل، وحتى حبيبته عربية سمراء

أصيلة:

عربية يهتزلين قوامها

فتخاله العشاق رمحاً أسمر

حتى ناقتة تنفر عن مياه حياض الأعداء

(الديلم) بينما تشرب وتهنأ بمياه العرب:

شربت بماء الدحرضين فأصبحت

زوراء تنفر عن حياض الديلم

وهو يتوعد الأعاجم، الذين يهربون من

لقائه ومقاتلته:

يا بني الأعجام ما بالكُم

عن قتالي كلكم في شغل؟

ونأتي الآن إلى عقدة النقص الثالثة

لدى عنتره، وهي قول الشعر، وقد استطاع أن يتغلب عليها تماماً عندما أبدع معلقته المشهورة، فأصبح بذلك من شعراء العرب الكبار المشهورين، واعترف له بذلك الجميع.

ويعود السبب في إبداعه لهذه المعلقة إلى ما وقع له من بعض العبسيين في تغييره إياه بالسواد وعدم قول الشعر. وقد ذكر ذلك البغدادي في (الخرانة)، ونقله أيضاً ابن قتيبة في (طبقات الشعراء). وفي رواية أخرى (في شرح الزوزني) أن رجلاً شاتمه من بني عبس وعيره بسواده وسواد أمه وإخوته، وأنه لا يقول الشعر. وفي رواية ثالثة أنه قال له: «أنا أشعر منك». ونحن نعتقد بصدق الرواية الثالثة لأن عنتره كان شاعراً حقيقياً، وإنه كان مقلداً في البداية، ولكن هذا لا يمنع من أنه كان يقول الشعر، لأنه تربى في بيئة شعرية ووسط شعراء كثر من بني عبس ومن غيرها من القبائل. وأن عنتره اجتهد كثيراً ليقول الشعر ويثبت كفاءته به، كما مر معنا سابقاً، مثله مثل الفرسان الأحرار. وفي ديوانه، الذي جُمع

فيما بعد، توجد قصائد كثيرة في مستهل حياته وفي شبابه، وفي الفترة ما قبل المعلقة. وفي إحدى قصائده الطويلة يقول مفتخراً بقصيدته هذه، وأنها خير القصائد:

فدونكم يا آل عبس قصيدة

يلوح لها ضوء من الصبح أبجل

ألا إنها خير القصائد كلها

يفصل منها كل ثوب ويُنسج

ونحن نرى قدرته على قول الشعر من رده على ذلك الرجل بقوله: «وأما الشعر فستري». فالرجل عندما افتخر على عنتره بأنه أشعر منه كان يقصد بأن شعر عنتره ليس من القوة مثل شعره، أو مثل شعر الفرسان الشعراء وأصحاب المملقات. لذلك قبل عنتره هذا التحدي ليثبت له أنه أشعر منه، وأنه لا يقل قدرة عن الفرسان الشعراء وأصحاب المملقات. وقد كانت معلقته التي أخرجها للناس تختلف عن بقية المملقات من حيث أنها سهلة اللفظ، وذات وقع موسيقي جميل، تظهر شرف المعاني، ورقة المشاعر، وسلاسة وطواعية الأسلوب، على غير ما هو معهود بالشعر الجاهلي وفي المملقات، وإن لم تخرج في بعض أبياتها عن الغريب والخشونة في الجملة. وهذا ما جعل العرب يسمونها

بالذهبية. وعن هذه المعلقة يقول (طه حسين): «أما عنتر فقد كان حلو النفس، رقيق القلب، قوي العاطفة. جاء ذلك من أنه عز بعد ذل، وتحرر بعد رق، فهو قد تألم في طفولته وصباه، واحتمل الأذى في شبابه، وأي ذل! هذا الذل يداخل النفس ويختلط بها اختلاطاً فيصفي عواطفها تصفية، ويلطف مزاجها تلطيفاً».

وببدأ عنتر معلقته بشكل يختلف عن بقية المعلقات، حيث يقول:

هل غادر الشعراء من متردّم

أم هل عرفت الدار بعد توهم؟
أي إن الشعراء لم يتركوا شيئاً يصاغ فيه الشعر إلا وقد صاغوه فيه، فهم يكررون ما يقولونه. ولم يبق له ما يضيفه على ما قالوه. وهذه إشارة ذكية منه وتمهيد بأنه معذور إن لم يأت بجديد. ولكنه سيحاول ما أمكن أن يأتي بشيء جديد لم يسبقه فيه المعلقاتيون. ثم يبدأ بالغزل بحبيته عبلة، وهو غزل عفيف ولطيف يدل على سمو أخلاقه، فلم يسف فيه ويفحش كما فعل امرؤ القيس وطرفة. وقد وصف حبه لعبلة كما وصف حلاوتها وثغرها، فشبّه طبيته مرة بفأرة للمسك وأخرى بالروضة الأنف. وذكر بعد

ذلك تشبيهاً رائعاً وفريداً في بيتيه اللذين يقول فيهما:

وخلا الذباب بها فليس ببارح

غرداً كفعل الشارب المترنم

هزجاً يحك ذراعَه بذراعِه

قدح المكب على الزناد الأجذم

وهي صورة رائعة يلتزم فيها الشاعر الحقيقة ولا يعدوها، ولكنه يخرجها إخراجاً يجعلها من أصفى أنواع الشعر، وفي أسمى ما تطمح إليه شاعرية شاعر.

فقد صور الذباب في الروضة على الماء، وأسمعنا طنينه فيها، وأبى إلا أن يضفي عليها من جمال نفسه، فجعله غناءً ثمل يترنح، وصور حركته تصويراً لا يخرج عن الطبيعة أقل خروج، حيث يحك الذراع بالذراع كفعل المكب الأجذم حين يقدح بعودين اثنين. وهي حركة يعرفها من تابع الهوام في حركاتها حول المياه في الرياض. وجهازة البيان ما يزالون يستفيدون هذا التشبيه ويقرون حسنه، وقد كان (الجاحظ) أعجب بهذه الصورة إعجاباً شديداً، فلاحظ أن عنتر لم يسبق إليها في الشعر العربي، ولم يلاحقه فيها أحد من الشعراء مخافة

أن يقصروا عما بلغه هو فيها من الجودة وحسن التصوير.

ثم في المعلقة، يصور بعد ذلك تنعم عبلة وشقاءه. وبعدها يصف ناقته عل مثال طرفة، ولكنه لم يسرف، وتخلص إلى ذكر كرمه وإبائه وكراميته للظلم، ووصفه لنجدته ومنازلة الأبطال.

ثم يصف حصانه وصفاً رائعاً، ليس كوصف امرؤ القيس لحصانه. فامرؤ القيس وصف الحصان وصفاً خارجياً في أربعة عشر بيتاً، بينما وصف عنتره حصانه من الداخل ببضعة أبيات، ولكنه أسبغ عليه صفات إنسانية تدل على أنه أكثر فهماً للحيوان من امرئ القيس، وربما لأنه كان راعياً وشديد القرب من الحيوانات أيام عبوديته. وهذا يجعله أكثر من ذكر الحصان والإبل في شعره وخوضه بهما المعارك والحروب.

وهناك تشبيه دقيق وغريب ساقه عنتره في معلقته وهو قوله:

تأوي له قُلُصُ النعامِ كما أُوتِ

حَرْقُ يمانيةٍ لأعجمٍ طُمطمٍ

فهو يقول أن هذا الظليم من النعام تأوي إليه صغاره كما تأوي الإبل اليمانية إلى راع

أعجم يمني لا يفصح. فشبه الظليم في سواده بهذا الراعي الحبشي، وصغار النعام بإبل يمانية، لأن السواد في إبل اليمنيين أكثر. وهذا يدل على معرفته بالحيوانات أيضاً.

ويعود عنتره بعد ذلك إلى الغزل، ويتذكر عبلة، فيقول هذين البيتين المشهورين وهما من رقيق الكلام وحلو القريض:

ولقد ذكركَ والرماحُ نواهلُ

مني وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دمي

فوددتُ تقبيل السيوف لأنها

لمعتُ كبارقِ ثغركِ المتبسّم

ويختتم معلقته بذكر بطولته وشجاعته، ويتهدد الذين يتوعدونه بالقتل والانتقام بأنه سيكون السابق فيقتلهم ويلحقهم بمن قتلوا على يديه.

ونكتفي هنا بما ذكرناه عن عنتره وعقدة النقص لديه، فالمقالة لا تحتل المزيد والإطالة، مع أن الحديث عن عنتره طويل وشائق. ولنا كبير الأمل من الكتاب الآخرين أن يستدرکوا ما فاتنا، وأن يأتوا بالجديد والطريف عن عنتره، فهناك جوانب كثيرة حول عنتره بحاجة إلى كشف الغطاء عنها، وإلقاء الضوء عليها.

المصادر والمراجع

- ١- ديوان عنتر بن شداد، شرح وتعليق: عباس إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- ٢- شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد الطراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- ٣- شرح المعلقات السبع للزوزني، منشورات دار القاموس العربي، بيروت، بلا تاريخ.
- ٤- د. عبد المالك مرتاض، السبع معلقات، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨م.
- ٥- د. سليمان الشطي، المعلقات وعيون العصر، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ٣٨٠/، الكويت، ٢٠١١م.
- ٦- ج. هيوارث دن، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، مكتبة الثقافة العربية، بيروت، بلا تاريخ.
- ٧- كاتارينا مومزن، غوته والعالم العربي، ترجمة: عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ١٩٤/، الكويت، ١٩٩٥م.
- ٨- الأدب والنصوص، للصف الأول الثانوي، وزارة التربية، دمشق، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م.



روسو، المتخيل القلق^(١) جولييت غاليازي^(٢)

ترجمة: د. ماري شهرستان



جان- جاك روسو-Jean Jacques Rousseau، هو أحد كبار فلاسفة قرن الأنوار بفضل غزارة أعماله وأفكاره المجددة المبدعة. غير أن هذا المدافع عن البشر والطبيعة والحرية والمساواة، كان منعزلاً وحيداً وصموتاً. في الأسطر الأولى من مؤلفه: «أحلام المتنزه الوحيد^(٣) Rêveries «du promeneur solitaire» يبدأ روسو بتعريف نفسه وحالته: «ها أنا ذا وحيد على هذه الأرض، ولم يعد لي لا أخ ولا قريب، ولا صديق، ولا مجتمع سوى نفسي.

ترجمة وباحثة سورية.

العمل الفني: الفنانة منى القداد.

الإنسان ذو الطبع الألوف والأكثر حبا للبشر
أبعد بتوافق إجماعي».

نحن هنا في نهاية عام ١٧٧٦م، يعود
مؤلف «العقد الاجتماعي Contrat
social» و«الإميل l'Émile» ليعيش مجدداً
في باريس. لم تكن الثورة قد بدأت بعد، وكان
يقود المملكة في ذلك الزمن نظام ملكي بحق
إلهي، وكانت الأنوار تغزر في بعض المنتديات
ويشعر نفسه في أنه مستثنى منها بعد أن
تجنبها بنفسه قبل بضع سنوات.

روسو، كهل في الـ ٦٤ من عمره، صحته
سيئة، يعاني من اضطهاد حقيقي منذ أن
نشر كتابيه الأساسيين عام ١٧٦٢م الأمر
الذي أجبره على الفرار. غير أنه في عزله،
بالغ الفيلسوف في مقدار الكره الذي وقع
ضحيته وأخذ يكرر مراراً الأسلوب الذي
طُرد به من باريس إلى جنيف مسقط رأسه،
وحيث تم إحراق كتبه، وتخلّى عنه أصدقائه
القدامى مثل الفيلسوف دوني ديدرو Denis
Diderot، وسخر منه فولتير Voltaire
من دون توقف، كما هاجمه سكان موتيه -
ترافير Môtiers-Travers الذين رشقوا
بالحجارة ملجأ الكائن في الإمارة البروسية
في نوشاتيل Neuchâtel...

هل هو حقيقة ذو طبيعة انعزالية؟

هذه الأحداث والوقائع التي حصلت
فعلاً تشكل ربما أهم الصور، المشحونة

سابقاً، والتي لا تزال تسري حول هذا الكاتب
وفيلسوف القرن الثامن عشر، بينما يحتفل
هذا العام بالذكرى المئوية الثالثة لولادته.
نجدّه هو نفسه يحافظ على هذه الصورة
للإنسان الوجداني، المنبوذ من الجميع.

فهذا الفيلسوف العبقري ذو الأفكار
الجديدة والعميقة، يميل غالباً إلى الوحدة،
وإلى عشق الطبيعة وإلى نوع من «أسطورة
المتوحد الطيب» التي تسبب إليه. من
الصعوبة الإحاطة بهذه الشخصية رغم
مرور ثلاثة قرون على ولادتها، لأنها
تعرضت للعديد من المتناقضات، وحوصرت
بين الصورة التي قدمها عبر «الاعترافات
Les Confessions (١٧٦٥-١٧٧٠)» وبين
المعتقدات الخاطئة التي رسمها له أعداؤه.
ولما كان روسو معقداً وشديد الحساسية،
يبدو أن خجله هو سبب عدم مهارته، ويبدو
أن انزعاجه في المجتمع قاده إلى الوحدة.

في هذه الذكرى المئوية الثالثة صدر
العديد من الكتب تتساءل حول طبيعة
ميله للوحدة. يجد الفيلسوف الكندي
دافيد غوتيه David Gauthier علاقة
بين «خطاب حول عدم المساواة ١٧٧٥م le
Discours sur l'inégalité»، وبين هذا
الميل». ففيه يقرأ لنا روسو تاريخ جنسنا:

«ولدنا في الوحدة، ودخلنا تدريجياً
في المجتمع؛ الإنسان مخلوق متوحد

وأصدقائنا، وجيراننا وكل من كان يحيط بي (...). كان يحبني؛ وأنا كنت أبادلهم الحب». مع والده الذي كان يقول إن حب الوطن هو أقوى هوى، كان جان - جاك الشاب اليافع يشاركه القراءة ولفترات طويلة جداً حيث اكتشف التاريخ القديم.. وهذا ما طبع تفكيره، مثل الصداقة التي ربطت بينه وبين ابن عمه الذي أمضى معه سنتين في الريف.

اكتشف الظلم في سن الثانية عشرة عندما تم اتهامه بعمل مشين لم يرتكبه. ثم تم توظيفه عند معلم نقاش استبدادي، فوجد نفسه في وحدة نفسية حصرت في التعاسة. كي يهرب من هذا الوضع وكى يتجنب الصدمات، اكتشف فضائل الوحدة الفيزيائية بالجوء للكتب. «الانطواء على الذات هنا هو رياضة روحية لتحقيق تعويض عن السعادة كدواء بديل غمر طوال حياته كلها النقص الحقيقي للعلاقات»، وذلك وفق تحليل فايك Faïck، وكان روسو قد أمضى حياته باحثاً من دون جدوى عن هذه السعادة الأولية وتلك الصداقة الأصيلة التي يجد قبسات منها عند السيدة فاران Mme de Warens، التي عاشت معها اتحاداً نادراً بين آنيسي وشامبيري Annecy et Chambéry قبل أن تحل مكانها امرأة أخرى.

أصبح اجتماعياً، وفي افتتاحية الأحلام Rêveries التي يقرأ روسو لنا فيها تاريخه الخاص: قصة مخلوق اجتماعي ارتد إلى التوحد.^(٤)

لكن إن اختار هذا الكاتب والفيلسوف العيش وحيداً، فهو قد فضل الانعزال بعد أن قضى سنين عديدة بين الناس.^(٥) التساؤل حول طبيعة روسو وميله للتوحد هو شأن منطقي وشرعي طالما أنه هو نفسه أكد في نهاية حياته وفي الظروف التي نعرفها، أنه يميل للوحدة، بينما «لا يتصور جان - جاك روسو سعادة حقيقية أخرى إلا بين البشر وفي مجتمع قلوب».

في كتابه الأول «الاعترافات Confessions» يظهر أن «الشعور الأول الذي نشأ في قلب روسو هو شعور عميق بالمواطنة». في الواقع، في ٢٨ حزيران عام ١٧١٢م في جنيف، ولد جان - جاك روسو مواطناً في جمهورية وفي وسط متواضع. والده صانع ساعات، وهذا ما كان يروق لفولتير Voltaire ذكره،^(٦) وتوفيت والدته في ٧ تموز أي بعد بضعة أيام من ولادته. «كانت ولادتي أولى نكباتي»، هذا ما كتبه بعد خمسين عاماً.^(٧) رغم هذه النظرة الاستعادية المرتدة إلى الماضي، يبدو أن سنيه الأولى كانت مفعمة بالحب والسعادة. «والدي، وعمتي، وصديقتي، وكل العائلة،

الذين لم يفهموه، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ملتزمين برسالة: وهي إبداء شخصية منفتحة وملتزمة واجتماعية لإقناع الناس بأفكارهم.^(٩)

ابتداع عالم مثالي

وبينهم ينفجر روسو مؤكداً أن بالنسبة إليه «أن يعيش وحيداً في الصحراء لهو أمر أقل قساوة وأقل صعوبة من أن يكون وحيداً بين من هم أمثاله». فهو لعدم التوصل إلى التفاهم مع كائنات حقيقية كما كتب في اعترافاته، يفضل اللجوء «إلى بلاد وهمية» يخترع «عالمًا مثاليًا» مسكوناً بكائنات يحبها قلبه. وتجرباً بالإخبار عن منظمة اجتماعية ظالمة باغية، من دون أن يتملق ولا أن يجامل أحداً على حساب العدالة والحقيقة زاعماً أنه يتبع بشجاعة سبل الاستقامة.

لكن الانتقادات الأكثر حدة التي تستمر في عصرنا حول روسو تستند من دون أدنى شك إلى الفجوة الكائنة بين سلوكه وبين أعماله. لقد كان هو نفسه واعياً لهذه المفارقة ويقول محذراً: «بصرف النظر عن القيام بالمهمة الأكثر إفادة، سأجرباً وأحاول بالطريقة الأكثر سهولة: على غرار الكثيرين غيري، لن أعمل بيدي بل بالريشة؛ وعوضاً من أن أقوم بعمل ما ينبغي عمله، سأبذل جهدي لقوله».^(١٠) كتب حول العيش المشترك في العقد الاجتماعي ١٧٦٣م لأنه

بعد سن الثلاثين، عندما أتى ليستقر في باريس، أراد روسو أن يحتل مكانة بين الناس. «التوق إلى مجتمع مثالي لم يكن بعد المحرك لوجوده».^(١١) كان روسو يبحث عن العرفان في نظرات الآخرين. لكن عندما تم عرض الأوبرا - الساخرة «عرّاف البلدة Le Devin» أمام البلاط عام ١٧٥٢م، صرف النظر عن دعوة الملك خشية منه ألا يكون في المستوى المطلوب... وقبل سنتين من ذلك، كافأت أكاديمية ديجون Dijon خطابه حول الفنون والعلوم الذي يبرهن فيه، - وهو في قلب قرن الأنوار! - أن العلوم والفنون، لا ترقّي العادات بل تبعد الإنسان عن الفضيلة ولا تفيد إلا بإشغاله بترهات كي ينسى عبوديته. اكتسب بذلك شهرة لم يكن يمتلكها بالولادة، لكنها جعلته يشعر بالارتياح في الصالونات الباريسية.. ويعلن روسو في الاعترافات: «لو لم أكن متأكداً بأنني سأظهر ليس فقط بمساوئي، بل بشخصية غير شخصيتي لأحببت المجتمع مثل أي إنسان آخر».

انتقاله من الموسيقى، موهبته الأولى، إلى الكتابة والفلسفة، وصفه روسو لاحقاً وكأنه نوع من الإلهام ذي العواقب المشؤومة: «تمّ ضلالي بدءاً من ذلك الوقت». وبعد فترة قصيرة، عندما اختار أن يعزل في صومعة بعيداً عن باريس، أوجّضه فلاسفة الأنوار

أمّا روسو فيعتبر أن الفلاسفة الآخرين قد ضلوا سبيلهم عندما ألصقوا الحاجة والجشع والقمع والرغبة والغطرسية بالإنسان المتوحش بينما هي صفات الإنسان المدني. فيقوم بإجراء تمييز تفريقي أساسي بين «الإنسان بالحالة الطبيعية» و«الإنسان المتوحش»، هذا الإنسان الذي يقارنه بالإنسان الكاربيبي الذي يعتبره أنه لم يعد بحالته الطبيعية بل أصبح يعيش ضمن شكل اجتماعي. وهو بذلك قد بنى ورسخ مفهوماً نظرياً وتصوراً خاصاً به.

بغية معرفة ماهية الطبيعة العميقة في الإنسان، تصوّر روسو حالته الطبيعية السابقة للتمدن وتخيل البشر «هائمين في الغابات من دون صناعة ومن دون كلام، من دون مسكن ولا حرب ومن دون علاقة ومن دون أي حاجة لمثليه، وكذلك من دون أية رغبة في إيذائهم أو قتلهم». غير أن «البشر في هذه الحالة التي لا يوجد فيها أية علاقة أخلاقية فيما بينهم ولا واجبات معروفة، لم يستطيعوا أن يكونوا لا صالحين ولا أشراراً ولم يمتلكوا لا مثالب ولا فضائل». فقبل سقوطه، لم يكن الإنسان لا صالحاً ولا شريراً، لأنه وحده وبإمكانه التوصل لسد كل حاجاته. لكن عندما أصبح ضمن مجتمع ظهرت الشرور واللامساواة.

غير قادر على العيش بين الناس. وبعد أن تخلّى عن أطفاله الخمسة الذين رزق بهم من تريز لوفاسور Thérèse Levasseur، كتب الإميل l'Émile، وهو كتاب مخصص للتربية...

من هذا المنظور بدا روسو وكأنه يعطي دروساً وإن لم يكن هو نفسه مثلاً يقتدى به. وهذا لم يمنع عدداً من المفكرين المعاصرين من مباركة القدرة الخلاقة لفكره، وعلى الأخص إدغار موران Edgar Morin: «أحب هذا الجنيبي، العصامي المتعلم الذي كوّن نفسه، وذا الحساسية الفائقة والذي بعد أن كابد كل أنواع المغامرات، قصد باريس إلى وسط الفلاسفة وأبدى على الفور عمق إلهامه، إلهام كان في آن معاً أدبياً وسياسياً وفلسفياً. ثم لم يلبث أن أثار استنكار الفلاسفة الذين استقبلوه في البدء بحفاوة».^(١١)

أسطورة «البرّي الطيب»

في الخطاب حول أصل وأسس عدم المساواة،^(١٢) يناهض روسو نظريات عصره بالمجمل التي تبرر عدم المساواة بإرجاع ذلك إلى الحق الإلهي (جاك بوسويه Jacques Bossuet) أو إلى الحق الطبيعي. أمّا توماس هوبز Thomas Hobbes فيعتبر أن الإنسان هو ذئب بالنسبة للإنسان، والدولة القوية هي ضرورة للحفاظ على النظام الاجتماعي.

ما هو العقد الاجتماعي؟

«ولد الإنسان حراً، وهو مكبل بالحديد في كل مكان»، هذا ما لاحظته جان - جاك روسو في العقد الاجتماعي ١٧٦٢م، وهو في هذا الكتاب يجهد «لإيجاد شكل للتشارك يدافع ويحمي الإنسان الفرد وممتلكات كل مشترك متضامن، بواسطة كل القوة الجماعية، وعبر هذا الشكل يتحد كل فرد مع الجميع مع ذلك لا يخضع إلا لنفسه ويظل حراً كما كان في السابق»^(١٣) ويتساءل الفيلسوف حول العيش المشترك، «العقد الاجتماعي» الشهير، بعد أن بين في «الخطاب حول اللامساواة ١٧٥٥م» أن أصل اللامساواة سببه سياسي ويكمن في المعاهدات القائمة (والمقبولة) من قبل البشر.

والعقد الاجتماعي كما حدده روسو ليس عقداً بين الشعب والسلطة، حيث بوساطته قد نفّوض حق القيادة. إنّه عقد فيما بين الشعب نفسه، إرادة تبزغ عن جدل يُدار جماعياً ومنطقياً، وفي نهايته يفوّض الشعب بالتصويت شخصاً أو عدة أشخاص لكنه لا يعطيهم حق التقرير إنّما واجب تطبيق القرارات المتخذة»، وذلك وفق شرح الفيلسوف جان- بول جوارى^(١٤) وبذلك يؤكد روسو على مبدأ سيادة الشعب الذي ينبغي أن يخضع لقوانين من صنعه.

لذلك، كل مواطن ينبغي أن يكون باستطاعته تكوين رأيه الخاص متجاوزاً مصالحه ورغباته، والتميّز بين ما يوجّه حياته الفردية وما ينبغي أن يقود المجموع. يميّز روسو إذاً بين إرادة الجميع التي هي حصيلة إرادات فردية والتي تستند أحياناً إلى ملاحظات وذلك على الأخص إلى مصالح وميول كل واحد، عن الإرادة العامة التي تناسب ما ينبغي أن يريده الشعب لو امتلك المعرفة الكاملة لما هو في صالح المجموع. غير أن روسو واع أن هناك شروطاً عديدة منها مستوى معين من إجادة اللغة يضاف إليها المقدرة العقلية والمنطقية، وهاتان المقدرتان ينبغي أن تجتمعا كي تتطابق إرادة الشعب مع الإرادة العامة...

من الإيميل De l'Émile إلى «التربية الحديثة»

كي يطوّر نظرياته حول التربية، ابتدع جان- جاك روسو ولداً يافعاً خيالياً وهو «إميل Émile» ووصف كل مرحلة من مراحل التربية التي ينبغي أن يتلقاها. معتبراً أن «كل شيء يخرج من أيادي صانع الأمور يكون جيداً أما بين أيدي الإنسان فكل شيء يفسد»^(١٥) الفيلسوف، الذي يهتم بـ«فن تكوين البشر»، يخطط لـ«علم روحاني للطفولة»^(١٦) طالما يعتبر أن الطفل الذي لا يزال قريباً من الحالة الطبيعية (التي كان

بحياة الريف، ويوصون بالعمل اليدوي وبتعدد الحرف، وحرية الإبداع الفني كما بالتربية الأخلاقية. ينبغي ألا يُترك الطفل لغرائزه وبمفرده، بل أن يتم تسجيله في منظمة اجتماعية (مبنية على أسلوب تعاوني تكافلي أو بعقد مع البالغين) يكتسب فيها الطفل الاستقلالية وحس المسؤولية في آنٍ معاً.^(١٧)

روسو، أبو الإثنولوجيا^(١٨)

«لم يكن روسو يتبأ بعلم الإثنيات فحسب، بل هو أسسه»، هذا ما شرحه كلود ليفي- شتراوس Claude Lévi-Strauss في خطاب له في جنيف ألقاه في ٢٨/حزيران ١٩٦٢م، خلال احتفال أقيم لذكرى الفيلسوف.^(١٩) برأيه، قبل قرن من ظهور الإثنولوجيا تصوّرُها روسو، وأرادها وأعلنها، ووضعها حالاً في مكانها بين العلوم الطبيعية والإنسانية التي كانت قد تشكلت. ووفق ليفي - شتراوس يمكن أن يُعتبر «الخطاب حول أصل اللامساواة ١٧٥٥م»، وكأنه البحث الأول في الإثنولوجيا العامة لأنه يطرح مسألة العلاقات بين الطبيعة والثقافة.

من وجهة نظر أكثر تجريدية، يميز روسو بعد ذلك في نص له من المرحلة نفسها، وهو بحث حول أصل اللغات، بين غاية عالم الإثنيات وغاية الكاتب الأخلاقي أو المؤرّخ:

الإنسان فيها سعيداً) ينبغي أن يستمر في هذه الحالة أطول وقت ممكن. ودور التربية من وجهة نظر المهذب، أن تعلّم الطفل كيف يعيش، وأن تجنبه التسرع في أن يصبح بالغاً قبل الأوان. فبرأيه ينبغي ألا نشبعه معارف وأقوال بل أن نعلمه كيف يحكم بنفسه، وأن نتركه يتعلم بتجاربه الخاصة.

مثل هذه الأفكار تولّد «ثورة كوبرنيكية في التعليم» هذا ما قاله لاحقاً اختصاصي علم النفس السويسري إدوار كلاباريد Edouard Claparède ١٨٧٣-١٩٤٠، أحد رواد علم التربية. لقد أسس عام ١٩١٢م معهد جان - جاك روسو في جنيف، المخصص لتكوين المهن التربوية «بعقلية جديدة»، حيث تعلم جان بياجه Jean Piaget ١٨٩٦-١٩٨٠، الذي ألّف العديد من الكتب حول تنمية ذكاء الطفل.. في فرنسا وفي غيرها من البلدان، أنشأ سيلستان فرينه Célestin Freinet جمعية مدنية للتعليم يحرّض فيها الأطفال على إنتاج مجلة، وفي روما أسّست ماريا مونتيسوري Maria Montessori «بيت الأطفال casa de bambini»، والأمريكي البراغماتي جون ديوي John Dewey الاختصاصي في علم النفس الذي نحن مدينون له بالعبارة الشهيرة: «التعلم بالعمل apprendre en faisant». إضافة إلى التربية المركزة على الطفل، الجميع يشيدون

«٩٩٪» وطالبوا بالعدالة، فهم قريبون من سخط روسو الذي يعتبر أن السياسة تهتم في أغلب الأحيان بالـ ١٪.. يكمن معنى الفكرة في أن الديمقراطية ليست نظاماً سياسياً يمنح حقوقاً شكلية، بل نظام ينبغي عليه أن يوفر حقوقاً ملموسة من دون الانحراف إلى أوليغارشية أو إلى تسلطية الأغنياء.

بالنسبة إلى روسو لا يوجد حرية من دون مساواة. لذلك فهو لا يعتبر إنكلترا على أنها مثال الحرية السياسية، رغم أنها كانت في عصره نظاماً تمثيلاً - فيه مجلس العموم منتخب-. بالنسبة إليه هو صورة وهمية للحرية.

خلال الحرب الباردة، نستطيع أن نميّز كتلتين ترميزيتين، من جهة، كتلة الماركسية التي تعتبر روسو الأب الروحي للثورة الفرنسية وحقوق الإنسان، وإن لم يذهب بعيداً في تفكيره لأنه قارب موضوع الاقتصاد السياسي وفق نموذج الملاكين الريفيين الصغار.

من جهة أخرى: هناك الليبراليون المناهضون للشمولية، منهم من وضح فكر روسو والدور الذي لعبه في الأفكار الشمولية من دون أن نرى رابطاً تاريخياً بين روسو وستالين، أو بينه وبين هتلر. وبينوا كيف أن الارتهاان التام لكل فرد بكل حقوقه لكامل

«عندما نريد أن ندرس البشر، ينبغي أن ننظر إلى أنفسنا؛ أما لدراسة الإنسان، فينبغي أن نتعلم كيف ننظر أبعد من ذلك؛ ينبغي قبل كل شيء ملاحظة الاختلافات بغية اكتشاف الخصائص». بتعبير آخر، عندما نتوجّه لاكتشاف أناس آخرين، وعادات أخرى، نتعلم أن نعرف أنفسنا.. (التعبير حضارة لم يكن موجوداً بعد، لكن فيلسوف القرن الثامن عشر استبقه.

بالنسبة إلى ليفي- شتراوس، «دَيّن عالم الإثنيات تجاه روسو» يقع أيضاً في خانة «الدعم الأخوي» الذي وفره عندما كشف نفسه من خلال اعترافاته ما يساعد «في التفاهم بشكل أفضل، لا كعقل مفكر تأملي بل كعنصر لا إرادي لتحوّل يحدث من خلاله».

روسو أوّل الساخطين

يصف بعضهم في يومنا هذا روسو بأول الساخطين، ويرأي الأستاذة سيلين سبيكتور^(٢٠) Céline Spector إنه وصف مبرّر طالما أن روسو يعتبر العدالة وكأنها حب الإنسانية، أي حب الشعب الذي يشكل أساس النوع الإنساني.

حتى إنه يذهب إلى الإعلان أن «الشعب يكوّن النوع الإنساني: ما هو ليس من الشعب، هو شيء لا يذكر ولا حاجة لاعتباره». عندما هتف الساخطون: «نحن

وساطة:

نجد الفيلسوف ميكائيل سانديل Michael Sandel حريصاً على الحذر من نزعة جمهورية معتبرة قمعية، صماء تجاه الانشقاقات والفن ولا ترى الاختلافات. ويحذر شارل تايلور^(٢٢) Charles Taylor من انحرافات ممكنة لمجتمع لا يعترف بحقوق الأقليات.

كان روسو حريصاً على فرض الإرادة العامة، لهذا السبب لم يذهب بسياسة المساواة إلى النهاية أي إلى الاعتراف بالاختلافات. مهما يكن من أمر يبقى روسو حاضراً بقوة في الجدالات المعاصرة: فمنذ نهاية عام ١٩٧٠م، تستمر الدراسات الأنثوية بنقد روسو ولا تقتصر فقط على إصدار قرار اتهام ضد ما يوحى به الإيميل l'Émile من التمييز ضد المرأة بل تنتقد «رؤيته العلائقية» في الاستقلالية.

التسلسل التاريخي لأعمال روسو:

١٧١٢م ولد جان - جاك روسو ولد في ٢٨ حزيران في جنيف.

١٧٤٢م مقالات حول نوبات جديدة للموسيقى

Projet concernant de nouveaux signes pour la musique

المتحد يبرز محذور سلطة الدولة المطلقة، أو كيف أن المماثلة يمكن أن تحصل بين وجه المشرّع المكلف بتغيير الطبيعة الإنسانية ووجه الإنسان الجديد.

الانتقاد الثالث الذي وجهوه لروسو هو أنه وضع نموذجاً سياسياً غير تعددي ولا يعطي مكاناً كافياً للأقليات، ما يوحى بتمثيل باطل للمتحّد؛ إن مؤلّف العقد الاجتماعي يمدح ويستشرف الإجماعية^(٢٣) ومجانسة العادات وهذا ما تستثنيه الديمقراطية التعددية ومتعددة الثقافة. تغيّر الاتجاه بدءاً من عام ١٩٧٠م عندما قام جون رولز John Rawls برد الاعتبار لروسو وأعاد دمجّه في تاريخ الليبرالية السياسية بالعودة إلى آلية الإرادة العامة في نظريته المتعلقة بالعدالة.

هل هذا يعني أن المناقشة قد انتهت؟

تظل تركة روسو معقدة وغامضة أحياناً. فإذا اعتبر رولز أن مؤلّف العقد الاجتماعي يسمح ببناء مجتمع عادل ومستقر تكون فيه المؤسسات مدعومة بدوافع ملائمة، وحيث المساواة هي في خدمة الحرية، فإن أعداء رولز النظريين يجدون عند قراءة روسو نقداً قبل رسالة التعاقد الشكلية أو ليبرالية تنافسية.. كما أن فكر روسو لا يتيح لنا الإضاءة على العالم المعاصر من دون

- 1742م بحث حول الموسيقى الحديثة
Dissertation sur la musique moderne
- 1744م ربّات الفنّ الأنيقات les Muses galantes (أوبرا)
- 1749م إصدار مقالات في الإنسيكلوبيديا
des articles sur la musique pour l'Encyclopédie.
- 1750م الخطاب حول العلوم والفنون (مكافأ
Discours sur les sciences et les arts بجائزة من أكاديمية ديجون).
- 1751م خطاب حول فضيلة البطل
Discours sur la vertu du héros
- 1752م عرّاف القرية Le Devin du village (أوبرا)
- 1752م نارسييس أو عاشق نفسه،
Narcisse ou l'Amant de lui-même (كوميديا)
- 1755م نشر الخطاب حول أصل وأسس
Discours sur l'origine, la mesure et les fondements de l'inégalité parmi les hommes
- 1755م محاكمة مشروع السلام الدائم للسيد
Jugement du Projet de paix perpétuelle de Monsieur l'Abbé de
- Saint-Pierre
- 1756م فحص المبدئين المتقدمين من رامو
Examen de deux principes avancés par M. Rameau
- 1758م رسائل أخلاقية كتبت بين عام 1757م
Lettres morales, 1758م نشرت عام 1888م, et 1757 et 1758, publication posthume en 1888
- 1758م رسالة حول العناية الربّانية
Lettres sur la providence
- 1758م رسالة إلى المبير حول العروض المسرحية
Lettre à d'Alembert sur les spectacles
- 1761م جولي أو الإيلويز الجديدة Julie ou la Nouvelle Héloïse
- 1762م إميل، أو في التربية
Émile, ou De l'éducation
- 1762م في العقد الاجتماعي
Du contrat social
- 1764م رسائل كتبت من الجبل
Lettres écrites de la montagne
- 1764م رسائل حول تشريع كورسيكا
Lettres sur la législation de la Corse
- 1765م مشروع دستور لكورسيكا
Projet de constitution pour la Corse

Les Rêveries du promeneur solitaire	١٧٦٧م قاموس موسيقي Dictionnaire musical
١٧٧٨م بحث حول أصل اللغات (نشر بعد وفاته)	١٧٧٠م الاعترافات كتبت من عام ١٧٦٥م إلى عام ١٧٧٠م ونشرت بعد وفاته Les Confessions
Essai sur l'origine des langues (١٧٨١م إميل وصوفي، أو المتوحدان) (نشر بعد وفاته، ملحق لـ «إميل»)	١٧٧١م تأملات حول حكومة بولونيا
١٧٨١م إميل وصوفي، أو المتوحدان (نشر بعد وفاته، ملحق لـ «إميل»)	Considérations sur le gouvernement de Pologne
les Solitaires publication posthume en la suite de l'Émile, ١٧٨١	١٧٧١م بيغماليون Pygmalion
	١٧٧٧م حوارات، روسو يحاكم جان - جاك Dialogues. Rousseau juge de Jean-Jacques

الهوامش

- ١- المصدر: مجلة العلوم الإنسانية العدد ٢٣٨ شهر حزيران ٢٠١٢م- موضوع: كيف تتشا الأفكار الجديدة؟
- ٢- جوليت غاليازي Juliette Galeazzi، كاتبة وصحفية أوروبية، محررة في مجلة العلوم الإنسانية وفي العديد غيرها من الصحف.
- ٣- أحلام المتنزه الوحيد Rêveries du promeneur solitaire ١٧٧٦-١٧٧٨م أعيد نشره عام ٢٠١٢م، rééd. Flammarion, coll. GF فلمازيون
- ٤- دافيد غوتيه، شعور الوجود. البحث غير المكتمل لجان - جاك - روسو، ماركوس آلر، ٢٠١١م David Gauthier. Le Sentiment d'existence. La quête inachevée de Jean-Jacques Rousseau. Markus Haller
- ٥- وفق دوني فايك، جان - جاك روسو. المدينة والأشياء، بريفات ٢٠١٢م Denis Faïck, Jean-Jacques Rousseau. La cité et les choses. Privat ودوني فايك أستاذ الفلسفة في جامعة تولوز.
- ٦- جان - بول جوارى، روسو مواطن المستقبل، Jean-Paul Jouary, Rousseau, citoyen du futur, ٢٠١٢, LGF.
- ٧- جان - جاك روسو، الاعترافات، Jean-Jacques Rousseau. Les Confessions, ١٧٦٥-١٧٧٠, rééd. Gallimard, «Folio Classique», ٢٠٠٩.
- ٨- د. فايك D. Faïck.
- ٩- د. فايك D. Faïck.
- ١٠- جان - جاك روسو إميل أو في التربية، ١٧٦٢م، فلمازيون Jean-Jacques Rousseau. Émile ou de l'éducation, ١٧٦٢, GF, Flammarion, coll. «Folio Classique», ٢٠٠٩.

- ١١- إدغار موران، فلاسفتي، جرمينا Edgard Morin. Mes philosophes. Germina ٢٠١١.
- ١٢- جان- جاك روسو، خطاب حول أصل وأسس عدم المساواة بين البشر، ١٧٥٥م، إعادة إصدار، فلمازيون، مجموعة «GF»، ٢٠١٢ Jean-Jacques Rousseau. Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes rééd. Flammarion. coll. ١٧٥٥.
- GF، ٢٠١٢.
- ١٣- جان- جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ١٧٦٢م، إعادة إصدار فلمازيون، Du contrat social rééd. Flammarion. coll. ١٧٦٢، GF، ٢٠١٢.
- ١٤- جان- بول جوارى روسو، مواطن المستقبل، Jean-Paul Jouary. Rousseau. citoyen du futur. LGF، ٢٠١٢.
- ١٥- جان- جاك روسو، إميل أو في التربية، ١٧٦٢م، إعادة إصدار فلمازيون، Émile ou De l'éducation rééd. Flammarion. coll. ١٧٦٢، GF، ٢٠٠٩.
- ١٦- التعبير لـ روجيه كوزينة Roger Cousinet «مفتش التربية القومية المعروف لوضعه أسلوب عمل حر ضمن مجموعات عام ١٩٢٠م، وهو مؤلف «التربية الحديثة» L'Éducation nouvelle عام ١٩٦٥م، كتاب يسجل فيه نشوء الحركة.
- ١٧- مارتين فورنييه، قرن التربية الحديثة العلوم الإنسانية. Un siècle de l'éducation nouvelle. Martine Fournier. Sciences Humaines. n° ١٠٥، mai ٢٠٠٠.
- ١٨- علم يبحث أصول السلالات البشرية ethnologie.
- ١٩- كلود ليفي- شتراوس، «روسو أبو افيتولوجيا»، بريد اليونيسكو، آذار ١٩٦٣م. Claude Lévi-Strauss. Le Courrier de l'Unesco. mars ١٩٦٣.
- ٢٠- سيلين سبيكتور أستاذة الفلسفة في جامعة بوردو الثالثة، عضو المعهد الجامعي في فرنسا Céline Spector, professeure de philosophie à l'université Bordeaux-III. membre de l'Institut universitaire de France. spécialiste de la philosophie et de l'histoire de la philosophie des Lumières à nos jours. auteure en France. Usages politiques contemporains. Voltaire Foundation. Oxford University.
- ٢١- الإجماعية: unanimisme: مدرسة أدبية في القرن العشرين تقوم على أن من واجب الفنان المبتكر أن يعبر عن الحياة الجماعية. ومن ممثلي هذه المدرسة جول رومان بفرنسا ودوس باسوس بالولايات المتحدة.
- ٢٢- شارل تيلور مؤلف «التعددية الثقافية»، Charles Taylor. auteur de Multiculturalisme. Aubier، ١٩٩٤.



قبسات من دفتر الأيام

✽

عبد الباقي يوسف

إنك ترتقي في درجات إنسانيتك كلما
تنمي طاقة التسامح لديك.

✽ ✽ ✽

دوماً تجنب الانفعال المباشر مع الأحداث
المباشرة، الحياة ليست حدثاً واحداً، إنها
سلسلة أحداث، ما أبكاك اليوم قد يضحكك
غداً، وما أضحكك البارحة قد يبكيك
اليوم.

لا تتخذ القرارات إلا بعد أن تنطفئ
النيران وتصفو السماء وتتضح الرؤية.

✽ ✽ ✽

كن دائم السعي لتطوير طاقة الشجاعة
لديك لتغفو عن نفسك وتحسن إليك. ليست
الشجاعة أن توجه العقاب لنفسك، ولكن
الشجاعة هي مدى مقدرتك على الصفح

إن سماعك عن شخص ليس واقع
الشخص ذاته، إنه مفهوم من يسمعك تقيمه
لهذا الشخص. المفاهيم في أمر من الأمور
تختلف من شخص لآخر، وهذا يأتي على
الأخلاق والجمال والحق، فما أسمعك من
الأخلاق قد لا يكون كذلك، وما أسمعك من
الجمال قد يكون مختلفاً لمقاييس الجمال،
وما أسمعك من الحق قد يكون ظلماً. وها
هنا فإن معرفة مفهوم سامعك لهذه القيم
تبين أمامك الحقائق وفق مفهومك.

تعلم كيف تغفو... تعلم كيف تصفح.
وكما أنك تطلب العفو، عليك أن تكون عفواً
بالناس. وكما أنك تطلب أن يحسن إليك،
عليك أن تكون محسناً للناس.

✽ أدب وناقده وقاص.

عن نفسك والاجتناب من السقوط في حفرة مرتين.

لم يكن شجاعاً ذاك الذي وجه عقاباً لنفسه وآثر الانسحاب في مواجهة الحياة، الشجاعة.. كل الشجاعة تكمن في مدى قوة الصمود والمقاومة حتى آخر نبض.



وأنت تغرس الورد في تربة الأرض، تعلم كيف تغرسها في تربة النفوس كذلك. كما أن تربة الأرض تحتاج إلى فلاحه وبذور وسقاية وهواء نقي حتى تهب الزهور والثمار الطيبة، كذلك هي تربة نفوس أولئك الذين تراههم كل يوم. دوماً عليك أن تحمل معولاً، وبذوراً، ومطرراً، وهواء نقياً.



جئت إلى الحياة لتعيشها، لا لأن تمر بها مروراً عابراً. تعلم دوماً كيف تعطي.. تعلم كيف تدرب نفسك على تذوق متعة العطاء. عندما تقدم زهوراً للآخر، فإنه أيضاً قد يقدمها للآخر، وكلما أعطيته زهوراً فإنك تدربه على أن يقدمها حتى يأتي يوم فيقدمها. وعندما لا تقدم إليه زهوراً فإنه لا يقدمها لأحد، ولا يتدرب كيف سيقدمها في يوم ما.

إن مقدرتك على غرس وردة واحدة في نفس إنسان، قد تدفعه إلى غرس وردة في نفس

إنسان آخر، وكان قبل ذلك يغرس الأشواك. خلق الإنسان وهو يتأثر بفعل إنسان آخر. يقال: «الصاحب صاحب» لأنه يسحب إلى حدائق الورود، أو إلى أودية الأشواك.



ثمّة أناس يبتغون أن يسري كل شيء وفق مشيئتهم: ألا يجوعوا، ألا يبردوا، ألا يمرضوا، ألا يحزنوا. وأن يؤيدهم الناس كافة من مختلف شتاتهم.

عجب أمر هؤلاء، فإن تحقق لهم كل هذا فلا شيء سوف يعيشون.

إن ضرورة الحزن والسقام والجوع بالنسبة للإنسان في حضن الحياة هي كضرورة قر الشتاء، وحر الصيف، وسقوط أوراق الخريف بالنسبة للربيع في حضن الطبيعة.

علينا أن نتذكر دوماً أن الطعام الطيب يستمد طيبه على قدر ما فيه من حمض وملح وحاد وحلو ومر. علينا أن نتذكر أن الورود هي ورود على قدر ما توخزها أشواكها وهي لاتكف من تقديم رحيقها لهذه الأشواك التي لاتكف عن وخزها كل ربيع.



دوماً علينا أن نسعى لإصلاح الواقع، لإصلاح السلوكيات السلبية التي تعشش في نسيج هذا الواقع، وعلى قدر ما يحالفنا

النجاح في مهمتنا يأتي إصلاح أبناء هذا الواقع تلقائياً ومتساوياً لخطواتنا .



الحب هو شعور ذاتي بالإشراق نحو شخص آخر، وليس القلب وحده هو الذي يحب، ولا النظر وحده، ولا النفس وحدها . يسري الحب في شريان كل ذرة من الجسد والروح فتشرق الذرات لرؤية الذرات ويبدو المحبان لحظة اللقاء يسبحان في فلك من نور الحب حتى لو كانا في زنزانة مظلمة .



لاشيء يبرر الاستسلام لليأس حتى لو تأمر العالم كله ضدك، وأغلقت كل الأبواب أمام خطواتك، عليك أن تصنع شيئاً نافعاً تقدمه للعالم، وعندها فقط تشعر بقوتك العظمى في مواجهة الهزيمة، وهذا هو الانتصار بعينه .

- دوماً عليك أن تبحث عن فعل بطولي تقوم به، لقد جئت إلى الحياة لتكون بطلاً، وعندما تحقق هذه البطولة ستكون قد حققت جدارتك بالحياة التي وهبت لك . ليست البطولة أن تقدم الزهور لأولئك الذين يقدمون لك الزهور، البطولة هي تقديمك الزهور لأولئك الذين يقذفونك بالأشواك .



ليس هناك من يتذوق لذة الطرب أكثر

من ذاك الصوت المعبذب الذي يشدو من شدة الألم، يبلغ بروحه الشدو باباً يفقد فيه أي إحساس بحجم ذاك الألم، وفي ذات اللحظة تهب على روحه نسيمات نشوة غامرة لم تهب على مخلوق من قبله . إن أولئك الذين لا تحترق حواسهم في جحيم المعاناة، لا تبلغ أنامل أرواحهم البتة أوتار النشوة الكبرى لتعزف عليها، تلك النشوة التي تدفق بكل قوتها موازية لقوة النيران التي يحترقون بها .



خلق الله لك لساناً واحداً وخلق لك أذنين اثنين وجعل اللسان خلف بابين، ولم يجعل الأذنين خلف شيء وذلك حتى تسمع أكثر مما تتحدث لأن السمع هو أكثر فائدة من النطق، فإن أردت النطق احتجت إلى فتح باب الأسنان، وفتح باب الشفتين، وتحريك اللسان، واستخدام الصوت والاستعانة بأكثر أوتار الجملة العصبية حساسية، وبشيء من التركيز والحدة قد تستعين بيديك وعينيك وحاجبيك ورأسك، وهذا كله يسبب الإرهاق لك، فيفتصد العرق من كامل جسدك، ويختل قلبك في نبضه . أمّا وأنت تسمع، فلا تحتاج لأي جهد ويمكن أن تدخل بكامل حواسك حالة استرخائية من الإصغاء تنتهي بك إلى غفوة لم تدرك لذتها في ألف نوم .



طقوس الأسرار، وقت لممارسة الحب، وقت لعلاقات اجتماعية، وقت لنزهات وسفر، وقت لتأمل وعمل، وقت لنوم وسماع موسيقى، على الرغم من كل ذلك يتبقى متسع من وقت للفراغ لانجد ما نفعل فيه. يكمن دورنا في مدى مقدرتنا على النجاح في أن نجعل أعمارنا غنية بهذا الوقت، ونجعل هذا الوقت غنياً بأعمارنا.



ثمة أمور في الحياة يحتاج تحقيقها إلى تأنٍ وانتظار أكثر مما يحتاج إلى سرعة وعُجالة. فأنت لاتحتاج إلى عجلة حتى تنمو مدركاتك وتكتمل قدر حاجتك إلى التمهّل، ولاتحتاج إلى عجلة حتى ترتقي في أجناس المعرفة قدر حاجتك إلى التأني. واعلم بأنّ الإنسان لم يكن يحتاج إلى عجلة حتى يبلغ ثورة التقنيات الكبرى قدر حاجته إلى الوقت، وأن كل تلك الأحقاب البشرية الغابرة لم تكن خالية من عباقرة وأدكياء وعظماء، وأن حفدة الحفدة ليسوا أكثر عبقرية وذكاء وعظمة من الأجداد أولئك. كن دائم الانتظار لتحقيق آمالك الكبرى، إنها لاتحتاج منك غير الإخلاص في السعي إليها والانتظار حتى تأخذ وقتها المناسب لتبلغك مكتملة في سطوعها ورسوخها وقوتها.



أحياناً نصرّ على البحث عن أمر غير موجود على الإطلاق في الإنسان، لأن وجود هذا الأمر يحدث خلافاً في كوننا أحياء نعيش في قلب الحياة. فنريد زوجة كاملة، وولداً كاملاً، وصديقاً كاملاً. وننسى أن الإنسان الكامل لم يخلقه الله حتى لنفسه ليعبده بصورة كاملة، لأن خلق مثل هذا الإنسان لا يلزم أن يكون له وجود في الحياة، كما أن الإنسان ذاته ليس بحاجة لكمال كهذا. تشرق الحياة وتمارس ذروة حيويتها كلما تعلّم إنسانها شيئاً جديداً لم يكن يعلمه، كلما يفتح عينيه ليرى شيئاً لم يكن رآه. فيتدرج الإنسان في درجات الكمال ودرجات الشروق على الحياة على سلم درجات قربهِ من الإنسان ومن نفسه ومن ظاهرة الحياة برمّتها، وهو ذاته بالمقابل يمنح للحياة معنى وقيمة لتفتح وتشرق وتحقق ديمومتها وشروقها من خلاله. إنّ عظمة الإنسان المتميز تكمن هنا في مدى مقدرته على الانسجام مع حالة اللاكمال هذه التي فطر عليها وفطر عليها الآخرون وتوجيه هذه الحالة نحو أعلى مراحل التطور بدل المحاولة اليائسة لاقتلاعها من فطرة الإنسان، لأن الإنسان ذاته عند ذاك سَيُقتلَع معها.



دوماً ثمة متسع من وقت كاف لكل ما ينبغي أن نقوم به، ثمة وقت يكفي لممارسة

فإن صبرك الطويل يتحول مع الزمن إلى دواء.



مادامت الشمس تشرق كل يوم فإنها سوف تحمل إليك جديداً لم تكن قد أدركته قط حتى لو كنت في ظلمة كهف.



كل حاضر قابل لأن يتحول ذات حاضر إلى ماضٍ، ما هو غير قابل لأن يتحول إلى ماضٍ لم يكن له حاضر ذات حاضر.

يكون الخريف شديد هبوب الرياح التي لا تدع ورقة على غصن شجرة إلا وتطرحها أرضاً وتدفع بها على شكل ركام إلى حيث الأودية والأنهار، عاهدة الشجرة في ذات الحين بثوب عيدي مزركش جديد لم تر له مثيلاً في أي عيد مضى، هامسة بأنها سوف تخلع عنها ثوب السنة الماضية الذي غدا بالياً واكتظ بالغبار.

ثم يهمس لها أن الشتاء ينتظر ليقدم بعد ذلك ويغسل سائر بدنّها، والربيع منهمك الآن بحياكة ثوبها المزركش الأنيق الذي يليق بقوامها الممشوق، ويجعلها عروساً متجددة تستقطب بحلتها أنظار وحواس كل مار بجوارها من أنس، وجن، وطير، ودابة، ونبات، وجماد.

يهتف الخريف لها بحنان إنه في عجلة من أمره لأن الشتاء والربيع ينتظران كي

عندما يقدم الإنسان عملاً طيباً، لا يقدمه إلا وقد فتح عينيه جيداً على أنه إنسان وعندما يقدم عملاً خبيثاً، لا يقدمه إلا وقد أغلق عينيه جيداً عن كونه إنساناً.

- ثمة أناس يحرصون كل الحرص على أن يستمروا في عمل الخير حتى ينضجوا فيه تمام النضج، وثمة أناس يحرصون كل الحرص على أن يستمروا في عمل الشر حتى ينضجوا فيه تمام النضج.



تكن روح الطبيعة في أن أي فعل غير طبيعي تقوم به، يعكس على مكنوناتك ثورة رد فعل غير طبيعي، وعليك أن تحتل هذه الثورة كما احتملت طبيعتك الطبيعية فعلك اللاطبيعي.

إن ثورة اللاطبيعية نائمة لا ييقظها غير فعل لاطبيعي تقوم به فتستفض من نومها العميق وتثور على صفاء طبيعتك الساكنة ولا تعود إلى نومها قبل أن تعود إلى طبيعتك أو أن تعيدك إلى طبيعتك بالقوة، وإن كنت عنيداً سوف تحيلك إلى كائن لاطبيعي يعيش حياة لاطبيعية وتبقى يقظة لا يدركها نوم، كما أنك تبقى يقظاً لا يدركك نوم.



الداء لا يتحول إلى دواء، إنه في أفضل أحواله مزيد من الداء، دوماً عليك أن تكون دائم البحث عن دواء لدائك، وإن لم تجده

يكرماها، وعليها أن تتشجع وتتجاوب كي يحتفيا بها، فتخلع الشجرة بحياء شديد آخر ما تبقى على بدنهما من قطع ثياب داخلية قطعة قطعة حتى تلبث بكامل عريها وتخلع آخر قطعة ثوب.

تسلم عريها بخجل وتردد عذراء أمانة لأنامل الأمانة الذي ما يلبث أن يسلمها للشتاء الذي يتسلمها ويشرع في غسل بدنهما عضواً عضواً بفيض مطره الغزير حتى ينظف عنها آخر ذرة غبار، فيرسل آنئذ الربيع زخات خفيفة من رذاذه حتى يتخلص الجسد من آثار الغبار، ثم ما يلبث أن يرسل نفحات دافئة من خصلات شعر شمس، فتتشف أعضاءها عضواً عضواً بدفء، ثم ما لبث الربيع آنئذ أن يبدأ في ارتدائها الثياب التي حاكها على فصال جسدها قطعة قطعة، بادئاً بالقطع الداخلية الصغيرة، ومنتهياً بأخر لمسات الزينة من أساور، وحلق، وخواتم، وعقود الجواهر، واللالئ الثمينة، ثم يرش عليها نفحة من عطره.

تأخذ الشجرة المباركة أوج حلّة زينتها، وتستوي شامخة في عرش مقامها، فلا ترى البلبل موضعاً أكثر جمالاً وقدرًا منها كي تقضي فيه أيام شهر عسلها، فتتهافت إلى ربوعها الخلابة من كل صوب وحذب أزواجاً أزواجاً.. فرادة فرادة، فتبني لها أعشاشاً،

وتتزاوج، ويطول بها المقام حتى تفرخ في شدو، وزغاريد، وغزل، ومشاكسات، وحالات حب جديدة بين الجوار، حيث تفرّ عصفورة عاشقة تحت جناح رعشات سكون الليل إلى شجرة جارتها، ويفرّ عصفور عاشق إلى شجرة جارتها، يلتقيان خلصة على حافة غصن خفي، يبت أحدهما شوقه ولواعج حنينه للآخر بحراسة مشددة من وردة.

يمرّ المارّ، فلا يكون له إلا أن يقف ليمتّع بصره بالنظر الذي يشرح له صدره، ويرفع عنه وزره، وهو يسبح فالحق الإصباح على سحر هياتها، وكمال بهائها، ونضوج ثمرها، وطيب ريحها، وعذوبة سكّاتها.



في الصباح استفاقت زينب من النوم بنشاط وهي تدرك أنها اليوم سوف تخرج مع أمها إلى سوق المدينة كي تشتري لها ثياب العيد الذي سوف يحل بعد يومين.

بعد تناول الطعام راحت أمها تلبسها ثياب الخروج، فقالت زينب في أثناء ذلك: كم هو العيد جميل يا ماما.

قالت أمها: ماذا تحبين في العيد يا زينب؟

قالت: أحب ثياب العيد الجديدة، وتقديم سكاكر العيد للأطفال الذين يأتون لمعايدتنا، وزيارة الأقرباء.

قبلتها أمها، ثم أمسكت بيدها وخرجتا

إلى حيث موقف الباص الذي أخذهما إلى
حيث سوق المدينة.

كان السوق مزدحماً بالناس والسيارات،
والمحال مزينة بهذه المناسبة.

أخذت زينب تمشي بفرح عارم ويدها
بيد أمها كأنها فراشة وليدة للتو في قلب
الربيع، تنظر إلى المحلات العامرة بالثياب
الجديدة، وألعاب الأطفال من دون أن تترك
يد أمها.

فجأة وقعت نظراتها على رجل يقف أمام
محل، ويقذف عقب سيجارته على الأرض.
اعتراها إحساس مفاجئ بأن المدينة
تحوّلت إلى بيت صغير، هو بيتها.

تسمّرت بها قدمها في الأرض، نظرت
إليها أمها مستفسرة عن سبب وقوفها
المفاجئ؟!

تقدّمت زينب نحو عقب السيجارة المرمي
على الأرض ويدها ماتزال بيد أمها.

مالت إلى عقب وحملته باليد الأخرى،
ثم اتجهت صوب حاوية صغيرة موضوعة
على الرصيف، ورمته في الحاوية.

ابتسمت أمها لما قامت به، وأكملت بها
المسير بحثاً عن الثياب.

في هذه الأثناء كان الرجل الذي مايزال
واقفاً أمام المحل ذاته، يشعر بشيء من
الخطأ الذي ارتكبه عندما رمى عقب

السيجارة على الأرض، وقد رأى ما قامت
زينب به نحو العقب.

أحس الرجل بأنه ارتكب ذنباً ما كان
عليه أن يرتكبه، وللحظة اعتراه شعور بأن
المدينة ليست له وحده، بل هي لكل أولئك
الذين يقيمون فيها.

مضى الرجل محاولاً اللحاق بزينب وهو
ينادي وسط الزحام: مهلاً يا بنتي.

التفتت زينب وإذا بنظراتها تقع على
الرجل ذاته الذي بدا بالقرب منها.

قال الرجل موجهاً كلامه لأم زينب: أرجو
أن تسمح لي ياسيدي أن أبلغك تقديري
على هذه التربية.

شكرته الأم على ذلك، فقال الرجل
موجهاً كلامه إلى زينب:

أشكرك يا بنتي، ثم بعد صمت أردف
يقول: أعدك بأنني سوف أقلع عن عادة
التدخين بعد اليوم.

في تلك اللحظة، أخرج علبة السجائر
من جيبه، ومضى نحو الحاوية ذاتها ورمى
العلبة فيها، ثم مضى في الزحمة حتى توارى
عن أنظارهما.

عندئذ مالت أم زينب وقبلتها قائلة
لها: أنا فخورة بك يا زينب، وراحا يكملان
مشوارهما للبحث عن ثياب العيد.



لا نحتاج إلى شيء قدر حاجتنا إلى روح الحكمة، كل خلاف يمكن علاجه بالحكمة، كل بغضاء يمكن علاجها بالحكمة.

عندما يدخل العنف من الباب، تخرج الحكمة من النافذة.

عندما تدخل الحكمة من النافذة، يخرج العنف من الباب.

الحب، لا شيء لنا غير الحب، لا سلاح لنا غير سلاح الحب،

لا قوة لنا سوى قوة الحب، لا حصانة لنا سوى حصانة الحب،

لا منعة لنا سوى منعة الحب، لا رصيد لنا سوى رصيد الحب، لا مستقبل لنا سوى مستقبل الحب.

الحب الذي يمدّ قلوبنا بطاقة التسامح ويجعلنا أكثر قرباً من بعضنا البعض، أكثر استيعاباً لبعضنا البعض، أكثر انفتاحاً على بعضنا البعض.

دوماً عليك أن تسأل نفسك: مَنْ أنا لأعاقب غيري؟

عليك أن تعاقب نفسك لمجرد أنك فكرت أن توجه عقاباً لغيرك، ثم تقول: يمكنني أن أصفح عن غيري.

عليك أن تكافئ نفسك لمجرد أنك فكرت أن تصفح عن غيرك، لن يكون بوسعك أن تكون إنساناً، لن تفوح رائحة الإنسان منك إلا إذا أنس الإنسان إليك، إلا إذا استكان

الإنسان إليك، إلا إذا أمن الإنسان إليك بماله وسره وناموسه.



إن لم يبك الطفل كثيراً وهو صغير، سوف يبكي كثيراً وهو كبير.

إن لم يعبث كثيراً وهو صغير، سوف يعبث كثيراً وهو كبير.

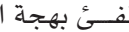
إن لم يثرثر كثيراً وهو صغير، سوف يثرثر كثيراً وهو كبير.

إن لم يتصوّب كثيراً وهو صغير، سوف يتصوّب كثيراً وهو كبير.



عندما لا ترى عيناك أطفالاً في غمرة احتفالهم بالعيد، فإن ذاك العيد لا يكون عيداً بالنسبة إليك، عندما لا ترى أطفالاً في بيتك يبتهجون بهجة العيد، فإن ذاك العيد يكون منطفئ بهجة العيد، يكون منطفئ رونق العيد.

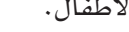
لذلك يلجأ الناس إلى الأماكن المكتظة بالأطفال الذين يعيشون ويتفاعلون مع ذروة مشاعر استقبال العيد، يترددون إلى تلك الأماكن كي يتذوقوا نكهة عسل العيد في عيون وضحكات الأطفال.



صفحة قراءة هي أثمن كنز يمكن للمرء أن يقدمه لنفسه.



صفحة قراءة هي أثمن كنز يمكن للمرء أن يقدمه لنفسه.



صفحة قراءة هي أثمن كنز يمكن للمرء أن يقدمه لنفسه.



صفحة قراءة هي أثمن كنز يمكن للمرء أن يقدمه لنفسه.

يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.

على هذا النحو العائلي الذي أحدثه الزواج، يختلف هذا الشخص عن شخص آخر عندما يرى صبية، ولا تكون لديه صبية.

عندما يرى صبياً، ولا يكون لديه صبي. عندما يرى زوجة، ولا تكون لديه زوجة.

عندما يرى أباً، ولم ينتعش بمشاعر أبوية.

عندما يرى محفظة مرمية على الأرض، ولا يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.

عندئذ يداهم إحساس بأن حاله من دون عائلة كحال نهر ساكن من دون جداول تتفرع عنه.



اللمسات الجمالية هبة يتمتع بها أناس من دون غيرهم، وهي لمسات إكرامية منها ما تكون ظاهرة، ومنها ما تكون باطنة.

والجمال قيمة حقيقية يمكن أن يظهر على الإنسان، والحيوان، والنبات والجماد، بيد أن جمال الإنسان يتميز بأنه أكثر تأثيراً، وأكثر قيمة ذلك لأن الإنسان ذاته أكثر تأثيراً، وأكثر قيمة.

غريب أمر الناس يبحثون عن أدوية لأمراضهم النفسية والكتاب في ظهراينهم عندما يقبل المرء على صفحة قراءة، فإن كل عضو فيه يوقره بتحية سلام يمكن للنفس أن تغفر لصاحبها أي إثم، لكنها لا تغفر له إثم حرمانها نعمة القراءة. هناك طاقات في الإنسان لا تفتح إلا عندما يكون في محراب قراءة تدبرية. لا أحد يستحق شفقة الناس أجمعين قدر شخص لا يقرأ.

لو كان للنفس أن تقاضي أحداً، لقاضت صاحبها الذي حال بينها وبين ارتقائها في مكرمات القراءة.



يفقد الإنسان من دون عائلة جوانب مثيرة غاية في الأهمية من المزايا الإنسانية التي تجعله أكثر توازناً وخبرة وإتساعاً في أفقه وبعداً للنظر في خضم حياة بالغة الجدية والألق.

إنها روح المسؤولية التي تجنب الإنسان مشاعر العدمية واللا انتماء والفوضى الروحية العارمة.

عندما يرى صبية، يتذكر ابنته الصبية. عندما يرى صبياً، يتذكر ابنه الصبي. عندما يرى زوجة، يتذكر زوجته. عندما يرى أباً، يتذكر أبوته. عندما يرى محفظة مرمية على الأرض،

يمكن للإنسان أن يرسل الجمال من دون أن يتلقاه.

يمكن له أن يرسله من دون أن يتذوقه. كما يمكن له أن يرسله ويتلقاه في اللحظة ذاتها التي يأخذ فيها الجمال ذروة تألقه، وهو يوحد الذرات بالذرات، يوحد دفع المشاعر بدفق المشاعر، يوحد لذة النظرات بلذة النظرات، فيتعمد الشخصان بذرات هذا التوحد.



الحب بمقدوره أن يجعل من الألم نشيداً للفرح، ومن الخريف ربيعاً متفجراً، لشيء بمقدوره أن يقف في وجه الحب إذا وقع في قلبين.

يستطيع أن يحيل أوقاتاً باردة إلى أوقات تنبض بكل ذرة من ذرات الحياة، يستطيع أن يتغلب على أي شعور من مشاعر اليأس.

تأتي امرأة واحدة من بين ملايين النساء، تولد امرأة واحدة بين ملايين النساء لتؤكد لرجل بأنها تخبئ عالماً، إنها تستطيع أن تنفخ في عالم جديد يظهر لأول مرة، كل حرف من حروف اسمها يضيء في وجهه.. عندما يكتب اسمها تورق أصابعه.. عندما ينظر في وجهها تشتعل مصابيح الكون في عينيه.

الحب لا ينطفئ في ضمير الإنسان..

ومتى ما انطفأ الحب في ضميره، انطفأ الإنسان في ضميره.

بالحب يتذوق الإنسان الموسيقى وبه يكتشف ملامح الجمال وبه يميل إلى تحقيق العدل، لأن قوة الحب هي ذاتها قوة العدل، وهي ذاتها قوة الخير في الذات الإنسانية. الحب هو الذي يفجر طاقات الإنسان نحو الخير والبناء، إنه قوة جبارة ضد التنازلات الكبرى ضد السقوط الذريع الذي يتعذر النهوض بعده.

من الحب تولد زهور النزاهة البشرية وزهور الصفاء وإمكانية الاستمتاع بقيم الإنسان والطبيعة في علاقة صفاء أبدية بين الإنسان والطبيعة، بين الإنسان والإنسان.

الحب هنا يبنى الإنسان ويدفعه إلى الامتلاء بالحياة ولأن يكون صاحب قضية وصاحب موقف، هي قضية النزاهة البشرية، وهو موقف الصدق البشري تجاه النفس وتجاه الآخرين وتجاه الله.

إنه يبنى العلاقات الكبرى مع الأرواح الحية والدماء الزكية الطاهرة.

الحب هو بيت الإنسانية الكبير الذي يتسع لكل عشاق العالم.



ما يهم هنا هو استشارة حواس العقل في كل فعل تود القيام به، في كل فكرة تشاء أن تتأمل معالمها،

وهنا تدرك أن روح الفضيلة تكمن قدر
تمكّنك من العطاء،
تدرك أنك ترتقي في درجات الفضيلة
كلما كانت مساحة العطاء لديك أغنى من
مساحة الأخذ.



عشرون سنة مضت على شراكتها في
هذا المحل الذي اتخذاه لشراء وبيع القمح
والشعير.

في بدء موسم الحصاد يضطر بعض
المزارعين إلى بيع أكياس متفرقة من المحصول
لأجل تغطية نفقات الحصاد، وكذلك الأمر
بالنسبة لمن تصيبه بضعة أكياس من القمح
سواء عن طريق الزكاة، أو عن طريق العمل
برفقة الحصاد، أو كحصة صغيرة لاستحق
الشحن والبيع بشكل رسمي.

وكما أن هؤلاء يحضرون إلى المكاتب
الشعبية الصغيرة في بدء الحصاد، فإنهم
يحضرون إلى المكاتب ذاتها عند بذر الأرض
لشراء البزور عندما يصعب الحصول
عليها من المؤسسات الحكومية بشكل
رسمي، كذلك يأتي بعض الناس لشراء
أكياس متفرقة لاتخاذها مونة للبيت مثل
البرغل، والشعيرية، والسמיד، والدقيق، كما
يلجأ مربو المواشي في الحالات الاضطرارية
عند انعدام العلف في مؤسسات الأعلاف،

في كل معرفة ترغب أن تبلغها،
في كل كلمة تنتظر في قولها.
كثير من الأفعال لا تلزمك.
كثير من الأفكار لا جدوى منها.
كثير من المعارف لا أهمية لها.
كثير من الكلمات تكون في غير
موضعها.

ليس مطلوباً منك أن تفعل كل شيء.
ليس مطلوباً منك أن تبهر في معالم كل
الأفكار.

ليس مطلوباً منك أن تبلغ كل المعارف.
ليس مطلوباً منك أن تقول كل الكلمات.
ما يهم أن تدرك أبعاد قدرتك المحدودة
في الأفعال، في التأمل، في المعرفة، في
الكلام.

كل فعل مقترن بزمنه.
كل فكرة مقترنة بوقتها.
كل معرفة مجدية في أوانها.
كل كلمة تفتني في موضعها.
دوماً تتأني بما تود القيام به.
تتأني بما تريد التأمل فيه.
تتأني بما ترغب في معرفته.
تتأني بكلمة تنتظر في قولها.

تحت ظلال هذه الشجرة تكمن معالم
التركيز التي تمكّنك من جمالية الإرسال
والتلقي بمزيد من تودة، بمزيد من جدوى،
بمزيد من رحابة.

فيشترتون الشعير لمواشيهم خاصة في بدء فصل الشتاء.

إنَّه عمل مستمر على مدار السنة يدر أرباحاً جيدة عليهما، وكل سنة يزدادان ربحاً، ويصرَّان على التمسك ببعضهما ببعض.

مع الأيام الأولى لاحظنا ظاهرة غريبة في المحل، وهي أن أفواجا من النمل بدأت تتسرب إلى المحل المكتظ بأكياس الحبوب، لكن بدل أن تسحب الحبوب إلى الخارج، فإنها تأتي حاملة حبوباً وتضعها في الداخل بحيث تتراكم كميات هائلة من الحبوب بين فترة وأخرى داخل المحل.

عند ذاك حاول الشريكان وضع حد للنمل على الرغم من أنه لا يؤذيها، بل بين فترة وأخرى يجمعان هذه الحبوب في أكياس ويبيعانها بالكيلو لبعض الناس، وأحياناً يتصدقان بها لبعض الفقراء، بيد أنهما لم يفلحا في منع النمل على الرغم من رش المبيدات، لكن النمل كان يغيّر مساره حتى يجد منفذاً للدخول، عندئذ قال الناس لهما: إنَّه نمل مبارك يأتي ليبارك لكما شراكتكما.

وبلغا قناعة بأن هذا النمل هو دليل خير وبركة، فلبث الأمر على ما هو عليه، بل اعتادا على وجود النمل كل يوم وكأنه طقس يومي لا بد من رؤيته.

كانا يعرفان أن الصدق هو أساس

نجاحهما وثنائهما الذي نبع من هذا المحل الذي استأجراه أول الأمر لمدة سنتين، وبعد ذلك تمكنا من شراء ملكيته، ثم بعد ثلاث سنوات أخرى مع تحسُّن العمل وشعورهما بأن المحل على الرغم من سعته بعض الشيء أصبح يضيق بأكياس الحبوب، اشتريا قطعة الأرض الملاصقة له من الخلف التي تبلغ ألف متر مربع وجعلها مخزناً تابعاً للمحل يجمعان فيه ما يتراكم لديهما من أكياس القمح والشعير خاصة في بدء موسم الحصاد، وكذلك يضعان فيه كميات هائلة من الأكياس الفارغة لبيعها إلى المزارعين في هذا الحي الشعبي المجاور للمدينة.

لدى فراغ المحل من القمح والشعير واستخدامه كمكتب مراجعات وحسابات فقط، رأى الشريكان أنَّ النمل أيضاً وجد له منفذاً إلى حيث المخزن.

عندئذ ازدادا قناعة بأنَّ وجود هذا النمل وبهذه الطريقة غير المعتادة إنما هي دليل بركة على شراكتهما.

عشرون سنة من العمل المتواصل المخلص حتى بات أحدهما لا يُعرف إلا بالآخر، كأنهما توءمان، حتى اعتاد الناس أن يروهما معاً في المناسبات الاجتماعية صغيرها وكبيرها، أفراحها وأحزانها.

أما عندما يكون بارع في مكان ويصدق أنَّ شريكه لم يتمكن من الحضور معه في

الوقت ذاته، وأنه على وشك الوصول، فإنه يُسأل بشكل اعتيادي وتلقائي عن غياب شريكه برهوم.

- كيف الحال يا بارع؟
 - أحمد الله على النعمة
 - يهز السائل رأسه مستغرباً: وأين برهوم، خير إن شاء الله؟
- عندئذ يشرح له سبب تأخره.

مع هذه الوقائع تبين لهما أن أحدهما احتل موقعاً هاماً لدى الآخر، إنهما لا يُسألان عن أخوتهما بقدر ما يُسألان عن بعضهما البعض.

مع تقدم السنوات بات يُضرب بهما المثل في كل أنحاء المدينة، وكذلك يُضرب المثل بتصرف النمل حتى إن البعض لا يكاد يصدق ما يسمع، فيأتي ليتأكد كيف أن النمل يخرج من المخزن فارغاً، ويعود إليه محملاً بحبات القمح والشعير، يلتقطه من الطرقات، ومن جوف الأرض، ويأتي به إلى المخزن. وعندما يقرر أحد أن يُشارك أحداً يقول له الناس: إنشاء الله مثل شراكة بارع، وبرهوم ويرزقكما الله بمثل نملهما.

وعلى الأغلب فإن الناس يقولون عن شراكتهما: الشراكة المباركة.

أمام هذه العلاقة الروحية في الشراكة قررا عدم الانفصال عن بعضهما على الرغم من الثراء الجيد الذي باتا يتمتعان

به، فكل واحد اشترى عدة محال تجارية في المدينة، من دون أن يفكرا بالانفصال عن بعضهما ولو ليوم واحد.

وعندما يلمح شخص عن سبب بقائهما معاً يقولان ضاحكين: ومن يضمن لنا استمرار البركة في عملنا إذا انفصلنا، ثم يضيفان: حتى النمل يبارك لنا شراكتنا، منذ عشرين سنة ألفنا هذا النمل الذي ألفنا هو الآخر.

اليوم عندما قدم بارع صباحاً إلى المحل، فوجئ بأمر غريب جعل غصة ترتفع إلى حنجرتة.

توقف ليتأكد من الأمر، عسى أن يكون العيب في نظره، فرأى النمل بالفعل ولأول مرة منذ عشرين سنة، يخرج من المحل حاملاً حبات القمح والشعير، يخرج حاملاً، ويعود فارغاً في حبلين متناسقين.

لا يدري لماذا وقف يتأمل المشهد الحزين ويغالب الدموع التي طفحت تتحدر من عينيه، ينظر بحسرة وكأنه خسر كنزاً خفياً. لطم ركبته بقوة وتمتم: لكن ماذا حدث؟

مدّ خطوات باردة إلى المحل، فنهض شريكه برهوم مرحباً به، وبالوقت ذاته مستغرباً علامات الشحوب البادية على سحنته.

قال برهوم: عسى أن يكون الأمر خيراً
يا شريكي؟

أجاب بغصة: لأظنه كذلك

قال بدهشة: اخبرني ماذا جرى؟

أجاب بحزن عميق: يبدو بأنه اليوم
الآخر لشراكتنا

قال برهوم: كيف تقول هذا يا رجل؟!

لم يرد عليه بارع، ولكنه دعا إلى الخروج
شطر المخزن.

سارع الخطا إلى الخارج فأحسّ بصعقة
وهو ينظر إلى حبلين طويلين شكّلهما النمل
وهو يستجر حبات القمح والشعير من المحل
في حبل، ويعود إلى المخزن فارغاً في الحبل
الثاني.

عند ذاك جمد في أرضه وبدأ يتخيل ما
حدث منذ ساعة عندما دخل أحد القرويين
إلى المحل وبيده مئة بيضة بلدية يعرضها
للبيع.

اشترأها من غلة المحل، وأخذ يناصف
البيض بينه وبين شريكه، في تلك اللحظات
تذكر بأنه انتقى لنفسه البيض الكبير الحجم
وأرسله مع ابنه إلى البيت، وترك الحجم
الصغير لشريكه.

بعد قليل تمتم برهوم لشريكه وكأنه
ينتفض من غفوة: سبحان الله، النمل الذي
تسبب في استمرار شراكتنا عشرين سنة،
يتسبب الآن في فض هذه الشراكة.



تقف الكلمة على أساس متين في تقويم
حياة الإنسان، إنها أحد أبرز الأركان التي
تحرك إيقاع الحياة، وهي سبيل الإنسان في
بنية العلاقات الاجتماعية وتواصله الإنساني
مع بعضه البعض.

يعتمد الإنسان على الكلمة في التعبير
عن مدركاته، وآرائه، ومواقفه، ووجهات
نظره، ويعتمد عليها في تلقي مدركات،
وآراء، ومواقف، ووجهات نظر الآخرين.

يمكن للكلمة أن تجعلك صديقاً للآخرين،
ويمكنها أن تحيلك خصماً لهم، يمكنها أن
تجعلهم أصدقاء لك، ويمكنها أن تحيلهم
خصوماً.

كما أنها تمتلك سبيل التغيير، فتقلب
البغضاء مودة، وتقلب المودة بغضاء.

تفعل الكلمة فعلها في تحريك وتفعيل
المشاعر والنزعات الإنسانية في دقائق
مختلفة، تولّد الأفعال وردودها.

يمكن للكلمة أن تشفي مريضاً، ويمكن
لها أن تسبب مرضاً لشخص معافى، يمكنها
أن تبعث النشوة والانشراح النفسي إلى
الإنسان، ويمكنها أن تجعله قلقاً مضطرباً.

تقوم الكلمة بتحديد العلاقات
الإنسانية، وتؤسس للمراحل التحولية في
حياة الإنسان.



آلهة الموسيقى عند الإغريق

د. نبيل اللو



صاغتھا أحلام البشر وآمالهم وتطلعاتهم شاركت في صنعها المخيلة الجمعية وحافظت عليها الذاكرة الجمعية. فالأسطورة حكاية

تختطف الأسطورة في حياة الشعوب خلفاً إلى اللاتاريخ، بمعنى أن الأمم لم تستطع تأريخ أساطيرها ولن تستطيع. فالحكايات التي

✻ بامع في الموسيقى، وأستاذ أكاديمي في جامعة دمشق.

كان الباعث عليها شخصاً أو حدثاً أو ظاهرة طبيعية أو قوة طبيعية عجزت عقول البشر في مراحلها البدائية عن تفسيرها أو تفسير ظواهرها فنسجت حولها حكاية تداولتها الألسن وأضافت عليها فأدخلت في صلب الحكاية (النواة) تفاصيل حتى اكتملت لها عناصر الحكاية فذاعت وانتشرت وحُفظت. وجاء وقت اضطلع بعضهم

بحكايتها أمام الناس، يمتلكون موهبة القص والتمثيل والصوت النافذ والشخصية الحكائية: قصاصون وحكاؤون، وشعراء، وحكماء القبيلة، وشيوخها، وكبار السن فيها، وجداتها، وأمهااتها.. تطوَّع الجميع في المجتمع البدائي البسيط في نقل وتزويق حكايا تلهب الخيال وتمنح الرجال قوى خارقة ليست من إمكانات البشر الذين نصَّبهم آلهة.

الأسطورة وليدة الجغرافيا والجنس البشري الذي يعيش عليها، لكنها انتقلت جغرافياً بفعل علاقات التبادل التجاري والتنقل البشري والغزوات والحروب فافترضت الشعوب المتجاورة من بعضها البعض عناصر وآلهة وأحداثاً ومزجتها بما لديها وربما زاوجت بينها. وقد استغرق هذا زمناً طويلاً أفتفته حركة الإنسان والأفكار البطيئة ببطء زمن تلك الأزمان.

ظهرت الأسطورة اليونانية في القرن

السادس قبل الميلاد، وبدأ الإغريق يحكون تاريخهم على شكل قصص اختلطت فيها مصائر الآلهة بالبشر. وكانت الآلهة عندهم من الذكور والإناث بحسب الناظر في سيرهم أنهم بشر لكنهم يعيشون في السماء تتنازعهم مشاعر الحب والبغض والكرهية والحقد والغيرة والحسد لا يبرِّهم البشر في شيء ولا يبرِّونهم في شيء.

وقد جعلوا لبعض آلهتهم اختصاصات ومواهب فبرع بعضهم بالصيد وبعضهم الآخر بالحرب، وآخرون بالحب، وبعضهم بالرقص والموسيقى التي كانت تشغل في حياة الإغريق اليومية العامة مكاناً ملحوظاً من بين سائر الفنون التي كانت معروفة آنذاك. وابتدع الإغريق لفنهم الموسيقي الأثير، هذا ثمانية وعشرين إله يجتمعون كلهم في حبهم لهذا الفن ويختلفون عن بعضهم البعض بالتفاصيل.

كيف تمكَّنت الموسيقى من أن تشغل عند الإغريق هذا العدد الكبير من الآلهة المنشغلين بتفاصيلها؟ وما الذي مهد وشجَّع على انتشار هذا الفن؟ وما هي حاضنته الاجتماعية؟ وما الخصائص التي انفردت بها الآلهات الموسيقيات عن الآلهة الموسيقيين؟ أسئلة سنجيب عنها وعن كثير غيرها في معرض حديثنا.

تعرَّف الأسطورة على أنها: مجموعة

قصص وحكايات خارقة انتشرت عند شعب من الشعوب وفي حضارة من الحضارات وارتبطت أحياناً بدين من الأديان^(١). والأسطورة تبسيطاً حكاية خارقة لمنظومة المألوف المعاش تناقلتها الألسنة العامة والخاصة من الرواة ممن اضطلعوا بنشرها، حفظتها الذاكرة الجمعية في أمة من الأمم. وهي تشكل في تفاصيلها مجموعة من الآلهة اختصت ببعض ظواهر الطبيعة وبخصال البشر من أحاسيس ومشاعر. هذا العالم الأسطوري المبتدع اجتمعت له خوارق لا يقدر على صنعها صانعوه، وحملوه بذلك ما يتمنون فعله، وحاولوا فيه تفسير ما عجزت أبصارهم وأفئدتهم عن تفسيره من ظواهر الطبيعة المختلفة. هذه هي العناصر المكونة الأولى لظهور الأسطورة في المجتمع، وقد أعطى التاريخ زمنياً مضامين أربعة لاصطلاح الأسطورة نذكرها هنا تباعاً.

المضمون الأول تاريخي يقول: إنَّ الأساطير هي حكايات معدلة مزينة لأحداث تاريخية وقعت فعلاً تناقلتها الألسنة وأحاطتها بهالة وأضافت عليها خوارق تتصل بأصحابها أو بشعوبها، وآلهتها ما هم إلا ملوكها وقواد جيوشها وأبطالها ألَّهتهم الذاكرة الجمعية الشعبية تقديراً لبطولاتهم وشجاعتهم وتضحياتهم واستنهاضاً لمشاعر العامة^(٢).

المضمون الثاني روائي^(٣) جعل من الآلهة رموزاً لمظاهر الطبيعة المتنوعة: فالآلهة هيرا تمثل الهواء، بينما يمثل الإله زيوس الأثير.. والعلاقة بينهما علاقة تراتبية فالأثير يعلو الهواء الذي يغلف الأرض.

المضمون الثالث فلسفي: الآلهة فيه لها معنى أخلاقي أو فكري فزيوس هو الذكاء، وهيرميس الحكمة والعقل.

المضمون الرابع تحليلي نفسي: يرى في الأسطورة عرضاً للوعي الجمعي العام، أي ما يمثله الحلم ومفاعيله في لا وعي الفرد. إذن، للأسطورة في سياقنا مضمون تاريخي وروائي وفلسفي ونفسي يأتي على جوانبها المشكلة لها كلها ضروري استعراضه والتذكير به لفهم مكانتها وتأثيراتها.

ما هي مصادر الأسطورة الإغريقية التي وصلتنا؟

أهم هذه المصادر على الإطلاق أشعار هوميروس Homer وفيرجيل Virgile وأوفيد Ovide وبيندار Pindare وسوفوكليس Sophocle. وهي مصادر أدبية كلها، يضاف إليها ما جاء في كتب المؤرخين أمثال: سترابون Strabon وديودور Diodore.

يُنظر للأسطورة عادةً من ثلاثة أوجه: أولها: يتصل بالأسطورة وعلاقتها بفكر الإنسان.

وثانيها: يتصل بالأسطورة وعلاقتها بفكر الشعراء والفلاسفة. وثالثها: يتصل بالأسطورة وفكر العلماء العلمي والموضوعي.

المرحلة الأولى تنحصر في قوى الطبيعة وظواهرها كالعواصف والرعد والبرق والجفاف ومرض الحيوانات الأليفة وأرواح الغابات والبحار والمحيطات والشمس والقمر والحب والحقد والغيرة... باختصار كل ما يتصل بحياة الإنسان البدائي الفطري اليومية المعاشة والتي كانت تشكل قوام حياته ومشاغله ومحورها: إنسان يعيش تحت رحمة طبيعة جبّارة الظواهر متقلّبة ترتبط تفاصيل حياته المعيشية كلّها بها تسانده أحياناً وتهادنه وتقسو عليه في أحيان أخرى. الأمر الذي جعل الطبيعة في نظر هذا الإنسان البدائي قوة يُرهّب جانبها غامضة عصية على الفهم جاءت الأسطورة لتفسّر بعضاً من ظواهرها ولتبدّي شيئاً من القلق والرغبة والخوف منها فأوجد خياله إلهة الغابة والماء لتبدّد وحشة الغابات، وابتدع إلهاً يحفظ له ويرعى غنمه وماعزه ومراعيه. وأحاط آلهته هذه بمظاهر التبجيل والاحترام واختصها بالأضحيات وتفرّغ لها كي تحمي له مصدر عيشه، وتشفي قطعانه مما يصيبها من أمراض وتحميها مما يلحق بها من ضرر.

كما وتحوّلت الفضائل والمحاسن إلى

آلهة فكان للجمال فينوس، وللحذر والحيلة ميرفا، وللحكمة أثينا.

أمّا الفلاسفة أمثال أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧م)، وفونتونيل (١٦٥٧-١٧٥٧م)، وفولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) فقد رَوّوا أنَّ الأسطورة تعبّر عن جنون البشر، ليس بالمعنى الذي نفهمه اليوم للجنون على أنه ذهاب للعقل والبصيرة بل على أنه مغامرة عقلية بدائية كبيرة ذهب بها الإنسان الفطري البدائي إلى أبعد مدى ليفسّر ما عجزت عينه وما عجز فكره عن فهمه من ظواهر الطبيعة الخارقة المتقلبة المدمّرة أحياناً، وعجزه التام حيال الموت.

والأسطورة ضرورية حتى يومنا هذا لمن يريد أن يفهم النقوش والرسوم والتماثيل التي خلفها لنا الإنسان القديم، كما وما زالت حتى يومنا هذا مصدر إلهام كبير للفنانين والسينمائيين والروائيين والمسرحيين.. باختصار ما زالت الأسطورة حاضرة بيننا أبداً مستخدمة حتى في أحاديثنا، إذ إن عقدتها الرمزية لم يُصبها البلى ولم تمت بالتقادم وكثير من الأعمال الفنية العميقة يحتاج فهمها وقراءتها إلى معرفة بالأساطير.

تفسير العلم والعلماء للأسطورة أرضي يُرجع التفاصيل كلّها إلى ما يحصل فعلاً في الواقع فتُسقط كلّ هالة عنها ويرفع عنها

لم تكن الموسيقى في حياة اليونان متعةً وتزجية وقت وإنما كانت واجباً على كل فرد إذ إنهم أدركوا عظيم فائدتها في أمزجة الناس وتهذيبهم. وهي فكرة تسعى التربية الموسيقية الحديثة اليوم إلى تحقيقها في مجتمعاتها فتعليم الموسيقى عزفاً وتذوقاً يهذب السلوك الذي تنعكس آثاره في تفاصيل الحياة اليومية المعاشة عامتها وخاصها. فكرة يعكف المربون الموسيقيون اليوم على الترويج لها وتطبيقها وتعميمها.

لم تكن البضائع وحدها هي التي تنتقل تداولاً بين الشرق والغرب إنما كان الناس ينقلون معهم زيهم وعاداتهم وآلاتهم الموسيقية وغناءهم بل وآلهتهم. بهذا يمكن أن نفسر بعض رسوم الآنية وبعض النقوش التي صوّرت آلات موسيقية عند أهل الشرق والغرب على السواء كآلة الليرا والقيثارة والناي المزدوج المصنوع من القصب والرق أو الدف بأحجام مختلفة والصنوج..

كانت الحياة القديمة غنية بالموسيقى لأهميتها في مصاحبة طقوس الحياة اليومية من العبادة إلى الولادة مروراً بالأفراح من أعراس وأعياد عامة وخاصة.

ويروي لنا التاريخ أن الملك داوود، ملك اليهود، كان شاعراً وواضع الحان وقد شكّل جوقةً غنائيةً مؤلفاً من ثلاثمئة شخص يصاحبهم عازفو هارب وليرا وصنوج وأكثر

الحُجُب والسُتر لتبدو باهتة ساذجة مضحكة أحياناً، لكنها رؤية عصر المعرفة والتنوير ترى عالم الأسرار المبهم السحيق زمنياً، تدلل على عجز العقل البشري بإمكاناته المعرفية عن تفسير ما يحدث حوله. رؤية العلماء للأسطورة غير رؤية الشعراء لها، فالعالم المجنح الذي يصفه الشعراء يقص العلماء له أجنحته فيهبوي أرضاً.

تكاد لا تخلو أمة من الأمم من الأساطير التي ابتدعتها مخيلة أهلها، لكن اليونان القديمة بزّتها جميعها بكثرة أساطيرها وآلهتها^(٤). ولأن الموسيقى عند قدماء الإغريق كانت فعلاً جدياً يومياً معاشاً واجباً على كل مواطن إغريقي أن يتلذذ الفن أو يمارسه لتهديب نفسه، ظهرت آلهة عديدة تحمي هذا الفن وترعاه، فالخصوصية التي جعلت الموسيقى في المجتمع الإغريقي مكوناً مهماً في حياة الأفراد إلى جانب الرياضة، يهواها العامة، ويدعم فكرتها المهمة في التنشئة، الفلاسفة المربون. والموسيقى المتقنة الجادة يسمعونها، في رأي أفلاطون، الإنسان الصالح فتناغمها العام يتوافق ويتناغم مع شخصية الإنسان الصالح. وبالفعل تنبّه فلاسفة الإغريق لتأثير الموسيقى الطيب في النفوس فكانت عندهم عنصراً رئيساً من عناصر التربية الصالحة سعياً إلى بناء مجتمع فاضل تحكمه حكومة فاضلة.

من مئة نفير (آلات نفخية). وما زالت مزامير داوود معروفة حتى اليوم ومتداولة في الطقوس الديني.

ظهرت أول إشارات عن الموسيقى الإغريقية القديمة في أساطير قدماء اليونان، ولو تتبعنا ما يتصل بآلاتها الموسيقية لوجدنا أنها تنتمي إلى عالمين اثنين: أولهما ريفي حيث ابتدع الإغريقي آلهة الموسيقى مما ينمو حوله من نبات فصنع آلة الآولوس من القصب وهي شبيهة بآلة الناي، وثانيهما رحلي ينتمي إلى الأقوام الرحّل الذين كانوا يجوبون يابسات جزر الإغريق العديدة، وقد اخترعوا ألهمهم الموسيقية من بقايا الحيوانات كآلة الليرا الوترية التي تُشد عليها أوتار مصنوعة من أحشاء الأبقار والخرفان وجسمها المصوّت من قوقعة السلحفاة. ولا يشذ الإغريق في هذا عن غيرهم من الأقوام في الأرض إذ صنعوا أول آلاتهم الموسيقية مما توافر بين أيديهم من مواد لعبت الملاحظة، ومعها التجريب، دوراً كبيراً في صنعها وتجويد أدائها مع الزمن.

الموسيقى في بلاد اليونان القديمة

شكّلت الموسيقى جزءاً مهماً من حياة الإغريق اليومية فكانت حاضرة، كما أسلفنا، في الطقوس الديني والتربوي، وفي المناسبات والاحتفاليات العامة والخاصة وحتى في الحروب كانت الطبول والنايات

المزدوجة تستخدم لشحن الهمم واستنهاض الجند قبل المعركة. وكان تعليم العزف على آلة الليرا يصاحبها الغناء جزءاً مهماً في تعليم ناشئة الأرستقراطية الإغريقية ودلالة على رهافة الذوق وحسن التربية. وكانت تنظم في المدينة مسابقات في العزف على آلة الليرا والنايات المزدوجة. وكان الإغريق ينظمون أربع ألعاب عامة نذكرها تباعاً هنا لأهميتها في سياق حديثنا عن مقام الموسيقى في حياة الإغريق:

أولها

الألعاب نيميا: وكانت تُنظّم في شمال غرب البلاد بالقرب من آرغوس، وتتضمن ألعاباً رياضية ومسابقات موسيقية أسسها أهل آرغوس إحياءً لمتوفاهم الشاب أرشيمور. وكان المتبارون يشاركون بلباس حدادهم الأسود. وكان الفائزون يقلدون إكليلاً من الآس.

ثانيها:

الألعاب الأولمبية: وقد بدأت هذه الألعاب سنة ٧٧٦ ق.م. وتنظّم مرة كل خمسة أعوام في مدينة أولمبي لمدة خمسة أيام تبدأ في يوم الثاني والعشرين من شهر حزيران. وكان المتبارون يتنافسون في خمس ألعاب رياضية وتجري على هامش الألعاب مسابقات في العزف على آلات موسيقية. كان الفائز يُكلّل بأغصان الزيتون.

ثالثها:

الآلهة إستم نسبةً إلى مكان يدعى إستم في كورنثيه، وكان قد أسسها الإله تيزيه في العام ٥٨٢ ق.م. إجلالاً للإله نيبتون. وكانت تنظم مرةً كل ثلاث سنوات صيفاً، وكانت تتضمن الركض والقفز والمصارعة والشعر والموسيقى. وكان الفائز يكلل بأغصان الصنوبر.

رابعها:

الآلهة البيتونية نسبةً إلى الثعبان بيتون Python. وتحكي الأسطورة أن هذه الآلهة قد تأسست في مدينة دلف اليونانية على يد الإله أبولون تخليداً لانتصاره على الثعبان بيتون، وكان ذلك في العام ٥٨٦ ق.م. وكان الإغريق يجرون هذه الألعاب مرةً كل خمسة أعوام. وكانت المسابقات في أول عهدها شعرية وموسيقية. وكانت جائزة الألعاب تمنح لمن يلحن أجمل نشيد مهدى للإله أبولون الذي صرع الثعبان بيتون بسهامه القاتلة. وكان الفائز يكلل بأغصان الغار.

الآلة المصاحبة لمسابقات الشعر في المهرجانات التي ذكرناها هي آلة الليرا (٥). وقد أضحت الموسيقى في بلاد الإغريق تصبح أكثر فأكثر أهمية بفضل ازدهار المسرح عندهم، وكانت بعض المسرحيات تتطلب غناء ممثليها فرادى أو مجتمعين يرد

بعضهم على بعضهم الآخر، وكانت الموسيقى تستخدم أيضاً بين فواصل المشاهد لتسليه الجمهور وامتاعهم فيما الممثلون يستعدون للمشهد التالي تمثيلاً وتأثيراً خشبة^(٦) المسرح.

كان راوي أساطير هوميروس الشعرية يصاحب إلقاءه بالعزف على آلة الليرا (٧) وكان لدى الإغريق شعر غنائي غير أشعار الملاحم ازدهرت في القرن السابع كانت تلقى هي أيضاً مغناة. كما كان الجوق يغني أناشيد ومدائح على شرف الفائزين بالمسابقات، وأغاني أعراس وأهازيج سريعة الإيقاع.

أفلاطون وأرسطو كلاهما كانا يؤمنان بأن الموسيقى تؤثر في سلوك الإنسان وتصرفاته وتمنحه شعوراً إيجابياً وأفكاراً بناءة.

الآلات الموسيقية التي استخدمها

الإغريق

استخدم الإغريق آلات موسيقية متنوعة ظهرت في نقوشهم ورسومهم، أقدم آلاتهم وأكثرها شهرة وانتشاراً هي آلة الليرا (ويطلق عليها أيضاً لورا، وكيثارا، وترتبط عادةً بإله مدينة دلف) ويعزى اختراعها للإله هيرميس، وتحكي الأسطورة أنه عندما كان في مهده قفز منه وخرج من مغارته فصادف قوقعة سلحفاة فأفرغها ونظفها ثم مضى

تتسلسل نياتها المجموعة على نسق من الطويل فالقصير وعددها الإجمالي سبعة نيات. وقد شاع استخدام هذه الآلة عند الرعيان.

الآلهة الموسيقيون في الأسطورة الإغريقية

واضح أننا عندما نستخدم اصطلاح آلهة، جمع إله، مذكر، أو إلهة مؤنث، إنما نحن نتكلم عن حالة اجتماعية عقائدية إيمانية تعود في زمانها إلى ما قبل الميلاد وفي مكانها إلى بقعة جغرافية بعينها هي مجموعة جزر كثيرة شكّلت فيما بينها وحدة بشرية اجتماعية ثقافية فنية اقتصادية دينية عسكرية بفعل التعايش المستمر بين مجموعة بشرية متجانسة فيما بينها على أرض جغرافية اختلطت فيها اليابسة بالماء وشكّلت كلاً واحداً ببلاد الإغريق. والآلهة هنا كائنات فوق بشرية تختلف عن البشر وعن طبيعتهم ابتدعتها الذاكرة الجمعية الإغريقية. خالدون غير مرئيين يسكنون قمة جبال الألب الواقعة شمال شرق بلاد اليونان، موقع مهيب اتخذته آلهة الإغريق سكناً لها على ارتفاع ٢٩١٧ متراً عن سطح البحر تُشرف منه الآلهة على البشر فتري تقلب أحوالهم وأهوائهم فتتعاطف مع بعضهم وتقسو على بعضهم الآخر.. بعض هذه الآلهة جسدت قوى الطبيعة

إلى الجبل وسرق من قطع أخيه الإله أبولون خرافاً انتزع أمعاءها ليصنع منها أوتاراً ركبها على قوقعة السلحفاة وعزف عليها. وقد صوّرت رسوم الآنية والنقوش والمنحوتات حفلات موسيقية يعزف فيها على آلة الليرا يصاحبها آلة ناي، أو عازف أو عازفة على آلة الليرا منفردة. كما تظهر آلة وترية أخرى أشبه بالة الهارب أوتارها أطول من أوتار الليرا كانوا يسمونها باربيتون.

الآلة الثانية المهمة التي أكثر الإغريق من استخدامها في موسيقاهم هي آلة الناي وكانت تدعى عندهم أولوس، وكانت تُصنع من قصب الغاب وتُصنع أحياناً من عظام الحيوانات أو من العاج تُحفر فيه ثلاثة ثقبوب لاستخراج الأصوات منه، وأضيفت له في القرن الخامس ثلاثة ثقبوب أخرى، ووصل عدد ثقبوبه في نهاية القرن الخامس ستة عشر ثقبباً واستطال عما كان عليه أول عهده. ويُعزى للآلهة أثينا اختراعه. ويعقد الفيلسوف أفلاطون صلةً بين الأولوس والنبذ ترميزاً للنشوة والطرب واللهو فربطه بالآله ديونيزوس.

وضمن فصيلة النفخيات أيضاً استخدم الإغريق آلة اسمها سيرانكس المعروفة بفلوت بان نسبة إلى مبتدعها بان Pan، يُصنع من نيات متفاوتة الطول تُجمع على نسق واحد فيما بينها وتُربط: مادتها قصب الغاب،

فالإله زيوس يمثل السماء والعاصفة والمطر، بينما يمثل الإله ديميريوس الأرض الخصبة المعطاءة. وانفرد الإله أبولون بالشمس، بينما اختص الإله بوسيدون بالبحر.. بعض الآلهة اختص بالفضائل والميول فكان نصيب الآلهة أثينا الحكمة، وأفروديت الحب، وعرائس البحر الفتنة والغواية واختص الإله لينوس بمن قضى وهو شاب ولم ينجز عمله في الأرض. وبعض الآلهة كانوا موسيقيين كباراً أمثال أورفيوس، وأبولون وآريون إلى جانب مهام أخرى كانوا يضطلعون بها.

بدايةً جعل الناس لكل شيء من حولهم آلهةً سرعان ما تخصصت مع مرور الوقت بشيء لازمها واقترن بها وتوسل البشر لتلك الآلهة ليقضوا لهم حاجاتهم وفق اختصاص كل إله. وجعل تنظيم المجتمع وتعدد مناحيه يجد له مرآة إدارية قدرية في قمة الأولمب. الزمن هو الذي جعل لكل إله هوية وقصة وتاريخاً وطبعاً ومسلكاً وأهواء ومغامرات. نلاحظ أنه من بين ٢٨ إلهاً موسيقياً أوردتهم كتب التاريخ اليونانية القديمة ثلاثة منهم فقط هم من كبار آلهة الأولمب، وواحد منهم فقط هو من كبار الآلهة الأرضيين، وخمسة منهم من صغار آلهة الأرض، واثنان من صغار الأولمب، واثنان عشر إله هامشياً. وقد ترسخت هذه التصنيفات مع الزمن والحوادث والوقائع المعاشة ومع الأحداث

الطبيعية التي كانت تجري من حول الناس فتحول مجرى حياتهم خيراً أم شراً. فالخيال الذي أبدع الآلهة لم يكن بقادر في أول عهده أن يجعل لهذا الكم الكبير منها تصانيف، فتواتر الحوادث وتناقلها واختلاطاتها بالآمال والآمال والتفرعات والابتهالات وما تحقق منها وما لم يتحقق قدّم آلهة على أخرى ورفع من شأن بعضها وقتل من شأن بعضها الآخر وهمش آخرين.

ولو دققنا النظر لوجدنا أن مواهبهم في الموسيقى متفاوتة، الأمر الذي يقسمهم إلى قسمين اثنين: آلهة من كبار الموسيقيين، وآلهة أقل موهبةً من طائفة القسم الأول. فقد بلغ عدد كبار الموسيقيين من الآلهة ستة عشر إلهاً، في حين بلغ عدد صغار الموسيقيين منهم اثني عشر إلهاً.

نستنتج مما تقدم أنه من بين الآلهة الموسيقيين الثماني والعشرين ستة عشر منهم من كبار الموسيقيين، واثنان منهم جاء بجديد في الموسيقى أولهما: أمفيون وهو من كبار الموسيقيين ويُنسب إليه اختراع الوتر، وثانيهما: باخوس، وعلى الرغم من أنه من صغار الموسيقيين من الآلهة إلا أنه يُنسب إليه الفضل في تأسيس أول مدرسة لتعليم الموسيقى. عشرة من إجمالي الآلهة موهوبون في العزف على آلاتهم، وبعضهم أمثال دافنيس الذي برع في العزف على آلي

- الناي مزدوج المبسم: ويعزف عليه إله واحد فقط.

- المزمار: ويعزف عليه اثنان من الآلهة فقط.

- الصنوج والطبول: ويعزف عليها إله واحد فقط.

- الناي المزدوج: ويعزف عليه إله واحد فقط.

- ناي بان: ويعزف عليه إله واحد سمي باسمه وهو بان.

وتشير كتب التاريخ إلى أنَّ ستة آلهة فقط من بين ثمانية وعشرين إلهاً موسيقياً اتخذوا لهم رموزاً تكنوا بها من النبات والحيوان. كبار الموسيقيين من الآلهة:

١- آمفيون:

أبوه كبير الآلهة زيوس، وأمه الإلهة أنتيوب. بنى آمفيون معبداً وأهداه إلى إله الشمس أبولون فأهداه أبولون آلة ليرا ليعزف عليها. وقد أضاف آمفيون ثلاثة أوتار على آلة الليرا التي كان يُشدُّ عليها قبله أربعة أوتار فصارت معه سبعة أوتار. حكم آمفيون مدينة طيبة فبنى لها سوراً فيه سبعة أبواب سماها تباعاً بأسماء أوتار آلة الليرا السبعة.

٢- أبولون:

إله الشمس والنور والحقيقة، واحد من كبار آلهة جبل الأولمب الاثني عشر. أبوه كبير

الناي والمزمار يعد من صغار الموسيقيين من الآلهة، وينسحب الأمر كذلك في السياق نفسه على ربّات الفضائل، وعلى ميانديس، وعلى بيريفيتس، وبوليفيم. أمّا الهواة من الآلهة فهم: باخوس، وآلهة الريف، ولينوس، وفيلامون، وثاميريس، وميانديس ومجموعهم ستة. خمسة آلهة من مجموعهم العام كانوا معلمي موسيقى وهم: أبولون، وشيرون، ولينوس، وفيلامون، وثاميريس. وعدد الذين برعوا في الغناء من إجمالي الآلهة الموسيقيين ثلاثة عشر إلهاً نذكرهم: آريون، كوريبانتس، دافنيس، ديمودوكوس، لاميس، لينوس، ميريت، ربّات الشعر، جنّيات الماء، فيلامون، بييريديس، عرائس البحر، ثاميريس.

أمّا الآلات التي عزف عليها الآلهة فهي: الليرا، العود، السيتار، الناي مزدوج المبسم، الصنوج، الطبول، الناي، المزمار، الناي المزدوج، الهارب، ناي بان.

أكثر الآلات التي كان يستخدمها

الآلهة:

- الليرا: ويعزف عليها ثلاثة آلهة.
- الناي: ويعزف عليه سبعة آلهة.
- العود: ويعزف عليه اثنان من الآلهة فقط.

- السيتار: ويعزف عليه اثنان من الآلهة فقط.

على رأسه تاجاً من النور، أو من أغصان الزيتون أو الآس.

٣- آريون:

كان إلهاً شاعراً وموسيقياً وعازف ليرا مجلّ مبدع المديح في فضائل إله الخمر ديونيزوس، ويُعزى إلى آريون ابتداء شعر الخمريات. جاب البلاد يعزف على الليرا ليكسب رزقه ويجمع مالاً. كان آريون يعتقد بأن الموسيقى تخلص سامعها من أدرانته النفسية. كان الناس يتحلّقون حوله ينتشون بسماعه وهو جالس في ظل شجرة يعزف ويغني. كانت موسيقاه تهدئ النفوس وتروّض الحيوان الوحشي. وكانت الآلهة تُطرب لعزفه وصوته وألحانه.

٤- أثينا:

ابنة الإله زيوس والآلهة مينيس. وأثينا هي واحدة من كبار آلهة جبال الأولمب الاثني عشر. وكانت المفضّلة الأثيرة عند والدها ومنحها صلاحيات كثيرة. وقد رافقت البطل الأسطوري أوليس في أسطورة أسفاره. كانت آلهة الحكمة والحرب، وكانت حامية أخيل بطل حرب طروادة. واختارها اليونانيون اسماً لحاضرتهم. وهي حامية العلماء والفنانين وراعيّتهم. ويُعزى إليها اختراع الكتابة والرسم والتطريز. كما ويعزى إليها اختراع الناي مزدوج المسم.

الآلهة زيوس أو جوبيتر. عند ولادته أهده أبوه: عربةً تحمل طيور التّم، وذهباً، وآلة ليرا ليعزف عليها. ظهرت مآثره في الحياة الدينية، وفي الحرب، وفي الطب، وفي الحب، وفي الموسيقى. يُنسب إليه اختراع آلي العود والسيّار. برع في العزف على الليرا المذهّبة التي كان يحملها معه وفتن بعزفه وألحانه سائر الآلهة فكان له حظوة بينهم وتأثير عليهم بفضل موهبته الموسيقية.

تحكي الأساطير أنّ مسابقةً موسيقيةً جرت بين الإله أبولّون وبين الإله مارسياس وكان عازف ناي، وفاز أبولّون عازف الليرا على مارسياس عازف الناي وبفوز أبولّون على مارسياس حقّ له معاقبته فسلخ جلده حياً. وفي هذه الأسطورة ترميز إلى الصراع القائم بين الآلات الموسيقية الوترية والآلات الموسيقية النفخية، بين العقل والحدس، بين الذكاء والبهيمية. وقد أظهرت رسوم الآنية التي وصلت إلينا عن الآلهة أبولّون جمال خلقته وتناسق أعضاء جسده، فكان ممشوق القامة، موفور الصحة مفعماً بالشباب، حليق الذقن، ذهبي الشعر أجعده طويلاً مسترسلاً على كتفيه يُمسك برسنٍ عريّة يقودها أربعة جيادٍ بيضاء. وفي رسوم أخرى يظهر أبولّون يحمل بيده آلة الليرا وعلى رأسه تاج من الغار، وفي أحيانٍ آخر يضع

٥- شيرون:

كان قَنطورُس (حيواناً خرافياً رأسه رأس بشري وجسده جسد حصان). كان حكيماً، عارفاً بالطب، بارعاً في رمي القوس، وفي الموسيقى. جعل من مغارته في تساليا مدرسة يعلم فيها الموسيقى والطب والأخلاق، وتلمذ عليه أخيل بطل حروب طروادة. كان عازفاً ماهراً على الليرا قادراً على شفاء المرضى بموسيقاه.

٦- هيرميس:

أبوه الإله زيوس. يوصف هيرميس بالذكاء والحكمة. لقّب باله التجار لأنه اخترع الأوزان والمقاييس. كما ويعزى إليه اختراع الأبجدية والموسيقى، وهو من اخترع آلتى الليرا والمزمار. سرق قطيع أبولون وصنع من أحشاء الدواب أوتاراً لآلة الليرا.

٧- مغنيات اللاميس:

مغنيات مجيدات، يشبهن إلى حد بعيد عرائس البحر، بالفتنة والجمال والإغواء والشكل: نصف سمكة ونصف امرأة، وتفرق اللاميس عن العرائس بمخالبهن. يخرجن من الماء فجأة ليخنقن من أغوينه بالاقتراب منهن.

٨- لينوس:

هو شقيق الإله أورفيوس، وكان شاعراً وموسيقياً، وقد تلمذ شقيقه أورفيوس عليه. نظم أشعاراً في موضوعات شتى.

يعود إليه ابتداء اللحن وضروب الإيقاع. كثرت الأساطير حول مصرع لينوس نذكر منها هنا واحدةً لعلاقتها بموضوع بحثنا: تحكي الأسطورة أن لينوس كان يعلم هيراكليس (هرقل) العزف على آلة الليرا، لكن هيراكليس كان بطيء الفهم والاستيعاب ولم يكن موهوباً ليتعلم فناً كالموسيقى، وكان لينوس يعنفه ويضربه على بطاء فهمه. ذات يوم طفح كيل هيراكليس فأمسك بالليرا وكسرها على رأس معلمه لينوس فقتله في الحال. وهناك أسطورة أخرى تحكي أن لينوس تحدى الإله أبولون في مسابقة عزف مدعياً أنه أجود وأمهر عزفاً من أبولون على الليرا فصرعه أبولون في الحال عقاباً له على زهوه بنفسه.

٩- مارسيا:

ينحدر من الإله ألبوس. برع في العزف على الناي. ويعزى إليه مأثرة اختراع الناي المزدوج. تحدى أبولون في مسابقة عزف أقرت له هيئة التحكيم تفوقه على مارسيا. صلب أبولون مارسيا على جذع شجرة صنوبر وسلخ جلده حياً عقاباً له على تحديه وخسارته أمامه في مسابقة العزف.

١٠- ربّات الشعر:

بنات الإله زيوس، برعن في الغناء، وتكفلن برعاية الآداب والتاريخ والفلسفة.

ألهمن الشعراء وحضن فن الرقص وفن الموسيقى. كن مستشارات الملوك يسدين إلهن النصيح والمشورة في إدارة شؤون البلاد والعباد وتهدئة الخواطر والوقاية من النزاعات والحروب. كان عدد ربّات الشعر بداية عهدهن ثلاث ربّات. وأطلق اسم الربّات الثلاث على أوتار آلة الليرا عند اختراعها: حاد وسط، جهير. ثم أصبح عدد الربّات سبع ثم تسع عُهد إلى كل واحدةٍ منهن رعايةٍ فن من الفنون:

١- كاليوب: ربّة الشعر البطولي الملحمي.

٢- كليو: ربّة التاريخ.

٣- ميلبومين: ربّة المأساة.

٤- ثالي: ربّة الملهاة.

٥- أوترب: ربّة الموسيقى.

٦- ترسيكور: ربّة الشعر الخفيف وربّة الرقص.

٧- إيراتو: ربّة الشعر الغنائي العاطفي.

٨- بوليمي: ربّة الغناء والخطابة.

٩- أوراني: ربّة الفلك.

وكُنّ يأتمرن كلهنّ بأمر الإله أبولون.

وكانت الرسوم القديمة تصوّرنّ شابات جميلات متواضعات لباسهن بسيط يجلسن في ظل شجر الغار أو النخيل متحلقات.

١١- أورفيوس:

كان شاعراً وموسيقياً ومغنياً ولاهوتياً،

ينحدر من الإله أبولون ومن ربة الموسيقى كاليوب. أشهر موسيقيي الأسطورة الإغريقية على الإطلاق. ويُعزى إليه إدخال الليرا إلى الطقوس الديني وإضافة وترين لها، وكان عازفاً مجلياً على هذه الآلة. كما ويعزى إليه اختراع آلة السيتار. كانت الموسيقى عنده ملاذاً يروّج به عن نفسه من كثير انشغالاته. وكان يعزف ويغني فاتناً البشر والآلهة والحيوان على السواء، حتى النبات كان يتمايل عندما يسمع عزفه وغناؤه، الطبيعة كلّها كانت تتوقف وتصمت لتسمع عزفه وغناؤه. وكانت السباع والوحوش ترقد عند قدميه. ^(٨) كان إلهاً فاتناً مغوياً ساحراً، وكانت جنيات الماء يعشقنه.

١٢- بان:

تعني كلمة بان بالإغريقية القديمة راع. وكانت الأسطورة الإغريقية تعتبره إلهاً ثانوياً فقد كان حامياً للرعيان، وإلهاً للخرفان والماعز، يحمي القطعان. وكان الفراعنة يعبدونه إذ كان عندهم رمزاً للخصوبة. شكلاً نصفه آدمي، ونصفه الآخر حيوان على شكل كبش. يُعزى إليه اختراع آلة الناي السباعي المتعدد الأطوال والنغمات والذي سمي باسمه. ولم يكن عازفاً مجلياً ولا موهوباً.

١٣- فيلامون:

ينحدر من الإله أبولون. كان شاعراً

وموسيقياً مجلياً كان أول من كوّن جوقاً
غنائياً نساءً، وكان وسيماً جداً.

١٤- بنات بييريديس:

عددهن تسع بنات كن يتعاطين الشعر
والموسيقى وبلغن فيها شأواً بعيداً حملهن
على مناطحة ربّات الشعر والموسيقى
ومنافستهن، لكنهن خسرن في المسابقة التي
نظمت للمجموعتين.

١٥- الإلهات المزققات:

يُمثلن عادةً على شكل عصفور برأس
امرأة. واختلفت الروايات في تحديد عددهن:
فبعضهم يجعلها اثنتين، وبعضهم يرفع
عددهن إلى ثلاث، وأحياناً إلى أربع وحتى
إلى خمس. كن يغوين البحارة ليلاً بغنائهن
الطروب، وما أن يقترب البحارة منهن حتى
ينقضنّ عليهم. ويحكى أن أورفيوس، وأوليس
وحدّهما تمكنا من الإفلات من شركهن بأن
أعرضا عن سماعهن.

١٦- ثاميريس:

تتلمذ موسيقياً على لينوس، ومن ثم
تتلمذ عليه شاعر الإغريق الأول هوميروس
صانع الإلياذة والأوديسة. ويوضع ثاميريس
على قدم المساواة مع أورفيوس كشاعرين
وكموسقيين. وكان ثاميريس عازف
ليرا. ويُعزى إليه ابتداء المقام الدّوري في
الموسيقى. تحدى ربّات الشعر في مسابقة
وخسرها فحرّمته ربّات الشعر نعمة البصر

ونزعت عنه موهبة العزف فألقى بآلته الليرا
في النهر واعتزل.

ختاماً:

تعكس الأسطورة مجتمعا، فهي وليدته،
والمجتمع بأفراده يبتدعون الأسطورة
ويحملونها أحلاماً وآمالاً وأماناً ويجعلون
من أبطالها ملاذاً يلجؤون إليه كلما عزّت
عليهم الأمانى وشقّت عليهم الظروف
وتقلّبت الأحداث. ولئن عرفت الشعوب
الأسطورة في مرحلة بعيدة زمنياً من حياتها
فلقد بزّ الإغريق الشعوب كلّها بوفرة
أساطيرهم وحكاياهم. والمبهر العجيب كثرة
آلهة الموسيقى عندهم ما يعكس أهميتها في
حياة الإغريق إذ بلغ عددها عندهم ثمانية
وعشرين إلهاً، وهو رقم كبير جداً لآلهة
شغلت الموسيقى مكاناً كبيراً في حياتهم
ومهامهم. في عصر الإيمان الأول عند
الإغريق ازدهمت قمة جبل الأولمب بالآلهة
الخالدين بعضها أشكالها بشرية وبعضها
الآخر نصفها بشري ونصفها الآخر حيواني،
وبعض آخر من الوحوش.

جبت المسيحية هذه التعددية الألوهية
الخيالية، ومن بعدها فعل الإسلام كذلك.
خرجت الموسيقى من إطار المقدس إلى إطار
الفلسفة والرياضيات والفيزياء والصوتيات
وأصبح إلها العلم وحده تكتشف به أسرارها
ونظرياتها.

الحواشي

- ١- قاموس روبير الصغير، ص ١٤٦٥، بالفرنسية.
- ٢- فرانسواز دوكرو، ألف باء الأسطورة، ص ٢٢، بالفرنسية.
- ٣- «نسبة» إلى الرواق الذي كان يجتمع فيه أتباع الفيلسوف زينون، وهي فلسفة تقول بأن كل شيء في الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلي ويقبل مفاعيل القدر طوعاً، قاموس المنهل، ص ٩٧٨، طبعة عام ١٩٧٧م.
- ٤- انظر: جان أومبير، الأسطورة الإغريقية والرومانية، ص ١٣، بالفرنسية.
- ٥- هي الآلة نفسها التي يُحكى أن إمبراطور روما نيرون عزف عليها وغنى وهو يشاهد روما تحترق بأمره من شرفة قصره.
- ٦- لم تكن وقتئذٍ خشبة، فالمسارح كانت حجرية لكننا استخدمنا هنا خشبة بالمعنى المجازي المتعارف عليه اليوم.
- ٧- فلنلاحظ هنا وجه الشبه بينه وبين الرواة العرب البدو الرُحَّل الذين يغنون الملاحم الشعرية المقفاة على الربابة. (نذكر منها سيرة الزير سالم، وسيرة عنترة بن شداد، وغيرهما كثير).
- ٨- في متحف شهباء التابعة لمحافظة السويداء جنوب سورية لوحة فسيفساء كبيرة ملونة تصور أورفيوس وهو يعزف ويغني والطبيعة والطيور والوحوش تركع عند قدميه.

مراجع الدراسة

- ١- جاك شايي، الموسيقى الإغريقية القديمة، باريس، منشورات الآداب الجميلة، ١٩٧٩م، ص ٢١٩. (بالفرنسية).
- ٢- كوميّلان، ماريشو، الأسطورة الإغريقية والرومانية، باريس، منشورات دونو، ١٩٩٥م، ٤٠٨ صفحات. (بالفرنسية)
- ٣- فرانسواز دوكرو، أبجديات الأسطورة، باريس، فلاماريون، ١٩٩٩م، ص ١١٩. (بالفرنسية)
- ٤- بيير غريمال، قاموس الأسطورة الإغريقية والرومانية، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٦٩م، ص ٥٧٤. (بالفرنسية)
- ٥- إديث هاملتون، الأسطورة، منشورات مارابو، ص ٤١٥. (بالفرنسية)
- ٦- كلود موسيه، قاموس الحضارة الإغريقية، بروكسل، منشورات كومليكس، ١٩٩٢م، ص ٥٢٧. (بالفرنسية)
- ٧- أندريه شافنر، أصول الآلات الموسيقية، باريس، منشورات موتون، ١٩٦٨م، ص ٤٢٦. (بالفرنسية).

اكتساب اللغة عند الطفل



سهام شباط



٢٠١٣ مجلة المقاد

الإنسان هو أغلى ثروة خلقها الله عزّ وجل وأوصانا بحفظها والعناية بها، لذلك ميّزه بالعقل من دون سواه من الكائنات الحية، فهو كالزهرة يحتاج للرعاية والاهتمام كي تبقى نضرة ومتفتحة، فكم نشعر بالسعادة عندما نراها كذلك وكم نحزن عندما نراها تذبل لعدم إروائها والعناية بها.

والطفل الصغير كهذه الزهرة لولا رعايته والاهتمام به والعمل على تنمية قدراته كافة لما نشأ بشكل سوي وصحيح، ومن هنا كان علينا أن نسعى لمعرفة هذا الطفل لمعرفة واضحة.

✽ اختصاصية وأستاذة التربية وعلم النفس في المعهد المتوسطة بدمشق.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

البيئة التي تنقل إلى الدماغ عن طريق الحواس حيث يقوم الدماغ بمعالجتها عن طريق الإدراك. ولتنمو العقلي عوامل كثيرة تؤثر به وهي: النضج والذي هو حسب «بياجيه» يشير إلى الآثار الوراثية على النمو، وهذه الآثار لا يمكن عزلها ولكن قد يبدو من المهم بالنسبة لنا أن نغزل هذه الآثار عن مجرى الأحداث أو الحياة، وذلك لأغراض البحث والدراسة والتحليل، وإذا كان النمو هو الازدياد الكمي والكيفي للكائن الحي فإنّ النضج هو المرحلة التي يتوقف عندها الازدياد الكمي والكيفي لهذا الشيء، أي يتوقف عندها النمو ويعتبر النضج من العوامل الهامة في عملية النمو عند «بياجيه» فهو يربط بين النضج الجسمي والنضج العقلي؛

فعملية النضج البيولوجي يرافقها تغيرات تشريحية ووظيفية في جميع أعضاء الجسم ومنها الجهاز العصبي وهو الجهاز المسؤول عن التفكير وما يصاحبه من إجراءات، فالنضج العصبي هو أحد أهم العوامل في تحقيق النمو العقلي «وخاصة لتعلم اللغة».. أمّا الخبرة المادية فتتمثل معرفة الطفل بأسلوب أداء الأشياء أو الموجودات في البيئة من حوله وتفاعله معها عاملاً ما يسمى الخبرة المادية.

نسير معه في مشوار حياته متوقفين عند أهم مرحلة من مراحل نموه وهي مرحلة طفولته لأنها مرحلة البناء والتأسيس للمراحل كافة التي تليها ولأنها بمثابة المادة الخام للمراحل اللاحقة.

ولذلك سوف نؤكد في بحثنا هذا على أهمية النمو العقلي عنده وعلى أهمية التواصل عن طريق اللغة التي تشكل وسيلة الاتصال بيننا وبينه، ولأننا نشعر بأنّ هناك تقصيراً غير متعمد بحق أطفالنا في مراحل عمرهم الأولى على الرغم من أهميتها والتي تعتبر مرحلة البناء والتأسيس لما يليها من مراحل، لذلك أكدنا على دور النمو العقلي في تعلم اللغة والتي هي الدالة على إنسانية الإنسان كما يقول «رولان بارت».

إنّ نمو القدرات العقلية أثناء فترة ما قبل المدرسة شيء غير عادي وجدير بالملاحظة مثله مثل النمو الجسمي ونمو القدرات الحركية أثناء فترة الطفولة المبكرة، ففي هذا الوقت نجد الأطفال ينمون حسب نماذج معينة من المهارات التي نسميها بالذكاء العام والتي تقاس باختبارات مقننة تشبه تلك الاختبارات التي تستخدم مع الأطفال الكبار والمراهقين والراشدين.

والنمو العقلي هو القدرة على التفكير وهذا يعني أنه يرتبط بعلاقة مع المحسوسات

الخبرة من الأشخاص الآخرين وغالباً من الراشدين في المجتمع، وهذا ما يسمّى بالنقل الاجتماعي وخاصة تعلم اللغة عند الأطفال لأنها هي وسيلة الاتصال العظيمة مع العالم الخارجي الذي سوف ينخرط به في الحياة.

فاللغة هي نشاط عقلي راقٍ يعمل كشرط أساسي لتنظيم عملياتنا العقلية المعرفية وكوسيلة حتمية للاتصال الإنساني، فباللغة يستطيع الإنسان أن يحدد هذا الوجود المادي والإنساني في خصائص وعلاقات وقوانين وأن يتحقق له الوعي بهذا الوجود والتحكم به على أساس انعكاسه في دماغه بشكل رموز وكلمات وفي تكوين صورة مثالية لموضوعات هذا الوجود وظواهراته وأحداثه.

وباللغة ينتقل الإنسان من معرفة مبثرة مجتزأة بعناصر الوجود إلى الانعكاس المعمم لها في شكل مفاهيم مجردة. واللغة بذلك توفر للنشاط العقلي المعرفي والسلوك الإنساني خاصية «الاقتصاد العقلي» الذي يكمن وراء المقدرة المتعظمة للإنسان على التحكم في الوجود، فاللغة كنظام من الرموز تحقق وظيفتين متكاملتين.

الوظيفة التجريدية: لتكوين الأفكار التي تجرد الواقع وتخزله بشكل رموز تمكن الإنسان من فهمه وضبطه بدرجة أكثر.

فالطفل ينمو جسمياً وبالتالي يتمكن من الحركة والتجوال وتفحص الأشياء المجاورة من حوله وتزداد هذه القابلية للاستكشاف والتفحص مع زيادة نضج الطفل فحينما يضغط الطفل على جسم ما ويجده صلباً أو يسقطه على الأرض ويكتشف أنه ينكسر أو يضعه في الماء ويشاهده وهو يطفو أو يحدث أي نوع من التفاعل مع الجسم كجسم ينتج عن هذه العملية معرفة الطفل بهذا الجسم وأيضاً معرفته بالمادة التي يتكون منها هذا الجسم وتسمى هذه الخبرة بالخبرة المادية. أمّا الخبرة الرياضية المنطقية فتأتي بعد تكوين الخبرة المادية، فمحاولات الطفل معرفة أداء الأشياء ذاتها أو تصنيفها وعدّها وترتيبها يمكن الطفل من القيام ببعض التعميمات على مجموعة من الأشياء ذات الصفات المشتركة وإيجاد علاقات بينها، كل ذلك يكون لدى الطفل بنية عقلية يستطيع أن يستفيد منها في حالات أخرى ومواقف مشابهة للمواقف التي مرّ بها في خبرته من قبل وهذه البنية التي تكونت هي نتيجة الخبرة الرياضية المنطقية.

أمّا النقل الاجتماعي فيأتي من الآخرين في المجتمع، فهم يوضحون كيف يتم عمل الأشياء وبالتالي يكتسب الطفل بعضاً من هذه المعارف، وبهذا نجد أن الطفل يكتسب

الإنسان حدثت تطورات لجهازه الصوتي مع ازدياد تلافيف دماغه وإعادة قبولته ومن خلالها ينبغي تصور متتاليات.

التغيرات الجينية التي أفضت إلى تسجيل لياقة اللغة المتكلمة في رموز جيناتنا.

يأتي الوليد إلى العالم صارخاً، لا يتوقف إنتاج الأصوات عند الكائنات البشرية ولا في حال وجود مرض وهذه الأصوات مرتبطة بشكل كامل بفيزيولوجيته. إذ يطلق أصواتاً تلقائية أو استجابية تعبر عن راحته أو عن توعكه، فالرضيع فائق الانتباه للكلام، ينظر، ينصت، يتابع بانتباه حركات الفم، ويحاول تقليدها، تعابير الوجه واليدين والجسم، يشم الرائحة ويميزها يسمع الأصوات ويميزها، يميز النغمات، والضحكات والحركات.

ويتلقف الطفل اللغة عن طريق ربط الأصوات والمعاني وفق القواعد الصوتية والنحوية لهذه اللغة «النبرات والإيقاع والتنغيم» والتي تربط الوحدات في أشكال منظمة «كلمات، تراكيب تعبيرية، جمل».

يبدأ الطفل تعلم «الثغغة» يرافقها مقاطع لفظية بسيطة متوالية. «حرف صامت، حرف صائت مثل با- ما» أو ب- م- ت وهي حروف صوامت، وهناك تكرارات لها.

يبتكر الطفل هذه الحروف ويكررها

الوظيفة الاتصالية: حيث تعمل اللغة كوسيط للتفاعل بين الأفراد، ولنقل واستقبال المعلومات، وبقول آخر، تتحدد وظيفتا اللغة بالاتصال والتعميم وما يقوم بين هاتين الوظيفتين من تفاعل إنما يثري دور اللغة في حياتنا.

الأطفال الصغار كلهم يتعلمون اللغة «الكلام» هذا الميل الطبيعي إلى اكتساب الكلام هبة مسجلة في الإرث الجيني الذي نتلقاه ككائنات بشرية، ولا شك بأن المعوقات البدنية والفيزيولوجية الشديدة للغاية وحدها يمكن أن تؤثر على نمو هذه المقدرة العجيبة التي تشير إلى عظمة الإنسان وتميزه.

فالكلام كما أسلفنا هو لغة التواصل والتعبير بين البشر. والتي تتجزأ أعضاء التصويت «أعضاء إنتاج الصوت الكلامي واللغة الملفوظة» أو تتحقق من خلال ترميز بوساطة علامات مادية «الكتابة»، فإن الكلام بالنسبة للثاني هو أيضاً التعبير اللفظي عن الفكر. واللغة هبة التطور على صعيد تطور السلالات، فالإنسان ليس سابق الوجود على اللغة، فلدى الرئيسات منظومات بصرية وسمعية شبيهة بمثيلتها لدى الإنسان، وتشكل مجتمعات منظمة وتتمتع بمنظومات تواصل معقدة «قرود الغرقت» ولكن لدى

ويحول فيها «تاتا- با- با- ..» وقد أجريت على هذه المرحلة تجارب كثيرة في دول عديدة وأهم ما خلصوا إليه بأن الطفل الرضيع الأصم بالولادة يصوت مثل الطفل الرضيع القادر على السمع ولا يلاحظ توقفه عن التصويت إلا وقت الثغنة فالطفل الأصم لا يثغغ ولا يبدأ بإنتاج مقاطع لفظية أو متواليات مقاطع لفظية في العمر الذي يبدأ فيه الطفل القادر على السمع بإنتاج ذلك نحو عمر سبعة أشهر، إذ نشاهد الطفل الأصم بأن التصويّيات عنده تميل إلى التضاؤل ويلجأ إلى الإشارات.

ويتأثر الطفل بشكل عام ومنذ وقت مبكر جداً باللغة المتكلمة في محيطه ومن أسرته.

وحسب رأي «جان جاك روسو» الكلام أول مؤسسة اجتماعية ينبثق في جوانبها تطور الجنس البشري، وملكة التواصل بين أفراد الجنس البشري.

ومع نمو الرضيع تتعدل مواقف الوالدين وأسلوب لغة الأم ومضمونها، إذ تكون الأمهات أكثر تكلماً وتناغماً وانسجاماً عندما تجد طفلها متجاوباً معها فتبادلته التجاوب والانسجام وكان في القرن الثالث عشر الطبيب «الدبر إندن دوسيين» طبيب إيطالي كان يعبر عن نفسه بالإنكليزية، يقول

للأمهات نصائح كي يتمكن الطفل من أن يقول كلماته الأولى بارتياح: «افركن فمه بالملح الصخري أو بالعسل، اغسلن فمه بلبن الشعير خصوصاً إذا تأخر بالكلام»، لنجعله يقول كلمات ليس فيها كثير من الحروف التي تحرك اللسان مثل، ماما- بابا.. هذه النصائح مرتبطة بفكرة أن الأسنان ضرورية للتكلم.

بعدها تأتي مرحلة التقطيع والتجميع لتشكيل المفردات ولذلك ينتظر من الطفل استخلاص وحدات معاني الكلمات التي يسمعاها وليست هذه مسألة سهلة إذ يتجلى الكلام في الواقع مثل موجة صوتية متصلة نسبياً، يتعلق الأمر بعد ذلك باستذكار الكلمات على نحو يتيح تمييزها واستخدامها، ولكن الدراسات التي قامت على هاتين المرحلتين لتعلم الطفل اللغة شكلت مثار جدل وحيرة لفترات طويلة واعتبرت لغزاً محيراً برزت عند محاولتهم فهم كيف يكتسب الطفل كلمات لغته إذ تنساب اللغة من الفم كالموجة من دون توقف، ولذلك نجد الكبار من دون قصد عندما يتكلمون يقطعون الكلام ويجعلون بينه فواصل ليصبح أكثر تعبيراً وفهماً والطفل بشكل عام قادر على التمييز بين هذه الفواصل بطريقة لا شعورية.

ويشكل الإيقاع والتغيم في اللغات كلها

ميل غريزي إلى اكتساب فن خاص جداً، من هذا المنطلق تصحح كلمة «فن» أن كلمة «غريزة» يمكن أن تتسم بالاقتضاب حينما يتعلق الأمر باللغة البشرية.

وإذا كان الرضيع مزوداً بجهاز قوي وقابل للتكيف، فإنه سيتمكن من اكتساب لغة متلفظة أيّاً كانت خاصيات بيئته اللغوية.

إلا أن اختلافات فنية ستظهر، اللغات متنوعة، متنوعة جداً، وإذا كانت قواعد أولى تعلل وجود سمات أساسية تبنى عليها، فإنه من غير الممكن أن طرق إنجازها مختلفة جداً.

يتعلم الطفل اللغة المتكلمة في بيئته، يقوم بذلك ضمن الأشكال والحدود التي يقدمها له التعيين الجيني في بيئته، غير أن هذه المقاربة ستحمل أيضاً علامات تعييناته الخاصة به وعلامة خبرته في الدالات النوعية التي ستزوده بها لغته وثقافته كي يعمل على تحديث ميله الغريزي إلى اكتساب فن الكلام.

ونحن نعرف جميعنا بأن اللغة أكبر قوة وجدت للاندماج في المجتمع. ولدى الأطفال كلهم حاجات أساسية مشتركة تتضح معالمها في بعض الأشكال المشتركة للمفردات الأولى ولكن يجب عليهم جميعاً كي يتواصلوا مع المحيط أن يكونوا موضع اعتراف كأشخاص

جزءاً من البنية الشكلية للكلام تترافق الملامح النغمية في بعض اللغات بفروق في المعنى والبنية، فتبدأ بالصراخ والصياح ثم مرحلة المناغاة وتتطور المناغاة نتيجة لثلاثة عوامل مهمة: (التمييز السمعي، الشعور بالقدرة أو الإحساس بالقدرة، التعزيز)، ثم تأتي مرحلة التقليد، مرحلة الإيماءات، مرحلة اللغة الحقيقية وفهم اللغة، فهم اللغة قبل استخدامها، مرحلة الكلمة الواحدة بوضعها في جملة، مرحلة الكلمتين، تكوين العبارة وفهمها واستخدامها، وكل ذلك يحتاج إلى سمع وإحساس وتناغم وانسجام وتكرار إيقاعي ولفظي ونغمي مع الكلمات ليستطيع الطفل تمثيلها لفظاً وفهماً واستخداماً وتكراراً وكلها متزامنة مع عمره الزمني والعقلي.

هل الأطفال كلهم متشابهون أم

متباينون؟

الجواب كلهم متشابهون وكلهم متباينون فالأطفال كلهم مبرمجون جينياً ليتعلموا الكلام، لقد أريد لأسباب نظرية أساسية، فصل دراسة تسجيل مقدرات الكلام في المنظومة البيولوجية عن دراسة بدء عملها خلال نموها، فقد أكد داروين أن اللغة ليست غريزة حقيقية بل ولا تعلماً لفن عادي إنما عبر بذلك عن أن هذا التعلم

(عمل الطفل الدائم وشغله الشاغل) إذ يجد الطفل في لعبة الاختفاء (الظهور والاختفاء) لعبة جميلة جداً.

أخيراً هنالك جانب آخر يدل على الانشغالات الأساسية المتماثلة عند مختلف الثقافات أي جانب التواصل الاجتماعي: العبارات المستخدمة في قول صباح الخير أو إلى اللقاء، في معظم المفردات الأولى للأطفال.

مع ذلك تعدل الاختلافات الفردية، وتأثير الثقافة وبنية اللغة، منذ وقت مضى، خيار وتوزع كلمات الطفل الأولى.

فالطبقة الاجتماعية والمستويات التعليمية تتكشف أيضاً في أساليب التعبير لأعضاء هذه الثقافات الفرعية، ونستطيع أيضاً أن نحكم على شخص متحدث بأنه ينتمي أيضاً إلى الطبقة الوسطى أو الدنيا من خلال طريقته في الحديث، واستخدامه للكلمات وطريقة التلفظ، رغم أنه من الصعب تحديد الفرق بين الطبقتين الوسطى والعليا. والطبقة الوسطى من خلال الدراسات تبين أنها تسعى مباشرة إلى مزيد من الضبط لسلوك الطفل ولتكوين نظام أخلاقي معنوي لديه وذلك من خلال أساليب للتنشئة يلعب فيها الوسيط اللغوي الدور الأكبر، ومن شأن الاستخدامات

متكلمين، وبالتالي أن يتكلموا لغة بيئتهم وأن يتمثلوا لبعض التقاليد الشكلية والاجتماعية التي تفرضها اللغة والثقافة في الآن نفسه، تتشكل مفرداتهم بالتماس مع لغة البالغين التي تلقن الصغار منذ البداية ليس فقط أشياء العالم الذي ينبغي رؤيتها وفهمها، بل أيضاً طريقة قولها، وكيفيات التعبير عنها التي تتيح للطفل أن يكون موضع اعتراف ومفهوماً في الوقت ذاته.

لا يتعلم المرء اللغة من ذاته لذاته، مع ذلك تنتظر الأمهات بصبر كلمات الأطفال الأولى، ولدى غالبيةهن الرغبة في المساعدة أو بالأحرى في تسريع بدايات الكلام عند أطفالهن مع أن هناك تمايزاً واضحاً ومبكراً في إستراتيجيات الوالدين في إيقاظ الطفل تجاه البيئة الطبيعية وفي تحريك مشاركته في العالم الخارجي، وتتمحور هذه الإستراتيجيات غالباً حول مواضيع ومفردات يعلمونها لأطفالهم تتعلق بما يحيط بهم بشكل مباشر (ماما، بابا، تاتا..) والأشياء الضرورية للبقاء، (حليب، شراب، نانا..) والأشياء التي تليس، حذاء، جاكيت.. وأشياء تحدث أصواتاً (هاتف، تلفزيون، ضوء..)، وأشياء تتحرك (سيارة، قطار، باص، وحيوانات الأليفة (كلب، قط، بطة..). ويحب الطفل اللعب وهو حاجة أساسية

اللغوية أن تنظم المعاني الثقافية التي يجري توصيلها بطريقة صريحة أو ضمنية. لذا تمثل اللغة - كوسيط للمعرفة وكجانب من جوانب الثقافة، وكأداة ثقافية للثقافة وكعامل ثقافي توحيدي للثقافة - قضية ذات أهمية بالغة في عالمنا أن تعليم وتعلم اللغة له علاقة وثيقة بالدراسات النفسية، وتنسب إلى ميدان علم النفس اللغوي الذي بين أن فهم العلوم المساعدة يخدم كمؤشر معرفي تدور حوله المعلومات المتخصصة في تعلم وتعليم اللغة يقول الواقع إن التوازي الملحوظ بين علم النفس وعلم اللغة ليس غريباً وذلك بسبب علاقتهما القوية وارتباطهما الدقيق، وبعد أن يعرض جانباً من النظريات العلمية يجعل من العسير القول بأن هذه النظرية أو تلك صواب أو خطأ بل أصبح من المستحيل تفنيد نظرية بمعطيات نظرية أخرى وذلك لأن كل واحدة من هذه النظريات تشتمل على شيء من الحقيقة.

ولديها أداة تهيئة لاكتساب اللغة وإدراكها بطريقة منظمة، مما ينتج عنه بناء مستوعب كامل من النظام اللغوي مسلحاً بالمقدرة وهي المعرفة الضمنية بالنظام اللغوي، وكما أسلفنا فهناك علاقة وثيقة بين النمو اللغوي والنمو العقلي، لأن لكل لغة طريقة لمحاكاتها يستعملها الطفل لاكتساب هذه اللغة، إذ إن ترديد المسموع أسلوب واضح ومميز في التعليم المبكر لاكتساب اللغة وأصواتها.

والواقع أن المراحل الأولى لدى الطفل قد يكون فيها الكثير من المحاكاة السطحية وذلك لأن الطفل لم يمتلك بعد القدرة الضرورية لربط المعاني بالعبارات والألفاظ ولكن الأطفال مع مرور الزمن وفهم مستوى المعاني في اللغة يبدؤون في تركيز الكثير من اهتماماتهم على مستوى البنية العميقة للغة، وقد أوضح «براون» أنه حتى يتم الاكتساب الناجح للغة الأولى لا بد من وجود الاحتكاك اللغوي وليس مجرد التعرض للغة،

لذا تمثل اللغة - كوسيط للمعرفة وكجانب من جوانب الثقافة، وكأداة ثقافية للثقافة وكعامل ثقافي توحيدي للثقافة - قضية ذات أهمية بالغة في عالمنا أن تعليم وتعلم اللغة له علاقة وثيقة بالدراسات النفسية، وتنسب إلى ميدان علم النفس اللغوي الذي بين أن فهم العلوم المساعدة يخدم كمؤشر معرفي تدور حوله المعلومات المتخصصة في تعلم وتعليم اللغة يقول الواقع إن التوازي الملحوظ بين علم النفس وعلم اللغة ليس غريباً وذلك بسبب علاقتهما القوية وارتباطهما الدقيق، وبعد أن يعرض جانباً من النظريات العلمية يجعل من العسير القول بأن هذه النظرية أو تلك صواب أو خطأ بل أصبح من المستحيل تفنيد نظرية بمعطيات نظرية أخرى وذلك لأن كل واحدة من هذه النظريات تشتمل على شيء من الحقيقة.

وقد استفاد الباحثون من تحليل لغة الطفل بطريقة منظمة في محاولة لاكتشاف طبيعة العملية النفسية واللغوية التي تمكن الإنسان من التحكم في هذا النظام المعقد من الاتصال، ثم عرض لنظريات اكتساب اللغة الأولى، ولعل أبرزها النظريات السلوكية التي تعنى بالجوانب المدركة من السلوك

لكن الأطفال مع مرور الزمن وفهم مستوى المعاني في اللغة يبدؤون في تركيز الكثير من اهتماماتهم على مستوى البنية العميقة للغة، وقد أوضح «براون» أنه حتى يتم الاكتساب الناجح للغة الأولى لا بد من وجود الاحتكاك اللغوي وليس مجرد التعرض للغة،

أن عمليات الإدراك والحكم والتعرف والتذكر عمليات أساسية لفرض استيعاب اللغة، وتحدث «براون» عن مدرسة «سكنر» السلوكية.

إذ قال بأن المعززات التي تتبع الاستجابة وتميل إلى تقوية السلوك تؤلف عاملاً مهماً في التحكم في السلوك الإنساني، وأشار براون إلى أهمية الجانب الانفعالي في التعلم وأهمية البيئة المشجعة وبأن التعلم لا يتمكّن بشكل جيد إلا بإنشاء علاقات شخصية متميزة بين المعلم والطالب.

فحسب نظرية «روجرز» الإنسانية في علم النفس الذي بين عدم اهتمامه بالعملية العقلية للتعلم إنما أكد على الظروف المصاحبة للتعلم حيث يرى أن تهيئتها بطريقة ملائمة تكفل تعلم الإنسان لكل شيء يحتاج إليه، ولكن «براون» خالفه الرأي إذ يرى بأن المعلم قد يجد نفسه تحت إغراء استعمال الطرائق غير المباشرة لتمكين الطلاب من اكتشاف الحقائق بأنفسهم مما يؤدي إلى ضياع الوقت، وقد تتحول البيئة التعليمية الدافئة المتساهلة إلى درجة تذهب فيها الضغوط اللازمة للتعلم، ومع ذلك يجب على المعلمين أن يشجعوا على إيجاد بيئة مناسبة للتعلم وأن يتخلوا عن حشو أذهان الطلاب بالمعلومات، لأن هذا قد يؤدي إلى

والأطفال لا يتعلمون من مجرد استماعهم إلى كلام الآخرين، ولكن بسبب كونهم جزءاً من الحدث اللغوي نفسه حيث يتم الحديث معهم ويستجيبون للمحيط من حولهم، ولعلّ ما يساعدهم على ذلك الفترة الحرجة التي يمرُّ بها الإنسان وهي فترة فيزيولوجية محددة من النمو في حياة الإنسان يكون فيها اكتساب اللغة سهلاً وتخطي هذه الفترة تكون اللغة أكثر صعوبة إذ إنّ هناك الاعتبارات العصبية ومرونة المخ وطواعيته قبل فترة البلوغ تمكن الأطفال من اكتساب اللغة الأولى.

ولا عجب بأن نراهم يكتسبون نطقاً صحيحاً أفضل من الكبار لأنّ النطق يشتمل على التحكم بالكثير من العضلات، وقد لوحظ عند الأطفال الذين يتعلمون لغة ثانية أنهم يتعلمونها جيداً من دون الاستفادة من التفكير العملي الذي يركز على حفظ القواعد وتكرارها والتمرن عليها.

والسبب في ذلك أنّ الطفل تعلم اللغة في سياق طبيعي له معنى، بينما الأمر ليس كذلك بالنسبة للكبار، ونستخلص من ذلك: أنّ المهم أن تكون الجمل والفقرات ذات معنى، ومن ثم يبدو أن الاتصال الذي يأتي في سياق وله معنى هو أفضل تمرين يمكن أن يشارك به المتعلم، وقد بين «براون»

وضع يجد الطالب نفسه فيه مضطراً إلى التعلم الدفاعي، أي الدفاع عن ذاته ضد الفشل، والعقاب المحتملين.

وقد أشار «براون» بأن الانفتاح الاجتماعي في عملية التعلم ولم يجزم بأن أيّاً من الانبساط أو الانطواء يساعدان أو يعوقان اكتساب اللغة ويشير إلى معرفة الجانب الثقافي لمجتمع اللغة ومن هنا تأتي أهمية معرفة المعلم وإدراكه الأعراف الثقافية عند تقويمه لسلبية الطلاب المفترضة في قاعة الدرس، فالمجتمع الأمريكي مثلاً لا يرى كثرة الكلام في قاعة الدرس أمراً غير لائق، وقد أشار «براون» إلى مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين وأشار إلى أن الدافع هو مفتاح التعلم وفرق بين الدافع النفعي الذي يؤدي إلى اكتساب اللغة للانتفاع بها وبين الدافع الاندماجي الذي يستخدم عندما يرغب المتعلمون بالاندماج في مجتمع ما للاستفادة منه للغة ثانية، مزودة بالعلاقات الطيبة والوجدانية بين المتعلمين.

ولقد أثبتت الدراسات بأن النمو اللغوي عند البنات يكون أسرع منه عند البنين وذلك فيما يتصل بعدد المفردات وطول الجمل والفهم ويكون هذا الفرق ظاهراً في السنوات الخمس الأولى وفيما بين السنتين الخامسة والسادسة نجد أن الذكر والأنثى

يتساويان أو أن الفروق بينهما متقاربة وكذلك أثبتت الدراسات بأن هناك علاقة واضحة بين الذكاء والقدرة اللغوية.

فضعاف العقول يبدؤون الكلام متأخرين عن العاديين، والعاديون يتأخرون في ذلك عن الأذكياء، وليس معنى ذلك أن كل طفل يتأخر بالكلام لابد أن يكون ضعيف العقل أو غيباً فهناك عوامل أخرى تتدخل في التأخر اللغوي غير الذكاء، وللطفل ذي القدرة العقلية الممتازة ميزات تتصل بقدرته على الملاحظة وإدراك العلاقات وفهم المعنى وإدراك الفروق التي بين المعاني المختلفة وهذه كلها عوامل تساعد على النمو اللغوي.

أما البيئة فهي تشكل علاقة إيجابية بين المركز الاقتصادي والاجتماعي للأسرة التي ينشأ فيها الطفل ونموه اللغوي، فالأطفال الذين ينشؤون في بيئات مريحة مجهزة بوسائل الترفيه ويكون أهلهم متعلمين تمكنهم فرصهم من التزود بعدد كبير من المفردات وتكوين عادات لغوية صحيحة بعكس الأطفال الذين يعيشون في بيئة فقيرة حتى في حالة تساويهم مع الأول في درجة الذكاء.

أخيراً نقول: إن التعاطي والتواصل مع الطفل مهم له كالطعام والشراب فالطفل

ولقد أثرت هذه النتيجة كثيراً في المربين والأطباء وعلماء النفس وأصبحت مسألة العلاقة بالطفل تهم العلماء أكثر من ذي قبل، إذ بينوا بأن التواصل والعلاقة الإنسانية الحسنة والألفة والمحبة بين الطفل وأسرته تلعب دوراً في نموه من جميع الجوانب العقلية والجسدية والنفسية والروحية. وعلينا أن نعرف نحن الكبار بأن علينا أن لا نربي أطفالنا كما تربينا فكل زمان أهله وثقافته وطرقه.

الذي يحصل على الغذاء الكامل والعناية الطبية ويحرم من العلاقات الإنسانية ومخالطة الكبار ينمو نمواً سيئاً ليس من الناحية النفسية فحسب بل ومن الناحية الجسدية أيضاً، فيتناقص وزنه ويفقد الاهتمام بالحياة. ولقد أظهرت دراسات لحالات موت غير مفهومة علمياً لرُضع في دور الأيتام في أميركا وأوروبا بعد الحرب العالمية الأولى أن سبب وفاتهم هو حاجتهم غير المتوافرة لعلاقة مع شخص قريب يعيرهم اهتمامه الدائم.

مراجع البحث

- ١- كيف نتواصل مع الطفل؟ غيببئر يتير. ي. ب، ترجمة د. بشرى الحلو.
- ٢- المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها. نَعُوم تشومسكي، ترجمة محمد فتّيح، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣م.
- ٣- معمّر نواف الهوارنة، دراسة بعض المتغيرات المؤثرة في اكتساب اللغة لدى أطفال ما قبل المدرسة، رسالة ماجستير، القاهرة ٢٠٠٣م.
- ٤- نوال محمد عطية، علم النفس اللغوي، القاهرة، الأنجلو المصرية ٢٠٠٠م.
- ٥- محمد رفقي عيسى، سيكولوجية اللغة والتنمية اللغوية لطفل الرياض. الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع ١٩٨٧م.
- ٦- ليلى أحمد كريم الدين، اللغة عند الطفل تطورها والعوامل المرتبطة بها، مكتبة أولاد عثمان ١٩٩٣م.



التربية السكانية وثقافة الحاجة



د. هشام سعيد الحلاق



١- بدايةً لنقرأ
معاً الأحداث
المتوقعة مع مطلع
عام ٢٠٢٥م^(١)؛

- سيتجاوز عدد
سكان العالم (١٠) مليار
نسمة بينما لم يتجاوز
حالياً (٧) مليار نسمة!
• سيتركز ٩٠٪ من
النمو السكاني العالمي
في المناطق الحضرية!
• سيتضاعف عدد

• سيبلغ عدد الأميين في العالم (المليار)

تلتهم من النساء!

• من لا يحصلون على الماء الصالح للشرب

والرعاية الصحية (١,٥) مليار نسمة!

سكان أفريقيا ثلاث مرات عمّا عليه الآن!

• سيعيش حوالى ١,٥ مليار شخص في

فقر مدقع!

✻ خبير وأستاذ محاضر في كلية التربية بجامعة دمشق.

إذن، ما يتوقع حدوثه في عام ٢٠٢٥ م على الأرض وعلى صعيد الظواهرات السكانية فيها، وما يمكن أن يتحقق فعلاً من تلك التوقعات، يمثل مؤشّراتٍ لخللٍ صارخٍ في النظام السكاني العالمي الذي يحتاج إلى حلول عاجلة لتصحيح هذا الخلل أو للتخفيف من تداعياته السلبية الخطرة على الإنسانية والعالم أجمع^(٢).

إنّ ما أطلق عليه بعض علماء المستقبلات بمسار الهلاك للجنس البشري كأحد الخيارات التي سيواجهها العالم في السنوات القادمة، قد جعل من الزيادة السكانية التي يشهدها هذا العالم اليوم، ومن استنزاف شديد لمصادره غير المتجددة مصدراً أساسياً لتوقع المسار المذكور.

فقد أوضح «باول إيرليش Paul R. Erlich» في كتابه «القبلة السكانية» منذ عام ١٩٧١ م خطر الانفجار السكاني بقوله: «لا يمكن لأي تغييرات في السلوك أو التقنيات أن تنقذنا ما لم نستطع السيطرة على حجم الأعداد البشرية للسكان، وتحقيق نوع من التوازن بين الولادات والوفيات في معدلات التزايد الطبيعي عندهم. وإلا فإنّ الجنس البشري سيّجّه نحو حتفه وهلاكه». (عن سايتز ١٩٩٠م، ص ٢٠٩).^(٣)

من أجل ذلك فقد غدا مصطلح «التربية السكانية» ووضع إستراتيجية خاصة به

إحدى أبرز الإستراتيجيات الإنقاذية للنظام السكاني في العالم اليوم.^(٤)

٢- ما المقصود بالتربية السكانية؟

عرّف سالاس Salas منذ عام ١٩٧٨ م التربية السكانية بأنها «عبارة عن سلسلة من التساؤلات حول طريقة استكشاف الظاهرة السكانية وآثارها على التغيرات السكانية».^(٥)

وجاء بعده فيدرمان S. Viederman^(٦) ليرى أنّ التربية السكانية هي: «عملية تعليمية تساعد الأفراد على:

- فهم أسباب الظواهرات السكانية ونتائجها وتفسيراتها، وتحديد طبيعة المشكلات المرتبطة بها، وما ينعكس منها سلباً على السكان داخل مجتمعاتهم.

- تحديد الوسائل الفعّالة والممكنة التي عن طريقها يستطيعون كأفراد في المجتمع أن يستجيبوا ويؤثّروا في تلك العمليات، من أجل تحسين نوعية حياتهم حاضراً ومستقبلاً».

أمّا شارما R. C. Sharma فقد عرّفها بأنها «دراسة البشر بعلاقاتهم من وجهة نظر تهدف إلى تحسين نوعية الحياة من دون تدمير أو معاداة للبيئة».^(٧) وبذلك فإنّ هذا التعريف يؤكد على أهمية البيئة ودورها الفاعل في التربية السكانية.

وإذا كان الخلل في استقرار النظام

«تمثل التربية السكانية جهداً تربوياً يهدف إلى توعية المتعلمين بالظواهر السكانية وعلاقتها بالموارد المتاحة، لاتخاذ مواقف رشيدة ومسؤولة حيال تلك الظواهر بما يخدم التنمية الشاملة في سورية ويساعد على تحسين نوعية الحياة للفرد والأسرة والمجتمع»^(٩). والملاحظ أنَّ هذا التعريف يركّز على هدف عامّ أساس هو تحسين نوعية الحياة لسكان المجتمع.

بينما أخذ التعريف في أمانيا المضمون التالي:

«جهد تربوي يَمَكِّن الأفراد والجماعات من إدراك التطور الديموغرافي الذي يعتمد التطور الاقتصادي والاجتماعي، ويهدف إلى إعانة الناس على إجراء تغييرات في حياتهم الشخصية وإزالة معوّقات التقدم الاجتماعي لديهم، وفق المستلزمات الاجتماعية التي تودّي إلى تطوير بلدهم ديموغرافياً» (المكتب الإقليمي ١٩٨٧م، ص ٩٢)^(١٠) والملاحظ هنا أنَّ هذا التعريف يُعتبر شاملاً لخصائص التربية السكانية كنظام تربوي فعّال لفهم الأفراد كل ما يتعلّق بالقضايا السكانية في مجتمعاتهم والدور الذي تلعبه على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والبيئي^(١١).

٣- ما الحاجة إلى التربية السكانية؟

ربما سنجد في مضمون المجالات التالية الإجابة المقنعة لهذا التساؤل:

السكاني والنظام البيئي قد أقلق العلماء أو المختصّين- نظراً لحالة التدهور والاضطراب التي وصلت إليها تلك النظم - فتصدّوا لهذا الخلل، واقترحوا حلولاً، ووضعوا برامج لغرض معالجته وردت كلّها تحت مسمّيات وعناوين عديدة كان الأبرز منها ما أُطلق عليه «التربية السكانية»، فقد تجاوز هذا القلق و-على صعيد المجتمعات والدول- أولئك العلماء إلى كثير من الحكّام والمسؤولين فيها، تُرجم ذلك باهتمام هؤلاء بالمشكلة السكانية في بلدانهم، ووضعهم برامج خاصة فيها تستطيع أن تُسهم في تكوين وعي اجتماعي وثقافي بيئي، يمكن أن يرقى بأخلاقيات الأفراد وتكوين اتجاهات سليمة وممارسات سلوكية واعية يستطيعون بها فهم تلك النظم السكانية والبيئية في بلدانهم، وإدراك أسس توازنها ومعطياتها الطبيعية والاجتماعية المختلفة.^(١٢)

وفي ضوء هذا الاهتمام الأوسع بالمشكلة السكانية، وتبنّي الدول لها عبر حكوماتها والهيئات والوزارات التابعة لها، فقد تطوّر مفهوم التربية السكانية وتطوّرت معه الآليات المتّبعة في تحقيق هدفها، وبالتالي تنوّعت التعريفات الخاصة بها مع تنوع تلك الدول واختلاف بيئاتها وتوجّهاتها!

لقد جاء التعريف في سورية وعبر وزارة التربية فيها حسب التالي:

- فُضي المجال السكاني: فإن التربية السكانية تُعين على إدراك طبيعة المشكلات التي تتضوي على عناصر ومؤشرات سكانية وتُساعد على تحديدها.

- أما في المجال التنموي: فهي تُعين على إدراك الناس بأن مظاهر التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتأثر بحراك السكان وحيواتهم في المجتمع أو الدولة حيث يعيشون.

- وفي المجال التربوي: فإن التربية السكانية تُسهم بأساليب متعددة في التطوير العام للتربية وفي تجديدها. فهي تعمل على المساعدة في إعادة تنظيم المناهج الدراسية على أساس الجمع بين فروع المعرفة المختلفة منطلقاً في ذلك من أن القضايا السكانية تحمل في ذاتها مقومات اقتصادية واجتماعية في البيئة التي تستهدفها، وفي اختيار محتوى تعليمي تربوي ذي علاقة مباشرة بحياة المتعلمين بما يقدم هذا المحتوى من حلول تُسهم في حل المشكلات السكانية والتربوية التي يواجهونها.

- أما في المجال الثقافي: فالتربية السكانية تُسهم في إكساب المعلومات والاتجاهات والقيم والأعراف والعقائد التي يتبنّاها الناس فيما يخص الشؤون المرتبطة بهم كالعلاقات الأسرية والعادات والتقاليد الاجتماعية ووضع المرأة ودورها والأطفال... أي في مساعدة هؤلاء على

تعرف ديموغرافيتهم الشعبية وما تنطوي عليه من تأثيرات تتعلق بالقرارات السكانية (اليونسكو ١٩٧٨م، ص ٢٥).^(١٢)

- وأخيراً على صعيد الفرد والأسرة: فإن برامج التربية السكانية تؤكد على الأوضاع الفردية والأسرية من أجل أن تكون ذات معنى للمتعلمين، وأكثر استجابة لحاجاتهم، يجعلهم يمتلكون القدرة على اتخاذ قرارات حياتية خاصة بعائلاتهم وحياتهم الأسرية بصورة عامة.

لاشك أن ما مرّ من تعريفات حول التربية السكانية، وما جاء من حاجة لمضمون ثقافتها يتفق وبشكل كبير على أن التربية السكانية تمثل في النهاية برنامجاً تربوياً موجهاً بالدرجة الأولى للفرد بهدف تعميق فهمه وإدراكه للظواهرات السكانية، وتنمية مهاراته في اتخاذ القرارات المناسبة والمسؤولة في المسائل والقضايا السكانية، خاصة ما يستهدف منها الحد من النمو السكاني السريع بغرض تحسين حياته كفرد وحياة الأسرة والمجتمع الذي ينتمي إليهما. وما دام الإنسان يشكل عنصراً هاماً وفاعلاً في البيئة حيث يعيش، فالتربية السكانية لابد وأنها تمثل مكوناً هاماً مما يسمى بالتربية البيئية، وبذلك يكون الهدف الأساس من التربية السكانية (وخلافاً لما يعتقد البعض في أنه عبارة عن مخطّط

لتقييد حريات الأفراد من حيث تحديد حجم الأسرة التي يرغبون في تكوينها، أو انتقاد أو تجاوز لموروث ثقافي أو معتقدي في مجتمع من المجتمعات خاصة الفقيرة منها) بل هو تقديم جهود تسهم في عملية التغيير الشاملة للمجتمعات عبر ثقافة معرفية مكتسبة تبدأ من داخل المدرسة وتستمر لخارجها من أجل تحسين نوعية حياة الأفراد فيها^(١٣).

إن مثل هذا التغيير يحتاج بالضرورة لجهود مجتمعية متضافرة للوصول إلى نوعية حياة أفضل. من أجل ذلك فقد تعاظم اهتمام البشرية بالمسائل السكانية سواء في الدول المتقدمة -التي عمل انخفاض معدلات النمو السكاني فيها على خلق مشكلات تجلّت في جعل أكثر من ٤٥٪ من أفراد مجتمعاتها كهولاً، مما أدى لجعل حاجتها للقوى العاملة كبيرة وإلى اضطرابها لاستيرادها - أو ما كان من مشكلات في الدول النامية -عندما اقتنع المسؤولون فيها بأن أية مجهودات في الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي لأبد وأن تمر عبر ثقافة ضرورية تتكفل التربية السكانية في إكسابها للأفراد عن طريق تنفيذها لبرامج تستجيب لحاجاتهم بجعلهم يدركون أهمية الحد من النمو السكاني السريع وما يحدثه ذلك من إرباكات للخطط التنموية في بلدانهم ويتعرفون بالتالي على الظواهرات السكانية

وما يدور في فلكها من معارف وقيم وسلوك تتعلق بتلك الظواهرات.

٤- التربية السكانية خارج المدرسة^(١٤)؛

إذا كانت التربية السكانية ببرامجها المختلفة قد مثّلت أحد المبتكرات التربوية النوعية والهامة في حياة المجتمع لدى عديد من الدول وخاصة ما كان في العقود الأخيرة من القرن الماضي عندما أسهمت في التجديد التربوي وتطويره في تلك الدول؛ فإن الكثير من تلك الدول لم تكن راضية عما حققته برامج التربية السكانية فيها، ولا غرابة في ذلك مادامت جهود تلك البرامج قد ركزت أو استهدفت فقط تلاميذ المدارس، وتجاهلت من هم خارجها. من أجل ذلك، فقد سعت تلك الدول ولحل هذه المشكلة إلى تصميم برامج في التربية السكانية تستهدف من هم بحاجة لمثلها (ممن هم من خارج المدرسة). ومن المفيد هنا الحديث وبشيء من التفصيل عما يسمى بالتربية السكانية خارج المدرسة وذلك عبر النقاط التالية:

أ- من هم المستهدفون ببرامج التربية

السكانية من خارج المدرسة؟

مما لا شك فيه أن مثل تلك البرامج التي تأتي من خارج المؤسسات التعليمية المدرسية، تستهدف في الغالب شرائح مجتمعية تتمثل في الفئات المحرومة من التعليم المدرسي

تلك البرامج يتم خارج المدرسة بحيث لم يتم إدخال برامج التربية السكانية رسمياً ضمن برامج التعليم العام والعالي إلا في بداية الستينات، وإن كان جانب من هذا البرنامج قد دخل إلى بعض الدول الأوروبية في العقود الأولى من القرن الماضي من خلال ما سمي بالتربية الجنسية (التعليم الجنسي بهدف تعرّف ظاهرة الأمراض الجنسية التي تفتشت بين أوساط الشباب عندها ..).

بينما تركّزت جهود البلدان النامية في هذا الجانب من التربية السكانية خارج المدرسة من خلال مفهوم نابع من حاجات مجتمعاتها، تمثل ذلك ببرامج تتعلق بتنظيم الأسرة وتهدف بأساسها إلى التقليل من الارتفاع الكبير في نسبة الزيادات الطبيعية فيها (على الرغم من تصادم هذه البرامج وفي أحيان كثيرة بعوائق عديدة تعود معظمها لأسباب دينية وعقائدية أو ذات علاقة بالموروث الثقافي لتلك البلدان).

لقد شهدت مثل هذه البرامج في التربية السكانية من خارج المدرسة في تلك الفترة انتقادات كبيرة؛ بحجة أنها وجّهت في الأصل إلى الأسر التي تضم عدداً كبيراً من الأولاد، أي إنّها برامج تحاول أن تواجه المشكلة بعد حدوثها... بحيث كان من الأفضل أن تعمل تلك البرامج عملها بمفعول وقائي يعمل على تفادي المشكلة قبل حدوثها، كأن يكون

الابتدائي، أو المتسربين من ذلك التعليم، عدداً من الشباب وال كبار والبنات والنساء. لقد بدأ تفكير الدول -خاصة النامية منها- في كيفية الوصول إلى تلك الشرائح من السكان واستهدافهم في برامج التربية السكانية، بعد أن توافرت لها أسباب موجبة عدة لذلك أهمّها:

- ١- ارتفاع معدل النمو السكاني فيها وصعوبة السيطرة عليه بالوسائل التقليدية الخاصة بتنظيم الأسرة.
- ٢- ضرورة الأخذ بعين الاعتبار ارتباط التربية السكانية بالتوعية الوطنية أو القومية، والنمو الاقتصادي.

من أجل ذلك فقد شرعت تلك الدول بوضع العديد من البرامج الخاصة بهذا الشأن عن طريق مؤسسات تربوية غير مدرسية من مثل المعنية بالإعلام أو الصحة أو الثقافة أو بعض الهيئات الشعبية الأخرى بما يحقق تكاملاً مع الأهداف المرجو تحقيقها من برامج التربية السكانية لمن هم من داخل المدرسة.

ب - النشأة والتطور:

كان أول برنامج تمّ تخطيطه وتنفيذه في التربية السكانية في السويد عام ١٩٣٠م كمحاولة منها حينذاك لتفادي الانخفاض الكبير في نسبة المواليد فيها، تبعثها الولايات المتحدة وللسبب نفسه، وكان تنفيذ

مواطنيها وحمايتهم ضد الغزوات والحروب الخارجية عليها.

هذا الشعور ربما المفترط في التفاؤل نحو زيادة السكان في بلد ما في تلك الحقب التاريخية من حياة المجتمعات، قد شهد تغيراً أضحى لدى بعضها ضرباً من التشاؤم، خاصة في أوروبا في ظل التطورات والتغيرات التي طرأت عليها وعلى مجتمعاتها سواء على الصعيد التقني أو الفكري أو الصناعي.. وبالتالي فقد ظهرت الزيادات السكانية العالمية في أجزاء عدة من العالم على أنها أضحت تشكل عبئاً كبيراً على قدرات الإنسان عبر تطوره (كما ورد عند مالتوس في شرحه للعلاقة بين السكان والظروف الاقتصادية التي يعيشونها من خلال فرضياته المعروفة).

وعلى الرغم من أن النمو السكاني المتزايد كان في البلدان الأكثر تطوراً بالعالم في فترة القرن التاسع عشر (كما في أمريكا الشمالية - أوروبا - الاتحاد السوفياتي سابقاً) أعلى من المناطق التي تمثلها اليوم البلدان النامية، إلا أن الصورة اليوم قد تغيرت باتجاه معاكس! بحيث دلت الإحصاءات بأن عدد السكان في تلك الدول ارتفع على سبيل المثال وخلال عشرين سنة فقط من ٢ مليار إلى ٣,٣٨ مليار (حدث ذلك بين عامي

توجيهها للأطفال والشباب منذ مراحل مبكرة من أعمارهم.

وبالطبع فإن هذا النمط من التفكير والنقاش حول التربية السكانية خارج المدرسة قد شمل أيضاً البرامج والمستهدفين منها داخل المدرسة، وكان ذلك مع بداية العقد السابع من القرن المذكور، وعدم اقتصارها وكما سبق ذكره على المجهودات خارجها.

ج - الإطار النظري للمفهوم:

إن العلاقة بين النمو السكاني من جهة والنمو الاقتصادي والاجتماعي من جهة ثانية متشابكة وقديمة، وبالتالي فإن الاهتمام بموضوع هذا التشابك يرجع لبداية التجمعات البشرية وبروز الحضارات القديمة.

فقد كانت الزيادة السكانية ومن خلال الأفكار التي كانت سائدة في العالم (خاصة في أوروبا وحتى القرن الثامن عشر) تعني: أ- الزيادة في القوى البشرية وتوسيع حجم القوى العاملة والمنتجة لتحقيق نمو مضطرد ومتزايد في الناتج القومي.

ب- التوسع بسوق الاستهلاك والتنوع في طلب الإنتاج.

ج- زيادة حجم السكان يؤدي إلى رفع قوة الدولة وتثبيت دعائمها وتنامي شعورها بقدرتها الأكبر بالمحافظة على سلامة

١٩٦٠ و ١٩٨٠م)، بينما زاد عدد السكان في الدول المتقدمة من مليار واحد إلى ١،١٣ مليار فقط في الفترة المذكورة نفسها!

إذن، هذا التزايد المتسارع في السكان بات من الموضوعات الهامة لدى معظم البلدان وخاصة النامية منها، لأن مثل هذا التزايد غير المخطط أصبح يشكّل عائقاً ملفتاً أمام الجهود التنموية والاقتصادية والتعليمية والصحية في تلك البلدان، كما أصبح واضحاً أنّ الحل الأنجع لمثل هذه المشكلة يكمن في ضبط هذا التزايد السكاني، والحد من تسارعه بما يكفل تحقيق نوع من التوازن بين أعداد السكان وبين توافر موارد الغذاء وتأمين فرص العمل والسكن وخدمات التعليم والصحة والطاقة والخدمات الأخرى فيها.

من هذا الواقع أو المبرر القوي المتأتي من ارتفاع عدد السكان وإدراك ما يسببه ذلك من مشكلات: فقد خطت كثير من الدول المتقدمة وبعض الدول النامية خطوات كبيرة في تخطيط برامج وسياسات سكانية لمجابهة هذه المشكلة والعمل على حلّها أو التخفيف من سلبياتها وخطورتها، بحيث استهدفت معظم هذه البرامج ما من شأنه التأثير على الخصوبة ومن ثمّ السيطرة على الزيادة السكانية المضطردة في مجتمعاتها،

كما طبقت العديد من الدول النامية الأخرى برامج تنظيم الأسرة ونجحت في السيطرة على معدل الخصوبة فيها، وبالمقابل فقد أخفقت دول نامية أخرى أو تعثرت في تنفيذ مثل هذه البرامج نتيجة لمعوقات أهمّها نسبة الأميّة العالية، إضافة إلى سيطرة بعض العادات الاجتماعية.. الأمر الذي أبرز الحاجة إلى برامج تعليمية منظمة ومخططة تهدف إلى تغيير سلوك السكان في تلك البلدان عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي خارج المدرسة مما يؤدي في النهاية إلى تعلم سكاني موجه إلى الجميع ويطال الأطفال والشباب والكبار...

د - المناهج والموضوعات:

يشكل اختيار محتوى التربية السكانية لمن هم خارج المدرسة صعوبة أكبر مما هو عليه الحال في اختياره للمستهدفين لمن هم من داخل المدرسة. وتأتي هذه الصعوبة من اتساع وتباين في النسيج المكوّن لتلك الشريحة المستهدفة من السكان، من حيث حالتها الاجتماعية ومستواها التعليمي أو الثقافي، أو حتى نوع اللغة الأصلية لأفرادها، أو الأعمال التي يزاولونها، أو ما يكون من تأثير لمعتقداتهم أو أوضاعهم المعيشية ومراتبهم الاجتماعية في البيئة حيث يعيشون.

إنّ مثل هذا التباين في المكونات

والطفولة والتغذية الصحية وغيرها .
أمّا عن المعلومات الأساسية والرقمية
الخاصة بالتربية السكانية، فإنها تُؤخذ
وبشكل رئيس من علم الديموغرافيا، حيث
يحدد هذا الأخير العوامل الأساسية التي
تؤثر على النمو السكاني من حيث:

أ - حجم وتغير السكان وما يتعلق
بذلك من معدل المواليد ومعدل الوفيات
والهجرة.

ب - التكوين السكاني: وما يعنيه ذلك
من اهتمام بالفئات العمرية والجنس وحجم
الأسرة والحالة الاجتماعية ودرجة تعلم
أفراد الأسرة ودرجة الاعتماد على رب الأسرة
ومتوسط عدد سنوات العمر المتوقعة..

ج - توزيع السكان: والاهتمام بنسب
هذا التوزيع بين المدن والريف، والكثافة
السكانية.

وبالطبع فكل هذه الأمور تضم
موضوعات ذات أهمية كبيرة تؤثر وتتأثر
بالحياة الأسرية وبنوعية النشاطات التي
تقوم بها الأسر، والقرارات الذي يتخذها
الواحد من أفرادها من مثل: متى يترك
المدرسة؟ متى يتزوج؟ متى يقرر أن يلد
ابنه الأول؟.. أو الثاني؟.. الثالث؟.. ما المدة
المتوقعة بين ولادة طفل وآخر؟ هل يتزوج
زوجة أخرى؟.. هل يهاجر؟

الشخصية لهؤلاء الأفراد يجعل منهم
مجموعات تختلف من حيث احتياجاتها
واهتماماتها واتجاهاتها تختلف من واحدة
إلى أخرى. وهذا ما دفع المعنيين ببرامج
التربية السكانية إلى مراعاة هذا التباين
ممّا أوجد مناهج متعددة للتربية السكانية
خارج المدرسة، كان من أهمها تلك التي
اقترحت منذ عام ١٩٧٥م في بانكوك،
وضمّت موضوعات تتعلق بمناحي الحياة
الإنسانية في المجتمعات المختلفة - خاصة
المتأثرة منها بالنمو السكاني المتسارع- بحيث
تشكّلت تلك المناهج وبمجمّلها من مفاهيم
عامة ونظريات مأخوذة من العلوم التي لها
علاقة بالظواهرات السكانية، أو ما يتعلق
منها بالنمو السكاني وتزايد عدد السكان
كما في العلوم الإنسانية من مثل التاريخ
والجغرافية والاقتصاد والاجتماع وعلاقتها
المباشرة بعلم السكان، وما يمكن أن يثري
مضامين مناهج ومحتوى التربية السكانية،
وبصورة خاصة لجهة علاقة الإنسان
بالبيئة، وهنالك أيضاً العلوم الطبيعية وعلم
الأحياء وما يوفرانه للتربية السكانية من
معلومات خاصة بالتناسل والتكاثر، إضافة
لما يمكن أن تقدّمه علوم التغذية والاقتصاد
المنزلي لتلك المناهج من معلومات ومعارف
هامة تتعلق على سبيل المثال بصحة الأمومة

برامج التربية السكانية فهي متنوعة بحسب أشكالها وأهدافها. وللاختصار نسوق عنها النماذج التالية:

أ - المواد الدافعة: (حائثة - محرضة - استقطابية). وتصمم هذه المواد -سواءً النوع الورقي منها أو الإلكتروني- لخلق الوعي والدافعية لدى المتعلمين لإكسابهم مزيداً من المعلومات عن فكرة برنامج أو نشاط تعليمي يستهدفهم. تتخذ هذه المواد أشكالاً مختلفة من مثل:

- الملصقات: ويمكن أن تتمثل بصورة مختلفة مع رسائل مختصرة أو محددة في التربية السكانية، كأن تكون الملصقات عن الصحة أو حجم الأسرة أو أطعمة الرضيع أو أوضاع الأم الحامل أو في نظافة البيئة أو عن الحد من هجرة الريف إلى المدينة أو ترشيد استهلاك المواد والطاقة... إلخ. وهنا يجب أن تكون الصورة واضحة في الملصق وجاذبة، كما يجب أن يكون التعليق الذي تحمله بسيطاً ومعبّراً بشكل واضح لما تريد رسالة الملصق إيصاله إلى أفراد المجتمع.

- التقويم الموضح بالرسوم: كأن يشمل على سبيل المثال طِفلاً يوزن دورياً للتأكد من نموه البدني ووضعه الصحي، مع توضيح التواريخ المحددة لوزن الطفل، مما يجعل الأم على بينة من هذه الأمور... إلخ.

وبالتأكيد فإن مثل هذه القرارات في معظم المجتمعات يتخذها الشباب والشابات وحدهم، مع التذكير بأن ثمة تأثيراً من الآباء والأمهات على مثل تلك القرارات، وهذا ما يعني بأن المجتمع مسؤول وبجميع فئاته عن اتخاذ مثل هذه القرارات.

٥- نماذج تعليمية في إطار التربية السكانية خارج المدرسة:

إن تنفيذ برامج تنموية متنوعة في مجال التربية السكانية بهدف تحسين نوعية الحياة للفرد والأسرة والمجتمع لابد أن يتم عن طريق إنتاج مواد تعليمية تعتمد أصلاً على علوم أساسية محددة سبق الإشارة لمثلها، والتي تهمل في الغالب العامل السكاني على الرغم من أهميته كعامل فاعل وهام من عوامل التغيير التنموي للسكان. وبالتالي يجب أن تُقسم المواد التعليمية في محتواها لتتكامل مع مفاهيم التربية السكانية بما يساعد الطلاب المتعلمين على إكسابهم القدرة الأكبر على الربط بين المفاهيم النظرية والممارسات العملية الحياتية، وبما يُمكنهم في النهاية من اتخاذ قرارات صحيحة بل ومسؤولة بشأن أسرهم، وهذا ما يشكل الجانب الأكثر أهمية في برنامج التربية الأسرية والأهداف التي تسعى لتحقيقها. أمّا عن أنواع المواد التعليمية التي تقدمها

(المطويات) التي تضم أعمدة تحمل رسائل محددة عبر صفحات عدة يسهل فهمها وقراءتها، ويمكن تزيينها بالرسومات بشكل يجعلها أكثر تشويقاً وجذباً للمتعلم. كما يمكن أن تضم المطوية الواحدة موضوعات عدة من مثل (كيفية المحافظة على خصوبة الأرض - الوقاية من بعض الأمراض - كيفية تغذية الطفل - فوائد تحديد النسل في ظل محدودية الأجور.. إلخ).

وهناك الكتب والكراسات المزينة بالرسوم التوضيحية أو الكتب الخاصة بالتعلم الذاتي، حيث تقدم جميعها معلومات كافية للمتعلمين عن الأهداف المراد تحقيقها كما تشتمل على مواد تقويمية مختلفة

ج - مواد المتابعة: التي تصمم أيضاً بهدف المساعدة على إحداث التغيير المرغوب فيه في اتجاهات المتعلمين وسلوكهم بما يخص أهداف التربية السكانية ومحتواها.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن ثمة كثيراً من المواد التعليمية أضحت اليوم أكثر شيوعاً واستخداماً في العديد من الدول خاصة الآسيوية منها، كما في المواد الإذاعية والتلفزيونية وما يتعلق ببرامج المعلومات التي تقدمها الشبكة العنكبوتية عبر المواقع الإلكترونية المختلفة.

- الخريطة التوضيحية: وتضم مجموعة من الصور والرسومات والأشكال التوضيحية في أحد جوانب إطار الصورة أو الرسم، وفي الجانب الآخر يمكن كتابة الرسالة الضرورية أو التعليمات التي يمكن أن تُتبع من أجل القراءة الصحيحة لتلك الخرائط.

مثال: بيان مراحل رضاعة الطفل وأساليب تغذيته حسب المراحل العمرية والنمو له.

- المجالات الهزلية: نظراً لكون أغلبية الناس يحبون هذا النوع من المجالات وخاصة الشباب خارج المدرسة والذين لم ينالوا حظاً من التعليم.

لذا يمكن أن تكون المجالات الهزلية ذات تأثير كبير في توصيل رسائل التربية السكانية، كما يجب أن تكون موضحة بالصور والرسومات وتحمل أفكاراً مكتوبة في شكل حوار.

ب - المواد التوجيهية: ويتم إنتاجها من أجل الربط بين المناهج ومحتوى المواد التي تستهدف بالدرجة الأولى شريحة معينة من السكان كالعاملين والمهنيين أو فئات خاصة من المجتمع.

ومن نماذج هذه المواد: المطبقات

الهوامش

- ١- تقارير لصندوق الأمم المتحدة - مكتب السكان ٢٠٠٨م.
- ٢- زيتون عدنان- التربية السكانية إستراتيجية مستقبلية - وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠م.
- ٣- المصدر السابق.
- ٤- شملت أيضاً إستراتيجيات (الاتصال والمعلومات، التقنيات المتقدمة، التنمية المستدامة، الاقتصادية، التربية المستمرة).
- 5- Salas, 1978, UNEPA, 3
- 6- S.Viederman, 1981
- ٧- العمرانية، فريق التربية ١٩٨٤م: الدليل المنهجي في التربية السكانية - وزارة التربية - تونس.
- ٨- خوري توما جورج، المناهج التربوية- المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع- الطبعة الأولى ١٩٨٣م - بيروت.
- 9- UNESCO, (UNFPE), 1981,48
- ١٠- برنامج التربية السكانية- الدورة التدريبية (١٩٨٧م)- المكتب الإقليمي للتربية في الدول العربية- عمان.
- ١١- زيتون عدنان (المصدر نفسه).
- ١٢- المصدر السابق.
- ١٣- الحلاق هشام- التربية السكانية خارج المدرسة- ورقة عمل للحلقة الدراسية الأولى للتربية السكانية- اليونسكو (UNFPA) دمشق- ١٩٨٧م.
- ١٤- المصدر السابق.



الآلهة وعبادة الأسلاف في المشرق القديم



د. بسام جاموس



شاع في المشرق القديم فكرة تصوير الآلهة، لكن المجتمعات السورية أدركت أولى التنظيمات الاجتماعية والدينية والاقتصادية في عالم يحيط بها، وبينت أدوار الفرد والأسرة والمجتمع في هذه البيئة والكون حتى أصبح لهم رؤى وتصورات وذلك من أجل عقلنة القوى الطبيعية وما فوق الطبيعة التي تحيط بهم.

اتخذت التجليات الإلهية منذ البداية سمات بشرية، وأنثوية بشكل خاص لم تكن رمزيتهما واضحة، إنما تجلّت بطريقة التمثيل الحسي لهذه الأفكار المجردة المرتبطة بأولى أشكال

✽ باحث ومدير عام للآثار والمتاحف سابقاً، ومستشار وزير الثقافة لشؤون الآثار.

وفق هيئات إنسانية ذات تعابير مجردة مثل الخصب، الجمال، الحياة، الموت، وتجلى ذلك بعبادات متنوعة كتبجيل وتقديس الأسلاف الذي تطوّر وأصبح عبادة منظمة وفق سمات بشرية وحيوانية تجسّدت في الديانات الكبرى الموحدة.

الربة الأم؛

حظيت المرأة عبر العصور بمكانة اجتماعية ودينية وصلت إلى اعتبارها أولى الآلهة عند البشر وسميت بالآلهة الأم كونها أوحّت للتجدد والولادة والخصوبة والأمومة ثمّ العثور على الكثير من الدمى والتمائيل الأنثوية الطينية لها في مواقع المريط (الفرات الأوسط)^(٢) وتل أسود (غوطة دمشق)^(٣) وتل كشكوك (محافظة الحسكة)^(٤).

لم يكن الدين في حضارات الشرق القديم يشكل بنياناً خالصاً منفصلاً، بل كان يخترق بآلهته وشياطينه وطقوسه المجتمع والثقافة في جميع المجالات بحيث لم يكن ثمة ركن خالياً من الدين وتأثيره^(٥).

وحظيت المرأة بمكانة مرموقة ضمن المعتقدات الشرقية القديمة التي كانت تستند إلى أديان تؤمن بتعدد الآلهة كنظام

التعبير الفني^(١)، واشتهرت المجتمعات السورية بتصوير الآلهة عبر العصور وجسّدها بالتمائيل خاصة في عصور البرونز (٣٠٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)

والفترات الكلاسيكية اليونانية والرومانية والتي كانت توضح مدى العلاقة بين قوى الآلهة والبشر، وكانت تدور حول العالم الآخر.

كما ظهرت آلهة الربة الأم، وكبير الآلهة إيل، والإله بعل وحدد إلهي العاصفة والمطر والخصب، وكوثر إله الحرف، وعشتار وأفروديت وفينوس آلهة الحب، ومنيرفا إلهة الحرب وظهرت آلهة العدالة والفلسفة والتربية وتجلى ذلك في إنشاء المعابد لها، لممارسات الطقوس الشعائرية في أماكن العبادة هذه، وهذا ما ساهم في نشوء الديانات الكبرى التي كانت تتجسد في عدد من الآلهة وأحياناً في الإله الواحد ضمن منظومة ذات قيم روحية، وطقوس تجلت في الاحتفالات الدينية المتنوعة، وتقديم الأضاحي ضمن تقاليد طقسية تشبه بعض طقوس مجتمعات الريف السوري.

لقد برزت في منطقة بلاد الشام آلهة ذات سمات بشرية، ينسب أصلها الإلهي للظواهر الطبيعية التي كانت تحيط بهم

تتفاعل عناصره بهدف المحافظة والحصول على مكانة ومرتبة إلهية.

وتتميزت سورية وعلى ضوء المكتشفات الأثرية بأنه لم يكن يوجد ديانة واحدة، بل هناك أشكال مختلفة لها، لكن تقديس الأجداد كان من أهم الممارسات الطقسية الدينية في ثقافات المشرق القديمة، وهذا ساهم في تعزيز الروابط الروحية والاجتماعية لأن هدفه العناية بأرواح الأموات عن طريق تقديم الأضحيات وأداء الطقوس والشعائر وخاصة أيام المناسبات والأعياد وقد تصل إلى مرحلة (تحضير الأرواح) أي التواصل المباشر معهم.

وأشارت إلى ذلك مكتشفات تل أسود (غوطة دمشق) حيث أكدت لنا عمليات دفن الجماجم المنظم في الموقع وأسلوب تخصيص الوجه، وتلوين الجبهة وهذا أكبر دليل على عبادة الأسلاف (الجماجم)، كون المخ والفكر يقع ضمنها^(٦) وهذا ما ساهم جوهرياً في تثبيت الترتيب الهرمي الاجتماعي داخل الأسرة وهذا ما يدل على ممارسة طقوس شعائرية رمزية اجتماعية، تعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد، وهي تمثل أقدم صور لهذه العبادة في المشرق.

يمكننا من خلال دراساتنا وتحليلاتنا

القول: بأن بدايات تقديس الأجداد تعود إلى أقدم مراحل التطور الثقافي في سورية، ويؤكد بيتر فلزنر مدير حفريات الجانب الألماني في موقع المشرفة: إن عبادة الأجداد ترمي إلى استمرار أماكن سكن العائلات وبقائها ثابتة بعدما استقرت نتيجة عملها في الزراعة، وبناءً على ذلك فإن تقديس الأجداد الذي يوصف أحياناً بأنه مهد الدين والمنشأ الأول لعبادة الآلهة، ويُعد من أقدم الممارسات الطقسية الدينية في (غوطة دمشق) سورية^(٧) فعلاً وهذا ما أكدته المعطيات الأثرية الأخيرة في مواقع أثرية متعددة من سورية مثل تل أسود وتل خويرة الواقع شمال سورية حيث عُثر فيه على حرم لتقديس الأجداد وتم العثور على الكثير من ذلك في عصور البرونز وخاصة في ممالك ماري وإيبلا وإيمار وأوغاريت.

وبرزت دراسات كثيرة حول تصوير الآلهة وعبادتها ووظائفها وطقوسها الروحية والاجتماعية أمثال آلن ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية، أ.ب. تايلور في كتابه «الثقافة البدائية» ول ديورانت في مجموعته (قصة الحضارة) وأرنست رينان في كتابه (تاريخ ومعتقدات ما قبل التاريخ)، جاك كوفان في كتابه (الآلهة والزراعة)...

أكدت دراساتهم على فكرة استمرار وجود الروح وانبعاثها وهذا ما عزز عند المجتمعات القروية والمدنية الاهتمام بالموتى وتقديسهم وانتشار عبادتهم.

ظهرت عقائد دفن الموتى منذ العصر الحجري القديم الأوسط على يد إنسان النياندرتال واهتم بموتاه من خلال بعض الطقوس البدائية وابتداعه للقبور في شكلها البدائي^(٨) ولأحظنا ذلك في اكتشاف البعثة الأثرية السورية- اليابانية العاملة في موقع كهف الديدرية^(٩) حيث تم العثور على هيكل عظمي لطفل النياندرتال، وكانت توجد نصلة صوانية لها حيز جمالي متوضعة فوق منطقة القلب، وهذا يدل على اهتمام إنسان النياندرتال بدفن موتاه بطريقة شعائرية تدل على قدسية معينة للإنسان، كما تم العثور في كهف كراينا في (كرواتيا) على جمجمة مدفونة بطريقة نظامية لها مدلولات طقسية تدل على الجمجمة في الرأس تكمن فيها قوة الفكر والروح عند الفرد^(١٠) ولم يقتصر التقديس للبشر وإنما تم تقديس بعض الحيوانات لمكانتها وفائدتها وقوتها وفي مقدمتها الماموث والدب والكلب^(١١).

ولقد أكدت معطيات مواقع ما قبل التاريخ في بلاد الشام تصوير الآلهة، وطقوس

الدفن، وعبادة الأسلاف، حيث تم العثور على ذلك في مغارة الكبارا في فلسطين، وتل أسود في غوطة دمشق، وموقع هاشيلا، وشاتال هويوك في الأناضول وكذلك موقع (أم الماء) عند الساحل الشرقي لقطر، وفي بعض المواقع المصرية المتعددة^(١٢) في عصور لاحقة، لكن عمليات فنون التصوير والدفن اختلفت وضعياتها وموادها من منطقة لأخرى، لكنها توحدت في احترام وتقديس المتوفى، والتركيز على مسألة العالم الآخر أي البعث والخلود، إضافة إلى مواقع كهوف السخول والطابون حيث تم العثور على بقايا عظمية لأحد عشر شخصاً من إنسان النياندرتال أو إنسان الكرمل الأرقى نوعاً، ولوحظ أن واحداً منها كان يمسك في ثنية ذراعه عظمة حيوان ربما كنوع من القرابين^(١٣).

إن طفل النياندرتال الذي تم العثور عليه في مغارة الديدرية والذي كان لهذا الاكتشاف أهمية كبيرة^(١٤)، كونه الأكمل من نوعه في العالم^(١٥)، وأجاب على الكثير من التساؤلات التي تتعلق باستقراره في سورية، ومصيره، وعلاقته بالإنسان الحالي، إضافة، إلى الطقوس الشعائرية لعملية دفنه، كما أعطت مواقع الحضارة النطوفية (نسبة

في مطلع عصور البرونز أي مرحلة ظهور المدن والممالك الأولى، حدثت تطورات كبيرة على صعيد تصوير الآلهة والعبادات المتنوعة، حيث تأسست البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وخاصة فيما يتعلق بمجمع الأرباب، وأماكن العبادة ومراسم الدفن والأدوار الميثولوجية والطقوس المتنوعة أثناء المناسبات الهامة إضافة إلى التطورات التي جرت خلال العصور (أي الألف الثالث والثاني والأول قبل الميلاد) وفي مقدمتها استمرار تقاليد تصوير الأجداد بمواضيع مختلفة.

صنفت الآلهة وفق نظام اجتماعي تراتبي، كون الناس كانوا يعيشون مع آلهتهم، لأنّ التدين كان جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية ويشمل جميع جوانب الحياة، وكانت هناك آلهة مذكرة ومؤنثة تمّ تصويرها ووصفها وذكرتها النصوص المسمارية وخاصة ما ورد في نص من مملكة إيمار كتب بمناسبة عيد كبير، تمّ ذكر ما يزيد على (٨٠ إلهاً وإلهة) وقوائم طويلة بأسماء الآلهة متسلسلة وموزعة تراتبياً بانتظام، وهي شديدة التنوع في الأسلوب والشكل والمؤثرات الثقافية المختلفة^(١٧).

تمّ العثور في بلاد الشام على الآلاف من

لموقع وادي النطوف في فلسطين) الكثير من المعطيات الأثرية حول طقوس وعبادة الأسلاف وما احتوته مدافنهم من خرز وحلي عظيمة وساد ذلك في الألف الثاني عشر قبل الميلاد.

كانت عمليات الدفن للجماجم بأوضاع متباينة لها دلالات جنائزية خاصة^(١٥) وهذا ما أكدته المعطيات الأثرية في مواقع بلاد الشام والرافدين.

في العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م) نرى بأن عملية تصوير الآلهة وعقائد الدفن وعبادة الأسلاف تتوحد في طقوسها وفنها مما يدلّ على علاقات حضارية أو وحدة حضارية بين المجتمعات القروية، وأكدته مكتشفات مواقع أريحا في فلسطين والمربيط، أبو هريرة، جعدة المغارة، حالولة، الرماد، وتل أسود في سورية ومنهاتا وعين غزال في الأردن وجبيل في لبنان وكهوف شانيدار- بردابلكا وزاوي شيمي وجرمو في العراق، وكهف بيهستون، وموقع حاج فيروز وعلي كوش في إيران وموقع شاتال هيوك في الأناضول ومواقع الصليبخات وكاظمة وطبقات موقع فيلكا في الكويت ومواقع حلوان- والهضبة الممتدة على طول وادي النيل^(١٦).

الصور التي تعبر عن الآلهة وتعددتها، وكانت هناك آلهة منتشرة في كل مكان، فالإله إيل الأعلى في مجمع الأرباب السوري، وعشيرات إلهة عرش البلاط السماوي، والإله بعل المرتبط بالمطر والصواعق أي الزراعة والذي يسمى (السيد) ويحمل اسم حدد أو تيشوب.

لقد تحدثت النصوص عن رحلات الآلهة وزياراتهم لأماكن بعيدة توجد فيها آلهة آخرون وكانت تُقام لهم مواكب احتفالية مما يشير إلى وجود تعدد للآلهة، ووصفت النصوص، سكن الآلهة، وحياتهم في المعابد، وطقوس الاحتفالات ووظائف الأشخاص الموظفين في المعابد (كالكهنة والكاهنات) والمنجمين ومفسري الأحلام والسحرة والخبازين والطباخين والخمارين أي إنَّ المعبد كان مركزاً روحياً واجتماعياً تربطه علاقات وثيقة مع الملوك والسكان.

وفي الفترة الآرامية استمرت المجتمعات في تصوير الآلهة وعبادة الأسلاف وخير مثال على ذلك ما تمَّ العثور عليه في موقع تل حلف وهي عبارة عن تماثيل لأشخاص جالسين وتحمل في أيديها أوعية لاستقبال القرابين لكن ما يلفت الانتباه أن تماثيل الأجداد هذه كانت لشخصيات نسائية^(١٨).

كما أعطتنا هذه التماثيل من خلال ما تحمله، وتصوره وخاصة شكلها وملابسها ومكانتها من خلال عمليات النحت التي تظهر التفاصيل الكثير من المعلومات عن الحياة الدينية، والروحية، والطقسية والتي يدل بعضها على مكانة الآلهة أو الملوك والملكات، فهناك الكثير من التماثيل عثر عليها في ماري تدل على التعبد بأشكاله المختلفة وكذلك في إيبلا وخاصة أيضاً في أوغاريت والتي تظهر نقوشاً للكواكب، والقرنين في القلنسوة والصولجان، وظهور إحدى الحيوانات القوية كالثيران والأسود فهذه رموز تشير إلى المكانة الاجتماعية الدينية لهم، ويعني ذلك بأن هناك تنوعاً في الأسلوب والخصائص والمضامين.

أمّا فيما يتعلق بالمنحوتات الأنثوية فلقد أظهرت الجوانب المشتركة فيما بينهم وعلى سبيل المثال التشابه بين الربة المصرية هاتور والربة عشتار من ناحية التمثيل الواضح عن الحياة والخصوبة فكانت هناك إلهات للحب والخصب والعدالة والرب والحياة والموت.

كان الملك يعد ابن الإله الأكبر بصفته ممثله على الأرض لأن الملك يشكل الضمان والاستقرار والاستمرار لإرادة الإله، لذلك أثناء موت الملك كانت تقام له طقوس دفنية

تكريمية ملكية تحمل صفات إلهية، بحيث يصعد إلى سماء الآلهة ويحصل على حصة من الأضاحي^(١٩) لأنَّ الملك كان صلة الوصل بين الآلهة والناس، ويعين الكهنة، ويقدم العبادات والشعائر أي يقوم بجميع الممارسات والطقوس الدينية الرسمية وخاصة أعياد تقديس الأجداد، أعياد الزراعة، ومن الأعياد الهامة عيد السنة الجديدة الذي يحتفل به في الخريف من كل عام بمناسبة عودة إله الطقس من العالم الأسفل وما يرتبط بذلك من عودة الحياة إلى الأرض وعالم النبات^(٢٠).

مراسيم تقديس الدفن: تطورت مراسيم دفن الموتى والعناية بها في الألف الثاني قبل الميلاد، وعملية الموت تعني أن الروح غادرت الجسد، ثم تأتي مراسيم التقديس فيغسلون الميت ويدهن بالزيت والمراهم لحفظ الجثمان حتى دفنه، وكانت توضع في القبر بقايا متنوعة مع المتوفى إيماناً بعالم آخر، ثم تقدم الأضاحي وتقام المآدب الاحتفالية وكانت هذه الطقوس تؤدي بالدرجة الأولى في العائلات المالكة، وأكبر شاهدٍ على ذلك ما تمَّ العثور عليه في المدفن الملكي في موقع المشرفة -قطنة- حمص الذي أكد مقر

الحكام الأموات^(٢١).

ومن أهم تماثيل تصوير الآلهة التمثالان الجالسان على كرسي منخفض وهما لحاكمين من قطنة عثر عليهما في الحجرة الأمامية من المدفن الملكي وهما من روائع فن النحت السوري في الألف الثاني قبل الميلاد، وكذلك كانت لهما وظائف متعددة ومنها القيام بدور الأجداد كونهما يمثلان الأجداد المتوفين من الحكام، وتمَّ العثور في داخل المدفن على نفايات لا حصر لها من عظام الحيوانات ناجمة عن أضحيات وهذا يؤكد على تقديم الأضحيات لتمائيل الأجداد في قطنة والذين كانوا من أفراد الأسرة المالكة ذات النخبة الاجتماعية والسياسية، والدليل على ذلك أيضاً حلي الملوك والآلهة التي وجدت في المدفن (كووس ذهبية، عقود، مشابك أواني مرمرة) وكلها مزخرفة وتدل على المكانة الاقتصادية للملكة، كما أشارت النتائج إلى طقوس دفن الملوك حيث أكدت المعطيات الأثرية داخل المدفن بأن الملك كان يدفن بلباسه وزينته، إضافة لطقوس شعائر التقديس التي كان يرافقها طقوس البكاء على الأموات وندبهم، لكن أهم طقوس العناية بالموتى وتقديس

الأجداد تقديم الطعام لهم بصورة منتظمة، ويتبين من النصوص أنها كانت تقدم مرة أو مرتين بالشهر^(٢٢) ولقد أشارت مقتنيات المدفن وبصورة واضحة إلى أهم الشعائر الدينية في مملكة قطن، كما شهد العصر الهلنسي والروماني تصوير الآلهة

فالآلهة عشتار امتزجت مع أفروديت اليونانية وفينوس الرومانية وتم تصويرهما بمنحوتات عبارة عن تماثيل متنوعة النحت منها حجرية وبرونزية وتمثل هذه آلهة الخصب والجمال والعطاء، فيما يتعلق باستخدام مادة البخور المرتبطة بهذه الطقوس كونها كانت مادة طاهرة وتحمي من الشيطان ومازالت استخدامات هذه المادة البخور مستمرة في طقوس بعض القرى السورية.

وعن ظهور الديانات الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلامية وكتبها المقدسة والتي تشترك جميعها بعبادة الإله الواحد خالق الكون، وفي هذه المراحل ظهرت الأديرة والكنائس والمساجد (بيوت الصلوات) وارتبطت هذه الأديان بطقوس متنوعة، كما أن ظاهرة تصوير الآلهة وتقديس الأجداد في الفترتين الفينيقية والكلاسيكية ظهرت واضحة ولدينا أمثلة هامة تدل على ذلك

(مدافن عمريت، مدافن تدمر الملكية)^(٢٣) وهي صروح جنازية أشارت إلى الأهمية الكبرى التي كان يوليها التدمريون بشكل خاص للعناية بموتاهم وتقديس أجدادهم. نستنتج من خلال دراساتنا على ضوء المعطيات الأثرية بأن تصوير الآلهة وعبادة الأجداد اختلفت طقوسها حسب كل عصر لكننا وصلنا إلى نتائج هامة منها بأن القبور في عصور ما قبل التاريخ كانت حفر بسيطة ثم تنوعت وتطورت فمنها كانت مدافن فردية وأخرى جماعية ومنها فصلت الجماع عن الجسد وخاصة في العصر الحجري الحديث (الألف الثامن قبل الميلاد) وهنا ظهرت عبادة الأسلاف، ثم تطورت في العصور اللاحقة وأصبحت المدافن أوابد أثرية قائمة كما ذكرنا (مدافن عمريت، تدمر، مدافن الفراعنة...) كما تطورت فنون تصوير الآلهة والملوك وخير مثال (تماثيل ماري، تماثيل آلهة وملوك أوغاريت...) لذلك نستطيع القول: إن سورية كانت سبقة لنشأة الحضارات على أرضها بسبب عدة عوامل منها بيئية وطبيعية وبشرية فمنها انطلقت الثورة الزراعية وأصول الكتابة والفنون واعتبرت مهذاً للديانات ومركز الثقل في انتقال التراث المتنوع إلى العالم.

الهوامش

- ١- ميشيل فورتان ٢٠١٢: تنظيم الفكر كتالوج معرض سورية أرض الحضارات - منشورات وزارة الثقافة - المديرية العامة للآثار والمتاحف - ترجمة موسى ديب الخوري ص ٣٢٣-٣٢٦.
- ٢- جاك كوفان ١٩٩٩م: الألوهية والزراعة، منشورات وزارة الثقافة، ترجمة موسى ديب الخوري.
- ٣- المرجع السابق.
- ٤- انطوان سليمان- مارك لوبو: تل كشكشوك (الحسكة) - منشورات وزارة الثقافة.
- ٥- هريبرت نير ٢٠٠٩م: تعدد المعتقدات والأديان في سورية، كتالوج معرض كنوز قطنة، توبنغن، ص ٧٥.
- ٦- بسام جاموس- دانييل ستوردور ١٩٩٤- ١٩٩٩م: نتائج تقارير الحفريات الأثرية في تل أسود (غوطة دمشق) محفوظة في مديرية التتقيب- المديرية العامة للآثار والمتاحف.
- ٧- بيتر فلزنز ٢٠٠٩م: تقديس الأجداد في سورية، كتالوج كنوز قطنة، ص ٨٥.
- ٨- أحمد سعيد ٢٠٠٠م: عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في عصور ما قبل التاريخ، الملتقى الثالث لجمعية الآثاريين العرب (١٢-١٣ تشرين الثاني ٢٠٠٠م).
- ٩- سلطان محيسن- تاكيرواكازوا ١٩٩٠-٢٠٠٠م: نتائج تقارير البعثة المشتركة حول كهف الديدرية- محفوظة لدى مديرية التتقيب- المديرية العامة للآثار والمتاحف.
- ١٠- فزعل الاجدي ١٩٩٧م: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص ٣٩.
- ١١- أندريه لورا واجورن ١٩٩٧م: أديان ما قبل التاريخ، ترجمة سعاد حرب- بيروت، ص ٤٨-٥٠.
- ١٢- ج.هـ. برستد ١٩٦١م: تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس- القاهرة. ص ٨٥-٨٦.
- ١٣- أحمد سعيد ٢٠٠٠م: عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في عصور ما قبل التاريخ (مرجع سابق) ص ٦.
- ١٤- سلطان محيسن ١٩٩٩م: حلب في عصور ما قبل التاريخ، الحوليات الأثرية العربية السورية- المجلد ٤٣ ص ٤٩-٧٠.
- ١٥- جاك كوفان ١٩٨٨م: ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن دمشق.
- ١٦- أحمد سعيد ٢٠٠٠م: المرجع السابق، ص ٢٤.
- ١٧- غلن ريم ٢٠٠٩م: تصوير الآلهة في سورية، كتالوج معرض كنوز قطنة- توبنغن ص: ٨٩-٩٣.
- ١٨- المرجع السابق- ص ٨٧.
- ١٩- هريبرت نير ٢٠٠٩م: تعدد المعتقدات- الأديان في سورية، كتالوج معرض كنوز قطنة توبنغن، ص ٧٦.
- ٢٠- المرجع السابق- ص ٧٧.
- ٢١- بيتر فلزنز ٢٠٠٩م: مقر الحكام الأموات- المدفن الملكي، كتالوج معرض كنوز قطنة توبنغن، ص ٢٠١.
- ٢٢- المرجع السابق- ص ٢٠٧.
- ٢٣- عدنان البني، خالد الأسعد ١٩٩٦م: تدمير تاريخياً وأثرياً- منشورات وزارة الثقافة- دمشق.





إلى ثانوية المأمون بحلب



سليمان العيسى

«أمضى فيها زهرة العمر
مدرساً للغة والأدب من
١٩٤٧-١٩٥٨ م.»

إذا انتهيت إلى «غبراء»^(٣) مُشرقة
بالقَهَقَاتِ، ودار الشاي^(٤) واصطخباً
وذاب في «الفرصة»^(٥) الزهراء ما صدحت
به الحناجر حتى قُطِعَتْ نَصَباً^(٦)
فاترك على رشفات الصبح لي قدحاً
مُعْطِراً بحنين العمر مُخْتَضِبا
قَطَعْتُ مثلهمو في الصف حنجرتي
في كل زاوية لما أزل حطبا
يا مُوقِدَ النار.. من أسار جمرتنا
ما تحمل النار حتى تُطعم الحُقباً



إذا تَلَقَّتْكَ عند الصُّبْحِ وشوشة
عَطَشِي وتَعَصَّرُ في أعماقك العنبا
إذا نَنَى لك باب السُّور^(١) ساعده
ورحت تَقْطُفُ من ساحاتها الشُّهبا
وَضَمَّكَ الشَّجَرُ المَطْلُولُ^(٢) وانسكبت
ضوضاء حولك أحلى ما الهوى سكباً
إذا رَمَى بك درب بالصبا عبق
إلى مدارج صليتنا بها لهبا
إلى محاريب قدسنا الضناء بها
ولا أقول الكفاح المر والتعباً

✽ شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

إلا اشتَهيتُ الضجيجَ الحُلُوَّ واللَّعبا
ويذهبُ العمرُ أصداءَ مُجرَّحةٍ
وتستردِّينَ لأجيالٍ ما ذهبَا
خمسٌ وسبعون..^(٧) لي في صرحها حجرٌ
غَنَى، وحفنةُ نورٍ من دمي شربا
جسْرٌ.. ويركضُ تاريخٌ برُمتهِ
على الرُّواقِ، وتمضي أمةٌ خَبِبا



يا حاملاً ظمأَ الصحراءِ في شَفَتي
نسيتُ في العَتماتِ الرِّيَّ والسَّغْبَا^(٨)
نسيتُ طَعَمَ المساءِ الحُلُوِّ في حَدَقِي
نسيتُ في التَّيه لَوْنَ الكأسِ والحَبِبا
تَقِيلُ الصَّخَرُ وارْشُفْ نَسْمَةً بَرَدَتِ
على رُبَاها عرفتُ الشعرَ والعَرَبَا
تباركتُ صخرةٌ بيضاءُ يابسةٌ
تُعْطِي العباقرَ.. سَمَهاها الهوى: حَلَبَا

رَفَرِقْ على الحُجُرَاتِ السمرِ أغنيتي
لحني على الحُجُرَاتِ السمرِ ما غَرَبَا
يُضِيءُ جيلٌ وراءَ الجيلِ ملءَ دمي
فيها ونُسُكرُ حتى الشعرِ والقَصَبَا
أيُّ الطيُوفِ التي نامتِ ساوَقَظُها
وأيُّ جدوةٍ حبَّ تَأْكُلُ العَصَبَا
لم يتركِ الجرحُ بعدَ الجرحِ من وَتَري
إلا رَماداً على الصحراءِ مغتربا

رُدِّي إِلَيَّ -وَحَسْبِي ذاك- فَهَقَّهَتِي
مَعَ الرُّفَاقِ، وانجيلي الذي صُلِبا
يا واحةَ العمرِ.. أحلى العمرِ أَزْهَقُهُ
لكلِ لوحٍ عتيقٍ فيكَ قد وَهَبَا



دعي غُبارَكَ في عيني، وفي رثتي
أُمُّهُ في الحنايا كلما هَرَبَا
ما مرَّتِ الباحةُ السمرَاءُ في حُلُمِي

الهوامش

- ١- سور المدرسة.
- ٢- المَطْلُول: المندَّى بالطل.
- ٣- إشارة إلى غرفة المدرسين.
- ٤- كأس الشاي التي كان المدرسون يرمطون بها حناجرهم بعد الدرس.
- ٥- الفرصة القصيرة بين الحصص الدراسية.
- ٦- النَّصَب: التعب.
- ٧- أُلْقِيتِ القصيدة في ذكرى مرور خمس وسبعين سنة على تأسيس «ثانوية المأمون».
- ٨- السَّغْب: الجوع.



التروبادور الشرقي (الشاعر الجوال)



د. شاكر مطلق

مثل قُطعانِ الوعول
نَجولُ في ليلِ الخِصابِ
بدون خوفٍ أو تعبٍ
وبدون قيثارِ الذَّهبِ..

جأب المغني في الجهاتِ
ولم يجدْ إلا قصوراً
فارغاتٍ، نائحاتٍ
مثل عيْدانِ القَصْبِ..
راياتنا صارتْ غباراً
كالتراتيل العتيقةِ
في الهزائمِ راكعاتٍ
تحت خيلٍ من خشبٍ..
لن القصائدُ في يدينا

أنا شاعرٌ من دون تاجٍ (*)
دون سيِّدةِ القصورِ
أرتلُ الأشعارَ وحدي
للرياحِ وللقصبِ..

أين الأميرةُ يا رياحُ؟
أين شُرْفَتُها المُضاءةُ؟
فالقوارسُ ينشدونَ
إلى الخريفِ بلا نديمٍ
أو حبيبٍ مُرتَقِبٍ..

زمنُ البراءةِ يَقتَفينَا
يسألُ الفِطريُّ فينا
لنعودُ إلى المراعي

طبيب وشاعر سوري.

والأميرة في السبايا
والمغني دون عود
مثل ثور في غضب؟..

سرب الإوز يمر ليلاً
صارخاً فوق المراعي
قاصداً أفقاً جديداً
بعد أن ملّ البقاء
على مروج من حطب

فلربما تأتيك ليلاً
ربة الشعر العصي
بلا رداء كالخيول
تعيد أمجاد القصيد
وتعيد ذاكرة الطرب..

فعلام تأسرك الأميرة
في دهايز الرغاب
مع القوافي الذابلات
بدون أوتار الغناء
هل صرت عجلاً من ذهب؟..

لوح الوصايا في يديك
فحطم الألواح واكتب

أواه يا شعر العرب
كم مرة جئنا عطاشاً
دون أن تروي العطاش
الظامئين إلى التجلي
في الكشوف أو الحروف

هل أنت نبع قد نضب
أم أننا صرنا قصب؟..

الهوامش

(*) فكرة (البيت) الأول مأخوذة عن شاعر الـ«مينه» الجوال - (تروبادور) «هاينرش فون مورونغن» H.v.Morongen الذي ولد حوالي العام ١١٧٠م وتوفي ما بين (١٢٢٨-١٢٣٠م): (من ترجمتي للمقطع الأول لقصيدة طويلة له، ذات مقاطع ثلاثة- مكتوبة بالألمانية نصف الفصحى- يقول في مطلعها):
أنا قيصر من دون تاج وبلاد





بائع الصحف يكرر النداء

✽

صميم الشريف



(موفق قطان) بائع صحف
جوال، اعتاد أن لا يتأخر على زبائنه
الذين يؤمنون (مقهى البرازيل)
فيحمل إليهم الصحف ويضع أمام
كل زبون صحيفته المفضلة، ثم يعود
إلى الطريق حيث يشترك مع أخيه
في ترتيب الصحف والمجلات على
رصيف المقهى البارز، ويختلس في
الوقت نفسه نظرات سريعة إلى
زحمة الناس المتجمعين حول

عناوين الصحف البارزة وهم
يقرؤونها في بله مقرون بالفضول،
ثم يسعى بخطوات بطيئة نحو
مقهى (الهافانا) وهو يصرخ بملء
فيه:

✽ أديب وباحث موسيقي رحل عن عالمنا في ٢٤/١٢/٢٠١٢، وتحت إلهامه الطاهرة، اخترنا هذه القصة
من مجموعته القصصية (عندما يجمع الأطفال) الصادرة عام ١٩٦٢م.
العمل الفني: الفنانة منى القداد.

وانحدر نحو (شارع فؤاد الأول) منادياً
برتبة اعتادها:

أعظم انقلاب في روسيا -معنا- الجريدة
والحياة.. الأيام اليوم.

ونظر إلى الغيوم السوداء، وتحسس
كوفيته. إن أربعينية الشتاء مازالت في أولها
وردد بحرارة: الله يبعث الخير.. وتوقف في
سيره فجأة، وتناول صحيفة معينة، وأخذ
يبحث بعينين أرقهما النعاس على خبر آخر
غير استقالة الوزارة، وانقلاب روسيا، خبر
يهمه وحده.. ماذا تعنيه استقالة الوزارة، إنها
لا تهمه في شيء.. وعلى كل حال فهو لن يصبح
وزيراً.

لقد قصد إدارة الجريدة خصيصاً، وتوقع
أن يتحقق ما وعده به صاحبها حين أم مكتبه
ليلة أمس، وأراد أن يدفع له مبلغاً من المال
 لقاء نشر الخبر في مكان بارز، ولكن الأستاذ
صاحب الجريدة وهو من زبائنه رفض أن
يتقاضى شيئاً ووعد به بأن ينشر له ما يريد. ومنذ
الصباح بحث عن الخبر حتى عثر عليه في ركن
من الجريدة فلما تقع عليه العين. إن أحداً
من القراء لن ينتبه إليه أبداً.. هو نفسه بائع
للصحف ويفهم في صنعة على قدر الإمكان، لم
يستطع العثور عليه إلا بصعوبة، فكيف بأكثرية
القراء الذين يتصفحون الصحف ويلقون بها؟
وانتابته رغبة شديدة في أن ينادي بملء صوته
على الخبر وحده..

لقد هيا نفسه من أجل ذلك طوال ليلة
أمس، ووقفت نظراته عند الخبر المذكور تابى
تحوّلاً، وأخذ يقرأ على مهل، لقد حفظه

-الرأي العام- الجمهور- استقالة الوزارة
اليوم.. ويخترق الشارع المزدحم ويبيع بعض
الصحف، ويعترضه جاره الحلاق ليستأجر
منه مجلة «الاثني»، ويستوقفه مار ليقراً خبراً
بارزاً اهتم له، ثم ما يلبث حتى يرد الصحيفة
ويتابع سيره وهو يتمتم: كلام الجرائد.. كله
كذب في كذب.

ويدخل مقهى (الهافانا) فيجول فيه جولته
العادية، ويستسلم في أثناء ذلك لمداعبات النادل
عدنان وهو يهمس كلما اقترب من بعض الرواد
برنة مبجوحة: معنا بردي- والرأي العام- يا
اللي تقرأ عن استقالة الوزارة اليوم..

ويتشاجر حين يغدو في الطريق مع بائع
آخر للصحف يزاحمه على زبائن المقهى
فلا يعبأ له ولا يكثر لشتائمه ويلمح عدداً
من طلبة المدارس متعلقين في مؤخرة إحدى
الحافلات فيبتسم في سرور، فهو نفسه يتعلق
مثلهم كلما كانت طريقه بعيدة، ويتلصق قبل أن
يتخذ وجهة معينة ويتناهى إليه صوت أخيه
وهو ينادي بدوره على ما يحمل من الصحف،
فيضيع نداؤه الملحاح بين ضجيج الحافلات
ونفير السيارات، وحُمى الطريق.

إن أخاه طيب من دون شك، وهو رب
العمل، يشتري الصحف والمجلات، وكل أنواع
المطبوعات من المتعهدين ثم يبيعها بدوره
إلى القراء، وهو يقف طوال يومه عند زاوية
الشارع الملاصقة للمقهى لا يغادرها إلا لمأماً.
وعلت شفثيه بسمه حزينة، ونظر إلى يد أخيه
المشولة وهي تتأرجح إلى جانبه ثم همس بينه
وبين نفسه: كله من الله..

والأحلاف العسكرية، يجب أن يعرفوا بأنه يستحق الاهتمام أيضاً.. يستحق الاهتمام لأنه إنسان بسيط وصاحب قضية..

واشتدت رغبته وقويت في المناداة على الخبر الصغير المهمل، وهم أن ينادي، ولكنه توقف قليلاً. إن هذا شيئاً جديداً بالنسبة إليه وللناس، وقد لا يابهون له وتساءل: ترى إلى أي حد يعنيهم الأمر، وهل يعنيهم حقاً؟! مادمت أنا واحداً من الناس فلا بد أن يعنيهم الأمر ولكن لم يعنيهم، هل أنا تشرشل؟

وضحك حين تخيل نفسه بأنه قد ينقلب فجأة إلى تشرشل، ولكنه ما عثم، أن قال لنفسه: يعني تشرشل أحسن مني، على الأقل أنا لست مكروهاً من أحد! من يدري؟!

وعاد إلى التفكير في مشكلته، لقد سبق له أن نادى على عناوين مختلفة الأخبار متنوعة.. نادى على قاتل أخته وعلى اختلاس المليونيرة، لكن لم يسبق له أن جرب المناداة على هذا النوع من الأخبار، وبلع ريقه بصوت مسموع قبل أن يعود إلى قراءة الخبر الصغير مرة أخرى.

-إعلان-

«فقد من السيد موفق قطان مبلغ خمسين ليرة سورية من وجده فليرده إلى إدارة هذه الجريدة وله مكافأة ثمينة».

وضرب الصحيفة بظهر يده، وطواها وردها إلى الجعبة التي تحتوي على الصحف ونظر إلى شاب كان يصفر إعجاباً لجمع من

غيباً.. قرأ عشرات المرات.. وأطرق مفكراً، وهز رأسه عجباً: كيف يهتم الناس بأنباء الوزارة، ولا يهتمون لنبتة، وزفر في قنوط لم ينشره الأستاذ في مكان ظاهر كما وعده، لو فعل ذلك لحلت على الأقل مشكلته أو بالأحرى تساعدت في حلها.. لقد عرض عليه مبلغاً من المال عرض عليه أجرته الأسبوعية كلها التي جلبها من أخيه الناقم عليه.. ولكنه رفض أن يأخذ شيئاً.

وحملق أمامه في شروذ كان هناك متسولان صغيران يحصيان في حذر ما معهما من نقود، والسيارات تتعاقب خلف بعضها في رتل طويل و(أبو سعيد) بائع اليا نصيب ينادي بصوته الجهوري: السحب بعد يومين.. خمسين ألف ليرة.. يانصيب..

ويضحك ساخراً مردداً: خمسين ألف ليرة، إنه يريد فقط خمسين ليرة لا غير وتتحل مشاكله جميعاً ويعود وجه أخيه باسم كما كان..

ووجم برهة، وتوقف قليلاً في سيره بعد أن قطع شوطاً لا بأس به.. كانت الفكرة تتبلور في رأسه وتلفت ينتظر قدوم الحافلة.. إن أجرته الأسبوعية لم تزل معه، سيذهب إلى إحدى الصحف التي تصدر في المساء، وسيطلب منها نشر النبأ، وسيدفع هذه المرة العشر ليرات شاء صاحبها أم أبى، إنه لا يريد أن يخدع ثانية، ولا يريد أن ينشر له بالمجان، سيروي القصة الكاملة، ويجب أن ينشروها له في مكان بارز. إن أحداً لا يفهمه، والناس جميعاً حتى أصحاب الصحف لا يفهمونه، ولا يهتمون إلا باستقالة الوزارة، والمؤامرات الدولية،

أعدو كالمعتوه، وأعترض سبيل كل شخص وأسأل أكثر الناس في الطريق كادت إحدى الحافلات تدهسني.. أم، ليبتها فعلت يا أستاذ، لو حدث ذلك لاسترحمت من العذاب الذي يأكل قلبي.

أتدري بأن هذا المبلغ ليس ملكي أو ملك أخي.. إنه للمتعهد.. إنه ثمن الصحف والمجلات المباعة، كدت أياس، وتدافعت صور الأمكنة التي تنقلت بينها يزحم بعضها بعضاً، فذهبت إلى المسجد لم أنس المقهى، والأرصفة التي قطعتها عشرات المرات من دون جدوى فلم أعثر على شيء..

لو ترى يا سيدي إلى أخي كيف ثار وغضب، لمحت يده المشلولة تضطرب من الحزن وشعرت بأنه يود لو يسحقني ليروي غضبه ولكنه لم يفعل، لم يفعل لأنه طيب، وطيب جداً.. وانتظرت حتى هدا ثم انسحبت لأفتش من جديد في الأمكنة التي سبق لي تفتيشها، وبحثت طويلاً وصدري يعمره الأمل من دون جدوى.

أرجوك يا أستاذ.. أرجوك أن تكتب عندك في الجريدة بأن هذا المبلغ ليس لي، قل للقراء بأنني سأدفع مكافأة لمن يرده، صف لهم بؤسي ودموعي، أرو لهم أن أسرة كبيرة سيزداد بؤسها بسبب ذلك أه نسيت شيئاً هاماً.. هاك.. سأعطيك هذه العشر ليرات لقاء ذلك، أقسم لك بأنها أجرتي الأسبوعية، قل فقط للقراء بأنني سأدفع مكافأة لمن يرد هذا المبلغ يا إلهي أكاد اقنط من كل شيء.

ووقفت الحافلة في تلك اللحظة فقفز منها

الفتيات الجميلات، وهرع نحو خط الحافلة التي كانت تقترب وما كادت تحاذيه حتى تعلق بمؤخرتها واستراح إلى ملمس حديدها البارد، الذي لم يصرفه عن التفكير.

لقد تكلم بالراحة كثيراً.. تكلم أكثر من ساعة، واعتقد أن صاحب الجريدة سينشر القصة التي رواها له بأكملها ولو نشرها على حقيقتها، لحركت أكثر من قلب بالعطف عليه فالبلاد تعج بالطيبين، ولربما أعيد إليه المال المفقود أيضاً.

أما وقد نشر الخبر على تلك الصورة البشعة المجردة من كل شيء إلا من الناحية المادية فإن هذا يجعل النفس تنفر حتى من مجرد الشفقة عليه، هو نفسه لم يحب الخبر، ولا طريقة نشره بحد ذاتها، لقد قال بالراحة لصاحب الجريدة:

- ساعدني يا (بك) فقدت خمسين ليرة.. تصور هذا المبلغ الكبير فقد مني، ضاع.. لأعرف أين.. إنه ليس ملكي.. أقسم على ذلك.. أعطاني إياه أخي لأدفعه إلى المتعهد الذي يستورد من عنده البضاعة.

اتصدق يا أستاذ أن مبلغاً كبيراً كهذا يضيع هكذا مرة واحدة؟! أقسم لك بأنني لأدري كيف فقدته؟! وكل ما أعرفه أنني ذهبت إلى المتعهد. وتفقدت المال لأدفعه إليه، فلم أعثر على شيء..

انتابني وجل مفزع، فتشت جيوبي كلها، لم يكن فيها شيء، أحسست بأنني أستولي على رأسي، ويكاد يفقدني الوعي، وكان لابد لي من العودة فعدت أدرجي بين مكذب ومصدق،

وأسرع في خطواته نحو إدارة الجريدة التي اختارها من بين صحف المساء.. سيروي الآن القصة كاملة، ولكنه سيدفع أولاً أجرة نشر ذلك في مكان ظاهر، ومن ثم سيحكي كيف فقد المبلغ، وعلى كل حال فإن مهمة الصحافة كما يعرف هي خدمة الجمهور قبل كل شيء، فهو واحد من هذا الجمهور، فيجب أن يعيروه بعض الاهتمام.. ووصل في تلك اللحظة إلى إدارة الجريدة، فمكث فيها بعض الوقت، ثم خرج والابتسامة تطفح على وجهه وأخذ ينادي بحماس: معنا الجمهور - الرأي العام - استقالة الوزارة اليوم - أعظم انقلاب في روسيا..

ومرّ الوقت بطيئاً قاتلاً وبدأت الأنوار تتلألأ في الطريق و«موفق» ينتظر بقلق صدور الصحف المسائية الأخيرة، وكانت تبدو عليه إمارات السعادة رغم الألم الذي سببه له ضياع هذا المبلغ وأخذ يحملق في وجه العمال الذين تكدسوا في الحافلات كما تكدس الأسماك في علب السردين، وبدت له وجوه زبائن مقهى (الهافانا) من خلف الزجاج متطاولة كأنها الأبالس، وشع الفرح في عينيه حين ألقى إليه رزمتين من الجريدة التي وعدته بنشر الخبر، فتناول عدداً منها ليقراه قبل أن يحصي الأعداد التي وصلته، ونبهه أخوه إلى رواد السينما الذين خرجوا في تلك اللحظة فلم يابه لذلك.

كانت نظراته تلتهم العناوين بسرعة مخيفة فلم يعثر على شيء ونقب في الصفحة الثانية من دون أن يجد شيئاً، إلا أنه عثر في الثالثة

على الخبر في زاوية مهمة، وكاد يطير صوابه.. لهذا السبب، إذن رفض صاحبها أن يتقاضى شيئاً هو الآخر، وقرأ الخبر مرتين وكان لا يختلف أبداً عما نشرته الصحيفة الأخرى في الصباح وأراد أن يفعل شيئاً هو الآخر، أراد أن يروي قصته لأي كان. لأي إنسان يمكنه أن يفهم الآمه، وهم أن ينادي على الخبر.. ونظر إليه طويلاً، ثم هز رأسه.. إن الخبر لا يستحق الاهتمام.. إن أحداً لا يحس بوجوده.. إنه بائع صحف جوال لا أكثر.. ماذا.. ماذا يهم الناس من أمره؟ أبداً لأشياء.. وغامت الدنيا أمامه، وشعر بحمى الطريق تسري إليه وتضايق من شاب طويل وقف أمام الصحف يحملق ببلادة في العناوين البارزة، وحاول أن يغالب الدموع التي ترقرت في مآقيه، فاخترق زحمة الناس وانطلق صوته فجأة يدوي بكأبة: الصرخة، دمشق المساء، الجريدة بفرنك، استقالة الوزارة اليوم، أعظم انقلاب في روسيا، الجريدة بفرنك معنا الصرخة..

وشرق بدموعه وترك سائق سيارة مسرعة يسبه ويشتمه من دون أن يكثر له وسار بخطوات حثيثة نحو شارع بغداد وأهمل المقهى الذي مرّ بجواره وشعر بالراحة وهو يقتعد الرصيف، واستراح إلى ضوء الشارع وأخذ إلى السكنية فترة من الوقت وأنصت بعمق إلى باعة الصحف وهم يصيحون من بعيد، فنهض بدوره وعاد ينادي برتابة اعتادها: استقالة مالنكوف-أعظم انقلاب في روسيا.. الجريدة بفرنك.. معنا الصرخة..



ومضات من حياة رجل



مظهر الحكيم



كلمة..

ما أكتبه ليس رواية. ولكنها ومضات
مرت بي في حياتي.. قد أجمعها مستقبلاً
وأعطيها حالة تسلسلية. ولكن الآن أقدم
ما يجول في فكري من ومضات مرت بي
وما أذكره بدقة. وأتذكره كلما مرت بي
الأيام أذكره من دون أن أذكر ما قبله أو
بعده أنا صادق في كل ما أكتب.
دعوني أعود بذاكرتي إلى أول ما مرَّ
بي وبذاكرتي من وميض..

أذكر طفلاً لا أدري ما عمره ثلاث
سنوات، أربع، خمس. لا أدري. ولكن أذكر
ذاك الصبي الصغير. بشعره المجعد الأسود.
وكلايته الحريية. ونعله الصغير كان يلعب
في حوش منزله وفجأة سمع أصواتاً غريبة
أصواتاً رجت الأرض منها وفجأة نظر

..الومضة الأولى..

ومضة برزت لذهني لا أدري كيف برزت
ولكن توارد الأفكار تقفز في ذهن الإنسان
من دون تحضير ومن دون استئذان.

✻ فنان وكاتب ومخرج وممثل سوري.

حواله يبحث عن المصدر أذكره. كان يركض بسرعة باتجاه الباب الخارجي للبيت العربي القديم..

سمع هدير دبابات. أفرحه الصوت وركض إلى الباب الخشبي الكبير ذي البابين الكبير.. والصغير لم يلتفت لصراخ أمه لقد لمحت تصرفه واندفاعه.. كانت تنادي خائفة عليه. كان يضحك سعيداً بما سمع ومبهوراً سلفاً بما سيري.. أفلتت من قدمه فردة من نعله. تركها. واستمر يركض. الحوش كبير. من تراب يمتزج لونه بالبرتقالي والأحمر الفاتح.. وممر من الحصى مرصوفة بدقة. لتكون معبراً من الباب إلى غرفة الضيافة.. مناداة والدته مستمر.. وابتسامته وفرحته واندفاعه مستمر. فتح الباب الصغير بعد أن وقف على طرقي أصابع قدميه. وشق الباب وطلّ منه ورأى شيئاً كبيراً ضخماً يمر أمامه.. دهش للوهلة الأولى ما هذا الشيء الضخم.. ولكنه استوعب. ونظر برهبة ودهشة..

إنها دبابة بلونها الزيتي الغامق. وجنازيرها التي كانت تدوس الأرض وتزلزل المكان.. ولكن لم يهمه هذا الزلزال. ولا ضخامة هذا الشيء الذي عرف فيما بعد أنها دبابة لعدو عدو احتلّ بلده الآمن وها هو اليوم يرحل عن بلاده لم يكن يعلم الإنكليز أم

الفرنسيين.. ولكن فيما بعد أدرك أن الجيش الفرنسي كان يرحل عن بلاده.. ومن بلدته التي كان اسمها المزة.. ويمر من أمام داره التي بنيت جدرانها من لبن وطين مطعمة بأحجار كبيرة. وكانت الجدران سميكة وعالية نعم جدران هي سور البيت الذي يعيش فيه.. ولم يعد يسمع صراخ الأم التي تلاشى مع صوت هدير الدبابات.

وقف ينظر.. مندهشاً لما يرى.. وزادت ابتسامته عندما رأى جندياً يطل من فتحة الدبابة من رأسها.. ويشير له وابتسم جمدت عيناه على عيني الجندي لماذا يبتسم له؟ لم يكن يعلم هل هذا عدو أم صديق؟ لكنه يبتسم له.. ومن خلال عينيه الصغيرتين التي لمعت ابتسم وضحك ولوح بيده.. لم يعلم وقتها أن الذي يلوح له كان يستعمر بلاده. ولكنه لوح وضحك وقفز.. هل قفز فرحاً لجلاء الفرنسيين عن بلده أم فرح وضحك وقفز لأن رجلاً أشقر ضخماً على رأسه خوذة خضراء يلوح له من فتحة الدبابة.. وكأنه قريبه. أو صديق والده.

لم يفهم وقتها شيئاً مما يجري.. ابتعدت الدبابة.. واقتربت أخرى.. وقفز ولّو.. لمن يلوح.. لو عرف وقتها لمن يلوح ما كان فعل. ما كان قفز ما كان ضحك. ربما انهمرت لحظتها من عينيّه دمعة ليس حزناً بل فرحاً.. صغير هو على فعل أي شيء.. لم

سابق إنذار.. وفعلًا لم أذكر شيئاً قبلها أو بعدها..

ومرّت الأيام أحاول أن أستعيد بذاكرتي إلى الطفولة. إلى الأيام القاسية التي عشتها مع أسرّتي. والذي الذي كان يعمل ليلاً نهاراً لكسب أجرته. الأجرة التي لم تكن لتسد حاجتنا اليومية أو الشهرية.. حياة مليئة بالمفاجآت..

أذكر أخي الكبير الذي كان يدرس في المدرسة المحسنية. ويحاول أن يساعد والذي بتوزيع بعض الطلبات للجيران ليتقاضى نصف فرنك أو فرنك من أبي ياسين السمان. الذي كان يكن لوالدي كل حب كجار. والجار كما يقال للجار حتى سبعين دار.. ولأنه يشعر بظروف والدي. وضع أخي عنده بعد أن يعود من مدرسته..

ومن زاوية جديدة برزت هذه التومضة التي لم تكن لتخطر على بالي أو في ذهني يوماً من الأيام. ومضة تعود إلى ليلة باردة وشتا قارس..

ليل بارد. غرفة دافئة. بيضاء. هكذا تحب أمي. أن تكون الجدران بيضاء. والفرش أبيض وكل شيء أبيض.. والأبيض يستعمل للكفن. هل تنوي أن نكون في كفنا ونحن أحياء. هل كانت تعني السلام. لأنّ الراية البيضاء هي راية السلام والاستسلام.

يكن يعلم ببراءته وجراته وتحديه لأمه التي لم يلبّ نداءها ويعود إلى الداخل.. لم يكن يعلم أنه كان يلوّح لعدو احتل بلاده، واستغل شعبه. وسلب حرياتهم.. هكذا هم الأطفال.. يولدون أبرياء. بكل ما في الكلمة من معنى لا يعون ما يجري. ويعبرون دائماً بابتسامة بريئة. ابتسامة لا تحمل أي حقد أو كره أو ضغينة والدبابات تبتعد في طريقها إلى الربوة. وبعدها إلى أين لا يعرف..

ولم يذكر إلا يداً جذبتة من الخارج إلى الداخل. وأغلق الباب بقسوة.. لم يذكر إلا يداً انهالت على خده بصفعة قوية. تلاشت ضحكته وابتسامته واندفاعته وصدرت عنه صرخة وبكى.. نعم بكى من قوة الصفعة التي ألمته..

هذا ما أذكره الصفعة والبكاء.. وهدير الدبابات يغطي بكائي وأمي.. ويبتعد..

حاول أن يفهم ما تقوله والدته. صوتها أصبح صدى لا يفهم منه شيء..

واقترب والده. وأخوته.. وقفوا متفرجين.. لا يدرون لم أخوهم الصغير يُضرب ويبعد عن باب البيت. لم يعد يسمع إلا صدى هدير.. هل هو هدير والدته أم هدير الدبابات..

هذه ومضة مرّت بذاكرتي فجأة من دون

ماذا كانت تحب من هذا البياض؟

المدفأة. في زاوية الغرفة تحت النافذة والخطب حولها. ليس خطباً بمعنى الكلمة بل قطعاً من سحاحير قديمة. كنّا نلهمها في النهار من البائعين الذين يدورون حول البيت يحملون الخضار لبيعها في حارتنا.. كان اسمها حارة اليهود.. لم سموها بحارة اليهود. لأنّ اليهود كانوا يسكنون فيها.. وعند النزوح الفلسطيني عن فلسطين. وهروب العائلات من فلسطين ومجيئهم إلى دمشق. سكنوا في هذه البيوت التي تركها أصحابها اليهود وهاجروا إلى أرض الميعاد..

وكنا نسكن في هذا البيت وكونه كان أصلاً لعائلة يهودية. فرض علينا أن نفرغ غرفاً للعائلات التي نزحت من فلسطين.. كي يقطنوا فيها.. ريثما تجد لهم الحكومة المكان اللازم لهم. وكأطفال كنا نلعب معاً في النهار. وكانت أجمل غرفة غرفتنا.

وفي تلك الليلة. غصوت بجانب المدفأة وأخذ مني النوم مأخذاً ممتعاً. ولكن يبدو أنني تعرضت للبرد في الليل وصحوت وتسليت بهدوء وفتحت الباب. وكأي طفل. لم أجد الشجاعة للوصول إلى الحمام.. وفرت على نفسي الوصول للحمام الذي كان في نهاية فسحة الدار. والظلام يثير الكثير من الخوف في داخل أي طفل.. واقتربت من

حافة البحرة التي تتوسط الدار. ونظرت حولي.

وبوّلت.. نعم بوّلت وارتحت ولملمت بنطال البيجاما.. وعدت إلى غرفتنا ونمت.. نعم نمت.. هذا كل ما أذكره عن تلك الليلة الباردة.. وحاولت أن أبحث في ثنايا ذاكرتي عمّا حدث بالتفصيل الممل ولكن للأسف.. الشيء الغريب العجيب. أنني صحوت على صوت والدتي. والجارة القادمة من فلسطين التي تسكن مع زوجها وأولادها الغرفة المجاورة لنا.. الباب ملتصق بالباب واللون واحد ما أزال أذكره بني غامق ومن مكاني سمعت الصراخ.. كان الصراخ القادم من فسحة الدار. كان صراخ جارتنا ومن ثم صراخ والدتي.

«ابنك حرامي»

- عيب ابني مو حرامي.

- إذا ما كان حرامي. ليش ليدخل إلى غرفتنا في منتصف الليل.

- وليش ليدخل إلى غرفتك..

- يريد أن يسرق عرائيس الذرة..

رنت الكلمة في أذني. رنين الصدى المرعب..

فعلاً كان جارنا يعمل في بيع عرائيس الذرة المسلوقة..

زوجته وأولاده يقشرون العرائيس في الغرفة ويحضرونها للسلق. ويضعونها في

كان ناييم على حاله. وليكه لهلاً ناييم من رعبته

- من رعبته ولا من خوفه..

وسمعت صوت جوزها. جارنا.. جارنا
كان طيب ودائماً عندما يراني بالحارة
يقدم لي عرنوساً..

- خلص يا بنت الحلال. الولد أنا بحبه.
وما في فرق. حتى لو أخذ كم عرنوس أنا
مسامحه..

وأجابت زوجته بود بعض الشيء. مخففة
من حدة صوتها..

- وأنا بحبه. بس ليش ليفوت يسرق..
- لسه بتقول يسرق.

أجابت أمي بشيء من العصبية..
وفعللاً لم أذكر وإلى الآن لا أذكر ما حدث
معي. إلا أنني بولت على حافة البحرة
وعدت إلى غرفتنا ونمت وإلى الآن لا أذكر إلا
الحديث الذي دار بين أمي وجارتنا وجارنا
والحمد لله أن والدي لم يكن موجوداً. كان
يعمل منذ الفجر إلى ما بعد الظهر..

وكان نهاية المطاف في هذه الومضة.
صفعة قوية على وجهي. وبكائي بصمت
وأنا أقول والله ما سرقت شيئاً. ولا دخلت
لعندهم..

الحلة. ويشعلون تحتها «بابور الكاز» الكبير..
وهكذا..

وهو في اليوم التالي يضعها على عربة
صغيرة. ويدور بها في الحارات حول المنطقة
بييعها للأطفال.
وعلا صوت أمي..

- عيب يا جارة. نحن ما ممكن نربي
ولاد تسرق..

- لكن شو فوّت ابنك على الغرفة لعناً
بنصّ الليل.. إذا ما كان منشان يسرق
الذرة.

- بيجوز أخذو النوم. وخربط بالباب
وفات لعندكم..

- ولما عرف حاله غلطان ليش ما رجع؟
ليش عمل حاله ناييم لما حسيت عليه؟

- يا جارة عيب ابني مو خرج سرقة..
وبعدين العرنوس حقه نص فرنك مبخوش
مو محرز..

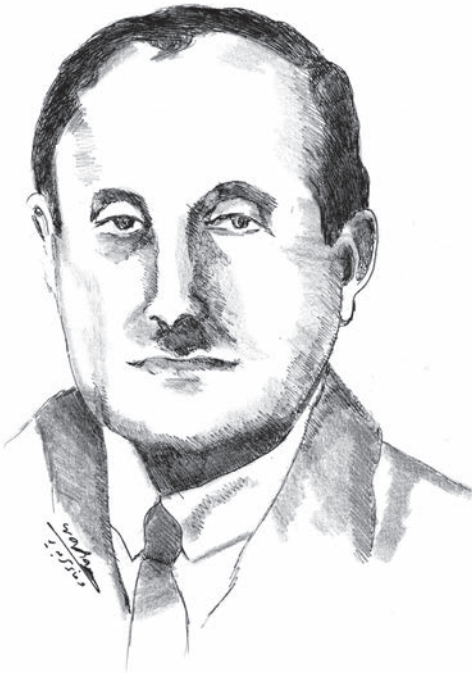
- يعني ما بدك تعترفي..
- أعترف إنو ابني حرامي. لقيتي معو
شي عرنوس مخبيه.. لما ناديتلي وقتلتي
تعي شوي في ابنك..

- قتلتك لما حس علي عمل حاله ناييم..
- يا جارة لما أخذته منك بالليل. فعلاً



الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ١٨٨٠-١٩٤٠م

*
أحمد سعيد هواش



كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر مؤمناً أشد الإيمان بقضية وطنه ساعياً لتحقيق سيادته، وكان رجلاً بأقصى معاني الرجولة، يضاف إلى ذلك علمه الغزير، وكفاءته النادرة، ومقدرته على مخاطبة الجماهير، والسيطرة على قلوبها وعقولها.

ولد عبد الرحمن بن صالح الشهبندر في دمشق - تلقى علومه الابتدائية في مدارس دمشق الحكومية، ثم انتقل إلى بيروت لمتابعة دراسته الإعدادية والثانوية التي حصل منها على شهادته عام

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

١٩٠١م، وفي عام ١٩٠٢م التحق بالجامعة الأمريكية وواصل بعدها دراسة الطب مدة أربعة أعوام، نال على أثرها شهادة الإجازة في الطب بامتياز مما أهله ليكون أستاذاً في الجامعة الأمريكية وطبيباً لطلابها، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) رحل عن دمشق إلى العراق، ثم إلى مصر، فبقي فيها إلى ما بعد انتهاء الحرب، وفي عام (١٩١٩م) عاد إلى سورية ليعمل وزيراً للخارجية في وزارة الرئيس هاشم الأتاسي، ثم تركها إلى مصر بعد احتلال الفرنسيين لها عقب موقعة ميسلون (١٩٢٠م).

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عضواً في جمعية الاتحاد والترقي، وعضواً عاملاً في الحلقة الإصلاحية التي كان يرأسها الشيخ طاهر الجزائري، وقد عرف بمواقفه المناهضة لسياسة الأتراك والفرنسيين في سورية، مما عرضه للملاحقة والتشريد.

يُعد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر واحداً من المجاهدين القوميين الكبار في الوطن العربي والمنظرين للفكر القومي، ومشروع النهضة. اغتيل في عيادته وهو يمارس عمله الإنساني ودفن بدمشق قرب

ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي تكريماً لنضاله القومي.

وقد أقيم للفقيه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر حفل تأبيني كبير جداً على مدرج جامعة دمشق في الثاني من شهر أيلول (١٩٤٠م) أقيمت فيه كلمات رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي وزعيم الثورة السورية الكبرى سلطان الأطرش، وعمر أبو ريشة، وفؤاد الخطيب، وعز الدين التتوخي، والشيخ بهجة البيطار، وغيرهم إضافة لكلمة أسرته ألقاها نجله فيصل الشهبندر ولعل قصيدة الشاعر عمر أبي ريشة تصور الأسى والحزن الذي عمّ الأمة العربية والوطن خير تعبير، إذ قال منها مخاطباً دمشق:

بنت قاسيون أي جرح أواصي في هواك وأي جرح أداري
بنت قاسيون.. أنت.. أنت ستبقين على الدهر قبلة الأنظار
ضمدي، ضمدي الجراح وسيري سيرا لا خائف ولا خوَار
فمن المبكيات أن تقتل الأحرار في ملعب الأحرار
كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر موهبة وعبقريّة فريدة، كتب بالسياسة والعلوم، والأديان، والأدب، والتاريخ، والاجتماع وغيره من أنواع العلوم.. وهو طبيب بارع، وسياسي لامع وخطيب مفوه

الشهبندر: القضايا الاجتماعية الكبرى (تحت عنوان الأعمال الكاملة للدكتور عبد الرحمن الشهبندر في العالم العربي)، فصدر الجزء الأول منه عام ١٩٩٣م، وقد جاءت مقدمة الكتاب للأستاذ محمد كامل الخطيب إذ قال:

(القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي، هو كتاب برنامجي وضعه سياسي مفكر ليقدم من خلاله تصويره للمجتمع الذي يناضل في سبيله أو يدعو إليه، وربما كانت هي المرة الأولى، والوحيدة التي يتقدم فيها سياسي عربي ببرنامج أو تصور فكري لإطار وغاية عمله أو نضاله السياسي ولا نستثني قادة الأحزاب العقائدية أو التقدمية العربية في ذلك)).

وقد أهدى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر كتابه هذا لذكرى الشهداء الذين سقطوا في ميادين الشرف في العالم العربي دفاعاً عن الحرية والاستقلال منذ سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٣٥م.

من فصول الكتاب:

- المدنية المقدمة.

- المرأة والرجل - مصير الأسرة الشرقية

ترك آثاراً أدبية عدة رغم قصر حياته ومشاغله الكثيرة.

وقد قامت وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية - مشكورة - بجمع معظم آثار الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في عدد من المجلدات ليستفيد منها الباحثون ويفيدوا مما فيها من كنوز نادرة.

وكان الفقيه الشهبندر قد نشر مقالات مختلفة في الصحف المصرية أثناء وجوده في المنفى (١٩٢٧-١٩٣٧م) وخاصة في مجلة المقتطف، وقد جمعها في كتب فيما بعد وله:

١- الثورة السورية الوطنية (مذكرات) دمشق، مطبعة الفيحاء، الطبعة الأولى ١٩٣٣م.

٢- سلسلة السجون (ترجمة)، دمشق، مطبعة الترقى ١٩٤٣م.

٣- الرحلة العلمية، بيروت، المطبعة العلمية ١٩٣١م.

٤- القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي، القاهرة، مطبعة المقتطف ١٩٣٦م.

وقد قامت وزارة الثقافة بدمشق بإعادة طباعة الكتاب الأخير من كتب الدكتور

السياسية والدينية والأخلاقية والاقتصادية متى ضاقت أو هرمت أقل إرهاباً وإِضناءً من هذا الثوب أو الغطاء)).

(القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي - وزارة الثقافة- دمشق الجزء الأول ١٩٩٣ ص١٢٨).

وقد نوه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر بمقدمة الكتاب بأهمية المرأة ومكانتها في الدول فقال:

((..ولم نهمل شأن المرأة عندما عرضنا لقضيتها مع الرجل لاعتقادنا أن مسألتها من أمهات مسائلنا التي تتطلب العناية الخاصة، وذلك لأن نصف المجتمع قائم على المرأة سواء عند العرب أم عند غيرهم)).

ومن قراءة هذا الكتاب نرى مدى ما يتمتع به الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من ثقافة واسعة تشمل آثار العقول القديمة والمعاصرة العربية والأجنبية، ونستطيع أن نطلق عليه ابن خلدون العصر الحديث بحق.

هذا إضافة لما نشره الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من مقالات وقصائد في مجلات سورية فقد نشرت له مجلة (القبس) لصاحبها الرئيس محمد كرد علي

- الأسرة الشيوعية - الدولة والحكومة والرعية - بناء الدولة - معرض المذاهب السياسية (أفلاطون - أرسطو) الخلافة الإسلامية - ابن خلدون - في القرون الوسطى، ميكافيلي.. إلخ).

- النهضة التركية الكمالية - أصلح أشكال (الحكم في العالم العربي - حاجتنا إلى التجانس- الوطنية - عوامل التجانس - العوامل المعنوية ووحدة الأمم).

- الزعامة وصفات الزعيم، الثورة.. إلخ.

وعن الثورة يقول:

((إذا ضاق بك ثوبك وأصبح خَلْقاً أَكَلَتْ جَدَّتُهُ الأيام وذهبت برونقه الطبيعة فمزقته وخلعته عن جسدك وألقيته في الأرض فأنت في مشرعة الألبسة تائر، ولك في عالم الحياة الطبيعية أشباه ونظائر، فإن بعض الحشرات تنمو في غطاء قرني قاس إلى أن يضيق بها فتمزقه بانتفاضة فجائية وتخلعه عن بدنها ثم تعود فتفرز غطاء آخر أوسع منه، ولكنها تنمو ثانية في هذا الثوب الجديد حتى يصير ضيقاً فتخلعه كالأول لتكتسي بأوسع منه، وهكذا تتبدل ثوباً من ثوب إلى أن تبلغ رشدك، وليس كابوس الأوضاع الاجتماعية

عدداً من القصائد منها: ماهية الحياة
(ج ١) ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) وتحية حبيب (ج ٦)
١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، والطيران عند العرب
- مجلة الرابطة الأدبية - جمعية الرابطة
الأدبية - دمشق (ج ٤-س ١) ١٩٢٦م.
وإذا ما ألقينا نظرة على شعره فتقول:
(ما أتيح من شعره قليل، قصيدة واحدة
في الغزل العفيف يعاني شدة الوجد، وتمنع
الحبيب، ويسعى للوصال، ومقطوعة قصيرة
في الفخر بسبق العرب وريادتهم على سواهم
من الغرب مذكراً في ذلك بفكرة عباس بن
فرناس عن الطيران، ويبدو أن الشعر لم يكن
يغلب عليه، تتسم لغته باليسر مع رقة في
العبارة ونشاط في الخيال)).
(معجم البابطين لشعراء العربية في
القرنين التاسع عشر والعشرين مج ١).
وهذه بعض نماذج من شعره:

تحية حبيب

حيّ بلادَ الشمالِ خلاقَ تلك المناظرِ
ياميُّ أين العهدُ؟
هلاً ولاك يعوّدُ
قد طال منك الصدودُ
إني أسير الغرامَ صريع لطف الحرائرِ

بالله رقيّ لضعفي
يا خير محبوب يشفي
سقامَ مضنى بطرف
يخاف وقع النبالِ ممن تفوق الجاذرُ
إن جال يوماً بفكركُ
خيالُ مضنى بذكركُ
أسقيه من مسك سُوركُ
نفسي أنت في خيالي زارت وعقلك ناكِرُ
إن كنت تمشين صباحاً
بالروض والزهر أوحى
إليك معنى ونفحاً
فذا شعوري وحالي بدا بزيّ الأزاهرِ
كم بت أبكي لبعدي!
وما البكاء ليحدي
وكلما هاج وجدي
من لطف أهل الدلالِ خشيت فضح السرائرُ
كنّا وكان اللقاءُ
والشام فيها الداءُ
حتى دهانا القضاءُ
أيامَ صفو الليالي بالبين والكل ناكِرُ
لكنّ بعد الحبانُ
يهيج ما في الترابُ
فالقلب يغدو يخاطبُ

- نحن عرب قبل أن نكون سوريين.
- أما إذا مات الشهبندر أو قتل في
ميادين الشرف، ففي الأمة شهبندريون.
أما عن موهبته الخطابية فقد ذكر
الأستاذ ظاهر القاسمي، وهو يتحدث عن
خطب الشهبندر التي كان يلقيها في حفلات
تكريمه، إثر عودته من مصر:
(. . . وتتابع الحفلات للزعيم، وأخذ
يلقي في كل يوم خطاباً، أو خطاباً جديدة
الموضوع، جديدة الألفاظ، حسبه وهو
يتحدث، وكأنه يقرأ من كتاب..)).
تلك لمحات عن سير حياة زعيم نهضوي
حمل مآسي أمته وهمومها في قلبه فعرف
الداء والدواء فباشر باستخدام مبعذه
ليداوي الجسد المريض، ولكن يد السوء
والإجرام حولت المبعذ إلى قلبه، وهذا حال
العظماء والمصلحين لشعوبهم في كل زمان.

قلْبَ المحبِّ الموالي على ربوع الخواطر
رودي مهبَّ الجنوب
فيه سلام الحبيب
ولن يخفَّ نحبي
حتى أرى للوصال من الشمال البشائر
الطيران عند العرب
إن يركب الغرب متن الريح مبتدعاً
ما قصرت عن مداه حيلة الناس
فإن للشرق فضل سبق نعرفه
للجوهرى وعباس بن فرناس
قد مهّد سبلاً للناس نسلها
إلى السماء بفضل العلم والباس
من أقوال الشهيد الدكتور عبد الرحمن
الشهبندر:
- إن أعظم مواقف، وأحبها إلي،
وأرضاها عندي، وأبعثها للسكينة في جوانب
نفسى، موقفى للصلاة بين يدي الله.
- رابطة العروبة أقوى من أن تصاب
في موتها وروحها ما دام القرآن الكريم
يجمعها.

المصادر والمراجع

- ١- الأعلام - خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة عشرة - بيروت ١٩٩٩م.
- ٢- القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي ١٩٣٦م، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الأعمال الكاملة، الطبعة الثانية وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩٣م تحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل الخطيب.

٣- معجم البابطين لشعراء العربية في القرن التاسع عشر والعشرين، إعداد هيئة المعجم- المجلد العاشر- الكويت ٢٠٠٨م.

٤- عبقریات وأعلام، عبد الغني العطري- دار البشائر، دمشق- الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٥- عبد الرحمن الشهبندر- حياته وجهاده، حسن الحكيم - الدار المتحدة للنشر- بيروت ١٩٨٥م.



إمبراطورية الكتاب

✻
رحاب محمد

فكري وتبادل الخبرات بين الناس وفقدت البشرية ما يعرف بالموروث الفكري.

إمبراطورية الكتاب

على الرغم من كثرة الإمبراطوريات التي مرّت على هذه الأرض ودولها، عبر العصور الطويلة، إلا أن أيّا منها لم يكتب لها الاستمرارية حتى الآن، ولم تسيطر على بقاع الأرض كافة. أمّا «إمبراطورية الكتاب» فقد امتدت منذ ما قبل الميلاد حتى الآن، وغطت كل دول العالم من دون استثناء. والجدير بالذكر أن ما ينشر سنوياً في العالم على الورق يكفي ليغلف سطح الأرض سبع مرات كاملة.

إنّ الإنتاج الفكري للبشرية الذي تداوله الناس على وسائل خارجية هو وحده الجانب العام من المعرفة الذي أمكن الانتفاع به من خلال حفظه وتداوله في الكتب وأمكن للإنسان أن ينتفع بما وصل إليه أقرانه المعاصرون أو السابقون له بقرون طويلة، أمّا المعرفة الخاصة التي تنشأ في عقل الفرد وتموت بموته من دون أن تنتقل إلى الآخرين فهي صفحة لا تقبل التداول في فكر البشر لأنّها لم تحفظ عبر وسائل التداول المعرفية الخارجية. ولو اقتصرَت معرفة الإنسان على الجانب الخاص لاستحال وجود تفاعل

✻ بامئة سورية.

لقد حاولت كل حضارة من الحضارات القديمة تسجيل المعرفة على وسائل ومواد مختلفة، فقد استخدمت الألواح الطينية وكتب عليها بالمسمارية في بلاد ما بين النهرين قبل آلاف السنين، ثم جاءت لفائف البردي التي من خلالها استطاع المصريون القدماء تسجيل معارفهم، أما الجلود فقد استخدمت للتسجيل أو للكتابة منذ القرن الثالث الميلادي ولكنها كانت غير عملية، ولهذا ظهر الورق الذي اخترعه الصينيون ليحل محل أدوات الكتابة التي كانت شائعة. وفي القرن الخامس عشر لم تعد الكتابة باليد (المخطوطات) كافية لسد حاجة الإنسان من المعرفة، لأنها تحتاج إلى جهود كبيرة وتكاليف باهظة، إضافة إلى أن النسخ اليدوي لا يستطيع إنتاج أعداد كبيرة ومتماثلة من الكتب، ولهذا اخترع الألماني «غوتنبرغ» الطباعة، لتنتشر الكتب بعد ذلك وتصبح واحدة من أهم مصادر المعرفة والمعلومات.

ومع أن كلمة كتاب من أكثر الكلمات شيوعاً بين الناس، إلا أنه ليس لها تعريف محدد ومتفق عليه. ويمكن القول إن الكتاب عبارة عن إنتاج فكري معين مكتوب أو مطبوع على مجموعة من الأوراق، التي تثبت معا لتشكّل وحدة واحدة. وتعرف اليونسكو الكتاب بأنه «مطبوع

غير دوري لا تقل عدد صفحاته عن تسع وأربعين صفحة، عدا صفحة الغلاف وصفحة العنوان». وإذا قلت عدد الصفحات عن ذلك يصبح اسمه «كتيباً». وقد تطور الكتاب عبر العصور المختلفة من حيث الشكل والمضمون والموضوع، كما ساهم في انفجار المعرفة والوصول إلى ثورة المعلومات، التي نعيشها حالياً بعد أن أصبح من أكثر وسائل نقل المعلومات شيوعاً. ويمتاز الكتاب عن غيره من أوعية المعرفة بما يلي:

- قدرته على ضم العالم بكل أبعاده الزمانية والمكانية بين دفتيه.

- رخص ثمنه مقارنة مع غيره من مصادر المعلومات.

- سهولة حمله ونقله وتداوله.

- كونه في متناول اليد، وليس له مواعيد محددة كالتلفاز، ولا يحتاج إلى جهاز لتشغيله، كما هو الحال مع الأقراص المدمجة والمضغوطة وشبكة الإنترنت التي تحتاج إلى قارئ أقراص أو جهاز حاسوب.

- وللكتاب عدة أنواع أو أشكال أهمها:

- الكتب أحادية الموضوع، وهي التي تعالج بشكل أساسي وشامل موضوعاً معيناً من جميع جوانبه.

- الكتب الشاملة أو التجميعية وتحوي بحثاً منفصلة لمؤلف واحد أو لعدد من المؤلفين في موضوع معين.

الزمني، الترتيب الجغرافي، وتضم المراجع الأنواع التالية من الكتب:

- الموسوعات أو دوائر المعارف، سواء أكانت عامة أم خاصة.

- القواميس والمعاجم، سواء أكانت لغوية أم متخصصة.

- الأدلة بكافة أشكالها (أدلة هاتف، أدلة الطرق- الأدلة السياحية.. إلخ).

- الأطالس والخرائط وغيرها من المراجع الجغرافية.

- معاجم التراجم والسير الذاتية وكتب الأعلام.

- المخطوطات والكتب الوطنية، والعامة، والمتخصصة، والتجارية (الببلوغرافيا) وغير ذلك.

- مراجع أخرى، كالكتب الإحصائية والكتب السنوية وغيرها.

وأما بالنسبة لترتيب اللغات التي تنشر فيها الكتب، فتأتي اللغة الإنكليزية في المقدمة، حيث يصدر أكثر من ٦٠٪ من الكتب في العالم باللغة الإنكليزية، ثم تأتي بعدها اللغة الفرنسية، فاللغة الألمانية، فاللغة الإسبانية، فاللغة الروسية، وهذه اللغات الخمس ينشر بها أكثر من ٩٥ ٪ من الكتب في العالم، ويبقى هناك أكثر من ٤٠٠٠ لغة في العالم، ومن بينها اللغة العربية، وتنشر مجتمعة ٥ ٪ مما يصدر في العالم من كتب.

- الكتب الدراسية أو المقررة، وتضم الحقائق الأساسية والنظريات التي استقرت في المجال، وعادة ما توضع هذه الكتب لأغراض التدريس والتعليم.

- الكتب الصادرة عن الهيئات والمنظمات والدوائر الحكومية وغيرها، وتضم معلومات تتصل بأنشطتها وفعاليتها وأنظمتها وقوانينها، وغير ذلك.

- الكتب الدينية المختلفة.

ويتألف الكتاب عادة من مجموعة من الأجزاء وهي: صفحة الغلاف الخارجي، التي تكون مقواة عادة، و صفحة الغلاف الداخلي والمقدمة والإهداء وكلمة الشكر وقائمة المحتويات والفصول أو الأبواب المختلفة للكتاب، ثم قائمة المراجع والكشاف، وأية ملاحق أخرى تضاف إليه.

وتقسم الكتب بشكل عام إلى الكتب القصصية، والكتب غير القصصية (العلمية والأدبية والثقافية)، وكذلك تقسم الكتب إلى الكتب المرجعية (المراجع) والكتب غير المرجعية، ويعرف المرجع بأنه كتاب مطبوع يضم معلومات لا تقرأ من أولها إلى آخرها مرة واحدة، ولكن يرجع إليها عند الحاجة للحصول على معلومة مفيدة مطلوبة، وتتم العملية عادة بسرعة لأن المراجع عادة ما تكون مرتبة وفق نظام معين، كالترتيب الهجائي، أو الترتيب الموضوعي، أو الترتيب

ملك المعرفة

لاشك أن وسائل حفظ المعرفة قديمة قدم المعرفة ذاتها منذ أن أدرك الإنسان البدائي أن عقله على سعته لا يصلح لتخزين المعارف والتجارب بعد الموت، مما يجعله يبحث عن وسائل مثالية لاختزان المعرفة وتبادلها وحفظها ونقلها للأجيال القادمة. ومنذ أن عرف الإنسان الورق كوسيلة للكتابة حسم صراع الوسائط لصالح الكتاب المقروء، فأصبح هذا الكتاب حامي حمى المعرفة وحافظ سرها الأمين. وازداد سلطان الكتاب بقوة باختراع الكتابة (غوتنبرغ عام ١٤٧٥م)، وبقي الكتاب وسيلة اختزان المعارف وحفظها طيلة هذه القرون المتطاولة من عمر البشرية.

والذي يبدو أنه مثلما الأيام دول متعاقبة، فإن الوسائط أيضاً دول تحكمها سنن التغير والتدافع والمجتمعات، فها نحن نعيش سنوات القرن الواحد والعشرين وقد ظهرت وسائل جديدة كإفراز منطقي للتقدم العلمي الهائل في مجال تقنية المعرفة والاتصالات وتبادل المعلومات.

لقد اعتبر الورق لحظة اكتشافه نقلة نوعية في عالم الوسائط فضحت عيوب البردي وارتفعت الأصوات تطالب بترك البردي واستخدام الورق بدلاً منه لتصبح

المكتبات بصفوف الكتب المتراسة عنوان التقدم العلمي والمعرفي.

إن كتاباً واحداً من الورق كان مضمونه يشغل حجرة كاملة من الألواح والحجارة والأكتاف والعساف والخاف من وسائل ما قبل الورق، ويتضح ذلك من حجم المصحف قبل جمعه عندما كان يملأ حجرة في بيت حفصة رضى الله عنها. والكتاب الإلكتروني المعاصر قد يتسع مفهومه ليشمل كل الملفات المقروءة آلياً ويحتوي بين دفتيه مكتبة جامعية كاملة أمكن بالتقنية المعاصرة ضغطها في قرص أو عدة أقراص لا تشغل في حجمها مقدار كتاب عادي واحد.

بين المطبوع والإلكتروني

إن الكتاب المطبوع هو وحدة فكرية تعكس فكر شخص أو أشخاص قاموا بإعدادها وقبولتها ثم دلف هذا الكتاب إلى المطابع ليجد طريقه إلى مستفيد آخر يقرأ الكتاب وكأنه مطبوعة من مؤلف الكتاب وكان الناشر وسيطاً كساعي البريد. وهذا المعنى المتعارف عليه للكتاب ينطبق تماماً على مصطلح جديد أفرزته التقنيات المعاصرة يعرف بـ«الكتاب الإلكتروني»، الذي قد يكون له نظير مطبوع أو يكون إلكتروني الأصل والمنشأ. إن تصاعد التطورات المتسارعة في عالم الاتصالات والمعلومات والإلكترونيات أوجد تصوراً أو اعتقاداً بأن الكتاب المطبوع

الإلكتروني لا يزال في حوزة النخبة الذين يمكنهم الاتصال بشبكة الإنترنت، مما يجعله بعيد المنال عن أيدي عامة القراء.

إنَّ الكتاب الإلكتروني قد يتسع في مفهومه ليشمل كل الملفات المخزونة آلياً والتي يمكن قراءتها، ولكن المقصود هنا هو كون الكتاب ذا أصل مطبوع رأى ناشروه إظهاره بشكل إلكتروني، وكما هو شأن الناس فقد انقسم البشر بين فريقين تمسك أحدهما بالكتاب التقليدي مهماً دور الإلكترونيات في حفظ المعرفة وتداولها، بينما نادى الفريق الثاني بترك الرصيد المعرفي المطبوع وضرورة نسخه وحفظه على الوسائط الإلكترونية، وهذه الدعوى العريضة ترجع إلى أكثر من ستين سنة، فقد نادى بها الغرب عام ١٩٥٠م أحد أساتذة جامعة كاليفورنيا مأخوذاً بالتقدم الهائل في الوسائل السمعية البصرية. وربما يتناسى هذا الفريق أن إلغاء الكتاب الورقي المطبوع وحصر المعرفة بالصورة الإلكترونية إنما إجهاض للذاكرة وقضاء على ما تبقى من العقل البشري الذي سلم نفسه لعالم الأقراص. لقد صمد الورق أمام عواصف متعددة ثارت في وجهه منذ ظهور المصغرات الفلمية وإمكانية تصوير المخطوطات حتى راح بعض الناس إلى القول بإمكانية التخلص من الورق نهائياً، وهذا من المحال أن يحدث لأن الورق موضوع الكتابة رافق

وأدوات ووسائل متعددة أخرى سوف تزول من حياتنا اليومية أو تتلاشى حاجتنا إليه في ظل الإنترنت والكمبيوتر. وقد بدا واضحاً من خلال العزلة والانكماش اللذين تعرض لهما الكتاب المطبوع أمام التفوق الكاسح للفضائيات والتقنيات المتطورة، وأصبح الكتاب الإلكتروني منافساً قوياً للكتاب المطبوع في معارض الكتب في جميع أنحاء العالم.

لقد تجاوزت التقنيات المتطورة آفاق خيالنا فرحنا نلهث خلف مهارات الآخرين وإبداعهم كي نمسك بآخر عربتهم المنطلقة بسرعة في مجال التفوق التقني الذي تجري فيه الدول المتقدمة، ففي كل يوم وربما في كل ساعة يبرز ابتكار علمي جديد يشكل لنا مفاجأة مدهشة لبعدها عن ميدان السباق ومضماره الذي تجري في الدول المتقدمة.

والكتاب الإلكتروني واحد من إنجازات المعلوماتية المتطورة قدمته في عام ٢٠٠٠م شركة «جيمستار» الأمريكية ليحدث انقلاباً في المفاهيم المتعلقة بدور النشر والكتاب التقليدي، فقد فتح الكتاب الإلكتروني عصر القراءة الآلية التي ستسيطر قريباً على كل ساحة المعرفة، لأننا في الطريق لتحويل كتبنا كلها إلى أشرطة إلكترونية. وصحيح أن تكلفة الكتاب الإلكتروني قد تكون مرتفعة إذا ما قيس بالكتاب المطبوع، كما أن الكتاب

وجود الإنسان منذ أن احتاج الإنسان إلى الكتابة والتوثيق في حياته. كما إن هناك علاقة صداقة ومحبة ووثام بين الإنسان والكتاب الورقي وهي علاقة وجدانية، فالعقل البشري يكره الاضطراب ويضيق صدره بالزخم المعلوماتي الذي وصل إلى حد التفجر.

وحقيقة الأمر أن الصراع بين الكتاب الإلكتروني والمطبوع ما هو إلا صورة من الصراع الفلسفي بين القديم والحديث، وبين الأصالة والحداثة، وهو صراع لا يمكن التكهّن بنتائجه في معظم الأحيان لتباين المعايير التي تحدد الفوز والهزيمة ولوجود تغذية راجعة لتغذية الفريقين وتدعم استمرارية الصراع، وحتى هذه اللحظة لم يقل أحد بفوز تيار الحداثة بملامحه وعتاده وأصواته العالية، كما لم يستطع أحد القول أن نعصب أعيننا عن مظاهر التقدم التزاماً بالتقليدية المحضة.

والموقف الحق الذي يحفظ تشتت الجهود في رصدنا لا يجدي رصده هو إمكانية التوافق والتعايش والتصالح بين الطرفين المتخاصمين، فكليهما يخدم المعرفة البشرية في مجاله ولا حاجة بنا لترجيح أحد الجانبين على الآخر. إن حياتنا تشهد عدة صور من التعايش بين متضادات، فلم تلغ العدسات اللاصقة النظارات التقليدية، ولم تلغ المصاعد الكهربائية الأدراج والسلام

التقليدية، إنها بدائل لا يغني وجود أحدها عن الآخر وقد كان أجدادنا يقولون «ما تحتاجه يومياً حافظ عليه دوماً». وهذه بطاقات الصراف الآلي التي نعملها في جيوبنا مع النقود التقليدية دون افتعال صراع بينهما، فالقضية محسومة لصالح كل البدائل ولو أن الكتاب الإلكتروني ما يزال وليداً لم يقطع حبله السري.

إن الكتاب الورقي المطبوع مازال متربعا على عرش الوسائط المعرفية لأنه يعبر بمحتواه عن كل جوانب المعرفة، وهو سهل القراءة قابل للتثقل يملكه الغني والفقير ولا يحتاج إلى أجهزة أخرى للاستفادة من مضمونه، أما الكتب الإلكترونية فما زالت محصورة في بعض القطاعات وفيها بعض الصعوبات في قراءتها وإمكانية نقلها وتبادلها وليست بمتناول عامة الناس، وإن كانت هذه أسرع في الوصول إلى المعلومة ولكن هذا يذهب لذة البحث والتتقيب.

ولذلك من الصعب جداً إلغاء الكتاب التقليدي من حياتنا في المستقبل المنظور، فما يزال هذا الكتاب أهم عناصر الثقافة عند بني البشر، وقد تبين لنا أن ما بشر به بعض المتفائلين في ثمانينيات القرن الماضي من شركات نشر بلا ورق وكتب بلا ورق ومكاتب بلا ورق غير صحيح، فما يزال الكتاب المطبوع متربعا على عرش مملكة المعرفة.

النساء يسمعن نداء راوية قصة

ترجمة: أحمد العمري



شهرزاد وشهريار

إنها شهرزاد المرأة التي أبدعها الخيال والقاصة المدهشة والمثال الذي لا ينسى من العالم العربي والشرق الأوسط، والصورة القوية الجديدة والرمز المدافع عن حقوق المرأة، والأنموذج لدور محرض ألهمت من خلاله النساء الباحثات عن مكانة أقوى لهن في مجتمعهن من دون أن يتخلين عن معتقداتهن أو ثقافتهن. وهي أيضاً بطلة خيالية تمكنت من تغيير وإعادة تشكيل مملكة وسُلطان المملكة بالكلام ومن دون عنف. وقد أثّرت هذه الشخصية الأدبية العامة في عدد وافر من النساء في الشرق

ترجم من سورية.

العمل الفني: الفنانة منى القداد.

الأوسط ومن شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا فاستجبن لهذه الظاهرة بامتنان.

كما أظهرت هذه الحسنة للعيان أن لا حاجة للنسوة أن يعتقن سمات وثقافات الغرب كي يوسعن حقوقهن ويبسطن أدوارهن في مجتمعاتهن وأن التاريخ الديني والأدبي يمكن أن يقدم لهن أكثر الأدوار تأثيراً لمواجهة المتشددین والمتعصبين وأولئك الذين يبغسونهم حقهن.

ارونا قصة أو تعدي

تتحلى ألف ليلة وليلة (أو ألف طريقة وطريقة للإبقاء على حياتك) بكل الأمور التي ينبغي أن تتحلى بها كل قصة مثل الوصال والموت والخيانة والانتقام والسحر والفكاهة والدفع والدهاء والمفاجأة والنهاية السعيدة.

وعلى الرغم من أنها ضد النساء إلا أن شهرزاد راوية تلك الحكايات أذكى وأقوى بطلة في كل الأدب العالمي. فقد انتصرت في النهاية لحنكتها ورباطة جأشها ومعرفتها الواسعة وأخبارها المثيرة فسحرت بكل ذلك عقول الناس وسبت قلوبهم.

ويروي لنا الكتاب قصة الملك (شهریار) الذي خانته زوجته في ليلة مظلمة فيقرر أن يتزوج صبية كل ليلة وأن يعدمها في صباح اليوم التالي... إلى أن جاء دور شهرزاد ابنة

الوزير التي صرفت انتباه الملك وأذهلته بقصصها التي تستمر حتى الفجر وهو الوقت الذي يتوجب على شهریار أن ينهض فيه وينصرف لرعاية شؤون ملكه. ولكن فضوله يثار ورغبته في معرفة الخاتمة تتعاظم لذلك يضطر أن يؤجل إعدام شهرزاد حتى يسمع منها نتيجة سلسلة من أحداث ومكائد متعاقبة لا تنتهي فتتقذ بذلك حياتها وحياة أخريات.. إلى أن عشقها فتزوجها فأنجبت له ثلاثة أطفال.

وشهرزاد مختلفة عن سندريلا ومثيلائها اللواتي كن ينتظرن أن يأتي فارس مرتدياً درعه اللامع كي ينقذهن. لذلك وُصفت شهرزاد بأنها أذكى بطلات النساء. والقصة أي قصة جزء من الطبيعة البشرية شأنها شأن التنفس والدورة الدموية في الجسم.

بيد أن أدباء هذا العصر يحاولون تجاهلها والتخلص منها ويعتبرونها من ناحية عامة خفيضة المستوى ويفضلون أن يكتبوا عن الأمور التي يحس بها المرء ويدركها. ويبدو أنهم لا يلاحظون أن القصة جزء من الجسم الإنساني ولا يمكن التخلص منه. والحياة تشبه العيش في سجن يؤخذ منه كل يوم أحد السجناء كي يُعدم. ونحن جميعاً مثلنا مثل شهرزاد معرضون للموت في أي لحظة. وحياتنا عبارة عن قصة لها بداية

ونهاية. غير أنَّ شهرزاد أبرزت ما هو مدهش ولم تتطرق إلى ما هو اعتيادي وأبرزت ثمار الخيال وتفاعلات المنطق المضجر.

ألف ليلة وليلة (أو ليالي العرب كما تُدعى في أوروبة) Nights Arabian من أشهر قصص الدنيا ولها أصل عربي وآسيوي وباتت جزءاً لا يُفك أو يُحل أو ينفصم عن إرث الثقافة الغربية. فحكايات الأميرة شهرزاد وعلاء الدين والفانوس السحري والسندباد البحري وعلي بابا.. قد ترسخت في الخيال والإبداع الغربي. إذ تروي لنا هذه الحكايات قصصاً عن أساطير وروايات وحوريات وحب شريف ومغامرات فروسية ونوادير مبنية على تقاليد شعبية فيها أفكار وكلام على أسنة الحيوانات، وجميعها ذات صلة بمناطق جغرافية متنوعة وفترات تاريخية مختلفة.

وعندما وصلت القصص إلى الجمهور الغربي أصبحت من أبرز مؤلفات الأدب العالمي ووراء فيض من المحاكاة والتقليد والتعديل والتغيير ومجل إجلال وتقدير من قبل كتّاب أوروبة أمثال:

(غوتيه Goethe) الألماني (وورد سوورث Wordsworth) الإنكليزي. ورسامين مثل (دوريه Dore) الفرنسي (وكورسكوف Korsakov) الموسيقار

الروسي وحتى في أفلام هوليود السينمائية. ومنذُ القرن العشرين كان هذا العمل الفني موضع ثناء وعناية وترحيب من قبل الكثيرين وقد أجمع المثقفون في ثنائهم على الطريقة التي تجاوز بها هذا العمل الحدود الثقافية واخترق التخوم اللغوية وسما فوقها.

تطرح ألف ليلة وليلة عدة مسائل رئيسية ذات صلة بحياة الإنسان وخبراته المتعلقة بالحب والفناء والسعادة والقدر والخلود وفق أسلوب يثير العجب والإعجاب ويضاهي أي أشكال أدبية. كما تبحث في أمور روحية وكيفية العيش في عالم فيه الخير والشر وتلمح إلى شخصيات متنوعة مثل سلطان جائر أو حاكم رؤوف أو إلى سحرة أو إلى مشعوذات أو عفاريت خيرة أو شريرة. وتُعنَى القصص أيضاً بالعلاقات بين الجنسين والرغبات البشرية المتعذر تجنبها والتماس الكمال والتعذيب الروحي. وتقدم لنا شهرزاد على نحو مباشر قصصاً مهمة عن السلطة والعلاقة بين الرجل والمرأة والعدالة والتسامح، وقدرة فنية تعيد من خلالها صناعة أفكار أخلت بتقدير المرأة ومركزها.

وتقدم لنا ألف ليلة وليلة عدداً كبيراً من المقالات والمواضيع، وتبرز مفهوم السلطة في كل مكان من الكتاب، وتلقي ضوءاً قوياً على سلطة الحكّام الرهيبة الذين في يدهم

نفوذٌ مطلق وعلى آثار هذا التحكم، وتركز على قوة النساء مع العلم أنَّ العديد منهن من الرقيق أو المحظيات وعليهن أن يسمعن ويطلعن من يملكن وعلى الرغم من ذلك يُبدن مقاومة لا تصدق للتغلب على محتتهن وحظهن العاثر. وشهرزاد أشهر مثال على ذلك. ويسبرُ الكتاب أيضاً مسائل العدالة والتسامح ويُهزم الشر في النهاية فالملك يتفهم قبيل الخاتمة المعنى الحقيقي للإنصاف والصفح والإنسانية بعد أن جمّلت زوجته هذه المسائل وزينتها له.

موقف نقدي

إنَّ ألف ليلة وليلة جزء له شأنه من الثقافة الشعبية في العالم العربي والشرق الأوسط وإنَّ تاريخها الطويل وانتشارها دليل على جاذبيتها الباقية حتى الآن. وإذا كانت جزءاً لا يتجزأ من المشهد الثقافي في هذه المنطقة، فإنها لم تنعم دائماً بمنزلة الفن الرفيع. فعندما انتشرت في العالم الغربي في بداية القرن الثامن عشر لم يتقبلها النقاد بقبول حسن وقالوا إنها تسلية أو أفضل من التسلية بمقدار قليل ولا تتسم إلا بمقدار ضئيل من الميزات الأدبية. ورأى فيها مثقفون عرب أنها مجرد أدب شعبي وغير جديرة أن تصنف بين آثار الأدب العربي الكلاسيكي.

ولكن على الرغم من كل ما قيل استقبلها العديد من مثقفي وشعراء الغرب استقبالاً حسناً وخاصة في الفترة الرومنسية.

وفي القرن العشرين بدأت ألف ليلة وليلة تلفت انتباهاً نقدياً نظامياً وجدياً. فمع ظهور النقد المنضبط اُكثرت المثقفون بدراساتها ومقارنتها بحقول متنوعة مثل الأنثروبولوجيا (أصل الإنسان وعاداته وتطوره ومعتقداته) وعلم اللغات والفن الأدبي.

ونتيجة لذلك كله أطراها نقادٌ وأثوا عليها ليس كفن سرد القصص والأخبار فقط ولكن أيضاً كعمل فني عميق التفكير ومثير للإعجاب، كما مجّد مثقفون معاصرون وأشادوا بإفراط بقدرة تلك القصص على المخاطبة بصيغة سهلة مسائل عالمية بدءاً من الغرام والسعادة والقضاء والقدر والخلود والموت.

كما لاحظوا أهميتها في الحياة العصرية من خلال الحكمة التي تقدمها للفرد من أجل مقاومة قوى طاغية لا يسبر غورها. وترى تحاليل القرن العشرين النفسية أنها تخاطب العقل الباطن والرغبات المكبوتة وتساعد الفرد على تحويل الدوافع الهدامة إلى خيال غير مؤذٍ وتركز أكثر وأكثر على

تاريخ المخطوطة للقصص وبراعة البيئة الفنية وحسن سردها وتأثيرها على أدب الغرب وثقافته.

ولا تزال قصص ألف ليلة وليلة وأخبارها من بين الأنماط الأدبية المتميزة إلى أبعد الحدود ولا تزال تجذب الصغار والكبار بعد أن تزينت بثمرة من ثمرات الخيال المتراكم للثقافة التي نشأت منها أصلاً وأصبحت فائدة جمالية لشعوب الشرق الأوسط والعالم.

حكايات الحوريات فائقة الرقة

والجمال

في العالم الغربي ومنذ مئات السنين عبارة (كان يا مكان) كانت تأتي في بداية قصة الجنية الحسنة أو العملاق أو الحيوان القزم أو الغول أو الحورية البحرية أو القزم الذي يسكن الكهوف أو يقيم تحت سطح الأرض أو الشخص الخبيث. وهي قصص تجري فيها أحداث خارقة للطبيعة وأعمال سحر وشعوذة. ونشوء هذه الحكايات أو تاريخ انتشارها لا يزال موضوع جدل ومناقشة. أمّا شخصياتها فصفات الفردية غير محدودة وأماكنها غير معروفة. كما ليس لها أسماء في كثير من الأحيان وتدعى فقط بكلمة ملك أو ملكة أو أمير أو مزارع أو فقير أو جنية حسنة أو حورية جميلة. وقد تأخذ

الشخصية شكل طيف أو شبح له قوة خارقة للطبيعة أو شكل جني له هيئة بشر يُعرف بقوى سحرية.

وهناك عشرات الأنماط من المكائد والحكايات القصصية التي تستخدم عدداً من الأفكار والألوان الفلكلورية وبعض التعبيرات الاعتيادية وملاحظات مألوفة كما يمكن أن تكشف عن شخصيات بليدة أو حمقاء كملك قاسٍ أو زوجة عنيفة أو أخت متعجرفة أو عروس بديلة حلت مكان عروس أخرى.

وتتطور المواضيع عبر تعاويز تدفع الشر أو تجلبُ الحظ السعيد أو من خلال تغيير سحري للشكل أو إحياء وإعادة إلى وضع سابق وزيجات وولادات خارقة للطبيعة مثل حكاية "كيوبيد وساكي Cupid and Syche" على الرغم من أن خلفية القصة ومكانها وزمانها مثالية أو خيالية ويمكن أن يقع فيها حدث جبار فإن القصة تتسم باتساق داخلي والعنصر الغريب في تلك المواقف سرعان ما يصبح مقبولاً كما يرى الملاحظ واقعية في عدة جوانب منها. فالخاتمة سعيدة والفضيلة تكافأ.

أمّا القصص على السنة الحيوانات فإنها تلمح إلى حسن السلوك والأخلاق. والشخصيات عادةً ما تكون حيوانات تتكلم مع الاحتفاظ بالميزات الحيوانية. وغالباً ما

تُذيل المناقب الأخلاقية بمثل يُحتذى. هو سبب قولنا الشائع «عنب حامض»؟ وإذا
وقد تجيب تلك الحكايات عن بعض ابتدأت القصة بعبارة (كان يا مكان في قديم
الأسئلة مثل: لماذا يشتهر الشعب بالخبيث الزمان وسالف العصور والأزمان) فقد
والدهاء؟ والأسد بالهيبة والوقار؟ ولماذا اختتمت بعبارة سعيدة (وعاشوا في ثبات
الغراب مصبوغ باللون الأسود الفاحم؟ وما ونبات وخلفوا باقة من الأولاد والبنات).

المراجع

- 1- The Reader's Companion To World Literature
- 2- Narrate Or Die By A. S. Byatt
- 3- Women Hear The Call Of A Storyteller
- 4- Fairy Tales



الكتابة للأطفال.. الأهداف والتقنيات

د. حسين فاضل



الأمة الحكيمة هي التي تنظر إلى أطفالها نظرة يملؤها الرجاء والاهتمام والعناية بتثقيفهم وتحسين سلوكهم وتسعى لتوجيههم التوجيه الحسن حتى تضمن لنفسها حياة حرة كريمة ومستقبلاً سعيداً. فهذا المستقبل قد يكون سيئاً ومدمراً وقاضياً على ما تبقى من الأمة وأصولها وجوهرها إذا تركت فيه براعم الأمة من دون توجيه فبدلاً من أن تفتح أو تتفتح زهوراً وتعقد ثماراً ناضجة، تذبل هذه البراعم لتحل محلها أشواك

✽ أديب وناقد.

العمل الفني: الفنانة ولاء كريد.

جارحة قاتلة. إن كل المهتمين بالأطفال اليوم وتوجيههم ودورهم في صياغة المستقبل الإيجابي الفاعل يدركون أثر التوجيه السليم الذي يقدم لهم، وهذا التوجيه له جوانب متعددة تكون الكتابة للأطفال جزءاً مهماً وأساسياً منه لما يترتب على هذه الكتابة من آثار كثيرة ساحيط ببعض جوانبها، فمثلاً:

١- إيصال المعارف والثقافات والعلوم إلى الأطفال: لأن إثارة مشاعر السمو والرقى النفسي والأدبي لديهم يعني هؤلاء الأطفال بشكل كبير، ولما كان هؤلاء شريحة مهمة من شرائح المجتمع فإنَّ إغناء الأطفال وزيادة قدراتهم وخبراتهم ومعارفهم إنما هو في حقيقته إغناء للأمة حاضراً ومستقبلاً واستمرار لمستقبلها وتيارها الثقافي من دون انقطاع حيث تركز أو يركز الحاضر على الماضي وينجر للمستقبل، فلا تحس الأمة بأي غربة ثقافية وتبقى متمسكة بأصولها وجذورها، وتبقى لها أصالتها التي تحفظ لها وجودها، الأمة التي تفقد أصالتها أو تنظر إلى ماضيها نظرة الامتهان ستجد نفسها بناء من دون أساس وهي معرضة للانحراف أو الانهيار في كل لحظة، وأعداء الثقافة العربية يدركون هذا الأمر أشد الإدراك فترى اهتمامهم منصباً على الإساءة

لماضي هذه الأمة، بل إنهم يحاولون دفع الناشئة للتبرؤ من ماضيهم والاحتقار له، والنظر بعين التقدير والاحترام إلى الثقافات الغربية الوافدة حتى تتم عملية التغريب الفكري في العالم العربي ككل، وتضمحل أو تذوب الشخصية الذاتية التي هي الحاجز الأول في وجه الإذابة والسيطرة.

٢- الكتابة للأطفال إغناء لمعارفهم وزيادة لثقافتهم: إن الكتابة للأطفال ودفعهم إلى القراءة والاطلاع هي إغناء لثقافتهم ومعارفهم كما أنها تنشئ الطفل على حب المعرفة والعلم والثقافة وتجعل الأطفال يرتبطون بعناصر الفكر ارتباطاً ذاتياً شخصياً، وحين يصبح الأطفال شباباً، ستجد الأمة نفسها أمة علم وليست أمة جهل وستكون قادرة على بناء مستقبلها السعيد.

٣- العلم والثقافة وحدهما لا يكفيان للأطفال: لا بد أن تكون من أهداف الكتابة توجيه العلم إلى سلوك لدى الأطفال والمعرفة إلى تطبيق، والثقافة إلى حياة فalcضية ليست تنظيراً وحكمة فحسب، بل هي تطبيق وسلوك، حيث يجب أن تكون الكتابة للأطفال متضمنة توجيههم إلى التمثيل بما يقرؤون والتنفيذ لما يعتقدون والتطبيق لما قرؤوا. وحين تعلّم الأمة أطفالها، ستصبح أمة مهذبة نقية ذات سلوك حسن فعليها أن

الصغير، فأصحاب الشخصيات المتكاملة هم الذين يفكرون بطريقة سوية، وهم الذين يبنون بشكل سليم.

وتشكل البيئة الاجتماعية المحيطة بالطفل العامل الأساسي في تحديد أنماط سلوكه وتكوين أفكاره، وفي صياغة نظريته الخاصة للحياة، فتمط السلوك وطريقة التفكير لا يتأتيان بالفطرة، وإنما يتكونان بالاكْتساب، والتعلم بتأثير المحيط. وتمثل «الثقافة الطفلية» أهم الأساليب التربوية التي تستطيع أن تطور أفكار الطفل وتوقظ في أعماقه مكنوناتها الدفينة، وتفجر طاقاتها الكامنة، والثقافة الطفلية اليوم لم تعد مجرد معلومات ومعارف يتلقاها الطفل وكفى، بل تجاوزت تلك المفاهيم لتشمل مختلف الجوانب التي تمس حياة الطفل ليبقى الغاية الأسمى والثمرة المرجوة من كل الأساليب التربوية.

ويشكل أدب الأطفال بدوره الدعامة الأساسية للثقافة الطفلية الشاملة، حيث إن مفهوم الثقافة أعمق وأشمل من مصطلح الأدب، ولتوضيح الفارق بين ثقافة الطفل وأدبه يمكننا القول: إن الثقافة تمثل الإطار الذي يحكم مجمل أشكال العلوم والمعارف والفنون بمختلف أشكالها، الأدبية والتشكيلية والموسيقية، والعادات والقيم والمهارات

تهيئ لأطفالها هذا التوجيه حتى يحفظوا في المستقبل القريب للأمة صفاءها، واستقامتها، واستمرار كمالها.

أهداف الكتابة للأطفال

والطفولة باعتبارها أهم المراحل في حياة الإنسان، والفترة ذات الأثر الأكثر تأثيراً في مجمل مسيرة حياته، حيث تتشكل فيها جميع السمات الأساسية للشخصية الإنسانية، وتتحدد معالمها، وكما أن هذا الينبوع الإنساني هو أهم الثروات التي تملكها الشعوب، ومن أسمى الغايات التي تنهض بالمجتمعات إلى التطور والتقدم، كان من الطبيعي أن تحظى بأولى الاهتمامات. ويعرّف علماء الاجتماع الطفولة بأنها المرحلة العمرية الأولى التي يمر بها الإنسان في بواكير وجوده الذاتي والاجتماعي، والتي تحدد سماتها في أنماط من السلوك والميول، وأوجه النشاط المؤسسة على خصوصية في البناء الجسدي والتمثيل اللغوي، وأساليب اللعب والحركة، ووسائل التعبير عن المشاعر والأحاسيس، والحاجات وسبل إشباعها.

ولأن الطفل يعيش في عالمه الخاص به، ويتميز بلغته وبقدراته المختلفة عما يملكه الكبار كان لابد من تهيئة العوامل والأسباب التي تعمل على بناء الشخصية المتكاملة، جسدياً وانفعالياً واجتماعياً، لهذا الكائن

يسمعا أو يشاهدا ويدركها الطفل. ولم يعد ينظر لأدب الأطفال كوسيلة ترفيهية لإشاعة البهجة والمرح فحسب، وإنما بات مؤشراً دقيقاً للاهتمام الحقيقي بالمستقبل بكل أبعاده، ولم تعد أهدافه محصورة بمجرد تسليية وإمتاع الطفل، بل أصبح مساهماً فاعلاً في تقديم الخبرات له، وفي تنمية قدرته على التفكير والتعبير السليمين، وفي زرع بذرة المهارات في نفسه، وغرس القيم التربوية والسلوكية الإيجابية، والمبادئ الإنسانية والقيم الفاضلة، التي لا ترتبط بمكان وزمان لديه، وتسهم في تكوين وجدانه وتنمية الاتجاهات التي تعزز مواجهته للمشكلات الحياتية.

كما أنه يعمل على تنمية شخصية الطفل وتهذيب مكوناتها، وإشباع حاجاته الوجدانية والاجتماعية وإرواء ظمأ الطفولة في نفسه، في إطار بناء الشخصية المتكاملة، الخالية من العقد والقابلة للتطور، والقادرة على التفاعل الإيجابي مع العصر ومتغيراته، ليكون الطفل في النهاية فرداً صالحاً في محيطه، وعنصراً بنّاءً في مجتمعه، ويكون مُعدّاً إعداداً جيداً لينهض بأعبائه، حيث يؤمن هذا الأدب للطفل القصص والحكايات الحافلة بالمشاهد والصور، فتغذي نفسه بالحوارات التي تتضمنها، وتتيح له الفرصة لتذوق رسومها

السلوكية التي يتلقاها الطفل ويكتسبها من محيطه، وتتعدد وسائل إيصالها من الكتاب وحتى شبكة الإنترنت، مروراً بالتلفاز والإذاعة والمتحف والمعرض.. إلخ، أي إنّ هناك وسائل مقروءة ومسموعة ومرئية، تلعب دور الوسيط في نقل ثقافة الطفل وتشمل أيضاً جميع ما يقوم الطفل بتشكيله وإبداعه من ألعاب وقصص وأغاني.

ويعرّف علماء الاجتماع ثقافة الطفل بأنها «خليط مما يرثه من أبويه وأسرته، وما يصله من عادات وتقاليد، وما يكتسبه من معرفة وعلم، وما يتأثر به من فنون وما يمارسه منها، وما يعتقد فيه ويؤمن به وما يوصف به من خلق، وما تتميز به شخصيته من ملامح، وكل ما يسود في مجتمعه من أفكار وآراء وقوانين وما يشيع فيه من ثقافة عامة». إذن تزداد الثقافة عند الطفل كلما استمر في اكتساب المهارات وتلقي المعارف. أمّا أدب الأطفال فهو من الوسائل التربوية التي تعتمد على أشكال معينة، وتهدف لتحقيق غايات محددة، وتتخذ أساليب وقنوات وأشكالاً مختلفة، كالقصة التي تمثل أكثر الأنواع إقبالاً، وذلك لانسجامها مع طبيعة الطفل، وهناك أيضاً الشعر والمسرحية والرواية.. إلخ. ولا بد أن تمتاز عناصر هذه الأنواع الأدبية بالحسية أي أن

خلفيته التاريخية عند الغرب وعند العرب. فالبداية الأولى لهذا الأدب كانت في فرنسا في القرن السابع عشر حيث كانت السبّاقة في إخراج كتب الأطفال فقد ألف بيرو أفاصيص وحكايات الزمن الماضي، وكتب بعده لبرنس دي بومون عدداً كبيراً من القصص، ونشر جان جاك روسو آراءه في تعليم الأطفال، وحدث الشيء نفسه في إنكلترا فظهر كتاب أدب الأطفال في القرن السابع عشر فأنشأ نيوييري مكتبة خاصة بالأطفال وألف توماس داي قصصاً للأطفال وظهر بعدهما ديفو مؤلف قصة روبنسون كروزو، وتتابع قصص الأطفال في إنكلترا وفي غيرها من بلدان أوروبا وروسيا وأمريكا والشرق الأوسط.

وهذا الفن بشكله الأجنبي لم يكن موجوداً في الساحة العربية بل وصل متأخراً بعد الاحتكاك بالأدب الغربية شأنه في ذلك شأن القصة والمسرحية، وتأخر هذا الفن إلى بداية القرن التاسع عشر وظهرت أوّل بادرة مترجمة على يد رفاعة الطهطاوي، وتبعه محمد عثمان جلال وأحمد شوقي والهاواي وكامل الكيلاني وسعيد العريان وظهرت العديد من المجالات وكتب خاصة بالأطفال، فقد كتب أحمد شوقي ديوان شعر للأطفال فيه حكايات عن (الصيد والعصفور)، وعن

الجدابة، كما يتيح الاستمتاع بالقصائد الجميلة، ومشاهدة التمثيليات والمسرحيات، فيرتقي بسلوكه بالمحتوى الهادف، ويسمو بمشاعره بالأسلوب الجميل.

ويعدُّ الكتاب الحاضن الأكبر لمختلف أنواع أدب الأطفال، كالشعر والقصة والمسرحية والمقالة والرواية.. إلخ، والوسيلة المفضلة والأكثر جاذبية للطفل، وصاحب المقدرة الفاعلة في التأثير على مشاعره وسلوكه، ويتيح له الاستمتاع بما يحتويه، وينمي ثروته اللغوية، وبهذا لا يختلف أدب الأطفال عن أدب الكبار في أنواعه وخصائصه، وإنما يكمن الاختلاف في أساليبه وصوره، وفي مضمونه من حيث اللغة والأحداث، وفي أنه يخص الأطفال فحسب، معتمداً على أساليبه الخاصة في مخاطبتهم وإشباع حاجاتهم الأساسية ضمن مراحل النمو التي يمرون بها.

أمّا أهم ما يمكن أن يتناوله هذا الأدب، فيشمل كل ما يتعلق بالطفل ومحيطه وجميع ما قد يثير تفكيره ومشاعره، ويمكن تقديم المادة للطفل ضمن إطار اجتماعي أو علمي أو تاريخي.

تقنيات الكتابة للأطفال

ولكي نتحدث عن تقنيات أدب الطفل ومميزاته لابد من إلقاء نظرة موجزة على

وهناك عددٌ من الكُتّاب السوريين الذين كتبوا في الموضوع مثل سليمان العيسى الذي له مجلدات في القصص والأناشيد والأغاني والمسرحيات، وكذلك زكريا تامر وعادل أبو شنب الذين لهم آراء قيمة حول هذا الفن، فسليمان العيسى يقول: ثم تأتينا قصائد شوقي للأطفال فإذا هو يدق الباب الموصود ويدنو من العالم الذي أهمل حقاً طويلة ويلجّه في كثير من المحبة والألفة، إنَّ له فضل الريادة، وفضل المحاولة الأولى، ولكن المحاولة تظل صلبة وعرة يسودها الجفاف في معظم الأحيان.

لقد كتب شوقي للصغار ولكن بلغة الكبار وتعبيرهم، ولكنه كان الرائد وتمضي الأيام ويأبى شعراؤنا المرموقون أن يترجلوا عن خيولهم الخشبية ليداعبوا طفلاً بأنشودة أو يضعوا على ثغره أغنية، ولا بد من تسليح الأطفال بقيم جديدة منها الكلمة الحلوة والفكرة النبيلة والصورة الجميلة والموسيقى، ويحاول زكريا تامر أن تكون قصصه على مستوى فني يؤهلها لأن تصبح وسيلة تساعد الطفل على حب لغته العربية وتتمّي قدراته على تذوق الأدب الذي يخاطب قلبه وعقله من دون ترفع إسفاف، وحاول عادل أبو شنب كتابة قصص ومسرحيات تحض على التعاون وتقاوم الاتكالية، وكلهم يريدون

(الديك الهندي والدجاج البلدي) و(الثعلب الواعظ) وغيرها فلأحمد شوقي فضل المحاولة الأولى وقد كان رائداً في الكتابة للطفل، غير أنه كما يقول سليمان العيسى أنه كتب للصغار بلغة الكبار ونسيجهم وتركيبهم، أمّا كامل الكيلاني فقد اهتم بالكتابة للطفل في ميدان القصة فأغنى مكتبته بعشرات القصص المؤلفة والمترجمة والمقتبسة من شتى الآداب العالمية، وعني بشكل خاص بتبسيط بعض الكتب العربية للشباب والأطفال الناضجين مثل حي بن يقظان، ورحلة ابن جبير، وبعض قصص (ألف ليلة وليلة)، وعني أيضاً بشخصية (جحا) لارتباطها بعالم الفكاهة، ولم تكن الكتابة عنده عملاً عشوائياً بل كانت تخضع لدراية تامة بمراحل نمو الطفل، فكان يؤلف للطفل الصغير والمتوسط والكبير ووصل إلى درجة من الكمال جعلته مثلاً للذين يكتبون للأطفال من بعده، وقد أخذ هذا الفن ينتزع اعتراف الهيئات العلمية والأدبية وبدأ الكثيرون سلوك طريقه فاهتم به الكثير من الكُتّاب وخبراء التربية لدراسة قواعد تأليفه ورسم مناهجه وبيان أجناسه كما ظهرت العناية بدراسة قاموس الأطفال اللغوي، وحصرت الكلمات التي تناسبهم في مختلف مراحل العمر.

تتراعي مستويات الذكاء المختلفة، والأمر لا يتوقف على كتابة الشعر والقصة للأطفال بل هناك في المجالات يلاحظ تنوع في الموضوعات والأركان وتعدد أساليب التعبير، وهي تنحو منحى تعليمياً وترفيهياً وتحاول إقرار بعض القيم كالأخلاق الحميدة والصدق وعمل الخير والتعاون والعطف على الضعيف وبإمكاننا أن نقف قليلاً مع بعض المجالات المخصصة للطفل والتي تنوع في مواضيعها، فمجلة أسامة للصفوف الابتدائية من المجالات الرائعة، وهي غنية وثرية فيها عدة أركان: القصة القصيرة المشوقة، التعرف على شخصيات تاريخية عربية وعالمية- التعرف على مستحدثات الحضارة- الرسم والتلوين- بريد الأطفال - والتعرف على الأصدقاء- ضحكة وابتسامة- سؤال وجواب- نادي الموهوبين - المسابقة، إلى غير ذلك.

ومن القصص المترجمة سلسلة عالم ديزني العجيب، وتتكون هذه المجموعة من مغامرات وقصص مثيرة، من أبطالها: ميكي وبطوط ودامبو وغيرهم من شخصيات والت ديزني العجيبة، صدر منها: كلوب وثلوب- المطحنة السحرية، روبن هود وعيد ميلاد الأرنب إسكيبي، بندق راعي بقر، ميكي في بلاد الأقزام، وكذلك هو الأمر في مجلة

توظيف الكلمة في خلق مناخات أخلاقية وقيم جديدة تبني الطفل العربي، ولعل الكلمة الماثورة «خاطبوا الناس بما يفهمون» خير ما ندخل به في الحديث عن لغة الطفل التي ينبغي أن تلائم عالمه ودرجة إدراكه ومحيط تخيله ودائرة معرفته، ومن هنا كانت الكتابة للطفل أصعب أنواع الكتابة لما تقتضيه من المعرفة الدقيقة لمعطيات التبليغ حتى يحصل التجاوب، ولعل الكاتب العربي لقصص الطفل يتوقف عند لغة أدب الطفل بسبب الانقسام الذي يعاينه المجتمع بين الفصحى والعامية.

ولابد في قصص الأطفال من عدد معين من الكلمات في الصفحة الواحدة حسب العمر، وتشكيل الكلمات وكتابتها بحروف بارزة حتى يركز عليها الطفل، وتعويد الطفل على خط ألفه في المدرسة يكتب به ويقرأه في المدرسة وفي القصص، وعن طريق تشكيل الكلمات يتعلم الطفل النطق السليم وتتمو ملكته اللغوية، فقد كان من المفروض أن لا تنشر القصص حتى تمر على مصححين لغويين وتمر على لجنة السلامة الفكرية حتى لا تبقى في مرحلة التردّي اللغوي، فالكتابة للطفل تتطلب دراية واسعة وجلداً وصبراً، وإنّها محاولة لرصد الشخصية الإنسانية في مراحل نموها وتطورها وتكاملها، وهي

وما لا يستطيع قوله في الواقع، وهناك بعض القصص الصادرة في لبنان كقصة الحمامة والنملة التي تجسد فكرة الإحسان ورد الجميل مع تشخيص النملة التي اسمها وفاء والحمامة التي اسمها حنان حيث أنقذت الحمامة النملة من الغرق وأنقذت النملة الحمامة من الصياد.

وإذا كنت قد ركزت في حديثي عن القصص على اللغة والخط واللوحات المرسومة والموضوع فهذا عن قصد لأن الإخراج الفني للقصص وجمال الغلاف يجذب الطفل إلى الكتاب، فالغلاف لوحة فنية يحتاج إلى جهد ووقت وإبداع وهو أكثر فائدة للأطفال والأمير نفسه ينطبق على اللوحات الداخلية التي تقوم بمساعدة الطفل على القراءة لأنها تلخص جملة من المعاني عن طريق الخطوط والألوان وهذه ينبغي وضعها إلى جانب الرموز الكتابية وإلا فقدت تأثيرها في الطفل، وأحياناً يطغى التعبير بالرسم على التعبير بالكلمات بحيث تغدو اللوحة العامل الوحيد لفهم القصة وهذا النوع من اللوحات في الكثير من قصصنا مفقودة ومفقود أيضاً المضمون، الذي غالباً ما يكون بعيداً عن واقع الطفل، وصور الغلاف تساعد الطفل على الاحتفاظ بالقصة أو تبادلها أو إهدائها أو شرائها، فليس كل من هب ودب يكتب

سلسلة ثورمان المترجمة، فالغلاف فيه لوحة ناطقة ومعبرة وجذابة ويتخلل قصة ثورمان المغامر الجبار استراحة بين كل اثنتين أو ثلاث صفحات تقدم فيها مثلاً ركن (أضف إلى معلوماتك- اختبارات الذكاء)، الإعلان عن قصص أخرى ومغامرات أكس ما وسبيدرمان مثلاً: كلام من ذهب (حكم)، نادي العلوم، حكايات عربية، كلمات متقاطعة. وهناك سلسلة دونالد ك القصصية المترجمة منها: دونالكسول- سارق البيوتزا- مدينة البط- سباق الكلاب - الأميرة الذهبية.

فالتشخيص هو الأساس في هذه القصص فمثلاً (قصة دونالكسول) الغلاف لوحة معبرة مرسومة بالألوان واللوحات الداخلية كثيرة في أعلى وأسفل الصفحات أو بجوار الكتابة، ويستطيع التلميذ أن يعيد سرد القصة من خلال هذه اللوحات، فهذه القصة تجعل البط بطلاً وتلك تجعل الذئب أو الثعلب أو السلحفاة، وأغلبها تؤكد على أن يكون الأبطال من عالم الحيوان، لأن قصص الأطفال فيها من الرمزية الشيء الكثير، ومشكلاتها كالحرية والوحدة والتعاون تعالج على لسان الحيوان في قصص الأطفال ونادراً ما ترى قصة أبطالها من البشر فهي مناسبة للكاتب يقول ما يشاء،

لئلا يكون ما يكتبه في واد، والأطفال في واد آخر، وعليه أن يعي خطورة دور كل كلمة بل كل حرف يكتبه لهم، لأنَّ الطفل متلقٍ تنهمر عليه الرؤى والقيم كالمنطر لا يستطيع دفعها غالباً، ولا بد أن يخرج ما تشربه عقله ووجدانه عاجلاً أو آجلاً، ومن هنا ندرك صعوبة الكتابة للأطفال ومتعتها.

قصة للأطفال فتكون هزيلة المحتوى بعيدة الموضوع عن واقعه وتطلعاته، ليس فيها ما يجذب به الطفل إليها، وما انصراف الطفل عن قراءتها إلا لهذه الأسباب. وأخيراً، على من يتصدى للكتابة للأطفال أن يطلع على مقومات شخصية الطفل المعرفية، والوجدانية والسلوكية، قبل أن يكتب لهم لرغبة في نفسه فحسب،



«سيكولوجية» الذاكرة والنسيان



د. فايز حداد

نسيانه، ولولا النسيان لظل الإنسان حبيس أحزانه وهمومه طوال حياته. والذاكرة كغيرها من قوى الإنسان وطبائعه معرضة للمرض والاختلال أو حتى التغير مع مرور الزمن والتقدم بالعمر، سواء عند استرجاع المعلومات القديمة، أو عند تعلم أشياء جديدة تمَّ استرجاعها فيما بعد. والنسيان قد يكون طبيعياً أو طارئاً نتيجة مرض يصيب مخ الإنسان.

أساس التذكر

يعرف التذكر: هو القدرة على استعادة فكرة ما واحدة أو أكثر، والتعلم فيعرف بأنه قدرة الجهاز العصبي على اختزان

تمثل القدرة على حفظ المعلومات واسترجاعها وتذكرها هبة من الله سبحانه وتعالى للإنسان، كما أنها طبيعة من طبائعه الملازمة له طوال حياته. والناس كما هو معروف يتفاوتون في القدرة على التذكر تفاوتاً واسعاً، ومن الناس من يستطيع حفظ الأسماء والمعلومات والأشخاص والأحداث واسترجاع ذلك كله ولو بعد فترة طويلة من الزمن، كما أنَّ منهم من لا يتذكر بعض التفاصيل أو المعلومات ولو لم يمضِ على ذلك إلا فترة قصيرة. وفي مقابل التذكر، فإنَّ النسيان هو كذلك نعمة من نعم الله، وكما يقال إنَّ الإنسان سمي إنساناً لكثرة

✽ كاتب وناقد سوري.

القيام بمهمة الذاكرة الوقتية قصيرة المدى، وأقل قدرة فيما يتعلق بالذاكرة المطولة بعيدة المدى، في حين نجد أن الفص الصدغي له بعض العلاقة بعمليات التذكر، وخاصة تلك المتصلة بتسجيل الأحداث القريبة، إلا أننا لا نعرف بالضبط أي تركيب من الفص الصدغي مرتبط بهذه الظاهرة، وإن كانت معظم الدلائل تشير إلى منطقة فرس البحر في المخ باعتبار أن لها علاقة بذلك، فالفقدان المزدوج في نصفي كرة المخ للمنطقة الصدغية السفلى يجعل من التعلم أو الاحتفاظ المستمر بمعلومات جديدة أمراً غير ممكن في الأغلب، إذ يمكن للشخص أن يتذكر الأصدقاء القدامى والأسماء، إلا أنه لا يستطيع تذكر ما هو حديث. ومن جهة أخرى هناك اعتقاد أيضاً بأن مناطق معينة من الجهاز العصبي المركزي تحتزن آثار الذاكرة بقدر كبير من الصعوبة، فمثلاً اختزان آثار الذاكرة في الحبل الشوكي هو أمر ضئيل بلا شك، الأمر الذي يدعونا إلى القول أن الذاكرة يمكن استقرارها -على الأقل- في بعض المراكز السفلى للمخ.

نماذج الذاكرة

اهتم علماء النفس منذ فترة طويلة بإجراء البحوث المختلفة لمعرفة طبيعة الذاكرة البشرية، ويعد العالم «هرمان أبнгаوس» من أوائل العلماء الذين أجروا

التجارب، وميكائيلز الذاكرة هو ميكائيلز معقد مثل الفكر، فلنرى يحدث التذكر ينبغي على الجهاز العصبي أن يخلق نمط التنبيه المكاني والزمني نفسه في الجهاز العصبي المركزي في وقت لاحق، ومع أننا لا نستطيع تفسير ما هي الذاكرة بالضبط إلا أننا على الأقل نعرف بعض العمليات العصبية الأساسية التي يحتتمل أن تؤدي إلى عملية التذكر. ولابد أن نشير هنا إلى أن هناك نوعين من الذاكرة، إحداهما الذاكرة الوقتية أو قصيرة المدى، والأخرى الذاكرة المطولة أو طويلة المدى، فالنمط الأول للذاكرة يشير إلى تلك الاستشارة المطولة نسبياً للخلايا العصبية، في حين يشير النمط الثاني إلى تلك الآثار العصبية التي تستمر إلى ما لا نهاية.

موضع الذاكرة

الذاكرة هي وظيفة الجهاز العصبي كله وليست من وظائف أجزاء منفردة منه، ومع هذا فإن الدرجات المختلفة من الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى يمكن أن تحدث في مناطق مختلفة من الجهاز العصبي المركزي، وتشير الدراسات السيكلولوجية إلى أن الفص قبل الجبهي ذو أهمية في تنظيم وربط كثير من الحقائق الراهنة، وعلى هذا فمن المحتمل أن يكون هذا الفص قبل الجبهي أكثر قدرة على

وحسب هذا النموذج تتكون الذاكرة من السجل الحسي والذاكرة القصيرة الأمد والذاكرة الطويلة الأمد، حيث يتم استقبال المؤثرات في السجل الحسي عن طريق الحواس، بغض النظر عما إذا كان الشخص مدركاً لهذه المؤثرات أو لا، فإن لم يكن الشخص مدركاً لها فإنها سرعان ما تختفي، وأما إذا أدركها الإنسان فإنها سوف تنتقل إلى الذاكرة القصيرة الأمد.

ويمكن اعتبار الذاكرة القصيرة الأمد بأنها مخزن مؤقت للمعلومات وذات سعة محدودة، فإذا لم تكرر المعلومات في خلال (١٠ - ١٥) ثانية فإنها سوف تنسى.

ونظراً لوجود هذين العاملين: التكرار والنسيان، فإنه يمكن معالجة عدد محدود من المعلومات في الذاكرة القصيرة الأمد في أثناء زمن معين، وهذا العدد هو خمسة إلى تسعة وحدات (يعرف هذا العدد بسعة الذاكرة)، وتنتقل المعلومات من الذاكرة القصيرة الأمد إلى الطويلة الأمد عن طريق التكرار والتدوين، وتبقى المعلومات مخزنة في الذاكرة الطويلة الأمد لأجل غير محدود، وأحياناً لا يمكن استرجاع هذه المعلومات بسهولة من الذاكرة الطويلة الأمد، إما لأن طريقة الاسترجاع غير مناسبة، أو لأن معلومات مماثلة قد اختلطت معها. والتمييز بين الذاكرتين غير قاطع تماماً،

بحوثاً في هذا المجال، وقد نشر هذا العالم الأبحاث التي أجراها على نفسه في بدايات القرن الماضي، فقد قاس «أبنغوس» مقدرته على حفظ سلسلة مكونة من أحرف، ولم تحمل هذه المقاطع معنى معيناً، كما قاس قدرته على إعادة حفظها بعد مضي فترة معينة بالإضافة إلى قياس قدرته على تذكر هذه المقاطع بعد مرور زمن معين.

وقد كرر باحثون آخرون تجارب «أبنغوس» كما أجروا تجارب أخرى مشابهة ومنهم العالم «بترسون. و. بترسون» والذي أجرى تجارب على مجموعة من الأشخاص حيث طلب منهم حفظ ثلاثة أحرف، ثم طلب منهم تذكر هذه الأحرف بعد فترة زمنية مختلفة في خلال الثواني الثماني عشرة التي لحقت لتعلم الحفظ، وقد منع الباحث هؤلاء الأشخاص من تكرار الأحرف عن طريق الطلب منهم بأن يعدوا بطريقة عكسية سلسلة من الأرقام بحيث يتخطون ثلاثة منها في كل مرة.

وقد بينت نتيجة هذه التجربة أن هناك فقداً كبيراً في المعلومات في بداية الثواني التسع الأولى، ثم بدأ هذا الفقدان في الثبات بين الثانية العاشرة والثانية الثامنة عشرة. وبناءً على هذه التجارب وتجارب أخرى مماثلة، فقد اقترح عدة علماء نماذج للذاكرة من أشهرها نموذج «أكنسون وشفرن».

وحدات الذاكرة

تقاس سعة الذاكرة بوحدات تسمى «شونكس» (Chunks)، وهي وحدات ذاتية للمعرفة تعتمد على إدراك الشخص، فإذا استقبل الشخص مشيرات معينة فإنَّ باستطاعة الذاكرة القصيرة الأمد الاحتفاظ بسبع وحدات (زائد أو ناقص وحدتين منها)، ويمكن أن تتكون هذه الوحدات من واحد أو أكثر من: الأرقام، أو الأحرف، أو الكلمات، أو الجمل... فسعة الذاكرة ليست محدودة الوحدات الموجودة في المثير (حروف، أو أرقام، أو كلمات)، بل بسعة المقادير ذات المعنى للشخص، وتعتمد سعة المقادير على خبرة الشخص، وقد بينت الأبحاث أنه يمكن زيادة سعة مقادير وحدات ذاكرة الإنسان عن طريق التدريب والتكرار.

وتعدُّ نظرية «المخطط» (سكيما) وجمعها «مخططات» (سكيماتا) من النظريات الشائعة المعنية بتنظيم المعرفة في ذهن البشري، هي عبارة عن وحدات من المعرفة تحتوي على تجريد للمفاهيم المتعلقة بمجال معرّف وبطريقة استخدام هذه المعرفة، كما أنَّها تحتوي على فراغات.

فإذا أتى مثير معين (حرف، رقم، كلمة) وتوفرت له سكيما مناسبة فسوف تقوم هذه السكيما بتنظيم المعلومات المتعلقة بهذا المثير، واستخلاص المناسب منها وملء الفراغات الموجودة بها، وأمَّا إذا لم تكن

إذ يمكن أن تحتوي الذاكرة القصيرة الأمد على معلومات من الذاكرة الطويلة الأمد، ويعتقد أنَّ الكلمات تدون لفظياً في الذاكرة القصيرة الأمد، ودلائياً في الذاكرة الطويلة الأمد، ويمكن اعتبار أن الذاكرة القصيرة الأمد تحتوي المعلومات في حالة غير مستقرة، في حين تحتوي الذاكرة الطويلة الأمد على معلومات مستقرة نسبياً.

ويقترح بعض علماء النفس وجود ما يعرف بالذاكرة العاملة، وهي الذاكرة الواعية التي يتم فيها استخلاص المعلومات من الذاكرة الطويلة الأمد لكي تنتظم وتصبح جاهزة للاستجابة للطلب، كما يتم فيها فحص المعلومات وملاحظة الثغرات والجوانب المبهمة وتصحيحها، وكما هو الحال في الذاكرة القصيرة الأمد، فللذاكرة العاملة سعة محدودة تقدر أيضاً بسبعة وحدات زائد أو ناقص وحدتان ($7 + 2$) أو ($7 - 2$)، وهذا يعني أن الذاكرة العاملة تحمل قدرًا محدوداً من المعلومات، وقد وجد أن الإنسان لن يستطيع القيام بنشاط عقلي معين ما لم يتمكن من إبقاء المعلومات اللازمة لهذا النشاط في الذاكرة العاملة، ولهذا الأمر أهمية خاصة في التعلم وحل المسائل في العلوم والرياضيات وحل الأسئلة وحل المشكلات.

جوانب عملية التذكر

وفي الحديث عن الذاكرة والتذكر لا بد من الإشارة إلى عدد من النقاط الأساسية، ولا بدّ من أن نتفق على أن التذكر ليس فقط المعلومات وإنما هو تذكر المعلومات والمهارات الحركية، وإضافة إلى ذلك فإنّ عملية التذكر تتطوي على أربعة جوانب: (التثبيت، الحفظ، الاستدعاء، التعرف)، وعند تعلمنا شيء لا بد أن يكون هذا التعلم قد ترك نوعاً من الانطباع على القشرة الدماغية للمادة التي تعلمناها في فترة سابقة.

ولابد لنا لكي يحصل التذكر من أن نكون قد كررنا الأشياء التي تعلمناها من قبل، والواقع أننا نتعرض إلى عدد كبير من المؤثرات، أي إننا ندرك عدداً كبيراً من المؤثرات ولكن نكاد لا نتذكر إلا الشيء القليل منها بمعنى أن التأثير لم يكن كافياً للتثبيت، ولا بد للإنسان من أن يكرر لتثبيت الانطباع لمؤثر معين حتى يترك أثراً على القشرة الدماغية، وفي عملية التذكر نحن نستدعي خبرة من الماضي -نستدعيها الآن في الحاضر- إننا نستدعي شيئاً من بين أشياء كثيرة معروضة الآن أمامنا كنّا قد تعلمناها فيما سبق.

والواقع بأن دراسة التذكر عملية غير سهلة على الإطلاق، وفي السنوات الأخيرة

هناك سكيما مناسبة فسرعان ما تختفي هذه المعلومات من الذاكرة.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن السكيما تحتوي على ما يشبه الصمغ الفكري الذي يساهم في ربط المعلومات الجديدة بالبنية المعرفية للشخص. وتشبه السكيما النظرية العلمية من حيث أنها غير نهائية، أي إنها قابلة للتطوير والتعديل إذا أثبتت الحقائق أنها غير صحيحة، إضافة إلى ذلك فقد تساهم السكيماتا المبنية على مفاهيم خاطئة في تشويه فهم المعلومات الجديدة، إذ إنها سوف تحور هذه المعلومات وتستخلص الأجزاء المناسبة منها والمناسبة لها، في أثناء محاولة الشخص دمج هذه المعلومات الجديدة بالسكيماتا المناسبة المتوافرة لديه.

وتتحد السكيماتا لتشكل بناء هرميا من المعارف، كما تتكون السكيماتا من تنظيمات أدنى للمعرفة تعرف بالنماذج والشبكات الدلالية، وتمثل الشبكات الدلالية العلاقة بين مفاهيم وأحداث في الذاكرة كالعلاقة بين مفهوم الإنسان ومفهوم الغذاء في العلاقة التالية: يحتاج الإنسان إلى الغذاء لكي يعيش. وأمّا النماذج فهي تمثل الصفات العامة والشاملة لأمر شائع في هذا المجال المعرفي، كالمعلومات عن طائر معين مثل الكناري، بينما تمثل السكيما وحدة معرفية عن الطيور عموماً.

الإنسان جيد التذكر ولكن ليس بالضرورة أن يكون ذكياً في المهمات الأخرى. ولنعد إلى جوانب عملية التذكر الأربعة بشيء من التفصيل:

١ - التثبيت:

التعلم الأصلي أو الإدراك نعني به تكون الانطباعات أو الآثار الأصلية على الدماغ والفاعليات التي تنتج انطباعات قصيرة أولاً تستديم فترة كافية من الزمن تنتهي بتثبيت ضعيف والعكس صحيح، فمقدار التثبيت يعتمد على مقدار التعلم الأصلي، أي مع استدامة الأثر الكهربائي على القشرة الدماغية مدة كافية.

ونلاحظ أن التذكر عند الأطفال وعند المرضى عقلياً أضعف بشكل ملموس منه عند الكبار، وذلك لأن الآثار التي تترك على القشرة الدماغية في الأصل ليست قوية وربما يعود ذلك إلى تذبذب الانتباه السريع، وتشير التجارب إلى أن التثبيت الناتج عن القراءة يكون أحسن ما يكون عندما يمزج القراءة بالتسميع.

٢ - الحفظ:

ونعني بالحفظ بقاء الأثر على الدماغ مدة من الزمن، ومن الواضح أنه كلما بقي الأثر فترة أطول من الزمن كلما كان تذكرنا للخبرة التي تركت الأثر أحسن، والواقع أن هذا أثبت عدداً من المشكلات التي لها صلة بعملية القراءة وأثار عدداً من الأسئلة:

يلاقى هذا الموضوع اهتماماً كبيراً من قبل علماء النفس وقد نشرت عدة دراسات حول هذا الموضوع وكانت تطرح عدة تساؤلات من أهمها: كيف تترك دراسة التذكر آثاراً على دماغ الإنسان؟ وكيف يتذكر الأشخاص هذه الأشياء في المستقبل؟

في الحقيقة إن أي مؤثر يدخل إلى دماغ الإنسان يترك انطباعات على القشرة الدماغية، فمثلاً ينتقل المؤثر (A) عبر عضو الحس إلى القشرة الدماغية، وهذا المؤثر يخلق نشاطاً كهربائياً فيزيائياً كيميائياً، وهذا المؤثر يترك أثراً على القشرة الدماغية للإنسان، وهذا الأثر يجب أن يستديم فترة طويلة من الزمن حتى يبقى الانطباع دائماً، وإذا لم يدم هذا الانطباع مدة طويلة فإن هذا الأثر يتلاشى بسرعة، وإذا تكرر حدوث المؤثر نفسه فإن أثراً كهربائياً فيزيائياً يتكرر، ونتيجة هذا التكرار يثبت على القشرة الدماغية. وتدلنا التجارب المعاصرة على أن هناك ارتباطات نتيجة التكرار تحدث في الدماغ كما أنها تترك آثاراً كثيرة. ولكن هناك نقطة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وهي عملية الخلط بين التذكر والذكاء، فليس من الضروري أن يكون الذكي سريع التذكر، وليس من الضروري أن يكون الجيد التذكر ذكياً.

وإن كان التذكر مهمة من المهمات التي تشكل الذكاء، أي إنها شرط من شروط الذكاء ولكنها لا تكونه، ويمكن أن يكون

- مدى تأثير طول المهمة التي نريد حفظها على سرعة تعلمنا لها؟

- ما هي الصلة بين الحفظ وبين عدد مرات التكرار؟

- ما الذي يجري للحفظ بعد مدة من الزمن؟

- ما هي مكانة الاستعادة من آن لآخر؟ وبشكل مبدئي نستطيع أن نقول: إنَّ المواد الأطول تحتاج إلى وقت أطول في التعلم وعدداً أكبر من التكرار، وأمَّا من حيث النسيان الذي يصيب ما تعلمناه فإننا نلاحظ أن النسيان يصيب التعلم بعده مباشرة، وهذا يؤكد ضرورة التشجيع من آن لآخر بعد حدوث التعلم وبشكل خاص في اليومين الأولين.

وأمَّا من حيث مكانة الفواصل الزمنية في التعلم وعلاقة ذلك بالحفظ فقد أثبتت الدراسات التي أجريت في هذا الميدان أنَّ توزيع الحفظ أحسن من ناحية مقدار ما يحفظ ومن ناحية دقة تذكرنا لما يحفظ، كالتدريب على فترات أحسن، وكذلك تقسيم العمل على فترات يقضي على التعب والملل عموماً، ويجب مراعاة نقطتين مهمتين عند تفصيل الفواصل الزمنية:

١ - أن تكون الفواصل بمقدار معقول.

٢ - أن فصل الفواصل الزمنية يكون

كبيراً حيث تكون المهمة المراد حفظها صعبة وطويلة.

وطريقة الحفظ الكلية أفضل من الجزئية من حيث أنها تسمح بتخطيط أفضل في عملية التعليم وإدراك أحسن العلاقات القائمة على الجزاء، وأمَّا إذا كانت المهمة المراد حفظها طويلة فربما الأكثر فائدة اللجوء إلى الطريقتين معاً، وذلك عن طريق تقسيم المهمة إلى وحدات أصغر وتعلم هذه الوحدات ومن ثم ربطها مع المهمات الأخرى في الوحدة الكلية، وهناك نقطة أخرى يجب أن نركز عليها وهي مسألة التعلم الفعال والتعلم السلبي، حيث إن هذه المشكلة تشير إلى مقدار مشاركة الفرد في عملية التعلم، ويفهم من المشاركة أن يمتحن الفرد نفسه مرة تلو الأخرى قبل وصوله إلى مهمة التعلم، وأثبتت التجارب أن التعلم الفعال يعطي نتائج أحسن من التعلم السلبي، كما أن المزيد من التعلم والإعادة من آن لآخر والمزيد من التكرار يساعد على المزيد من الحفظ والتثبيت.

٣ - الاستدعاء:

تشير عمليات الاستدعاء إلى بقاء ما حفظناه مع الزمن وهي عبارة عن طريقة لقياس الحفظ، فبديهي جداً بأنَّ الاستدعاء يتوقف على مدى التثبيت في الأصل وعلى مقدار الحفظ (اختبارات مدى الذاكرة، أسئلة المعلمين) كلها عبارة عن استدعاء

المعلومات والمهارات والخبرات السابقة التي مرّ بها الفرد. وهناك نظريات متعددة تحاول أن تفسر لنا ظاهرة النسيان ومنها:

١ - نظرية الاستعمال والإهمال: وهذه

النظرية تطورت إلى قانون التكرار، والذي يبين أن النسيان عند توقف استعمال ما تعلمناه، وإننا نتذكر الأشياء التي نستعملها وننسى الأشياء التي لا نستعملها، ولكن إضعاف المؤثر بين الإثارة والاستجابة يوجد عليه العديد من علامات الاستفهام، حيث إنه يوجد العديد من خبرات الطفولة لم نستعملها ولكن لا ننساها على الإطلاق، كما أننا نلاحظ أن عدداً كبيراً من المهارات الحركية لا ننساها على الرغم من عدم استعمالها كركوب الدراجة مثلاً.

٢ - نظرية النسيان المدفوع: أي إننا

نتذكر ما نحب وننسى ما لا نحب، فنحن مدفوعون إلى تذكر الخبرات الجميلة ونميل إلى نسيان الخبرات المؤلمة، ولكن هذا القانون لا يستطيع أن يفسر لنا كل النسيان حيث يوجد حالات مؤلمة كثيرة ولكن يتذكرها التلميذ، وربما يكون عند الذي يجب مادة دراسية دافعية أكثر لتعلم هذه المادة، وبالتالي فإن تعلمه لها أكثر وبذلك تكون المواد التي نحبها أسهل علينا في حفظها.

٣ - نظرية التداعي الحر: إن ثمة

نظريات تقول أن ما من شيء ينسى، وأن

واختبارات مدى الذاكرة وعن واحدة من اختبارات الذكاء المتعددة، وفي الحقيقة أن الاستدعاء يقيد التعلم من نواحي عديدة:

- فهو يساعد المتعلم على التعرف على مستواه الحقيقي، فيتخلص من الأخطاء ويحسن تعلمه.

- كما أن الاسترجاع يمثل موقف اختبار بالنسبة للمتعلم فيعرف أين هو من إتقان ما يحفظه.

- كما أن الاستدعاء يعتبر نوعاً من الممارسة لموضوع التعلم أو تأكيداً للتعلم.

٤ - التعرف:

التعرف واحد من الوسائل التي بناء عليها تتعرف على مقدار الثبوت والحفظ، والمثال الجيد عليه هو نماذج الاختيار من متعدد في الأسئلة الموضوعية. التعرف والاستدعاء عمليتان للتعرف على مقدار حفظ التلميذ ومقدار تثبيت ما تعلم هذا التلميذ، وبعد فترة من الزمن ما تعلمناه أو ما نتذكره يبدأ بالتناقص تدريجياً، ومقدار النسيان يحدث بشكل كبير في الساعات الأولى بعد التعلم.

ظاهرة النسيان

النسيان يعرف بأنه عملية عقلية تتم في مخ الإنسان، كما هو الحال في التذكر، وهو ظاهرة طبيعية لا إرادية تحدث لجميع البشر، ويعني عدم القدرة على تذكر

الحفظ وفي تعيين مجرى النسيان، ولذلك فنحن لا نستطيع تحديد مجرى النسيان بدقة، وبدلاً من ذلك علينا أن نبحث عن عوامل تساعد على الحفظ.

٤ - نظرية الكف أو التداخل: حيث

يحدد تداخل بين تعلم مادتين ويحدث هذا التداخل نوعاً من النسيان، وهناك نوعان من الكف:

أ - الكف الرجعي: وهو بشكل بسيط

عبارة عن تداخل ما نتعلمه الآن بما تعلمناه سابقاً، بحيث يؤدي هذا التداخل إلى نسيان شيء مما تعلمناه سابقاً.

ب - الكف المستقبل: التعلم السابق يؤثر

على تعلمنا الآن، حيث يحدث تداخل ينسيان بعض ما نتعلمه الآن، أي عكس الأول.

٥ - نظرية انتقال أثر التعلم: والشيء

الذي نقصده هنا هو كيفية تأثير تعلمنا لمهمة معينة على تعلمنا مهمة أخرى لاحقة في المستقبل، ومشكلة الانتقال في التربية لها أهمية كبيرة، فكل التعلم في التربية الآن قائم على هذا الأساس، بحيث أننا نتعلم هذه الأشياء لأنها في اعتقادنا لها أثر على تعلم أشياء أخرى نحتاجها في المستقبل، وتأثير مادة معينة على مادة أخرى يمكن أن يكون إيجابياً ويمكن أن يكون سلبياً أيضاً ويمكن أن يكون من درجة صفر أيضاً.

كل ما يتعلمه الإنسان يخزن في ذاكرته، وأنه لذلك يمكن تذكره إذا تمّ التداعي المناسب أو أزيل العائق الذي يقف في سبيله.

وتستند هذه النظرية جزئياً إلى أن الإنسان حين يكون في حالة غيبوبة أو تحت تأثير تنويم مغناطيسي يتذكر خبرات كان يظن أنها منسية تماماً، ثم أن التحليل النفسي يستطيع من خلال التداعي الحر أن يستخرج من اللاشعور خبرات وأفكاراً كانت مكبوتة طوال أعوام، ولكن هذه الدلائل تشير إلى تذكر محدود وفي ظروف محدودة جداً، ولذلك فنحن لا نستطيع الاعتماد عليها لنفي النسيان.

وقد دلت الأبحاث التي أجريت على نطاق واسع أن لمجرى النسيان اتجاهات عامةً محدداً، إنه يكون سريعاً في البداية ثم يتباطأ، كما دلت التجارب على أن الاحتفاظ يكون أعلى بالنسبة للطلاب الأصغر سناً.

ولعل من التفسيرات الممكنة لهذا الأمر أن الصغار يحفظون حقائق أساسية تتكرر في الدروس المتلاحقة بينما دروس الكبار أكثر توسعاً وأقل تكراراً، على أن الأمر الذي يجب تأكيده هنا هو وجود عدد من العوامل التي تتدخل في الأمر مثل طبيعة المادة واستعمالها المقبل وعمر المتعلم وكفاءته وتشويقه العام.

إن هذه العوامل وسواها تتداخل في

الهندسة النفسية وإدارة الذات

ترجمة: وثام الجراد

إلى الآلاف من أطراف اجتماعية متنوعة ممن يلجؤون عادة لهذه التقنية لمساعدتهم في التفاوض والتعلم والتأهيل والتواصل والتبادل والاختيار والقيادة، والتمكن من إدراك الذات، وذلك من خلال أحدث الطرق المساعدة في تحسين ظروف الحياة. ومن الجدير بالذكر أن تقنية البرمجة اللغوية العصبية أو ما يدعى بالـ (programmatin) (PNL) (neuro-linguistiaque)، تعد من أهم التقنيات الحديثة للتوصل إلى الأهداف والغايات التالية:

١- التواصل بطريقة واضحة وفعالة، وزيادة تأثير المرء في علاقاته الاجتماعية من

بدأت الهندسة النفسية وإدارة الذات في منتصف سبعينيات القرن الماضي على يد العالمين الأمريكيين جون غريندر وريتشارد باندلر اللذين قررا وضع أصولها أو مبادئها كعلم جديد أطلقا عليه اسم برمجة الأعصاب لغوياً. وكان ذلك في عام ١٩٧٣م، وبتشجيع من المفكر الإنكليزي والأستاذ في جامعة سانتا كروز (جريجوري باينسون)، كما وأسهم معهم في وضع هذه البحوث كل من جودث ديوليزيلز و لزي كامرون باندلر.

وقد اهتمت بمبادئها كبرى الشركات العالمية، وكذلك الرياضيون والمدرسون وأهالي الأطفال بمختلف أعمارهم، إضافة

❁ بامئة ومترجمة سورية.

خلال ممارسة التأثير الإيجابي في الوسط المحيط، إضافة إلى التمكين من عملية التفاوض وتبادل الأفكار مع الآخرين.

٢- تعزيز الثقة بالنفس: فتقنية البرمجة اللغوية العصبية تسمح باكتساب مجموعة من المهارات القادرة على تسهيل التفاعل الاجتماعي مما يساعد على تحديد الأهداف الذاتية والتوصل إليها بخطوات واثقة.

٣- تحسين العلاقات مع الآخرين: وذلك من خلال اكتساب مهارات التفاوض الناجح وتطوير العلاقات البناءة والمثمرة ضمن المحيط الاجتماعي.

٤- تغيير النظرة إلى العالم: إذ تساعد تقنية البرمجة اللغوية العصبية على إغناء نظرتنا للعالم وتطوير قدرتنا على التكيف.

٥- إدارة الحياة: إذ يمكن للمرء من خلالها اختيار وخلق الحياة التي يطمح إليها، وذلك بأن يصبح الفاعل والمنفعل في آن معاً.

٦- التطوير الشخصي: فأن تختار مشاعرك وعاداتك بنفسك هو أهم هدف من الأهداف التي تسعى إليها هذه التقنية. إذن، فإن إعطاء تعريف واضح ومحدد للبرمجة اللغوية العصبية في كلمات مختصرة قد يبدو للوهلة الأولى ممكناً وسهلاً، إلا أنه في المقابل غامض ومحكم كذلك.

البرمجة اللغوية العصبية هي مجموعة من النماذج الوصفية لبناء التجربة الإنسانية.

في الواقع، هي مقارنة جديدة للتصرفات ولعلم النفس الإنساني، وهي نظرية براغماتية تصب فيها نظريات فكرية مختلفة وشائعة إلى حد ما.

يمكن القول إنها تقاطع لكل من علم النفس وعلم الأعصاب والأنثروبولوجيا (علم الأناسة) وعلم التحكم (السيبرانية) وأخيراً الذكاء الاصطناعي.

تستند هذه النظرية على أن الإنسان لا يتصرف على أساس خصائص موضوعية متعلقة بمحيطه الاجتماعي، وإنما بدءاً من التمثيل الذي يقوم به في هذا المحيط، كما أن هناك جذوراً معرفية من الضرورة بمكان أن تكون واضحة ومعروفة مسبقاً.

أولها: المذهب التجريبي لـ(ديفيد هول): والذي يستند إلى مقولة أن التجارب الحسية والذاتية، هي المصادر الأولى للمعرفة.

ثانيها: الذرائعية - العملية (البراغماتية): والتي قام بوضع مرتكزاتها في أمريكا تشارلز بيرس، وهي قريبة من التجريبية، إذ توضح أن صحة العلم لا تتأكد إلا انطلاقاً من نتائجها.

ثالثها: المثالية:

إنَّ المثاليات والخيالات تنظم التصرفات الإنسانية على مر العصور.

رابعها: الدلائل العامة التي وضعها

الفريد كورسيسيكي والذي يعد اللغة كرمز وصفي لا متكامل للتجربة الإنسانية.

المذهب البنيوي:

هو تيار فكري ظهر حديثاً، يصف التواصل على أنه عملية عامة لتبادل المعلومات بين الكائنات الحية التي تخضع لقواعد الملاحظة، والذي ما يزال رمزه الأكبر هو (بالتسون).

إذن، البرمجة اللغوية العصبية هي مجموعة مؤلفة من نماذج مفتوحة ومتطورة وليست مجرد عملية تقوم على بناء المعتقدات، وبما أنها تعمل على الذاتية كجوهر أساسي لها، وتحرص على أن تكون مختلفة عن باقي المقاربات النفسية، فقد ركزت هذه التقنية - وماتزال - على تفعيل النقاط الآتية:

- مجموعة من الفرضيات البناء حول الرجل وعلاقته مع الجنس الآخر.

- أنموذج وصفي ومتطور حول التصرفات الإنسانية.

- أدوات مفاهيمية قوية لتشخيص النشاطات الجسدية للإنسان.

- تقنيات وطرق محددة للعمل والتي تساعد على التعلم والتغيير الدائم.

وبما أننا لسنا على احتكاك مباشر مع الواقع، وبما أن التمثيل الذي نقوم به على وجه العموم مشوه (غير مطابق تماماً للواقع)، فيمكننا تلخيص كل ذلك بالقول إن غاية البرمجة اللغوية العصبية ليست هي «الحقيقة»، والتي ندرك أننا غير قادرين على النطق بها في معظم الأحيان، وإنما كل ذلك ليس له أهمية طالما أن البرمجة اللغوية العصبية /PNL/ هي مجموعة من «الأكاذيب المفيدة» والتي لها مجال كبير ضمن واقعنا الحالي.

إلى أي فئة تتوجه هذه التقنية؟

- إلى كل من لديهم مهارات التواصل المحترف كالمديرين والموظفين والمؤلفين والتجار وغيرهم.

- إلى المدرسين والأهالي المهتمين بتعليم أطفالهم كيفية التعلم.

- إلى كل الأشخاص الذين يعلقون أهمية كبرى على تطويرهم الذاتي وعلى مهاراتهم وعلى مشاعرهم الداخلية.

البرمجة اللغوية العصبية والصحة:

روبيرت ديتس هو من أوائل المختصين الذين ربطوا بين ممارسة تقنية البرمجة اللغوية العصبية والصحة. إذ إن كتابه الشهير (Croyence et santé) «الاعتقاد والصحة» مازال المرجع الأساسي في هذا المجال.

إليه حينها هو الغضب أو حتى تحطيم شيء ما من حولك.

هنا بالذات، ما يمكن للبرمجة اللغوية العصبية أن تقدمه لك وهو أن تتخذ تلك الحادثة بمثابة خبرة مكتسبة. فمن الآن وصاعداً، تعلمت جيداً أنه يتوجب عليك حفظ الملف من وقت لآخر على حاسوبك تجنباً لتكرار تلك المعضلة مرة أخرى.

٢ - التقنية الثانية:

«كل شيء في العالم يركز على السياق» تقوم تلك التقنية على تعديل السياق العام الذي نفهم ضمنه الحدث، وعلى فهم كيفية جعل هذا الحدث مفيداً لك. فمثلاً: خسرت للتو وظيفتك! وبدلاً من اللجوء إلى التشاؤم والضيق والقلق حول ما قد يخبره لك المستقبل، يمكنك رؤية هذا الحدث بطريقة مغايرة تماماً. وذلك من خلال التخيل لا بل التركيز الشديد على إمكانية إيجاد فرصة عمل ذات ظروف وأجور مادية أفضل بكثير.

٣ - التقنية الثالثة:

«المضمون نسبي دائماً»

تتعلق هذه التقنية بالـ (Perception) أي «النظرة» التي تحملها عن الأشياء والأشخاص من حولك، فكل شيء هو في الحقيقة مانراه.

كما حاول العديد من المعالجين بالبرمجة اللغوية العصبية وضع أسسها من خلال التركيز على أهمية التفاعل بين كل من الجسد والروح.

التقنيات التيبية الثلاث (نسبة إلى سكان هضبة التيب):

عرفت تقنيات البرمجة اللغوية العصبية منذ القدم لدى سكان هضبة التيب، وقد كان لها التأثير الإيجابي الملحوظ على ممارسيها، فمن خلالها يمكن للمرء أن يدخل عالم الماورائيات شيئاً فشيئاً.

يمكننا القول إن تطبيق المبادئ الأولية لتلك التقنية فيه من السهولة التي تجعل كل من يريد تأهيل حياته مجدداً قادراً على ذلك. ويمكن أيضاً تلخيص هذه التقنيات الثلاث بمايلي:

١- التقنية الأولى:

«عندما تمنحنا الحياة ثمرة البرتقال، فلنصنع منها العصير»

تدفعنا البرمجة اللغوية العصبية لرؤية المواقف السلبية (أو حتى الكارثية) بعين إيجابية.

فلتخيل أنك تكتب حالياً مقالاً مهماً على حاسوبك الشخصي، عندما ينطفئ فجأة، وطبعاً لم تكن قد حفظت ما كنت قد كتبته منذ دقائق. أغلب الظن أن ما ستلجأ

قد يحل به، وقد فكر ملياً أنه لابد من وجود حل ما، سواء فيما يتعلق به، أو بغيره من الأشخاص الذين يعانون من المعضلة ذاتها. هنا، تخيل أن الكوة التي تباع الشوكولاته في الطريق العام توزع المال عن طريق رمز شخصي يمتلكه صاحب المال. في ما بعد، التقى جون أحد مدراء البنوك وطرح عليه تلك الفكرة.

لقد كانت المرة الأولى التي يتم فيها استخدام النافذة الإلكترونية لهذا الغرض بدلاً من البنك ذاته. اليوم، هناك ما يقارب المليونين منها في أرجاء العالم كافة.

إذن، هي قصة الشخص، الذي - بدلاً من أن يشتكي ويتأفف مما حصل له - استطاع تحويل تلك المشكلة البسيطة إلى فكرة مبتكرة.

نحن غالباً، في مجال الدراسة أو العمل أو الحب أو غيرها، لا نتقبل على الإطلاق فكرة عدم التوصل للنتائج المرجوة، وحتى لا نتوانى عن نعت أنفسنا بأسوأ الألقاب.

هنا، عندما نصل إلى تلك الحالة، ما علينا سوى أن نخلق من هذا الفشل فرصة، فرصة من أجل فعل ما هو أفضل، سواء من خلال التعلم أو التقدم. فالصعوبات ما هي في الحقيقة بصعوبات بل إنها فرص.

نعود إلى الخيال مرة ثانية، فنتصور أن هناك أنثى، يتصف صديقها بالبخل الشديد لدرجة أنه لا يشتري لها وردة أو حتى قطعة شوكولاته، فبدلاً من أن ترى صديقها هذا على أنه شخص بخيل، ترى فيه ذلك الذي يعتقد أن الأشياء المادية ليست الطريقة المثلى لدخول قلب امرأة. فهو - بنظرها - يرى في الحياة أشياء أكثر أهمية من مجرد وردة أو حتى قطعة من الشوكولاته.

إذن: فإن هذه التقنيات قد تغير لدينا الطريقة التي نرى فيها العالم إضافة إلى تغيير الطريقة التي يرانا فيها العالم أيضاً. سرّ جون شيفرد - بارون:

(هناك حلول فعالة.. ولكن عليك اكتشافها)

في يوم من الأيام من عام ١٩٦٧م، كان جون يمشي في أحد شوارع لندن، فسلّك طريق البنك ليسحب مبلغاً من المال يحتاج إليه بشدة، وقد كان يعلم مسبقاً أنه متأخر.

فما أن وصل، حتى رأى الباب مغلقاً. إذن، سيستحيل عليه الآن سحب المال الذي هو بأمس الحاجة إليه.

عاد إلى منزله، وهو مشغول الذهن بما

التنويم المغناطيسي والبرمجة اللغوية

العصبية:

التنويم المغناطيسي هو حالة يكون فيها الشخص نصف نائم حيث يجد نفسه مسترخياً إلى حد كبير. فالتنويم المغناطيسي هو القدرة الطبيعية للجسد على الانفصال عن العالم الخارجي. من أهم الأهداف التي تستند إليها المعالجة بالتنويم المغناطيسي، هو بلوغ مرحلة اللاوعي وبالتالي كشف الصدمات النفسية التي كانت قد حدثت من قبل مع الشخص.

التنويم المغناطيسي الإيحائي:

هناك عدة مدارس- كمدرسة فرويد- تحاول إعطاء مجموعة من الإيحاءات من خلال الأوامر اللفظية أو البصرية مثل: «اغمض عينيك»، «حاول أن تنام». لكن هذه الإيحاءات قد تتعارض في بعض الأحيان مع القدرات الجسدية للشخص.

مدرسة أريكسون:

إنَّ التنويم المغناطيسي- حسب نظرية أريكسون- ليس إيحائياً، على عكس المدرسة السابقة، فهذه التقنية تتطلب من المشارك فيها أن يكون بملاء وعيه. إذ تنحصر هذه الجلسة على شكل محادثة بسيطة، يكون فيها الشخص مسترخياً ليدخل بعدها شيئاً فشيئاً في طور اللاوعي، حيث يمكن للمعالج

إيجاد بعض الحلول الناجعة لمشكلاته.

تحترم هذه المدرسة قيم المريض، لذا فهي أكثر فاعلية من المدرسة السابقة.

دلالات التنويم المغناطيسي:

يستخدم العلاج بالتنويم المغناطيسي في مجال الاضطرابات النفسية، كالضيق والقلق والرهاب النفسي (الفوبيا). كما يستخدم أيضاً لعلاج الآلام الجسدية بفضل قدرته على حث إفراز الهرمونات العصبية.

في الواقع، من الممكن لجلسة التنويم المغناطيسي أن تسهل إنتاج الهرمونات تلك والتي لها خواص مسكنة للآلام. كما أن لها فوائد كبرى في علاج مرض الشقيقة والمفاصل وغيرها، وكذلك يلجأ إليها أطباء التخدير أحياناً في المداخلات الجراحية.

إضافة لذلك، فإنَّ تلك الجلسات قد تكون ناجعة في عملية الإقلاع عن التدخين، من خلال التعديلات البسيطة على التصرفات وعلى طريقة التفكير لدى المدخنين، فبدلاً من أن تكون المعادلة هي (التبغ = السعادة)، تكون كذلك (التبغ = الغثيان).

أخيراً: ما هي البرمجة اللغوية العصبية أو ما يدعى علمياً بالـ (la Programmation neuro linguistique) ؟؟

إذا ما طلبنا من عشرة أشخاص إعطاءنا تعريفاً محدداً للبرمجة اللغوية العصبية (PNL)، فقد نحصل عندها على

عشر إجابات مختلفة، إذ إن لكل منا تجاربه المختلفة، ويرى العالم بالتالي بصورة مغايرة. تمّ الإجماع على تعريف البرمجة اللغوية العصبية على أنها مجموعة من التقنيات التي تساعد المرء على العيش ضمن حياة أفضل، وعلى إحكام السيطرة على طريقة تفكيره، وعلى الشعور والتصرف حيال العواطف بفاعلية أكبر.

فهناك خمسة مبادئ ترتكز عليها تلك التقنية الحديثة وهي:

١- تعلم كيفية تحديد الأهداف: فقليل من الناس يفكرون بما يريدونه، والغالبية العظمى تمضي وقتها في التفكير بما لا تريده، لكن إذا ما رغبتنا بالوصول إلى غاياتنا في أي مجال كان، ما علينا إلا أن تكون أهدافنا واضحة منذ البداية.

٢- اتخاذ الإجراءات: لا يهم كيف تم وضع تلك الأهداف بالطبع، إذا لم نقم بخطا فعلية لتحقيقها.

٣- البراعة الحسية: أن يكون لدينا البراعة الحسية لأمر في غاية الأهمية، بمعنى أنه يجب استخدام حواسنا الكاملة في سبيل ملاحظة ما يجري حولنا.

فملاحظة التفاصيل الدقيقة واكتشافها هي من أكثر الأمور أهمية في مجال بلوغ غاياتنا.

٤- المرونة عند التصرف: لا بد لنا أن

ندرك جيداً أنه إذا ما صعب علينا فعل شيء ما، فمن المهم أن نكون قادرين على تكييف إستراتيجياتنا بغية التوصل لذلك الهدف وإدراكه. فكم من الناس ما زالوا يرتكبون الأخطاء ذاتها في سبيل الحصول على نتائج مختلفة.

تقوم البرمجة اللغوية العصبية هنا بوضع تلك الإستراتيجية بين أيدينا لتتلاءم مع الظروف المحيطة ولزيادة قدرتنا على تعديلها وبلوغها عندئذ بنجاح.

٥- إقامة شبكة من العلاقات الاجتماعية:

إن تحقيق الأهداف يتطلب حسن التعامل مع الآخرين، فإذا كانت لديك الرغبة بأن يكون لديك تلك الشبكة الاجتماعية القائمة على الثقة والتفاهم المتبادل، فإنّ الطريقة المثلى لذلك، تدرج في إقامة العلاقات الطيبة، إنّها كفاءة ثمينة ما على البعض سوى العمل على تطويرها.

وفي الختام، يمكن القول: إنّ تقنية البرمجة اللغوية العصبية هي علم قائم على التطبيق لا على التنظير، قادر بشكل أو بآخر على منحنا الحياة الأفضل التي يسعى كل شخص في العالم لبلوغها.

عن موقع: pnlarticles

الخلود عند كارل جاسبرز وعلاقته بالدين

✽
د. عمار سليمان علي

حتى عام ١٩٣٧م. ولأنه رفض مهادنة السلطة النازية آنذاك وتقديم أية تنازلات لها -وهو المتزوج من يهودية- فقد منع من التدريس الجامعي طيلة الحقبة النازية. ولكنه التحق في العام ١٩٤٨م بجامعة بازل في سويسرا كأستاذ للفلسفة.

ولم يقتصر تأثير جاسبرز على المجال الفلسفي، حيث يعتبر واحداً من مؤسسي الفلسفة الوجودية، بل إن كتبه وآراءه خلفت تأثيراً كبيراً في مجال علم النفس وعلم اللاهوت الحديثين وكذلك في مجال السياسة. ومن بين تلك الكتب: علم التشريح المرضي النفسي العام (طبع سنة ١٩١٣م، انتقد فيه

بعد مرور أكثر من أربعين سنة على وفاته، ما يزال الفيلسوف والطبيب وعالم النفس الألماني كارل جاسبرز (١٨٨٣-١٩٦٩م) قادراً على التأثير وإثارة الجدل، وذلك على الرغم من أنه ليس مفهوماً بشكل واسع.

ولد كارل جاسبرز في مدينة أولدنبورغ الألمانية في ٢٣ شباط ١٨٨٣م، ودرس القانون والطب وتخرج كطبيب بشري من جامعة هايدلبرغ، قبل أن ينتقل عام ١٩١٦م إلى صفوف المدرّسين في جامعة هايدلبرغ نفسها حيث درّس علم النفس، ثم تحول إلى الفلسفة، واحتفظ بكرسيه كأستاذ للفلسفة

✽ كاتب وباحث سوري.

هيدجر Heidegger أو سارتر Sartre، لم يرغب جاسبرز في إقامة نظام ميتافيزيقي metaphysical للوجود، فهو رفض مثل هذه الأنظمة «العلم وجودية»، التي اعتبرها مثل الأقفاس الجامدة التي تحد من أبعاد الوجود وتجعلها تقتصر على الأشياء والسببيات، أو على المعرفة العقلية السببية للوجود في هذا العالم، وتتجاهل الأبعاد الغامضة (أو الأسمى، والتي لا توصف) لهذا الوجود.

وقد كان هدف جاسبرز في فلسفته الوجودية الخاصة، أن يحدد بإيجاز وبشكل غير مباشر ملامح الوجود الإنساني human Existenz. وهذا المصطلح (Existenz) أشار به بوضوح إلى الخبرة أو المعرفة القابلة للتحديد حول الحرية والإمكانية التي تشكل الوجود الحقيقي للأشخاص الذين يصبحون مدركين للشمول أو الإحاطة encompassing في مواجهة حالات معينة مثل: الحظ والمعاناة والصراع والشعور بالذنب والموت.

وهذا المصطلح (encompassing) أو مقابله (das Umgreifende) استخدمهما جاسبرز للإشارة إلى الحدود النهائية للوجود، أو الأفق العقلي غير القابل للتحديد الذي تكون فيه كل الخبرات الشخصية والموضوعية محتملة، ولكنه لا

الادعاءات العلمية حول المعالجة النفسية كحتمية) -علم نفس الفلسفة الفردية (طبع سنة ١٩١٩م، قدّم فيه تصنيفاً لمختلف التصرفات وردات الفعل المحتملة والممكنة من قبل البشر تجاه الحياة بكل ما فيها) .مسألة الشعور بالذنب لدى الألمان (طبع سنة ١٩٤٦م). الفلسفة (طبع سنة ١٩٣٢م) ثم ١٩٦٩م). الفلسفة الوجودية أو الفلسفة والوجود (طبع سنة ١٩٣٨م ثم ١٩٧١م) - الحرية والترويض (عن التهديد الواقع على الحرية البشرية الذي يشكله العلم الحديث والاقتصاد الحديث والمؤسسات السياسية) - مستقبل البشرية - مراسلات فلسفية مع حنة أرندت Hannah Arendt (الفيلسوفة الأمريكية المولودة في ألمانيا) وقد نشرت هذه المراسلات باللغة الإنكليزية سنة ١٩٩٢م أي بعد وفاة جاسبرز بثلاثة وعشرين عاماً (توفي في بازل في ٢٦ شباط ١٩٦٩م).

وعلى الرغم من تنوع اهتماماته ومؤلفاته، كما يتضح من القائمة أعلاه، فلعل عمل جاسبرز الرئيسي هو مجلدات الفلسفة الثلاثة، التي أعطى من خلالها رأيه في تاريخ الفلسفة وقدم فيها أفكاره الرئيسية. فهو عرّف الفلسفة بأنها التفكير الفلسفي نفسه، وليس مجموعة محددة من الاستنتاجات، مهما كانت. وعلى العكس من مفكرين وجوديين آخرين مثل

التاريخية أو التاريخانية Historicity،
التواصل الوجودي Existential
Communication، الشمول أو الإحاطة
Encompassing، الاتحاد Unity،
الخلود Eternity .

ومع إشارتها إلى المحتوى الأوسع لفلسفته
وإلى أفكار مشابهة في فلسفة بلوتينوس
Plotinus وكانت Kant وكيركيغارد
Kierkegaard، فهي تركز خصوصاً على
سؤال: ما الذي يعنيه جاسبرز عندما يطرح
فكرة أن الكائن البشري يستطيع أن يجرب
أو أن يختبر الخلود؟.

وفي محاولة منها للإجابة والشرح تبين
بيتش بكل وضوح أن هذا الطرح لا يستطيع
أن يفعل شيئاً مع الأفكار الدينية المنهجية
حول الخلود، بل على العكس من ذلك إنَّ
الخلود هو أحد المظاهر الأساسية للتجارب
أو الخبرات اللحظية، التي تسمى بالألمانية
Augenblick (يعني حرفياً «في رمشة
عين») وهي لحظة هامة حاسمة لكن سريعة
الزوال تؤثر في الشخص بشكل عميق بحيث
أنه يختبر/ أنها تختبر الخلود، خلال لحظة
من الوقت المحسوس.

وتعرّف بيتش تجربة الخلود اللحظية
كما يلي: «أن يختبر فرد ما تجربة خالدة
وجودية آنية، يمكن أن تظهر نفسها كخلود
في وقت محسوس في العالم».

يمكن مطلقاً أن يلتقط بشكل منطقي. وفي
هذا الإطار يتحدث جاسبرز عن تجربة أن
تكون إنساناً في حرية كاملة، كما يشجع كل
شخص على إدراك وجوده (أو وجودها)
الذاتي الحقيقي الخاص، بوساطة فعالية
وجودية شخصية للتفكير، غير قابلة
للوّصف بشكل موضوعي. لكن عدم القدرة
على وصف هذه الحالة الذاتية التي اعتبر
جاسبرز أننا يجب أن نسعى إليها، يطرح
مشاكل خطيرة في وجه أية محاولة لإعطاء
تفسير ملائم أو كاف لمظاهر فلسفة جاسبرز
الميتافيزيقية.

لكن ذلك كله، مع ما يشكله من صعوبات
وتعقيدات، لم يمنع فيليز بيتش Filiz
Peach من الخوض في غمار فلسفة
جاسبرز من خلال كتاب أصدرته عام
(٢٠٠٨م) تحت عنوان «الموت والخلود
والوجود في فلسفة كارل جاسبرز» (مطبوعة
جامعة إنبرغ، ٢٠٠٨م، ٢٢٤ صفحة) وهي
تقدم فيه عرضاً وتحليلاً عميقاً لفلسفة
جاسبرز الوجودية، وتركز بشكل رئيسي
على مفهومه للوجود وعلاقته بالغموض،
وعلى الموت والخلود. كما أنها تشرح بوضوح
وشفافية مبادئ جاسبرز الأنثروبولوجية
والميتافيزيقية الأساسية: الحالة المحدودة
the Boundary Situation، الوجود
Existenz، الغموض Transcendence،

ديني؟ وهل الدين هو دافع من دوافع جاسبرز؟ أو خلفية من خلفياته؟

لا تتردد بيتش في الإجابة قائلة: بالنسبة لجاسبرز، الغموض هو الواقع الحقيقي الذي لا يمكن مراقبته أو رؤيته، والذي لا يمكن بحثه بطريقة علمية أو إثباته بمناقشة منطقية، لأنه لا يمكن أن يفهم أو يستوعب بأنماط تفكيرنا على اختلافها: إنه يقاوم الموضوعية والإدراك بوساطة أية عمليات إدراكية أو معرفية. ولا يمكن أن يكون الغموض لا طبيعياً ولا بشرياً، بمعنى أن يجسم صفات بشرية.

وكل محاولة لعقلنة أو تجسيد الغموض في مفهوم محدد ينبغي بالضرورة أن تفشل أو تفرق. لذلك -بالنسبة لجاسبرز- الغموض، أو الوجود المطلق أو الرب أو الإله، محتجب للأبد ولا يستطيع أن يتكلم إلينا عبر وسطاء بلغات مشيئة ذات طبيعة محددة أو مقيدة، ولا بظاهرة الإلهام أو الوحي كما تفترض سلفاً أنظمة العقائد الدينية.

وتخلص بيتش إلى اعتبار هذا الكلام لجاسبرز، بمجمله، حجة مضادة قوية ضد اعتبار جاسبرز فيلسوفاً دينياً أو ذا خلفيات دينية. من دون أن تعتبر أن رأيها التحليلي هذا سيحسم الأمر وينهي الجدل الطويل حول هذه المسألة.

على كل حال، لقيت بيتش من خلال هذا الشرح والتوضيح بشكل خاص، ومن خلال

إضافة إلى ذلك هي تفسر هذا «الخلود في وقت محدد» بـ (أن يقوم فرد ما باختبار وجودي أبدي للخلود، ويحدث ذلك عندما يختصر الخلود طريق الوقت في نقطة مفردة، بكلام آخر هو مستعرض للوقت المحسوس، وهذه النقطة الخالدة تمثل الحاضر «الآن»). لذلك يمكننا حتى أن نقول: إننا في خلود اللحظة نختبر الطبيعة الخالدة للحاضر.

ووفقاً لبيتش، تهتم الأطروحة الرئيسية لجاسبرز في هذا السياق بالواقعية الذاتية الوجودية أو «الأنانية الفردية»، حيث الكائن البشري يفهم ويحقق الحرية الكاملة لوجوده. كما أن الشخص في هذه الواقعية الذاتية يواجه الغموض، مختبراً ذاته (أو ذاتها) الحقيقية كـ «هبة من الغموض». وبمنظرة أكثر قرباً للنصوص المتنوعة التي يتكلم فيها جاسبرز عن الغموض، يتبين لبيتش بجلاء أنه يعني بهذا المصطلح المصدر الغامض لكل الوجود. مع إشارتها إلى أن جاسبرز يستخدم كذلك تعبيرات أخرى لهذا المصدر الغامض نفسه، تتضمن: الوجود المطلق - الحقيقة المطلقة - الوجود كما هو - الوجود بذاته - المحيط بالكل - الرب - الإله.

هنا عند هذه النقطة، تعتبر بيتش أن من حق قارئ جاسبرز أو ناقده أن يتساءل: بعد كل ما سبق، هل يجوز القول إن جاسبرز ينطلق في مجمل طروحاته وآرائه من موقف

عظيمة هو التبصر في وضع العالم: ذات يوم ستكون فكرة الأمة- الدولة كارثية لأوروبا ولكل القارات.

• ينسجم علماء النفس الناجحون، بالضرورة، وبطبيعتهم، مع حاجات ورغبات «المرضى العصبيين»، نظراً لأن الكتلة الكبرى من المرضى تقرر من الذي يكون معالجاً ناجحاً، وليس القيمة الفعلية للمعالجات النابعة من رأي الطبيب الخاص.

• إذا أردت معرفة ذاتي على حقيقتها فيجب علي أن أستكشف الوجود. ولكن هذا لا يعني أن أبدأ بالتفلسف إلى أن أفشل في البحث عن جوهر الوجود.

• الإرادة لا تختار بين الخير والشر. إنه، على الأصح، خيارها الذي يجعل الأمر خيراً أو شراً.

• أنا أعلم أنني حر، ولذلك أعترف بأنني مذنب.

• الحرية هي أكثر الكلمات استخداماً في عصرنا. ولكن حتى الآن لا يوجد شيء أكثر منها غموضاً، وأكثر التباساً، وأكثر قساوة وأكثر إساءة للاستعمال.

الكتاب بشكل عام، ترحيباً من كثير من مريدي جاسبرز ومتابعيه، فالبروفيسور كورت سالمن Kurt Salaman أستاذ الفلسفة الفخري في جامعة غراز، النمسا، على سبيل المثال، كتب قراءة نقدية لكتاب بيتش، نشرها في موقع الفلسفة الآن Philosophy now ويقول فيها: «إنها لميزة لهذا الكتاب أن يظهر عبر العديد من الحجج الدقيقة والمعقدة أن فكرة جاسبرز عن الخلود يجب أن تفسر خارج الإطار الديني.

الميزة الأخرى هي الشرح المطول والدقيق للمبادئ الأساسية لفلسفة جاسبرز في نمط تحليلي. إن هذه المقاربة التحليلية لجاسبرز لا تناسب فقط الفلاسفة الوجوديين أو الأوروبيين، بل ينبغي أن يفضلها كذلك الفلاسفة التقليديون في البلاد الأنكلو أمريكية». وفي الخلاصة عبّر سالمن عن ابتهاجه ورضاه لأن آراء جاسبرز عن الموت وتجربة الخلود ما تزال حية ومؤثرة... ومثيرة للجدل!

مختارات من أقوال جاسبرز:

• تاريخ الأمة- الدولة الألمانية هو على عتبة النهاية. وما يمكننا إنجازه كأمة

الهوامش

١- موقع مجلة الفلسفة الآن www.philosophynow.org

٢- موسوعة ويكيبيديا Wikipedia

٣- موسوعة إنكارتا Encarta

تصنيف جديد لأمراض البشرية



د. ناصر ملوحي

ج - المرض الجسمي - النفسي: موضوع الطب النفسي - الجسمي .
د - المرض الفكري - الثقافي (المرض الحضاري): ويبحثه الطب الفكري - الثقافي.

وهذا التصنيف الواسع الجديد للمرض (اعتلال الصحة) البشري في مجال الوقاية والعلاج يعتبر أن الأمراض الفكرية - الثقافية أخطر الأمراض التي تصيب الإنسان لعظمتها نتائجها المدمرة والمخرية للبيئة والبشر والحياة وتفوق خطورتها كوارث الطبيعة من براكين وزلازل وفيضانات، فحرب واحدة كال حرب الغربية (العالمية) الثانية قتلت

نحتنا مصطلح الطب العضوي - النفسي - الحضاري، لأننا نعتبر الإنسان وحدة نفسية - جسمية - ثقافية متكاملة متوازنة ومنسجمة مع صعود وإفلاس الحضارات ومتناغمة مع ظواهر الطبيعة وأحداث الكون، ولذلك قمنا بتصنيف حديث للأمراض التي تصيب البشرية أفراداً وجماعات وهو:

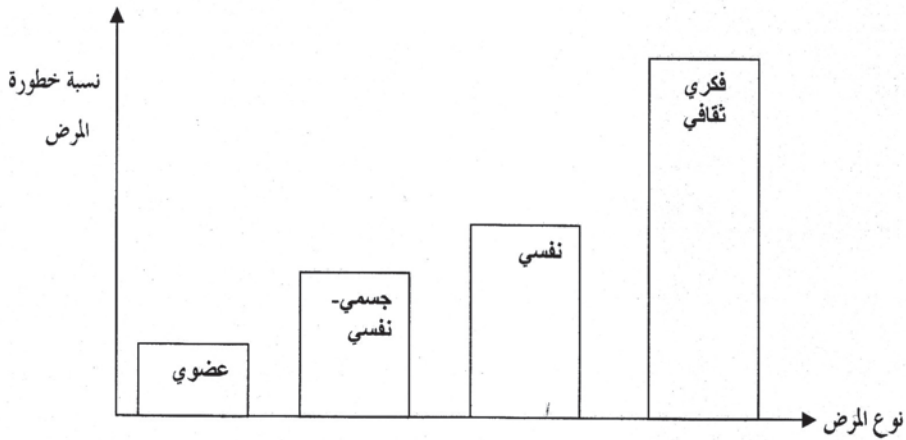
أ - المرض العضوي: وهو موضوع الطب التقليدي الشائع في بلادنا والدول الغربية والصناعية.

ب - المرض النفسي: موضوع الطب النفسي - التقليدي .

✽ بامع علمي وطبيب أخضائي بأمراض الأنف والأذن والحنجرة ومبرماتها.

الكارثية كإرهابية بوش ووحشية شارون وإجرامية بلير ولصوصية الدول الصناعية الأوروبية ونفعية الفلسفات الغربية وفلسفة شريعة الناب والغاب لتطبيقها في المجال البشري وظلم الشعوب والعبودية والعنصرية والاستبداد والاستغلال.

أكثر من خمسين مليون شخص وشوهت عشرات الملايين ودمرت مئات المدن، فالمرض الحضاري مرتفع الدرجة الإمبراضية ومتقدم المرحلة من ناحية الخطورة ونسبة الوفيات العالية ويفوق خباثة كل السرطانات، وله طيف واسع من الحالات



التغذية في الدول النامية بالمساعدات الغذائية والدوائية والمالية الأوروبية والأمريكية التي تصور وتعرض كثيراً في الفضائيات ويفضل أن توضع هذه المساعدات في بطون الغربيين وجيوبهم لأن أسلوبهم الاستخراي (الاستعماري) اللصوصي وشروط الشركات المتعددة الجنسيات الرأسمالية هما الداء، وهنا يجب أن يوجه العلاج، فالسكان الفقراء في بعض الدول الأفريقية يعجزون عن شرب الماء النقي وقضاء حاجتهم الطبيعية في دورة المياه لأنهم لا يملكون المال الزهيد

(إن هيمنة الغرب، منذ خمسة قرون، تكلفت بإرادة مدمرة للكرة الأرضية، فالحفاظ، بعد إزالة الاستعمار على علاقات تبعية تفرض من خلال الاستعمار الجماعي المجسد في صندوق النقد الدولي وبالمصرف العالمي.. أدى إلى هذه النتيجة خمسين مليوناً من الموتى جوعاً أو بسبب سوء التغذية، وهكذا تفرض هيمنة الغرب الاقتصادية، هيروشيما يومية على العالم الثالث)^(١).

ومن الحماقة أن يعالج الجوع وسوء

حربية وقائية وعلاجية قادرة على أن تمنع الأذى وبالوقت نفسه تقوم بالقبض على المعتدين لكي نحولهم إلى المستشفيات الفكرية الثقافية لقبولهم ليقوم الكادر العلمي المؤلف من خبراء في النفس والاجتماع وعلماء في الدين والقانون والاقتصاد وحكماء في العلاقات الدولية العامة ليقوموا بجلسات التحليل الفكري والمجادلة بالحسنى واتباع أسلوب الاقتناع والإقناع ضمن جو من الحرية والمعاملة الجيدة، وهنا نكسب هؤلاء المجرمين ونحولهم تدريجياً إلى أصحاب حضارياً، وبالتالي فإننا نحاول جاهدين أن لا نقتلهم لأنه حتى الظالم والكافر هو في تركيبه العضوي البيولوجي يسبح الله تعالى والأصل بالإنسان الفطرة السليمة الصحيحة بينما المرض الحضاري هو مكتسب من سوء التربية الاجتماعية وسلبية المفاهيم الفكرية وخطأ الفلسفات النظرية.

للدفع، بينما يعيشون على جبال من فلزات الذهب والماس والمعادن الثمينة التي يسرقها الغرب بكل وقاحة ووحشية، ومع ذلك نقول أيضاً: إن الغرب ليس كله شراً ولا ضلالاً، فكم من علم نافع، وكم فيه من عمل صالح، وكم فيه من خلق كريم، وكم فيه من إنجازات هائلة وإمكانات ضخمة في المجال العلمي والتقني، يمكن توظيفها لصالح الإنسان إيجابياً في مختلف المجتمعات والثقافات مع الحفاظ على الهوية الوطنية المميزة لكل مجتمع وثقافة.

ونظراً لأننا نعتبر أن العدوان والظلم والحروب والاستعباد والاستغلال.. حالات مرضية حضارية ناتجة عن تبني نمط أو نسق فكري ثقافي فلسفي مُعتَل، فهذا يجب التوجه إلى العلاج بالأسلوب الناجح بحيث نشفق على الظالم كما يشفق الطبيب على المريض العضوي، فإنَّ الطبيب رغم حنانه على المريض يشق بطنه لكي يستأصل المرض فنحن ينبغي علينا علاج المعتدين الظالمين حضارياً ليس بقتلهم وإنما بابتكار وسائل

الهوامش

- ١- غارودي، «الأصوليات المعاصرة، أسبابها ومظاهرها»، تعريب: د. خليل أحمد خليل، ط١، باريس، دار عام الفين، ١٩٩٢م، ص ٦٤.



السياسات الحكومية والصحافة والعلاقات العامة في عالمنا المعاصر

✽
د. محمد البخاري

لهم الشبكة العنكبوتية العالمية «الإنترنت». وأصبح من الواضح أن السياسات التي تتبعها الدول الديمقراطية أخذت بالتدريج تفقد دعم وتأييد الأوساط الاجتماعية، وانعكس ذلك رغم اتساع ونمو دور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في المجتمعات الحديثة، ونمو تأثيرها على النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال عمليات الاتصال السياسية والعلاقات العامة الجارية. وهو ما أظهرته الدراسات الأخيرة، عما يحدث داخل المجتمعات من تفاعلات، وأكدت تلك الدراسات على أن:

انصب اهتمام الباحثين في مجالات الاتصالات الجماهيرية والعلاقات العامة في الآونة الأخيرة على الكيفية التي تراعي فيها العلاقات العامة ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية مبادئ الديمقراطية المعاصرة، وكيفية تشكيلها للرأي العام المعاصر. خاصة بعد أن لوحظ ضعف كبير باهتمام الشرائح الشبابية في المجتمعات بالسياسات الحكومية، ونقدها الدائم لما تقدمه وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بشكل يومي، وطبعاً كان كل ذلك يحدث من خلال مدوناتهم الإلكترونية التي أتاحها

✽ باحث سوري مقيم في جمهورية أوزبكستان. دكتوراه في العلوم السياسية.

١ - السياسات الحكومية بدأت تفقد

دعم وتأييد الأوساط الاجتماعية:

حيث لوحظ في جميع الدول الديمقراطية الحديثة انخفاض درامي لدعم وتأييد المواطنين للمؤسسات السياسية والشخصيات السياسية الناشطة فيها. وعلى ما يبدو أنه هناك تناقض في الأوضاع السياسية، لماذا؟ لأننا نعيش اليوم في أوقات وفرت فيها ظروف الأمن والحرية والرفاهية لسكان الدول المعاصرة، ووفرت فيها الإمكانيات المادية اللازمة لأكثر السكان.

وكان من المنطقي أن يكون الناس راضين وداعمين لسياسات تلك الدول. ولكن على العكس من ذلك لوحظ أن نسبة الناخبين الذين يدلون بأصواتهم في الانتخابات أخذت تقل تدريجياً في تلك الدول، وعلى سبيل المثال: لوحظ أن نسبة الناخبين المشاركين بإدلاء أصواتهم فعلاً في الانتخابات البرلمانية الفيدرالية بألمانيا لم تتجاوز نسبة الـ ٥٠٪، وأن مشاركة الناخبين الشباب في تلك الانتخابات لم تتجاوز نسبة الـ ٤٠٪.

وصعبت هذه النتائج على الباحثين مهمة تفسير تلك الظواهر بعد أن كانت نسبة المشاركين بإدلاء الأصوات في الانتخابات التي جرت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية تتراوح ما بين الـ ٧٠٪ و الـ ٨٠٪. معتبرين أن تلك الظاهرة تهدد للمبادئ

الديمقراطية السائدة في ألمانيا. خاصة بعد ملاحظة التراجع في أعداد المشاركين في الانتخابات البرلمانية من المنتمين للأحزاب السياسية الألمانية، ولم تتجاوز نسبتهم الـ ٤٠٪ فقط.

ولاحظ المحللون السياسيون أن تلك التبدلات آخذة بالانتشار حتى داخل العملية الديمقراطية الجارية في ألمانيا، وأنها تحول دون مشاركة المواطنين في العملية الديمقراطية مكثفين بأخذ دور المراقب فقط، وعللوا ذلك بطبيعة القوانين السياسية السائدة في ألمانيا، التي أدت إلى انخفاض الاهتمام بما يجري على الساحة الانتخابية، مما أدى بدوره إلى انخفاض أعداد المشاركين في التصويت حتى لصالح الأحزاب التي ينتمون إليها. وهو ما يطلق عليه في العلوم السياسية «تسرب الناخبين»، واعتبروا أن هذه الظاهرة ترافق التغيرات الحاصلة في الأولويات السياسية للناخبين وما رافقه من فقدان بعض الأحزاب السياسية للدعم والتأييد الجماهيري المعهود.

وفسرت بعض المصادر تلك الظواهر بحدوث تغيير جذري في النظرة السياسية للمواطنين، ناتجة عن بعض التصرفات السياسية من قبل بعض القادة السياسيين والمرشحين على حد سواء. وفسر خبراء

العلوم السياسية ذلك بأنه يتعلق بخصوصية دعم وتأييد الأحزاب السياسية والشعارات التي تطرحها بغرض التسويق السياسي.

خاصة وأن تلك الخصوصية تأتي من: - نوعية الدعم والتأييد الذي حصلت عليه الأحزاب السياسية والمتمثل: بالثقة وتأييد النشاطات التي تقوم بها الأحزاب السياسية، وهذا يعني أنها مرتبطة بالسياسات التي تتبعها تلك الأحزاب.

- أكثر المواطنين لا يعتبرون الشخصيات الحكومية مؤهلة سياسياً؛

- وسعة الدعم الذي تحصل عليه الشعارات التي تطرحها الأحزاب السياسية تتمثل عادة: بدعم المبادئ الديمقراطية، وتلعب الشعارات فيها دوراً كبيراً، وبقدر ما تلتزم تلك الأحزاب بشعاراتها للحفاظ على الديمقراطية في المجتمعات المعاصرة.

- أكثر المواطنين لا يعتبرون معظم الشخصيات الحكومية مؤهلة وقادرة على المشاركة والتأثير في الفعل السياسي؛

- وأشار بعض الدراسات إلى انخفاض كبير في مدى خصوصية تلك الشعارات المطروحة، رافقه ضعف ملحوظ في الدعم والتأييد المطلوب لتلك الشعارات، الأمر الذي أدى إلى فقدان دعم وتأييد الجماهير لتلك الشعارات. وهو ما قد يؤدي من دون أدنى شك إلى تهديد مستقبل الاتحاد الأوروبي، خاصة وأن الألمان بمعظمهم اليوم ضد الاتحاد الأوروبي، ويعزفون عن تقديم الدعم والتأييد له على جميع الأصعدة.

- أكثر المواطنين يتم توريثهم عمداً للمشاركة في النشاطات السياسية. وهو ما أدى وبشكل طبيعي إلى حدوث انهيار في نظم التأثير السياسي على الجماهير العريضة، وهو ما يعاني منه المواطنون وخاصة الشرائح الشابة في المجتمع. ومعروف أن الشريحة الشابة في المجتمع تتميز بالحركة الدائمة التي تجعلها دائماً في طليعة أي تجديد يطالب فيه المجتمع. وأن تعرض الجيل الشاب لأية حالة من القلق السياسي قد تؤدي إلى فقدان دعمهم وتأييدهم للسياسات المطروحة للسنوات القادمة.

وأشارت بعض الدراسات إلى انخفاض كبير في مدى خصوصية تلك الشعارات المطروحة، رافقه ضعف ملحوظ في الدعم والتأييد المطلوب لتلك الشعارات، الأمر الذي أدى إلى فقدان دعم وتأييد الجماهير لتلك الشعارات. وهو ما قد يؤدي من دون أدنى شك إلى تهديد مستقبل الاتحاد الأوروبي، خاصة وأن الألمان بمعظمهم اليوم ضد الاتحاد الأوروبي، ويعزفون عن تقديم الدعم والتأييد له على جميع الأصعدة.

وظاهرة فقدان السياسات الحكومية للدعم والتأييد المطلوب ليست جديدة، وقد حللها الباحثون الأمريكيون في العلوم السياسية خلال خمسينيات القرن الماضي وخرجوا بنتيجة أطلقوا عليها تسمية «الغربة السياسية». وفسروا الغربة السياسية بأنها من طبيعة المواطنين الذين يعانون من

وأظهرت بعض الدراسات التي أجريت على مضامين القوانين الضابطة للنشاطات

تكون صحيحة، لماذا؟ لأنّ المواطنين أضحوا أقل اهتماماً بتصرفات الإدارة الحكومية، وتصرفات الأحزاب السياسية، وتصرفات البرلمانيين، وأقل اهتماماً حتى بشخصية القائمين بتلك التصرفات. ولكنهم كانوا مهتمين دائماً بأولئك القادرين على حل مشاكلهم الاجتماعية، إضافة لاهتمامهم بطرق معالجة مشاكلهم غير القابلة للتأجيل. وكان من الطبيعي في المجتمع المدني وفق التقاليد الأمريكية فرز أسماء القادة السياسيين في المجتمع إلى تقليديين أو محافظين أو غير تقليديين (مجددين). وسرعان ما انتشر هذا المفهوم لاحقاً في بلدان أخرى من عالمنا المعاصر.

ومنه يمكن أن نستنتج أن الغربة السياسية رافقتها في الدول الديمقراطية الحديثة تطور اقتصادي الغاية منه تحقيق رفاهية عالية المستوى للسكان.

وعلى الرغم من ذلك شهدت علاقة السكان بالسياسات الحكومية تدهوراً ملحوظاً، وأصبحت تستدعي ضرورة بذل الجهود لتوفير الدعم والتأييد الاجتماعي للسياسة الحكومية، قبل أن يحدث انهيار كارثي للسياسات الحكومية التي يمكن أن تهز كيان دول بكاملها.

والنظم السياسية كما هو معروف تقوم بالرقابة على توزيع الخيرات المادية في

مشاكل اقتصادية وليس لهم دخل ثابت يعتمدون عليه، وهو ما يؤدي إلى معاناتهم الحياتية بسبب انخفاض مستوى حياتهم المعيشية. واقترحوا لتصحيحها تحسين أوضاع الفقراء المادية والاقتصادية، ورفع مستوى التعليم في المدارس.

ولكنّ الباحثين في مجالات العلوم السياسية الأمريكيين وجدوا خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضي أن الأوساط الرافضة شملت حتى شرائح اجتماعية عليا، وأنّ الغربة السياسية كانت نتيجة لعشوائية تسويق علاقات سياسية سلبية داخل المجتمع، وبسبب التداخل الحاصل بين النشاطات السياسية والعلاقات العامة ونشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وأن ما طرحته برامج الإذاعتين المسموعة والرئية كان يخلط بين البرامج الإخبارية والترفيهية والتحليلية، مما أدى بالتالي إلى ابتعادها عن التحليلات الجدية للأحداث السياسية الجارية، على نقيض مواد وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية المطبوعة (الصحف والمجلات) التي تمكنت من عرضها وتحليلها أكثر.

وأظهرت بعض الدراسات انخفاضاً مستمراً في أعداد المواطنين المهتمين بالسياسة، وشكك الخبراء في صحة أو عدم صحة نتائج تلك الدراسات. وتوقعوا أن

المجتمع، وتعمل على حل المشاكل التي تعترض توزيع تلك الخيرات، وتحتاج من أجل ذلك لدعم من الموارد الاجتماعية والمادية على حد سواء. وفي حال غياب الدعم اللازم يعجز النظام الاقتصادي القائم عن أداء وظائفه المحددة على المدى الطويل، ويكون عاجزاً عن أداء دوره الاجتماعي. وفي هذه الحالة يصبح النظام السياسي بحاجة لمستوى كافٍ من الدعم والتأييد الاجتماعي للقيام بدوره، وفي هذه الحالة لا بد من القيام بأعمال جديدة ودؤوبة في مجالات الاتصالات الجماهيرية والعلاقات العامة.

٢- تغييرات نظم وسائل الاتصال

والإعلام الجماهيرية؛

شهدت نظم الاتصال والإعلام الجماهيرية ووسائلها خلال العقود الأخيرة تغييرات هائلة، طالت حتى وظائف الاتصال السياسي والعلاقات العامة من خلال وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في المجتمعات المعاصرة. لماذا؟ لأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تقدم للمساحات الإعلامية حقائق ومواضيع كثيرة، وتضعها في متناول كل الشرائح الاجتماعية لمناقشتها وإبداء الرأي حولها، وتوفر الفرص للقيام بنشاطات اجتماعية مشتركة ناجحة. وقد يعترض البعض على هذا لأن وسائل

الاتصال والإعلام الجماهيرية بالكامل تعتبر سوقاً اجتماعية لها مقاييسها الخاصة. ووظائف وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تعتمد على وجهات نظر معينة، وتستطيع تلبية حاجات ساحة إعلامية مستهدفة كبيرة، وتستطيع زيادة الطلب على منتجاتها المعلوماتية بغية الحصول على موارد مالية ضخمة. ولكن بعض الخبراء يعتبرون مثل هذا المدخل غير كاف ولا يمكن اعتباره حلاً نهائياً للمشاكل التي تواجه نشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. لماذا؟

لأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تعمل على تحقيق تكامل في المجتمعات الحديثة، ومن أجل ذلك لا بد من تحليل نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، وبحث علاقتها المشتركة بالمجتمعات والنظم السياسية القائمة.

وتظهر بعض الدراسات أن الدول الحديثة تعاني فعلاً من تضخم شمل قطاع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بكامله. وحدث ذلك بعد أن كان تطورها التكنولوجي والاقتصادي يجري حتى ثمانينيات القرن الماضي على نطاق ضيق، ورافقه إغلاق الكثير من قنوات البث الإذاعي المسموع والمرئي أو اندماجها، ورافقه ارتفاع كبير في أسعار الورق ونفقات الطباعة.

الاتصال والإعلام الجماهيرية أعباءً إضافية لتجنب الإفلاس والإغلاق.

ورغم أن التوسع الحاصل في مجال تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية إلا أنها واجهت عمليات تركيز واندماج، وجاءت في معظمها بدول العالم على شكل قيام شركات إعلامية كبيرة عابرة للقارات، قادرة على الصمود والاستمرار بالعمل. ورافق تلك العمليات انخفاض ملحوظ في أعداد الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية.

وبدأ بظهور لاعبين دوليين جد في قطاعات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بعيدين كل البعد عن الإعلام التقليدي الخاضع للأنظمة والقوانين والمصالح الوطنية.

وأول ما فعله اللاعبون الجدد هو حذف البرامج السياسية الوطنية، بانتظار إلغاء الرقابة الحكومية، الأمر الذي ينتظرونه من السياسيين المؤيدين لخطهم الجديد. وطبعاً هذا يمكن أن يحدث في حال عدم تفهم الشخصيات الحكومية لنتائج تجاوز السياسة الإعلامية الوطنية وإلغاء الرقابة الحكومية على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، والتي لا بد أنها ستؤثر سلباً على مواطني الدولة والعاملين في مجالات الاتصال والإعلام الجماهيري الوطني على حد سواء.

وجاء التطور التكنولوجي لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الذي أعقب تلك الفترة التاريخية ليوفر إمكانية زيادة وتوسيع إنتاجها. وعلى الرغم من ذلك شهدت قنوات البث الإذاعي المسموع والمرئي انخفاضاً ملحوظاً في البرامج الإخبارية السياسية، ليحل مكانها بالتدريج برامج ترفيهية بحتة.

وسرعان ما احتلت مكانها الشبكة العنكبوتية الدولية «الإنترنت» وأخذت تواجه ظروف التزايد المتصاعد لكميات الأخبار السياسية والعلمية والثقافية على حد سواء، وهو ما لمسه خلال العشرين سنة الأخيرة، ولكنها بقيت خارج التوسع المتزايد في وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، لماذا؟

لأنها شكلت تركيبة جديدة دخلت خلسة إلى عالم الاتصال والإعلام الجماهيري. وبدأت وسائل الاتصال والإعلام الجماهيري تفقد معها بالتدريج موقعها التقليدي في سوق المعلوماتية حتى في الدول المتقدمة. وحتى أن الاتحاد الأوروبي اعترف بأن المعلوماتية ما هي إلا جزء من بضائع يتداولها السوق المعاصر، ولا يجب تمويلها على حساب دافعي الضرائب، بل عليها الاعتماد على التمويل الذاتي كشركات تجارية قابلة للربح والخسارة. الأمر الذي فرض على وسائل

وكما هو معروف رافق توسع تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية إلغاء السياسات الإعلامية الوطنية، ورافقته تغييرات في تكنولوجيا وطرق أداء العمل الصحافي بشكل كامل، والأمثلة على ذلك كثيرة. حتى إن أكثر الباحثين العلميين في مجالات الاتصال والإعلام الجماهيري والعلاقات العامة تحدثوا عن نقشي نواح سلبية في الإعلام الجماهيري المعاصر، وتحدثوا عن تزايد النزعات الفردية التي أضعفت نوعية الإعلام المحترف ليحل مكانه إعلام ترفيهي، أدى إلى إغراق الساحات الإعلامية بإعلام سطحي لصرف أنظار المجتمعات عن قضاياها الحياتية المصيرية.

واعتبر الخبراء أن كل ذلك يمكن تحليله من خلال نظريات القيم المعلوماتية (Theory of Information Value)، التي أعدها جوهان جالتونغ Johan Galtung، وماري هوليه روغ Mari Holmoe Ruge، الباحثة النرويجية في مجال مشاكل السلام. وأشارا فيها إلى أن المعلوماتية تلبي مبادئ السلبية والفردية والبساطة النسبية، والقصر، وهي جديدة ومفاجئة وتلقى اهتماماً كبيراً لدى الساحة الإعلامية.

وأضافوا أنه بقدر ما يكون التركيز في

سوق وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، بقدر ما تتطور المبادئ المشار إليها أعلاه بقوة. لماذا؟ لأنها تتمتع بتأثيرات سلبية أكثر مما هي إيجابية.

ومن النظريات السائدة، أن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية أخذت تتقارب مع وسائل الإعلام الفردية، وظهر هذا في التقارب الذي رافقته حالة من التقسيم أدت إلى مفهوم أنه بقدر ما يكون هناك تنافس بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، والمشاركين الفرديين في ساحة الاتصال والإعلام الجماهيرية، بقدر ما يكون هناك تقارب أكثر. ولاحظ مستهلكو المادة الإعلامية أن التقارب هو أكثر بين وسائل الإعلام الجماهيرية والفردية، ومع ذلك يدفعون ضرائب لتمويل الإذاعتين المسموعة والمرئية الجماهيرية أكثر من ذي قبل.

ولوحظ في بعض دول أوروبا الغربية أن الإذاعتين المسموعة والمرئية تحولتا بالفعل إلى شركات خاصة، من حيث مضامينهما وبرامجهما، حتى إنهما أصبحتا أقرب للقنوات الخاصة، ومع ذلك فهما تمويلان من أموال الضرائب والتبرعات. وعلى الرغم من أن هذه الشركات غدت تملك ساحة إعلامية ضخمة، إلا أنها لم تستطع الصمود في السوق الإعلامية.

السياسية التي تستخدمها، وأنها عززت أساليب غير مألوفة في تنظيم نشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، ورافقه تعزيز ظواهر سلبية وفردية القصد منها الإثارة، وهو ما خفض من مستوى نوعية المادة الإعلامية وحولها إلى مواد استهلاكية بعيدة عن الحقيقة والنقد، وعن حب المعرفة، وخلق ظروفًا غير ملائمة لتطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الرصينة على المدى الطويل.

٣- العلاقة المتبادلة بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والنظم السياسية والحكومية في الظروف المعاصرة:
من أجل فهم عملية ترشيد الاتصالات السياسية والعلاقات العامة التي تتمتع بأهمية كبيرة في الدول الحديثة بشكل صحيح، لابد من فهم طبيعة العلاقات المتبادلة بين نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والنظم السياسية والعلاقات العامة القائمة بشكل عام.

ويمكن في هذا المجال الاعتماد على المبادئ الأساسية لنظرية النظم السياسية، التي أعدها ت. بارسونس. وفقاً لنظرية النظم السياسية يمكننا تصور نظاماً اجتماعياً يتضمن اتجاهات فردية، وتراكيب ثقافية، وكل منها يؤدي وظيفة معينة في النظام الاجتماعي العام، أي في المجتمع.

وعلى الرغم من أن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية اتجهت من خلال التطور الحاصل نحو تخفيض فترات إعادة بث الأفلام والبرامج، إلا أن الأخبار التي تبثها أصبحت أقل جاذبية حيال الأخبار التي تنشرها الصحف أو قنوات الإذاعتين المسموعة والمرئية الخاصة. ورافقتها في الانتشار ظاهرة سرقة الأخبار التي يعدها صحفيون آخرون من دون الإشارة للمصدر. مما جعل من حقوق التأليف المشترك عديم الجدوى في الأوساط الصحفية. حتى إن أحداً لا يتقيد بها عند استخدامه لمعلومات حصل عليها وكتبها أشخاص آخرون.

ورافق هذا الوضع غير الطبيعي غياب النقد البناء، وغياب حب الاطلاع والاستقصاء، وغياب البحث الصحفي في النظم الإعلامية الحديثة. وعلى الرغم من ذلك فإننا لم نزل نصادف مواداً إعلامية تستحق الإعجاب لالتزامها بالمقاييس الصحفية المهنية عالية المستوى على صفحات الصحف والمجلات وحتى في مضامين البرامج الإذاعية المسموعة والمرئية.

والاستنتاج الذي يمكن أن نتوصل إليه من تحليل تطور وتوسع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية خلال العشرين سنة الماضية، أنها أخذت تخفض كمية المعلومات

زيادة الحاجة إلى وسائل اتصال وإعلام جماهيرية يمكنها تلبية احتياجات عالم مشترك بكل مكوناته الثقافية والسياسية والاقتصادية. ومعها تصاعد دور الأفراد، ودور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، للمساعدة على فهم واستيعاب ما يجري في العالم المعاصر من أحداث.

ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تساعد على بناء واقع محدد ومطلوب من قبل القارئ عليها. ولكننا بحاجة لوسائل اتصال وإعلام جماهيرية تساعدنا على العمل والمشاركة في عالمنا المعاصر والمتشابك والمعقد، ومتابعة ما يجري من مراحل في حركة النظم السياسية دائمة التطور، ونظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية على المستويات الاجتماعية المحلية والدولية وحتى الفردية.

وبعض النظريات السياسية في عالمنا المعاصر تشير إلى أهمية وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية للسياسة الحكومية في الوقت الراهن، وتعتبرها مهمة للتفاعلات السياسية أكثر من السياسة نفسها. حتى إن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية غدت قادرة على حل أية مشاكل واردة في جدول الأعمال قبل حدوثها، وقادرة على تحديد أية مشاكل يجب أن تحل قبل غيرها. وحتى إنها غدت قادرة على تحديد من سيكون

وبعد ذلك يمكننا النظر في النظم الاجتماعية المرتبطة بغيرها من النظم. وعلى سبيل المثال: النظام السياسي يرتبط بنظام وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وكل نظام عليه القيام بترشيدات وتجديدات متنوعة، من أجل تحسين صلاته بغيره من النظم، ومن أجل ضمان أداء الوظيفة العامة للحياة المشتركة. لا بد من دراسة:

- وظيفة النظم السياسية التي تقوم بإعداد الحلول؛

- وظيفة نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التي تضع المسائل المطروحة للمناقشة على أوسع نطاق بغية توفير تكامل النظام الاجتماعي بكل أجزائه شرائحه المتنوعة.

والنظم السياسية عادة تواجه صعوبات كبيرة أثناء أدائها لمهامها. ناتج عن:

- فقدان الدعم والتأييد الاجتماعي لأسباب ناتجة عن صعوبة دراسة سير أية قضية وشيوعها داخل المجتمع؛

- ولأن وظائف وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية هامة جداً في المجتمعات المعاصرة.

وهو ما أوضحته الظروف التي سادت بعد انهيار النظم الاشتراكية في المجتمع الدولي. ورافقه بروز دور الأسواق العالمية في القضايا الدولية، الأمر الذي تطلب

الجارية من خلال وجهة نظر معينة، ظهر أنها تخدم تطلعات الأحزاب السياسية. ومن الأمثلة على ذلك على الساحة الإعلامية الأوروبية التقارب الحاصل بين رجل الإذاعة المرمية الأول مالك الشركات الألمانية الشهيرة RTL و CLT، مع الحزب الاجتماعي الديمقراطي، فالسيد كيرتش (Kirch) يملك أجزاء ضخمة حتى في غيرها من قنوات الإذاعة المرمية في ألمانيا، ومعروف بميوله المحافظة، وهو صديق للسيد كوليا، ولكننا في النهاية نلاحظ تأثير الحزب على الإذاعتين المسموعة والمرئية، حتى إن علاقتهما قيمت كوسيلة لفرض الرقابة الحكومية على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وحتى الصحفيين ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية لم يخفوا زيادة محاولات الشخصيات السياسية للتأثير على نشاطاتهم.

وهناك نظرية يطلق عليها تسمية نظرية «نظم السوبر»، وتشير هذه النظرية إلى أن تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والنظم السياسية يجري ضمن نظام واحد، والهدف منه الرقابة على ما ينشر للمواطنين، وأنها تتضمن الأشخاص أنفسهم ولها التركيبة الاجتماعية نفسها، ولو أنها غير ملموسة إلا أنها باقية ومستمرة.

وحتى لو كانت كل النظريات مناسبة

رئيس الجمهورية الجديد. الأمر الذي سمح للباحثين في المجالات السياسية والإعلامية والاتصالية والعلاقات العامة باستخدام مصطلح ال(التليكراتيا - telecracy) بدلاً عن مصطلح الديمقراطية، ومصطلح (الانتخابات التلفزيونية - telelections) بدلاً عن مصطلح (الانتخابات - elections).

وأشار الكثير من الباحثين إلى حصول جفاف مستمر في وظائف السياسة الحكومية، وأنها أخذت تدريجياً بالتحول إلى وظيفة إدارية بحتة ولكن بواقعية أكثر. وهناك قراءات نظرية أخرى تشير إلى أن السياسات الحكومية تعي مدى الانتصار الذي حققته وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية على الصعيد العملي، ومع ذلك أخذت الحكومات تبذل جهوداً حثيثة للحد من تأثيرها على المجتمع.

وتشير القراءات النظرية إلى أن السياسات الحكومية تتجه نحو فرض المزيد من الرقابة على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. والدليل على ذلك مراعاتها حتى من قبل شبكات الاتصال الشخصية القائمة في العلاقات بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، والشخصيات السياسية.

ومن دراسات تأثير الحملات الإعلامية

لنشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والعلاقات العامة إلا أنها متفاوتة، لأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والعلاقات العامة تعتبران عاملاً هاماً لحصول النظم السياسية على الدعم والتأييد الاجتماعي. وحتى إن الحجج المستخدمة لا تشرح الدور المناسب لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وسلبية في المجتمع، إلا أنها لم تزل بحاجة للدراسة والتحليل لتقديم حجج مقنعة.

٤- بنية المجتمع في الدول الحديثة:

في السابق وصف المجتمع بأنه عبارة عن جماعات بشرية محدودة تلتقي لبحث قضايا اجتماعية مشتركة بقصد خلق رأي عام موحد في المجتمع. وتشكل الكتل البشرية عادة الرأي العام، وكان المفكرون والمواطنون الواعون في الماضي يطالعون الصحف باهتمام. وهو ما اصطلح على تسميته في الكثير من دول العالم المتقدم بـ«المجتمع المدني»، ولكن خلف هذا المصطلح تقف جملة من النظريات، ومنها النظرية التي وضع أسسها يورغن هابيرمانس (Jurgen Habermas). وهابيرمانس عالم اجتماع مشهور أسس المدرسة الفرانكفونية (١٩٦٨م)، مع مجموعة من الباحثين الناقدين المتمسكين بالمبادئ الماركسية.

وأشار هابيرمانس في كتاباته إلى أن

المجتمع المدني وجد قبل بداية الفترة المعاصرة التي نعيشها، وإلى أن تطور الديمقراطية أدى إلى توسع أعداد المشاركين في عملية تكوين الرأي العام.

وأصبح من الممكن القول: إن الفترة المعاصرة تتألف من اجتماع عام كبير، يشارك فيه كل أعضاء المجتمع. وأصبح ذلك ممكناً من خلال تحسين المقاييس التعليمية، وتطوير الصحافة، ورفع مستويات الأوضاع الاجتماعية. وأصبح من الممكن تسمية هذا التطور بالفردية، لأنه حرر الإنسان من التبعية، والفقر، والجوع، والامية.

ولكن التصور الذي وضعه هابيرمانس عن الوسط الاجتماعي غير واقعي حتى الآن. لماذا؟ لأن المجتمع الحالي مقسم إلى أجزاء، وكل جزء منه مكون من مجموعة لها مصالحها الخاصة، ومفرداتها الخاصة، ووسائل اتصالها الخاصة. ولأن عدد هذه المجموعات أخذ بالازدياد نتيجة لتفشي الفردية في عالم الاتصال الجماهيري، وازدياد أعداد وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تقوم اليوم بإعداد مواد وبرامج بمقاييس جديدة، وتقوم بإعداد وثائق خاصة بها، القصد منها خلق تداخل في الأوساط الاجتماعية، والتجاوب مع الأحداث

والتطورات والتغيرات الطارئة، بحركة دائمة من دون توقف. وآخر الأبحاث أظهرت أن «الوسط الاجتماعي» الجديد يتجه نحو العزلة والتفوق. مما يصعب من عملية تبادل المعلومات بين الجزر الاجتماعية المختلفة، ولكن الأصعب هو تنظيم عملية التغطية الكاملة لأي حدث بشكل متساوٍ للجميع.

وهنا يبرز سؤال كيف تؤثر هذه الظاهرة على السياسة الحكومية؟ والجواب يأتي جزئياً من أن السياسيين أصبحوا مجبرين على التأقلم مع إستراتيجية الاتصال والإعلام الجماهيرية الحديثة بشكل مضطرب مع تزايد أعداد جماعات الوسط الاجتماعي، خاصة وأنه لم يعد ممكناً عملياً في الدول الحديثة التعامل مع الأوساط الاجتماعية كطبقة واحدة.

وحتى اليوم طرحت مختلف التنبؤات حول تطور الأوساط الاجتماعية، ولكن الحقيقة تظهر أن القوة الرئيسية القادرة على خلق الرأي العام ما هي إلا مجموعة صغيرة من قادة الرأي الذين يتمتعون بعلاقات واسعة على مختلف الأصعدة في مجالات الحياة الاجتماعية. وهذه العلاقات ومع الأسف الشديد لا تتفق مع المبادئ الديمقراطية لأنها مفروضة من قبل الغير، ولكنها تتناسب طرذاً مع كمية المعلومات المتداولة داخل

المجتمع الواحد. وهي جزء من نظريات علوم الاتصال التي اصطلح على تسميتها بنظريات فصم المعرفة (Knowledge-gap-Theory).

٥- النظم السياسية وترشيد الاتصالات السياسية:

الاتصالات السياسية كفكرة لها اتجاهات متعددة والكثير من التفسيرات. ولكن الاتصالات السياسية بحد ذاتها تأتي كمضمون لعملية الاتصال في إطار النظم السياسية، وفي إطار المجتمع. ومن ضمن هذين الإطارين تتضمن أهدافاً من خلال كل العمليات الجارية لخلق رأي عام مؤثر في حال اتخاذ قرارات سياسية معينة، وتلعب العلاقات العامة دوراً هاماً فيها.

ويظهر الواقع الحالي تقهقراً متدرجاً لمجالات الاتصالات السياسية والعلاقات العامة المؤثرة في إطار النظم السياسية، في الوقت الذي يلعب المجتمع الدور الأكبر كما هو الحال في المجتمعات المعاصرة، فيما يتعلق بالنشاطات السياسية نفسها.

ويمكن القول: إن الأحزاب السياسية اتخذت حتى اليوم قرارات إستراتيجية تعتمد على مبدأ «من الأسفل إلى الأعلى» ولكن ظهر أنها غير هامة وليس لها مكانة هامة في عملية اتخاذ القرار السياسي النهائي.

ومن المتعارف عليه أن الاتصال السياسي والعلاقات العامة هما تعبير عن النوايا السياسية المراد تحقيقها من قبل الأحزاب السياسية وقادتها. وتتجه النوايا السياسية عبر الاتصال السياسي والعلاقات العامة نحو الحصول على أكبر كمية ممكنة من الدعم والتأييد الاجتماعي.

ويجري عادة الوصول للنوايا السياسية عن طريق الاتصال المباشر والمقصود بين القادة السياسيين والشرائح المستهدفة، أو عن طريق الاتصالات السياسية غير المقصودة أو العفوية عبر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

وتعتبر العلوم السياسية أن الاتصالات غير المقصودة أكثر تأثيراً، لماذا؟ لأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تعتبر وسيلة مضادة لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الإلكترونية وأكثر تأثيراً منها، لأنها تعتمد على المقابلات الصحفية، والمواد والتعليقات التي يكتبها خبراء كبار متخصصون في الاتصال الجماهيري والشؤون السياسية والإعلامية والعلاقات العامة وغيرها من المجالات.

وهنا يجب أن نشير إلى أن النشاطات الصحفية تهدف دائماً إلى إيجاد مظاهر إيجابية لعملية الاتصال السياسي والعلاقات العامة، ولكنها في الواقع تضعفها وتختصرها

في حدود النظم السياسية، من خلال جهود الاتصالات السياسية والعلاقات العامة الجارية داخل المجتمع الواحد. لأنه وكما هو معروف أن النظم السياسية تحاول الحد من عمليات الاتصالات السياسية الممارسة من خارج الأحزاب السياسية والأجهزة البرلمانية، والتي هي من أكثر الاتصالات السياسية المتبعة. ومن ضمنها تأتي نشاطات النظم السياسية الهادفة للحصول على الدعم والتأييد الاجتماعيين، وخاصة من خلال:

- الاتصالات السياسية؛
- الدعاية السياسية؛
- المشاركة السياسية؛
- التعليم السياسي.

وزادت هذه النشاطات بشكل كبير خلال العشرين سنة الأخيرة. حتى إنه أصبح من الممكن القول: إن عمليات الاتصال السياسي والعلاقات العامة الممارسة من خارج الأحزاب السياسية والأجهزة البرلمانية تعني وظيفياً زيادة كبيرة في أعداد المحترفين المشتغلين في مجالات: العلاقات العامة، والاتصالات السياسية، والتعليم، والمشاركة السياسية. والعملية ليست فقط في الكمية بل في النوعية، لأن العلوم الاجتماعية سارت بعيداً نحو الأمام وتنوعت معها خصائص المؤسسات السياسية والاجتماعية والإعلامية.

خلق «مسببات معلوماتية»، أو حدث مشابه، كان لا يمكن أن يحدث لو لم تتناوله وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. ويعتقد الباحثون أن أكثر الأحداث السياسية تجري واقعياً عن طريق خلق مسببات معلوماتية مصطنعة.

- **الفردية:** التي تركز الاهتمام على القادة السياسيين والمرشحين، وفي الوقت نفسه تعمل على تخفيض الاهتمام بالأيديولوجيات وبرامج الأحزاب السياسية. وأثناء تحديد الملامح الشخصية للمرشح يجري تقديمه للساحة الإعلامية وكأنه قادر على فعل كل شيء، وقادر على حل أي معضلة سياسية. وعلى هذا الشكل تتراجع الصراعات الدائرة حول برامج الأحزاب السياسية إلى الخط الثاني.

- **السلبية:** وتعني اتباع «إستراتيجية سلبية» في الحملة السياسية، عن طريق مختلف الوسائل المدروسة بدقة، وقبل كل شيء عن طريق نشر معلومات سلبية عن الخصوم السياسيين.

ويقوم بمثل هذه الأعمال متخصصون جدد في الاتصال والعلاقات العامة. وهم قادرون على تنظيم حملات إعلامية لحزب أو مرشح معين خلال فترة قصيرة، وقادرون على إعطاء اتجاه جديد لعملية الاتصال

وفيما يتعلق بخصائص مؤسسات الاتصال السياسي والعلاقات العامة يمكن القول: إن السياسة غدت تستخدم تقنيات معينة، وتستخدم أساليب صحفية حديثة وقوية أكثر بكثير من الماضي. حتى إن الاتصال السياسي والعلاقات العامة أصبحتا في مجال السياسة الحكومية تقدمان المعلومات بشكل جزئي على الشكل المتعارف عليه في الصحافة.

وأصبح الاتصال السياسي يوجه بأساليب عالية الجودة في مجال المعلوماتية نحو الاختصار، مع الإقلال من النواحي السلبية، والإقلال من النواحي الفردية. وهو ما أطلق عليه مصطلح (الأمركة في الاتصال السياسي). التي تهدف الحصول على أقصى درجات الانتباه من قبل المواطنين والصحفيين على حد سواء. من خلال الخصائص التالية:

- **اختصار الوقت:** من حيث المبدأ هذا يعني أنه يجب ربط الخبر السياسي بشكل أقل مع الحوار العام، أو ربطه بأحداث متوسطة المدى. ويعني أيضاً أن المواضيع المطروحة للنقاش والقضايا المتكونة خلال فترة قصيرة، يتم إدراجها بسرعة في جدول الأعمال. ويجري اختيار المواضيع على هذا الشكل من أجل تكوين موقف سياسي خاص. وطبعاً كلها مرتبطة بالتقنيات، ومنها

السياسي والعلاقات العامة، مثل: تحويل سلبية المرشح «إلى اتجاه معاكس» تماماً.

ومن الأمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية عن أولئك المتخصصين، الفيلم الهوليودي «الذئب يفرض على الكلب»، الذي تحدث عن أساليب نشر شائعات عن مغامرات الرئيس مع متدربة شابة قبل بضعة أيام من الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية.

حتى إن المتخصصين نجحوا بفرض حرب ضد ألبانيا، وكلها كانت أحداث جرت على صفحات الصحف فقط، ولم تكن أكثر من تكدير للمياه، من أجل صرف أنظار الجماهير عن الحقائق الموضوعية. والأمركة من جانب تنقل وباستمرار المستجد في الاتصالات السياسية، ولكننا من جانب آخر لا نشك في مدى تأثيرها السلبي على الأوساط الاجتماعية.

٦- تأخير الأمركة على الاتصالات

السياسية:

تناولت دراسات الاتصالات السياسية الحديثة بالتحليل نتائج الحملات الانتخابية. لماذا؟ لأن الحملات الانتخابية هي الأكثر حداثة في الاتصالات السياسية، والأمركة تعتبر رمزاً لها. وعلى سبيل المثال، خلال المراحل القصيرة للحملات الانتخابية اكتشف أنها تحظى باهتمامات إضافية

في المجتمع. وأن الحملات الانتخابية لا يمكن أن تؤثر أبداً على جاذبية الأحزاب السياسية كأحزاب، بل على العكس تزيد من الانقسامات الحاصلة أثناء الحملات الانتخابية. حتى إنه يمكن اعتبار الحملات الانتخابية على المدى الطويل مدمرة، ولها أسبابها.

وقد أعدَّ خبراء العلوم السياسية الألمان ما يسمى بنظرية المقصص، التي تتألف من:

- الطبيعة المتخصصة والمستمرة وبمستوى عالٍ للاتصالات السياسية والعلاقات العامة الحديثة لتلبية ما ينتظره المجتمع منها.

- إن المواطنين ينظرون إلى الشخصيات الحكومية، والسياسيين والمرشحين كمدرء من مستوى مهني عالٍ، وأنهم قادرون على التعامل مع أية قضية بسرعة وب نوعية جيدة.

ولكننا في الواقع نرى أن العملية السياسية تتميز بأنها قضايا طويلة المدى، ومتعددة الجوانب ولا توجد لها حلول واحدة، وتتصهر مع الحياة ببطء. ومن الممكن القول إن العملية السياسية في عالم العولمة الحديثة أصبحت أكثر صعوبة.

وهذين الوضعين يشكلان شفرتي المقصص. ولكن من الممكن أن يكون هذا صعب الفهم عند المواطن الذي يعقد آمالاً كبيرة على

٧- خلاصة:

ومن هذا يمكننا استنتاج أن النظم السياسية التي تفقد الدعم والتأييد الاجتماعي تكون مضطرة لاستخدام الاتصال السياسي والعلاقات العامة بشكل أكثر فعالية.

ويعتبر الاتصال السياسي في العلاقات العامة فعالاً، في حال استخدام مواقف مركبة مستمدة من الثقافة التي أضحت تستخدمها نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الحديثة، والتي يمكن وصفها بقمة صناعة الترفيه، لأنها تمتلك مقدرات فردية، وسلبية، مع قصر الفترة اللازمة لتحليل المعلومات السياسية على المدى الطويل.

وينتج عن استخدام هذين المبدئين عادة قضايا جديدة تواجه النظم السياسية. لأن المراحل قصيرة المدى تعطي نتائج مباشرة، ولكن مراحل المدى الطويل لمثل هذه النظم السياسية تخفض الدعم والتأييد الاجتماعي إلى حد كبير، وهو ما يعتبر في الاتصالات السياسية والعلاقات العامة الحديثة بديلاً للديمقراطية وللتليكراتيا.

السياسيين، من خلال ما قدمته إليه وسائل الاتصال السياسي والعلاقات العامة، والتي سرعان ما يظهر عدم جدواها، ولتحصل بالنتيجة على نتائج سياسية غير هامة فقط. أي حدوث عزلة سياسية سببها هذا المقص.

والعزلة السياسية هي شكل من أشكال تقبل الجماهير للسياسة، وخاصة لدى الجماهير التي تحصل على المعلومات السياسية عن طريق الإذاعة المرئية فقط. وللإذاعة المرئية تقنياتها المتخصصة، ومواقفها الثقافية والبرامجية، وتقدم تفاصيل أكثر من بدائل الاتصالات السياسية والعلاقات العامة الحديثة. وعادة يؤدي عدم الإطلاع على الأسس المبدئية والأسباب، إلى دفع المؤسسات السياسية للقيام بإجراءات، يمكن التعرف عليها من خلال الصحف، وتؤدي بالتالي إلى عزلة سياسية كبيرة، يتعرض لها الشباب وكبار السن أكثر من غيرهم.

المراجع

- ١- الإنترنت قادم على مرحلة جديدة // عالم الإنترنت، ١٩٩٨م، العدد ٥. (باللغة الروسية)
- ٢- الإنترنت للصحفيين (www.press.ru). (باللغة الروسية)
- ٣- بانارين ي.: التأمين السيكنولوجي للمعلوماتي للأمن القومي الروسي موسكو: ١٩٩٨م. (باللغة الروسية)

- ٤- بوفت غ.: لمن ستكون الحياة جيدة على الأرض. // موسكو: صحيفة سيفودنيا، ١٤/٧/١٩٩٩م. (باللغة الروسية)
- ٥- بيل غيتس: تكنولوجيا الحاسب الآلي، الطريق إلى القرن ٢١. // HARD'n'SOFT، ١٩٩٨، العدد ١٠. (باللغة الروسية)
- ٦- تأثير اقتصاد الإنترنت على أوروبا المعاصرة // Henley Centre، ١٩٩٩م. (باللغة الروسية)
- ٧- د. صابر فلهوط، د. محمد البخاري: الأمن الإعلامي العربي وهموم المجتمع المعلوماتي في عصر العولمة. دمشق: دار العيسى، ٢٠٠٢م. (باللغة العربية)
- ٨- فيكتور خارسين: هذا هو واقع الفضاء الإلكتروني // الخطر والأمن، ١٩٩٦، العدد ٦. (باللغة الروسية)
- ٩- كينيازيف أ.: الإنترنت ٢ فرع جديد للتطور ٩. // HARD'n'SOFT، ١٩٩٨م، العدد ٥. (باللغة الروسية)
- ١٠- أ. د. محمد البخاري: تقارب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية // دمشق: مجلة المعرفة العدد ٥٥٤ كانون أول ٢٠٠٩م. ص ٢٦٦-٢٧٦.
- ١١- د. محمد البخاري: التبادل الإعلامي الدولي والعلاقات الدولية. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦م. (باللغة الروسية).
- ١٢- د. محمد البخاري: التفاعلات السياسية في وسائل الإعلام الجماهيرية. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦م. (باللغة الروسية).
- ١٣- د. ميخائيل ك. هيرمان: الاتصالات السياسية: تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية على المجتمع في الدول الحديثة. جامعة فاينغارتين التربوية (www. // Padagogische Hochschule Weingarten). (باللغة الروسية) msps.ru
- ١٤- وسائل الإعلام الجماهيرية الحرة. مدرسة العلوم السياسية بموسكو. // www. msps.ru. (باللغة الروسية)

15- <http://www.academy-go.ru/Site/JournalPR/Publications/Herman.shtml>.



جيوإستراتيجيات حربية عبر التاريخ

ترجمة: محمد الدنيا

من دون شك، قبل أن تتوحد في ٢٢١ قبل الميلاد بزمان طويل، عرضة لحملات هؤلاء دائماً. كان مركز الثقافة الصينية، إبان حكم سلالة «هان» Han (٢٠٦ ق.م - ٢١٩م)، يقع شمال «الصين»، مع وادي نهر «يانغتسي» عند أطرافه. وامتدت «الصين» بالتدريج جنوباً مع حكم سلالة «تانغ» Tang (٦١٨ - ٩٠٦م)، ولم يتفوق وادي «يانغتسي» من حيث الثقل السكاني والأهمية الاقتصادية إلا مع سلالة «سونغ» Song (٩٦٠ - ١٢٧٩م). أما الحدود الشمالية، التي لم تكن منطقة توسع كالحدود الجنوبية، فكانت على العكس منطقة دفاعية، مثلما تظهره بدايات «سور

شكلت الكتلة الأوراسية، المحدودة في شمال آسيا الوسطى بغابات «التايغا»، والعالم المتوسطي في الجنوب، مسرح التاريخ العسكري لزمان طويل، منذ بدايات التاريخ وحتى فجر القرن الخامس عشر، أي طوال ما يقرب من ٤٥٠٠ سنة. ولم يمتد خارجها إلا باتجاه شمال أفريقيا.

الصين وإيران

كانت «الصين»، من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن السابع عشر الميلادي، محط أطماع رحّل الشمال باستمرار. وكانت الحضارة الصينية، التي ولدت حول «النهر الأصفر»^(١) إبان الألفية الثانية قبل الميلاد

بأمة و مترجم سوري.

الصين»، الذي لم يكتمل بناؤه إلا في وقت متأخر، في عهد سلالة «مينغ» Ming (١٣٦٨ - ١٦٤٤م). مارس الصينيون في الشمال ضغوط الفتح مرتين؛ مرة في عهد سلالة «هان»، وأخرى في عهد سلالة «تانغ». وقد هدفوا من وراء هذا الفتح إلى السيطرة في الشمال الغربي على واحات الطريق المسمى «طريق الحرير» ودفع الرحل بذلك باتجاه الشمال الأعلى. وإذا كان الصينيون قد وجدوا في الجنوب أراضي صالحة للزراعة تسكنها أقوام حضرية أقل تطوراً منهم، فإنهم لم يصادفوا في الشمال سوى سهوب صالحة لتربية المواشي ورُحْل محاربين يقتنصون كل ما يسبح أمامهم. إلا أن عمليات التوسع الإقليمي الأقوى في التاريخ الصيني، باتجاه الشمال والشمال الغربي، قبل حكم السلالة المنشورية (المانشوية) mandchoue (١٦٤٤ - ١٩١١م)، تعود إلى سلالاتي «هان» و«تانغ». ويعزى ذلك من دون شك إلى أن المحارب لم يكن حتى ذلك الحين يلقي تلك النظرة الدونية من جانب المثقف الكونفوشيوسي الذي أضحى النموذج للمجتمع الصيني.

لم يكف الرحل منذ القرن الرابع قبل الميلاد عن مضايقة «الصين» الشمالية، وغالباً ما كانوا يحتلونهم. كان احتلال هؤلاء الرحل لشمال «الصين» ثابتة في تاريخها.

وكانت عمليات الاحتلال هذه تعقبها ظاهرة نوعية جداً بالتأكيد: تصين sinisation المحتل لغة وأسلوب حياة.. غير أن ذلك لم يكن يغير شيئاً في جيوإستراتيجيا «الإمبراطورية الصينية» التي ظلت خاضعتها الشمالية جرحاً نازفاً دائماً. من جانب آخر، تعرضت «الصين» مرتين للاحتلال الكامل من جانب سلالتين أجنبيتين تتحدران كلتاهما من الشمال: سلالة «يوان» Yuan^(٢) (١٢٧٩ - ١٣٦٨)، وهي من «المنغول»، وسلالة «كينغ» Qing^(٣) (١٦٤٤ - ١٩١١م)، وهي من «المنشوريين».

كان على الرحل، من الناحية الجغرافية، من أجل الاحتفاظ بـ «الصين» الشمالية، أن يتحكموا بهضبة «الأوردوس» Ordos، حلقة «النهر الأصفر» هذه الغائرة في المنطقة السهبية. كان الرحل يسيطرون على «الأوردوس» - ظلت تلك هي الحال طوال ١٥٠٠ من أصل ٢٥٠٠ سنة من التاريخ - كلما توافرت لهم قيادة مناسبة، مستغلين في الوقت نفسه ضعف السلالات الحاكمة، مما كان يمكنهم من أن يصبحوا سادة «الصين» الشمالية بعد غزو ينتصرون فيه، وأن يستولوا احتمالاً على العاصمة القائمة آنذاك: «يان»، أو «تشانغ آن»، أو «لو-يانغ». وعلى العكس، كلما كان يتسنى لـ «الصين» وجود سلالة حاكمة قوية على رأسها، تبادر

كانت الثقافة والكثافة السكانية ميزتي «الصين» طوال التاريخ. في الواقع، تصيّنت ثقافياً جميع موجات الرحّل -كان عديدها قليلاً-، بما في ذلك تلك التي أفلحت في الاستيلاء على كامل الإقليم الصيني؛ حدث ذلك في غضون بضعة أجيال، واندمجت بالسكان المحليين، إذ كانت «الصين» في كل الأزمان كثيرة السكان.

استأنفت السلالة المنشورية، بعد الغزو، سياسة «الصين» التقليدية. وبعد أن أصبحوا سادة «الصين» عام ١٦٤٤م، طارد «المنشوريون» جماعات الرحّل في «دزونغاري» وهزموها إبان حكم الإمبراطور «كانغ - هسي» K'ang - Hsi (١٦٦١ - ١٧٢٢م). وزال خطر الرحل تماماً في نهاية القرن الثامن عشر. وسيشكل التقدم الروسي، ومن ثم سياسة «الأوروبيين» الإمبريالية بعد ذلك، تهديداً خطيراً على نحو آخر في القرن التاسع عشر.

كان الهدف المميز الآخر لرحّل «آسيا الوسطى» هو «إيران». شهدت «الصين» و«إيران» بهذا الصدد أوضاعاً متشابهة نسبياً. كان شمال نهر «أوكسوس» - «آمودريا» اليوم^(٥) - مكاناً لتركّز جماعات الرحّل. كان هؤلاء في بادئ الأمر من «السيكيزيين»^(٦). وقد روى «هيروودوت» أن «داريوس»^(٧) أعدّ في القرن الخامس قبل الميلاد حملة

هي إلى الهجوم للسيطرة على الشمال، وعلى سلسلة الواحات الممتدة على «طريق الحرير» غرباً حتى جبال «تيان شان»^(٨) و«دزونغاري» Dzoungarie (غرب «الصين»، والذي يجتازه منخفض «إيلي» على نهر «إيلي» ويعرف بـ «باب دزونغاري») بشكل خاص. كانت تلك هي الحال في عهد سلالة «هان» (٢٠٢ ق.م - ٢٢٠م) وسلالة «تانغ» (٦١٨ - ٩٠٢م) أو في بداية حكم سلالة «مينغ» (١٣٦٨ - ١٦٤٤م). كانت الهجمات الصينية تشن في بداية الربيع أو في الصيف، عندما تكون الخيول قد تغذت بشكل مناسب.

شهدت الإمبراطورية فترتين متميزتين في عهد سلالة «مينغ»: كانت الأولى، وهي فترة هجومية، تطمح إلى استئناف سياسة «الصين» الإمبراطورية.

وقعت خلال هذه الفترة الحملات الصينية البحرية التي أوصلت الأسطول الإمبراطوري حتى شواطئ «أفريقيا» الشرقية، في الوقت الذي كان «البرتغاليون» قد اجتازوا بالكاد شواطئ «المغرب» الجنوبية. وكانت الفترة الثانية، بدءاً بالنصف الثاني من القرن الخامس عشر، فترة انغلاق، حيث انعزلت الإمبراطورية وتميزت باستراتيجية دفاعية - تأسّس «السور العظيم» فعلياً، وأهمّلت الشواطئ التي كان القراصنة «اليابانيون» يغيرون عليها.

ضدهم من دون أن يُحسن ختامها، إذ لما كانت هذه الأقوام الراحلة تمارس سياسة الأرض المحروقة قبل وصول جيوش العاهل الأخميني دائماً وتؤثر على معنويات جنده، فقد رأى أن من الحكمة أن يتراجع. ثم جاء الخطر بعد ذلك من الناطقين بالتركية، الذين حلوا بالتدريج محل الرحّل «الهندو - أوروبيين» الذين كانوا يشغلون مناطق شمال نهر «أوكسوس» وحتى «أوكرانيا»، من القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي. وكانت قوة الناطقين بالتركية (الذين امتد مجالهم من سور «الصين» حتى «البلقان») قد ظهرت منذ القرن السادس الميلادي في «آسيا الوسطى». وفي «الغرب»، كانت «إيران» طوال تاريخها بعد سقوط «الأخمينيين»^(٨) (الذين حكموا بين ٥٥٠ و ٣٣١ ق.م) في مواجهة قوى كبرى تصارعت معها من دون أن يستطيع أي طرف إحراز نصر نهائي: «الإمبراطورية الرومانية»، و«الإمبراطورية البيزنطية»، ثم «الإمبراطورية العثمانية»، بعد الفتح العربي (٦٤٢) ونهاية السلالة الساسانية.

لم تظهر «أفغانستان»، في «الشرق»، قوة بشكل كاف كي تسيطر على بلاد فارس. جاءت الغزوات على «إيران» من الشمال. ومنذ القرن العاشر، كان ضغط الناطقين بالتركية عليها مستمراً، وإذا كان

«السامانيون» («الفرس») قد أدوا دوراً حضارياً هاماً في القرنين التاسع والعاشر، فإن «إيران» خضعت في وقت لاحق لسيطرة الناطقين بالتركية، مع «السلاجقة»، من منتصف القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثاني عشر. مع ذلك، كان وزير السلاجقة هو «نظام الملك»^(٩) الكبير، الفارسي، الذي كان يتمتع بنفوذ قوي.

إن لم تكن «إيران» قد تميزت أبداً بالكثرة السكانية التي امتازت بها «الصين»، كي تتمكن من أن تتمثل غزاتها، فإنها قد تمتعت مع ذلك، دائماً، بالقدرة الثقافية التي تؤثر بالغزاة الجدد تأثيراً عميقاً. فيما مضى، كانت السلالة العباسية (٧٥٠ - ٩٤٥م) - التي تولت الخلافة في «بغداد» بعد «الأمويين» العرب في «دمشق» - قد تأثرت تأثراً بالغاً بالثقافة الفارسية. وكما لاحظ «رينيه غروسييه» R. Grousset ، فإن «إيران» كانت «إمبراطورية الوسط» الحقيقية. لقد نزع كل سلالة إيرانية قوية إلى السيطرة على المجال الممتد من «سمرقند» إلى نهر «الهندوس». تلك كانت حال «الإمبراطورية الأخمينية» (نحو ٥٠٠ - ٣٣١ ق.م) و«الساسانيين» (٢٢٤ - ٦٤٢م)، و«الصفويين» (١٥٠٢ - ١٧٢٢). وتعزز ذلك من حيث أن الفارسية كانت طوال ألف عام وحتى بداية القرن التاسع عشر اللغة المشتركة

للمجال الممتد من «سمرقند» - «بخارى» حتى «دلهي» - «أغره» في «الهند». ونلمس ذلك أيضاً في الميدان المعماري، وحتى في تصميم الحدائق والمطبخ، الشائع إلى حد كبير من «آسيا الوسطى» حتى «البنجاب».

الهند

كانت «الهند» في كل الأزمان، حتى مجيء الغزو الأوروبي، تُغزى من الشمال الغربي لأسباب جغرافية، حيث أن خاصرتها الشرقية محمية بحاجز جبال «الهملايا». في الواقع، «شبه القارة الهندية» معزولة جغرافياً. أسس اقتحام «الآريين»^(١٠)، نحو ١٨٠٠ - ١٥٠٠ ق.م، لنشوء الحضارة الهندية وابتدأت معه مدهامات متتالية طويلة الأمد، كغزو «الهون الهفتليت» Huns Hephthalites^(١١) في القرن الرابع قبل الميلاد، الذي تبعه غزو سلالة «موريا»^(١٢) الهندية الكبيرة (نحو ٢٢٥ إلى ١٨٠ ق.م)، التي أعطت الشخصية العظيمة والاستثنائية جداً، الإمبراطور «آشوكا» Açoka (٢٧٤ أو ٢٧٣ إلى ٢٣٧ أو ٢٣٢ ق.م). امتدت الإمبراطورية في ذلك الزمن من جنوب هضبة «الدكن» (في الجنوب) حتى القسم الشرقي من «أفغانستان» الحالية. عرفت «الهند» بعد ذلك «إمبراطورية غوبته»^(١٣) (من القرن الرابع حتى نهاية القرن الخامس).

وبشكل عام، لم تشهد «الهند»، بكامل جغرافيتها، سوى فترة تاريخية واحدة كان الحكم فيها من خلال عاصمة، أي فترة «إمبراطورية موريا»، خصوصاً في عهد «آشوكا».

كانت وحدة «الهند» عبر تاريخها ثقافية أكثر منها سياسية. وكانت «الهند» في أغلب الأحيان مقسمة إلى ممالك عديدة، إلا حين تكون تحت هيمنة أجنبية. وتلك كانت حالها في القرن السابع، في زمن «سلطنة دلهي» Delhi في عهد السلطان «علاء الدين خلجي» (١٢٩٦ - ١٣١٦م) ومن خلفوه مباشرة، وإبان «إمبراطورية مغول الهند» في عهد «أورنغ زيب» (١٦٥٩ - ١٧١٧م)؛ وأخيراً تحت حكم «البريطانيين».

سيطروا المسلمون منذ القرن العاشر على شمال «الهند»، ثم على كامل «الهند» بالتدريج، باستثناء أقصى جنوب «التامول». وفي العام ١٥٢٦، سعى «بابر»^(١٤)، وهو من الناطقين بالتركية (جغتاي djagatai)، وكان قد طُرد من «سمرقند» إثر اقتحام شنه «الأوزبيكون»، إلى أن يغزو من جديد ما كان قد خسره، ولكن من دون نجاح، وانكفاً هو نفسه إلى «أفغانستان». وعندما ذهب محاولاته سدى، قرر توجيه حملة باتجاه «الهند»، وانتصر، نظراً لتفوقه في سلاح المدفعية. وكجميع الفاتحين قبله تقريباً، شن

الإسلام لاحقاً هي أيضاً، بطرق سلمية، من خلال التجار المسلمين.

رغم كل شيء، وصل تأثير البوذية من جهة إلى «أفغانستان» («قندهار»)، و«الصين»، و«كوريا»، و«اليابان»، و«التبت» نحو القرن السابع الميلادي، التي جعلت سلالة «يوان» المنغولية الأصل تعتنق البوذية، وبالنتيجة «منغوليا» في القرن الرابع عشر. يقاس تأثير «الهند» بعظمة الإنجازات التي تعود إليها بشكل غير مباشر على صعيد «آسيا» التي اعتنقت الهندوسية: معابد «باغان» في «بورما»، و«بوروبودور» في «جاوة»، و«أنغكور فات» في «كمبوديا». وعلى الرغم من خضوعها مرتين للمسلمين، ثم لـ «الأوروبيين»، لفترات مديدة، تحصنت «الهند» بتراتها ولم تفقده، ونجحت فضلاً عن ذلك في التكيف. كان تأثير الإسلام مديناً بشكل خاص، إلا في «البنغال» الشرقية وفي الشمال الغربي.

كان على جميع الغزوات الآسيوية، سواء كانت غزوات رحل، كغزو «الهنون البيض» Huns blancs، أم كان سببها أبناء السهوب («الغزنويين»، أو «بابر» مثلاً)، أن تعبر بعض الممرات الإجبارية، كمر «خير»^(١٥) أو «بولان» Bolan، أي «بلوشستان»، قبل الوصول إلى المناطق الحدودية من السهل الغانجي الهندي. ليس مستغرباً أيضاً أن

المعركة في سهل «دلهي» بعد أن اجتاز مناطق جبلية، ثم صحراوية. وانتصر في معركة «بنيبات» Panipat، رغم قلة عدد جيشه. ومن المهم أن نلاحظ أن سهل «دلهي» قد أدى بالنسبة لـ «الهند» الدور الذي أدته «أدرنة» (عاصمة «العثمانيين» على نهر «ماريتسا» قرب الحدود اليونانية) في تاريخ المعارك التي وقعت عند أطراف «القسطنطينية»: أحد تلك الأماكن التي غالباً ما التقت فيها الجغرافيا والتاريخ. وخلافاً لبلدان آسيوية أخرى كبيرة مثل «الصين»، لم يكن التأثير السياسي لـ «الهند» ملموساً خارج «الهند». لقد مارست تأثيرها على المستوى الثقافي. كانت هنالك «آسيا» صينية أو مصيئة: هيمنة صينية على «كوريا» حتى القرن الرابع، وعلى «فيتنام» حتى القرن العاشر، وتأثير غير مباشر على «اليابان»، من القرن الرابع حتى سقوط سلالة «تانغ»، عبر «كوريا».

كذلك الأمر، ولكن بوسائل سلمية، مارست البوذية، التي ولدت في «الهند» ولكن انتشرت خارجها، تأثيراً عظيماً على جنوب شرق «آسيا» و«آسيا» الشرقية: يمكن الحديث إذاً عن «آسيا» هندوسية. ونعني بها «سيلان»، و«بورما»، و«كمبوديا»، و«لاوس»، و«تايلاند»، و«إندونيسيا» التي دخلها

تكون الجماعات السكانية الأشد ميلاً إلى القتال في شبه القارة الهندية هي جماعات «السيخ»، و«البنجابيين»، و«الماراثيين»، و«الراجستانيين»، مركزة في شمال غرب البلاد، من حيث تدفق الغزاة. بالمقابل، كانت «البنغال»، المحمية جيداً بالجغرافيا، والتي لم تتعرض مطلقاً تقريباً للغزو، معروفة بشكل خاص كمقاطعة شعراء وفنانين.

آسيا الصغرى ومصر

قليلاً جداً ما تغيرت الحدود بين «الأناضول» و«إيران»، خلال ما يقرب من ألفي عام، إلا حينما كان يمكن لإمبراطورية واسعة الامتداد أن تسيطر على مجمل «آسيا الأمامية» *Asie antérieure* و«آسيا الوسطى» شمال «الهند». كنا نجد الحدود نفسها تقريباً بين «الإمبراطورية الرومانية» و«البارثيين» *Parthes*^(١٦)، و«الإمبراطورية البيزنطية» و«الساسانيين»، وبين «تركيا» و«إيران». وبقيت «أرمينيا»، في هذا التوازن، تشكل لزمن طويل جداً الدولة - الحاجز (الدولة التي تقع بين قوتين عظميين متنافستين أو متخاصمتين احتمالاً فتقل بذلك من إمكانات الصدام والنزاع) التي كانت القوتان المتنافستان تتنازعان تحالفها أو ولاءها. وإذا كانت القوة التي تتحكم بـ «الأناضول» تجد نفسها بذلك محاصرة من الشرق، فقد كان منطقتها الجيوإستراتيجي

يحتّم عليها التوغل باتجاه «البلقان» جنوب نهر «الدانوب». وكان المفتاح الإستراتيجي لهذا التوسع هو «أدرنة»، «أندرينوبولس» القديمة، أو «فيليبوبوليس». وشكل الممر السوري - الفلسطيني مجال التوسع الممكن الآخر. وعندما تكون الظروف مواتية وتجد الإمبراطورية نفسها على جانب من القوة، فإنه كان يمكن للمنطق الجيوإستراتيجي للإمبراطورية، التي تكون قد توطدت ابتداءً من «الأناضول»، أن يسعى إلى مدّ هيمنتها على مجمل حوض «البحر الأبيض المتوسط» الشرقي. تلك كانت حال «الإمبراطورية البيزنطية» و«الإمبراطورية العثمانية».

كانت مصر، «هبة النيل»، بحاجة إلى التحكم بمجرى «النيل» حتى الشلال الرابع. وقد ربط «البريطانيون» مصير «السودان» بمصير «مصر» إبان الفترة الاستعمارية. «مصر» محمية غرباً وشرقاً بالصحراء؛ كذلك الأمر جنوباً في جزء كبير منه.

عاشت «مصر»، لزمن طويل جداً أيام الدولة القديمة، والجزء الأكبر من الدولة الوسطى، أي طوال ما يقرب من ١٥٠٠ سنة، محميةً بالجغرافيا وعدم وجود قوى عظمى مجاورة. كان التهديد يأتي من الشمال الشرقي، حيث تؤدّي «سيناء» دور الحاجز. وقد جاء «الهكسوس»^(١٧) من الشمال الشرقي. كانت «مصر»، كلما

تلك هي جيوإستراتيجيا بعض البلدان عبر التاريخ قبل أن يؤدي اقتحام «الأوروبيين»، المزودين بتسلح وتقانة أجدى بكثير، إبان القرنين الأخيرين، إلى تغيير أو قلب هذه المعطيات جزئياً. من البدهي أنه وُجدت جيوإستراتيجيات مألوفة أكثر، أقرب إلى الوقت الحاضر، كانت حاسمة، أو هي كذلك الآن. ولم تكفَّ «بريطانيا»، القوة الجزيرية، عن التصدي للقوة القارية الأكثر تهديداً («إسبانيا»، و«فرنسا» مرتين، ثم «ألمانيا»)، بالتحالف مع أولئك الذين ألقاهم هذا التهديد بالهيمنة.

استطاعت ذلك أو كلما تشكل تهديدٌ ضدها، كتهديد «الحثيين»^(١٨)، تسعى إلى الحصول في إطار إستراتيجية هجومية / دفاعية على عمق غسراتيجي من خلال تحكمها بقسم من الممر السوري - الفلسطيني، وعلى نحو مثالي حتى «الفرات». وقعت معركتا «مجدو»^(١٩) و«قادش»^(٢٠)، أقدم معركتين معروفتين، في هذا الممر تحديداً. أما بالنسبة للدول الصغيرة، الموجودة في «الهلال الخصيب»، فلم تستطع أن تكون في أمان إلا في غياب وجود دولة عظمى زائدة القوة في «آسيا الصغرى» أو في «مصر».

الهوامش

- ١- النهر الأصفر (هوانغ هو): يقع في شمال «الصين»، بطول ٤٨٥٠ كم. ينبع من هضبة «النتب». يتعرض لفيضانات موسمية مدمرة ويجرف كميات كبيرة من الطمي الأصفر، ومن هنا اسمه.
- ٢- يوان (وَن) Yuan: غزا «جنكيز خان» شمال «الصين» عام ١٢١٥م وتلاه ابنه «قوبلاي خان» فغزا «الصين» الجنوبية عام ١٢٧٩م حيث أنشأ سلالة منغولية تحكم «الصين» بهذا الاسم واتخذت من «بكين» عاصمة لها.
- ٣- كينغ Qing: سلالة منشورية (مانشوية) حكمت «الصين» من ١٦٤٤ إلى ١٩١١م.
- ٤- تيان شان: Tian - shan سلسلة جبال تمتد من إقليم «سين - كيانغ» في «الصين» إلى «قرغيزيا»، ٢٥٠٠ كم.
- ٥- آمودريا: نهر في جنوب غرب «تركستان» عرفه العرب باسم «جيحون»، ينبع من جبال «بامير» في «آسيا الوسطى» ويمتد بطول ٢٦٢٠ كم ويصب في بحيرة «آرال» التي تتقاسمها «أوزبكستان» و«كازاخستان».
- ٦- السكيزيون (السكوديون، السقيثيون، السكيثيون) Scythes: من البدو الرحل من أصول إيرانية استوطنوا غرب «آسيا» آتين من «روسيا» عبر «القوقاز». أطلق عليهم «هيروdot» اسم «إسكوزا». شنوا غارات على «آسيا» الغربية إبان القرن الثامن قبل الميلاد. كانت بينهم قبائل محاربة، قتلت لحساب «الآشوريين» حيناً و«الميديين» حيناً آخر مقابل الحصول على غنائم..
- ٧- داريوس الأول: ملك «فارس» ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م أحد أكبر الملوك «الأخمينيين»، أخضع «بابل» و«ميديا»

- و«أرمينيا» و«ترافيا» و«مقدونيا». هزمه «اليونانيون» في «ماراتون» عام ٤٩٠م وتوفي في «مصر».
- ٨- الأخمينيون: سلالة فارسية أسسها «قورش» الأول في القرن السابع قبل الميلاد. من أشهر ملوكها «قورش» الكبير و«قمبيز» الثاني و«داريوس» الأول و«أخشويرش». امتدت إمبراطوريتهم حتى بلاد «اليونان» و«فينيقيا» و«مصر». انقرضت بموت «داريوس» الثالث بعد أن تغلب عليه «الإسكندر» ٣٣٠ ق.م. من آثارها الرفيعة «برسيبوليس» و«شوش».
- ٩- نظام الملك (١٠١٨ - ١٠٩٢م): أشهر وزراء «السلاجقة». وزير «ألب أرسلان» وابنه «ملكشاه». تفرد بالحكم. أقر الأمن في «العراق» و«فارس». له «سياستنامه».
- ١٠- الآريون: من الشعوب الهندو-أوروبية، استوطنت قبائلهم قديماً أنجاد «آسيا الوسطى» ثم انتشرت في «الهند» و«أوروبا».
- ١١- الهون: شعوب آسيوية من غزاة العالم القديم. أصلهم من «سبيريا» و«منغوليا». دفعوا أمامهم شعوباً بربرية أخرى ووصلوا إلى «الدانوب» نحو ٤٠٥م. غزوا «الإمبراطورية الرومانية» واستقر بعضهم فيها واندمجوا بشعوبها.
- ١٢- إمبراطورية موريا (نحو ٣٢٢ - ١٨٥ ق.م): أول إمبراطورية هندية أسسها «جندرة كبتا موريا». ضمت كامل «الهند» و«كابول» و«قندهار». أشهر أباطرتها «أشوكا» العظيم (٢٧٣ - ٢٣٢ ق.م) الذي نشر البوذية في «الهند».
- ١٣- غوبتا: سلالة هندية حكمت «الهند» وامتد نفوذها نحو العام ٤٠٠م إلى شمال «الهند» من دلتا نهر «الغانج» إلى نهر «الهندوس» و«بحر العرب». ويعتبر عهد هذه السلالة (٣٢٠ - ٥٥٠م) العصر الذهبي أو الكلاسيكي لـ «الهند» في ذلك الحين حيث ازدهرت فيها العلوم الدينية والفلسفة والفنون.
- ١٤- بابر هو «ظهير الدين محمد» مؤسس «سلالة مغول الهند» التي خلفت سلطنة «دهلي» (في «الهند»). ينتسب «بابر» بأبيه إلى «تيمورلنك» وبأمه إلى «جنكيز خان». خلف أباه «عمر شيخ» على «فرغانة» ١٤٩٤م، واحتل «كابول» ١٥٠٥م و«سمرقند» ١٥١١م و«قندهار» ١٥٢٢. ثم اتجه نحو «الهند» فاستولى على «لاهور» ١٥٢٤م و«دهلي» و«أغره» ١٥٢٦م ومملكتي «جونبور» و«راجهستان» ١٥٢٧م. وامتد سلطانه إلى وادي «الغانج» و«البنغال». كان شاعراً وكاتباً كبيراً، له ديوان شعر بالفارسية وقصة حياته «بابر نامه» بالتركية هي سيرة ذاتية من روائع النثر التركي.
- ١٥- خيبر: ممر شهير في «باكستان» اليوم غرب مدينة «بيشاو» المحصنة قرب حدود «أفغانستان» على الطريق إلى «كابول». يتوسط الممر مجاز ضيق على ارتفاع ١٠٦٧م محصور بين صخور شاهقة ترتفع عمودياً إلى ٤٠٠م. وكان معبراً تاريخياً شهيراً منذ القدم كمنفذ وحيد لغزاة «الهند» القادمين من الشمال الغربي.
- ١٦- البارثيون Parthes أو الفرثيون: من شعوب «السكيثيين» استقروا قديماً في «خراسان» وأسسوا سلالة «الفرثيين» أو «الأشكانيين» أو «الأرشكانيين» التي طردت «السلوقيين» من «إيران» وحكمت بين ٢٥٠ ق.م و٢٢٤م. وكانت لها إمبراطورية واسعة امتدت من «الفرات» إلى «الهندوس» وسيطرت على البلدان المجاورة.
- أسسها «أرشاك» ومن ملوكها «تيريدات»، «ميتريدات»، وآخرهم هو «أرطبان» الخامس.

- ١٧- الهكسوس: قبائل غزت «مصر» وحكمتها بين ١٦٥٠ و ١٥٦٠ ق.م. أسست السلالتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. ثار عليهم أمراء «طيبة» وطردهم «أحمس» الأول مؤسس السلالة الثامنة عشرة.
- ١٨- الحثيون: من شعوب «آسيا الصغرى» قديماً. كانت عاصمتهم في «حتوزا» / «حتوشة» (آثارها في «بغازكوي» شرق «أنقرة» الحالية). ازدهرت حضارتهم إبان الألفية الثانية قبل الميلاد. أنشأوا إمبراطورية امتدت سيطرتها حتى «سورية» الشمالية في القرن الثالث عشرق م. من آلهتهم «حدد». قضى عليهم «الآشوريون» و«شعوب البحر» في أواخر القرن الثالث عشر.
- ١٩- مجدو «تل المسلّم»: موقع في «فلسطين» شرق «حيفا» فيه أنقاض مدينة «مجدو».
- ٢٠- قادش («تل نبي مند»): موقع في «سورية» على نهر «العاصي» تجابه فيه «رمسيس» الثاني مع «الحثيين».

المصدر:

Guerres et civilisations, Gérard Chaliand, Odile Jacob, Paris, 2005.



الزواج وتاريخه.. بين الدائم والمؤقت..!!

منيب هائل اليوسفي

يعرف مراسم معينة أو مناسبات خاصة يباح فيها للأزواج والزوجات الاتصال الجنسي بغير أزواجهم، لكن مثل هذه العلاقات لا تشكل زيجات مؤقتة بل ينطوي بالأحرى على تحلل مؤقت من قيد الزواج.

وعلى العكس من ذلك، هناك من الشواهد ما يشير إلى ممارسة هذا الزواج في أكثر من مجتمع من المجتمعات المدنية القديمة، والزواج المؤقت كما تكشف عنه دراسة قواعده في هذه المجتمعات يبدو لنا في صورة زوجية أدنى مرتبة من الزواج العادي فالزواج المؤقت والزواج العادي يشكلان نوعين متميزين من الزواج.

المقصود بالزواج المؤقت هو ذلك الذي تحدد له منذ انعقاده مدة معلومة ينتهي بانتهائها، ولكن ذلك الزواج بهذا المعنى لا وجود له إلى حد علمنا في المجتمعات القبلية، فقد أتاحت لنا فرصة الاطلاع على تقاليد عدد غير قليل من القبائل في أفريقيا وآسيا وغيرها، ولم نصادف قبيلة واحدة يجري فيها العرف بعقد زيجات مؤقتة، حقاً أن الرابطة الزوجية تبدو في بعض المجتمعات القبلية واهية بحيث يتتابع الزواج والطلاق بكثرة، لكن الزواج على كل حال لا يضرب له أجل ينقضي بحلوله، بل يفترض فيه الدوام وحقاً أن بعض المجتمعات القبلية

محم ومبام في القانون العام.

والقاعدة أن شروط انعقاد الزواج المؤقت لا تبلغ في شدتها شروط الزواج العادي، والقاعدة أيضاً أن آثار الزواج المؤقت أدنى في أهميتها من آثار الزواج العادي، وقد نتساءل عن أسباب وجود هذا الزواج في المجتمعات المدنية القديمة، وفي اعتقادنا أن لظهوره فيها أكثر من سبب، ففي هذه المجتمعات تعطى للكفاءة في الزواج أهمية بالغة ففي بعضها يحرم القانون الزواج بين أفراد الطبقة العليا وأفراد الطبقة أو الطبقات الدنيا، والزواج الذي ينصب عليه التحريم هو الزواج المألوف الذي يفترض فيه الدوام والذي تتحقق بالنسبة له حكمة تحريم الزواج المختلط.

فإذا لم يقصد بالزواج أن يكون رابطة دائمة وإنما مجرد علاقة مؤقتة لم ينطبق التحريم، وحتى في الأحوال التي لا يحرم فيها القانون الزواج المختلط، فإن أفراد الطبقة العليا لا يقبلون في الأعم الأغلب على الزواج بأفراد من الطبقة الأدنى، وإذا فعل أحدهم ذلك أسخط طبقته وألحق العار بنفسه وقرابته.

فإذا لم تكن الرابطة بين الرجل والمرأة زواجاً بالمعنى الصحيح بل مجرد علاقة مؤقتة لم يكن في شأنها أن تثير سخطاً أو تلحق عاراً، فأحد الأسباب الباعثة على وجود الزواج المؤقت، هو التفاوت الاجتماعي

كمانع للزواج، سواء كان هذا المانع قانونياً أم مجرد مانع عرضي، فالزواج المؤقت يتيح للرجل أن يعاشر معاشرة الأزواج امرأة لا يسعه الزواج منها زواجاً دائماً، لأن القانون يمنعه أو لأن تقاليد طبقته تستنكره.

على أن التفاوت الاجتماعي ليس بالسبب الوحيد فهناك أيضاً السفر والاعتراق الذي يصبح في المجتمعات المدنية أكثر شيوعاً منه في المجتمعات القبلية.

فالتجارة التي تزدهر في المدن تدفع من يمارسها من الرجال إلى الانتقال لجهات بعيدة عن أوطانهم والإقامة فيها لفترات قد تطول والحروب التي تحدث في هذه المجتمعات تستتبع انتقال الجند إلى مناطق بعيدة عن مدنهم وقراهم وقد تمتد غيبتهم سنين.

كذلك طلب العلم قد يدفع بالرجل إلى الإقامة في مدينة غريبة وقتاً يطول أو يقصر، وفي مثل هذه الأحوال يشعر الرجل بالحاجة إلى امرأة تؤدي له ما تؤديه النساء من خدمات طوال بعده عن أهله ووطنه، ومن ثم تكون الظروف مهيأة لظهور نوع من الزواج لا يفرض عليه ما يفرضه الزواج العادي من اعتبار ولا تكون له ما لهذا الأخير من آثار.

ومن المجتمعات القديمة التي عرفت هذا النوع من الزواج مصر إبان العصر

فيها الزواج مدة سبع سنين بل أكثر، وهناك حالة لزواج من هذا القبيل يلتزم فيها كل من الزوجين بأن يدفع للآخر تعويضاً إذا طلقه قبل انقضاء المدة المتفق عليها.

يتبين مما سبق أن الزواج الذي تصفه النصوص الإغريقية بأنه زواج غير مقترن بوثيقة هو في جوهره زواج مؤقت، يدل على ذلك ما تشير إليه بعض الوثائق من تحديد مدة معينة له، ويدل على ذلك أيضاً عدم تحرير وثيقة به، ففي الزواج العادي الذي يفترض فيه الدوام كان من اللازم تحرير وثيقة تتضمن بياناً لما ستكون عليه العلاقات المالية بين الزوجين من تقديم الزوجة بائنة لزوجها، أو إنشاء مجموعة مشتركة من الأموال بينهما، أو الاعتراف لأولاد الزوجة بحقوق معينة على أموال زوجها، ومثل هذا التنظيم يكون له ما يبرره إذا كان المقصود للزواج أن يكون دائماً.. ولكن إذا قصد له منذ البداية أن يكون مؤقتاً لم يكن ثمة مبرر لهذا التنظيم أو داع إليه.

على أن الوثائق الخاصة بهذا الزواج لم تفصح لنا عن جوانبه الأخرى، وخاصة مصير الأولاد المولودين منه ومع ذلك فإن من الممكن القول بأن الأولاد الناتجين من هذا الزواج كانوا يبقون مع أمهاتهم، وتلك نتيجة نستخلصها من طبيعة الزواج المؤقتة

البطلمي، وربما في العصور السابقة أيضاً، فوثائق الزواج التي ترجع إلى العصر البطلمي تشير إلى وجود نوعين من الزواج أحدهما تصفه النصوص الإغريقية بالزواج المكتوب أو المقترن بوثيقة (جاموس إنجرافوس Gamos engraphos) وثانيهما الزواج غير المكتوب أو غير المقترن بوثيقة.

ويتفق الباحثون في أن الزواج المقترن بوثيقة، هو الزواج الكامل الصحيح أو هو الزواج العادي، لكنهم في تحديد طبيعة الزواج الثاني يختلفون، فيرى فيه بعضهم زواجاً لا كالزواج العادي وإنما زواج أدنى مرتبة.^(١)

بينما لا يرى البعض الآخر فيه سوى رابطة من قبيل التسري^(٢).

ورغم قلة المعلومات التي لدينا عن الزواج غير المقترن بوثيقة فإن باستطاعتنا أن نتعرف على جوهره، فهذا الزواج على خلاف الزواج العادي لا يقترن بوثيقة تنظم العلاقات المالية بين الزوجين، وإذا كان الغالب في هذا الزواج عدم تحديد أجل له، وإمكان انحلاله في أي وقت، ففي بعض الحالات يتفق الطرفان على تحديد مدة معينة له ينتهي بانتهائها، ففي إحدى البرديات نجد هذه المدة وقد حددت بخمسة شهور، وإذا كان المألوف عقد هذا الزواج لمدة قصيرة فإننا نصادف حالات استمر

ومن كونه يعقد عادة بين نساء ورجال لا ينتمون إلى المدينة نفسها أو البلد .

وقد اختفى هذا النوع من الزواج في مصر إبان العصر اللاحق تحت تأثير القانون الروماني من جهة، وتحت تأثير الديانة المسيحية من جهة أخرى، فالقانون الروماني لم يعترف بمثل هذا الزواج وعندما منحت الجنسية الرومانية لرعايا الدولة من غير الروم، صار القانون الروماني واجب التطبيق عليهم، وكان من الطبيعي أن يؤدي تطبيق هذا القانون إلى اختفاء الزواج المؤقت كذلك لابد من انتشار المسيحية وهي ترى في الزواج رابطة دائمة لا انفصام لها قد أسهم في القضاء على هذا الزواج.

أمّا في العراق فهناك أيضاً من الدلائل ما يشير إلى أن هذا الزواج كان معروفاً فقانون حمورابي يفرق بين نوعين من الزوجات، الزوجة التي اقترن زواجها بوثيقة، والزوجة التي لم يقترن زواجها بعقد مكتوب، وهذه تعتبر امرأة متزوجة لكنها ليست زوجة.

فالزوجة بالمعنى الصحيح هي إذاً الزوجة التي بين يديها عقد زواج يقر لها بوضع الزوجة وينظم علاقاتها المالية بزوجها، أمّا المرأة التي ليس بيدها عقد زواج من هذا القبيل فهي امرأة متزوجة لكنها ليست زوجة بالمعنى الصحيح، ومن المحتمل أنّ

هذا الوصف الأخير كان ينصرف إلى المرأة التي تكون طرفاً في زواج مؤقت.

كذلك الحال في بلاد الفرس، فهناك ما يفيد أن أهلها كانوا أيام الساسانيين يمارسون الزواج المؤقت فقد وصف كريستس في مؤلفه إيران في عهد الساسانيين صورة من صور الزواج بقوله: (..وفي وسع الزوج أن ينزل عن زوجته أو إحدى زوجاته ولو زوجة ممتازة إلى رجل آخر قد وقع في الفاقة بغير تقصير منه وذلك ليستغني بعملها...) ولم يكن قبول الزوجة ضرورياً وفي هذه الحالة لا يستطيع الزوج الثاني أن يتصرف في أموال الزوجة، والأطفال الذين يولدون من هذا الزواج المؤقت ينسبون لأسرة الزوج الأول ويعتبرون أبناء وهذا الاتفاق كان يتم بعقد قانوني يتعهد بمقتضاه الزوج المؤقت أن يقوم برعاية زوجه طوال هذا الزواج الثانوي وهذا العقد من قبيل الإحسان لآخ في الدين معوز (والقالب الزوج والزوجة في البهلوية هي شوز وزن).

أمّا الزواج المؤقت والمرأة التي تعطى له كأنها مؤجرة، فإنّ التعبير الفقهي قد أطلق عليهما اصطلاحين آخرين هما ميرك وزياك^(٣).

وإذا كان من الجائز للرجل أن يتزوج زوجاً مؤقتاً من امرأة هي زوج لآخر، فلا بد أنه كان من الجائز أيضاً أن يتزوج

الرجل زواجاً مؤقتاً من امرأة ليست متزوجة أصلاً.

يتضح مما سبق أن الشرائع التي كانت قبل الإسلام سائدة في منطقة الشرق الأوسط لم تكن تقف من الزواج المؤقت موقفاً متماثلاً، ففي الأقاليم الخاضعة لدولة الروم لم يكن هذا الزواج ممارسة أو مسموحاً به بينما كان في فارس والأقاليم التابعة لها معروفاً وجائزاً.

ومن الثابت أن الزواج المؤقت أو زواج المتعة كان معروفاً عند العرب زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد روى مسلم عن ابن مسعود أنه قال: كُنَّا نغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليس لنا نساء فقلنا (أَلَا نُسْتَخْصِي فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ ثُمَّ رَخَّصَ لَنَا أَنْ نَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِالثُّوبِ إِلَى أَجَلٍ.

وعن جابر بن عبد الله كُنَّا نَسْتَمْتَعُ بِالْقَبْضَةِ مِنَ التَّمْرِ وَالْدَّقِيقِ أَيَّامَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَعَنْ سِيرِ الْجَهْنِيِّ (أَذِنَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَتْعَةِ فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ كَانَتْهَا بَكْرَةٌ خِيْطَاءٌ فَعَرَضْنَا عَلَيْهَا أَنْفُسَنَا، فَقَالَتْ مَا تَعْطَى فَقُلْتُ رِدَائِي وَقَالَ صَاحِبِي رِدَائِي وَكَانَ رِدَاءُ صَاحِبِي أَجُودَ مِنْ رِدَائِي، وَكُنْتُ أَشَبَّ مِنْهُ فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى رِدَاءِ صَاحِبِي أَعْجَبْتُهَا وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيَّ أَعْجَبْتَهَا

ثم قالت أنت وردائك يكفيني فمكثت معها ثلاثاً.

وروى الترمذي عن ابن عباس أنه قال: إِنَّمَا كَانَتْ الْمَتْعَةُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْبَلَدَةَ لَيْسَ لَهُ بِهَا مَعْرِفَةٌ فَيَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ بِقَدْرِ مَا يَرَى أَنَّهُ مَقِيمٌ فَتَحْفَظُ لَهُ مَتَاعَهُ وَتَصْلُحُ لَهُ شَأْنُهُ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْكَرِيمَةِ «إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ».

ومن الواضح أن الزواج المؤقت كان زواجاً وتجري به عادة العرب قبل الإسلام وممارستهم إيّاها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان حرياً منهم على هذه العادة وأغلب الظن أن ممارسة هذا الزواج كانت مقصورة على الجهات المدنية في شبه الجزيرة العربية وخاصة مكة ويثرب وأغلب الظن أيضاً أن وجوده بها جاء نتيجة تأثرها بالحضارة والتقاليد الفارسية.

واختلف الفقهاء المسلمون حول شرعية الزواج المؤقت أو زواج المتعة فذهب أهل السنة وفريق من الشيعة إلى تحريمه^(٤).

وبينما ذهب الفريق الآخر من الشيعة إلى إباحته ويدلي المحرمون والمحللون بحجج وأسناد يبرر لها كل منهم رأيه ويؤيد مذهبه، وليس في نيتي أن أعرض هنا وفي هذه العجالة للموازنة بين حجج أولئك وهؤلاء لأعلن بعدها أحد الرأيين راجحاً والآخر

مرجوحاً، ولكن كل ما أريد أن أوجه النظر إليه هو الاعتبار التاريخي الذي جعل من المذهب الشيعي المنتشر في إيران والعراق بالذات مؤيداً لشرعية الزواج المؤقت.

وللزواج المؤقت عند المبيحين له أحكامه الخاصة وقد يختلف هؤلاء فيما بينهم حول هذا الحكم أو ذاك من أحكامه لكنهم يتفقون في خصائصه الجوهرية، ومقارنة أحكام الزواج المؤقت بأحكام الزواج العادي أو الدائم تكشف عن فروق أساسية بينهما وتعكس أحكام الزواج المؤقت طبيعته بوصفه رابطة زوجية أدنى مرتبة من الزواج العادي.

وسأستعرض فيما يلي بعضاً من أحكام الزواج المؤقت كما أوردها أحد كبار فقهاء الشيعة وهو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) في كتابه (النهاية في مجرد الفقه والفتاوى)^(٥).

يبدأ أبو جعفر بتقرير مشروعية الزواج المؤقت فيقول (نكاح المتعة مباح في شريعة الإسلام) ثم يعرف نكاح المتعة ويبين شروطه بقوله (هو عقد الرجل على امرأة مدة معلومة بمهر معلوم ولا بد من هذين الشرطين وبهما يتميز من نكاح الدوام، فإن عقد عليها متعة ولم يذكر الأجل كان التزويج دائماً، وإن ذكر الأجل ولم يذكر المهر لم يصح العقد، وأما الأشهاد والإعلان فليسا من

شرائط المتعة على حال.. اللهم إلا أن يخاف الرجل التهمة بالزنا، فيستحب له حينئذ أن يشهد على العقد شاهدان، ولا بأس أن يتزوج الرجل متعة بكرة ليس لها أب من غير ولي ويدخل بها، وإذا أراد العقد فليذكر من المهر والأجل ما تراضيا عليه، وأقل ما يجزئ من المهر تمثال من سكر أو كف من طعام أو ما أشبه ذلك، فأما الأجل فما تراضيا عليه من شهر أو سنة أو يوم، وقد روي أنه يجوز أن يذكر المرة والمرتين والأحوط ما قدمناه من أنه يذكر يوماً معلوماً أو شهراً معيناً فإن ذكر المرة والمرتين جاز له ذلك إذا أسنده إلى يوم معلوم فإن ذكر المرة مبهمة ولم يقرنها بالوقت كان العقد دائماً لا يزول إلا بالطلاق أو ما يجري مجراه، ويجوز أن يشترط عليها أن يأتيها ليلاً أو نهاراً أو في أسبوع دفعة أو يوماً بعينه أي ذلك شاء فعل.

ثم يذكر بعض الآثار التي تترتب عليه فيقول (وليس في نكاح المتعة توارث شرط نفي الميراث أو لم يشترط اللهم إلا أن يشترط أن بينهما التوارث فإن شرط ذلك يثبت بينهما الموارثة، وإنما لا يحتاج نفي التوارث إلى شرط ويجوز للرجل العزل وإن لم يكن شرط ومتى جاءت بولد كان لاحقاً به سواء عزل أو لم يعزل).

ويحدد أبو جعفر حكم الزواج المؤقت بالنسبة لعدد الزوجات، فيقول ولا بأس أن يتزوج متعة ما شاء من النساء لأنهن بمنزلة

الإماء والأحوط له والأفضل أن لا يزيد على أربع منهن.

كذلك يبين العدة الواجبة على المرأة عند انتهاء الأجل المحدد للزواج بقوله: وعدة المتمتعة إذا انقضت أجلها أو وهب لها زوجها أيامها حيضتان أو خمسة وأربعون يوماً وإذا كانت لا تحيض وفي سنّها من تحيض.

ذلك إذاً هو الزواج المؤقت وتلك هي الظروف التي مهدت السبيل لوجوده أو تبنيه في بعض المجتمعات المدنية القديمة، أمّا عن مصير هذا الزواج في الوقت الحاضر، ففي اعتقادي أنه سائر إلى الزوال والاضمحلال، فقد اختفت في المجتمعات الحديثة الاعتبارات التي كانت سبباً في وجوده فلم يعد اختلاف الطبقة يشكل مانعاً قانونياً للزواج، كما أنّ انتشار الأفكار الديمقراطية من شأنها أن تخفف من معارضة أسر ذات الثروة أو النفوذ للزواج غير المتكافئ، ولم يعد من الممكن الحديث أو التكلم عن

الغربة والاغتراب على نحو ما كان الحال فيما مضى، فقد جعلت وسائل المواصلات الحديثة الانتقال من جهة إلى أخرى من العالم يتم بأسرع وقت وأقل مشقة.

ومن ناحية أخرى أصبح الزواج المؤقت يتصادم مع مفهوم الزواج الحديث، فالزواج في المجتمعات الحديثة لا يقصد به مجرد الحصول على خدمات امرأة سواء في ذلك خدماتها المنزلية أم الجنسية، وإنما أيضاً وقبل كل شيء توفير المناخ الملائم لتربية أولاد وإذا كان هناك ما يميز المجتمعات الحديثة في موقفها من الأولاد فهو شعورها المتزايد بالمسؤولية نحوهم وسعيها إلى ضمان كل الظروف المناسبة لنموهم في جو صحي سواء من الناحية الجسمية أم من الناحية النفسية والتاريخ يعلمنا أن الإبقاء على نظام اجتماعي فقد مبررات وجوده يفتح الباب واسعاً أمام إساءة استعماله، والانحراف به عن الغايات التي وجد في البدء لتحقيقها.

الهوامش

- ١- يصف فريزيه.. مثلاً الزواج غير المقترن بوثيقة بأنه زواج تجربة بينما يصف الزواج المقترن بوثيقة بأنه الزواج الكامل.
- ٢- من هؤلاء زايدل فمن رأيه أنه حيث تتحدث النصوص الإغريقية عن جاموس إجرافوس فليس المقصود بذلك زواجاً وإنما مجرد تسري... أمّا جاموس إجرافوس فهو على العكس الزواج الصحيح المعترف به.
- ٣- ترجمة: يحيى الخشاب، القاهرة، صفحة ٣١٦.
- ٤- شرح قانون الأحوال الشخصية للدكتور مصطفى السباعي، ج ١، صفحة ٨٧.
- ٥- نشر بطهران سنة ١٣٤٣ هـ.

مع الأديب الإعلامي إسماعيل مروة



إعداد وحوار: حسني هلال



صفحات من البوح اجترحتها أسئلتنا من إجابات الدكتور إسماعيل مروة التي ابتدأها بازدواجية العلاقة بين الشام وأمّه.. «.. فمن قداسة الأم وحنانها إلى طهارة الخصوبة عندها.. لكن أُمّي ربطت حبل سرّي وتركتني لشام أسرح في شوارعها وعلى أرضفتها.. معها عرفت حارات دمشق.. وأحببت صوت درج الخشب.. وعلى كتفها شممت رائحة الياسمين عندما صدمته بجبهتي.. ففاحت رائحته بروحي». ومن بوح مروة نستخلص عصارة تجربة أدبية بين الشعر والقصّ والدراسات النقدية يستبطنها الحوار في استلهامات مروة الانطباعية حتى نذهب مع

✻ أديب وصحافي سوري

بوحه الذي توزع بين أماكن رسخت بالذاكرة العربية، وبين قامات أكاديمية وأدبية تسرّ زائرها واقعياً أو على صفحات الذاكرة فكان للمعرفة حوار معه افتتحته بالسؤال التالي:

- تهدي كتابك «زجاج النوافذ» لأمك وحبيبتك «الشام». علماً بأن الأم والحبيبية لا أغلى في الدنيا ولا أعزّ. فهل زدتنا؟

• ليس إهدائي هذا الكتاب هو الوحيد لأمي وللشام، فالعلاقة التي تربطني بالأم هي ذاتها التي تربطني بشام، فمن قداسة الأم، ومن حنان الأم إلى طهارة الخصوبة عندها، إلى حليب ينهله المرء ليبقى عمره يجوب الشوارع بفضلها، من هذا كله لا تغادره الأم مادامت الحياة..

وأنا من الذين التصقوا بالأم طويلاً لأسباب صحية قاسية، فكانت إضافة إلى كل ذلك، الصدر الذي يستقبل السهام القاسية نيابة عني، واليد الحانية، والعين الساهرة، والذقن الراجفة كلما مررت بعارض صحي أو أخفقت في مرحلة دراسية، أو كلما نجحت وتجاوزت عقبة من العقبات..

وفوق ذلك فقد منحتني لونها، وضعف عاطفتها، وحاولت أن تزرع في الخير وحب الآخر، وعدم الإيذاء، ولا أدري إن استطاعت أن تفعل شيئاً من هذا..

أنا لست مديناً من دمشق، لكن أمي ربطت جبل سرتي، وتركتني لشام أسرح في شوارعها وعلى أرصفتها، فلم تترك مكاناً لم تجبه بي بحثاً عن طب أعجزنا في ستينيات القرن العشرين.

معها عرفت حارات دمشق القديمة، معها أحببت صوت درج الخشب يئن تحت أقدام مراجعي الطبيب في حي القنوات، ومعها عندما كانت تحملني على كتفيها شممت أول مرة رائحة الياسمين عندما صدمته بجبهتي ففاحت رائحته وانزعت في روحي..

من أم إلى أم.. أنا لا تفارقتي أمي - وكل إنسان أمه غالية عليه - لا تفارقتي لأنها موجودة في كل حارات الشام، وأذكر عندما توفيت في ٢١ آذار، هرعت يوم ٢٢ آذار إلى شام لأتزود منها فيضاً من الأمومة، فأعطتني ما لم أكن أتصور أن يعوض أمّاً وحباً لأربعيني مثلي آنذاك.. حارات شام، مآذن شام، كنائس شام، ياسمين شام، ابن شام، كل ما في شام مختلف.

وحدها شام عندما ترويك بمائها تنسيك من أنت، وحدها شام تستخرج منك لوثة الانتماء إن أخلصت في حبها، ولكنها قد تعجز من يتخذها سكناً لعشقا، فلا يتخلص من عشائريته وانتمائه الضيق.. شام العبق.. شام الدين الواحد.

إليهما أهدي، وعنهما أكتب لأتعطر دوماً
بما تجود به جبهتهما الطاهرتان.

غيابه خسارة

- في عالم الصحافة كان لنا باع طويل وهام
وكان رجال صحافتنا يتربعون على عرشها،
وينتشرون في أنحاء الوطن العربي.. وفي يوم
ما في زمان ما، علّقنا المشانق لصحافة رائدة،
ووقفنا نبكي على الأطلال.

ذلك ما قاله الصحافي «شمس الدين
العجلاني» في أحد أعداد جريدة «الوطن»..
التي ترأس حضرتك قسمها الثقافي. ويأخذ
علينا «العجلاني» أنه لا يوجد لدينا في سورية
سوى جريدة يومية خاصة واحدة، بعد أن
تجاوز عدد ذلك النوع من الصحف عندنا العشر
صحف في الخمسينيات. ما قراءتك لذلك؟

• إنَّ البكاء على الأطلال غير مجدٍ، ولا
يحسن أن نتغنى بماض إعلامي مجيد، ونحن
لا نملكه اليوم، فقد كانت سورية كذلك
إعلامياً على وجه الحقيقة، ولكنني عندما
أقف مع هذه الظاهرة، أناقشها من منظور
التاريخ للصحافة في سورية وحسب.
أذكر أنَّ مئات المقالات، وعدداً من الكتب
التي تحدثت عن تاريخ صحافة سورية في
الماضي، ولكن كل هذه الدراسات لم تغير من
واقع الحال شيئاً.

عشت في مدائن عدّة، كلها تشير إلى
الغرباء، وحدها شام أم تحتوي الغرباء
وتجعلهم من بنينا، لا تشير إلى غربتهم إلا
إذا أرادوا واحتفظوا برمزها.. لست أدري
كيف ذبت بهذه المدينة الإنسان، ولا أعرف
كيف انصهرت فيها، ولا أذكر ساعة حملتني
أو حملتها إلى فعل الأمومة والتماهي عشقاً
وحباً وحياة!

قد استغرب كثيرون هذه العلاقة بشام،
لكنني لا أسرّها، قاسية كانت معي، حنونة
كانت، اعترضت سبيلي كثيراً، لاوعتني على
أرصفتها وشوارعها، منعت عني غذاءها
وحليبها، جادت ذات يوم من زمن غابر،
فسكبت هواءها في رثتي، وزرعت أناشيد
نزار قباني وسعيد عقل التي قيلت فيها في
أذني، وكانت فيروز تصدح، حتى تحولت
إلى النغم الذي أحفظه وأسمعه وأردده
وأتعشقه..

شام علمتني أن الحياة تبدأ غداً..
شام علمتني ألا أنظر إلى الخلف..
شام قالت لي: مادمت قد أديت صلواتك
العشقية من جامع شيخ محيي الدين إلى
كنيسة الزيتون فلا تجزع.. أنت حرياً
ولدي، ولا تكن عبداً أبداً..
أمي وشام كانتا حرية، حياة حرية وفعل
حرية.

الإعلام وعدد الدوريات يخضعان لخطّة سياسية عليا، وهذا يمنعنا من تقريع الإعلام والإعلاميين، وما جدوى الخروج عن التاريخية في استعراض الإعلام؟

من المفترض أن تغص سورية بالجرائد والدوريات اليومية العامة والمتخصصة، ووجود الإعلام الكثيف والنشط يؤدي دوراً مهماً سياسياً وثقافياً واجتماعياً، هكذا أرى. وأعلم أن الطلبات كثيرة من أجل هذه الدوريات، وهي في طريقها للعودة، ولعل الأحزاب المشكلة تعمل على صحافة فاعلة وذات وزن.. ربما.

ثقافة مجتمع

- بصفتك عضو اتحاد الكتّاب العرب. ما رأيك بموقف الاتحاد من بعض أعضائه مثل حنا مينه وأدونيس والمرحومين «ونوس» و«عدوان»؟

• أقف دوماً مع الموقف وحرية، ولا أتفق مع مصادرة الرأي وإن خالفني، وحكاية الاتحاد مع أعضائه خضعت لظروف وأحكام كانت بنت وقتها، وأخذت بضجة كبيرة اختلط فيها الشخصي بالعام.

وقصص الاتحاد أنا على اطلاع بها، بل إنني نشرت شيئاً عنها في صفحات

«الجريدة» الثقافية، وقد لا يكون من الحكمة أن أتحدث عن الاتحاد كمؤسسة، أو عن الأشخاص كأفراد، فما حصل هو ثقافة مجتمع، والثقافة ضمناً، قامت بما قامت به في وقت وجد الكثيرون من الذين وافقوا على هذا التصرف مع الأعضاء.

أعرف أن عدداً ممن ينادون اليوم ضد الاتحاد كانوا مع معاقبة الكتّاب، وفي مجالسهم الخاصة يفعلون عكس ما يصرحون به.

الأمور تعود إلى نصابها عندما يتم التعامل مع الاتحاد على أنه نقابة مستقلة ليست ذات تبعية مباشرة لمؤسسات الدولة، وبالمناسبة إن الكتّاب المشار إليهم ليسوا مكترئين لما حدث معهم، وقاموا بما قاموا به عن قناعة، وهم يعرفون أن آلية عمل الاتحاد لا تسمح بما صدر عنهم..

إضافة إلى ذلك فإن الكثير من الأحكام تصدر عن فهم مختلف بين المبدع وصاحب القرار الاتحادي. وأذكر أنني تحدثت في ١١/٩/٢٠١٠م مع المبدع والصديق أدونيس في الموضوع، فعرض لي الموضوع كاملاً، وذكر أسماء ووقائع، وبيّن أنّ القرار اتخذ ضده من دون سؤال وتقصر، هو لم يكثر للموضوع.

وأظن أن غياب أدونيس عن مؤسسة الاتحاد خسارة للاتحاد والذي يكسب الكثير

من الدعم المعنوي بوجود قامة مثل أدونيس وغيره.. ومن منطلق أدبي وشخصي -بما أنني لست صاحب مكانة في الاتحاد- أشعر بخسارة كبيرة لوجود هذه الأسماء خارج الاتحاد.

قد لا أتعق مع أدونيس في الكثير من آرائه، لكن الذي أجزم القول فيه هو أن أدونيس قامة كبيرة من العيب أن تكون خارج الاتحاد لسبب غير كاف وهو شبهة التطبيع، وأذكر مثلاً لذلك كتبه الدكتور عبد السلام العجيلي الأديب الراحل عندما دعي إلى مؤتمر أدبي، فتم زجه في مشكلات كبيرة إلى أن قام بتوضيحها وشرحها للسيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة آنذاك.

النقابات والمؤسسات يجب أن تكون جامعاً حتى لمن يختلف عنا في الآراء والتوجهات، وأرى أن الاتحاد مارس دوراً مختلفاً في كل الأوقات السابقة، وذلك وفق التوجهات والظروف التي أثرت في سورية..

أقننى أن ..

- لم تم تنتسب لاتحاد الصحفيين وأنت الذي تعمل بالصحافة منذ مدة طويلة؟

• لست عضواً في اتحاد الصحفيين بسبب الأنظمة والقوانين في اتحاد الصحفيين، فعندما أردت التقدم لعضوية الاتحاد، تبين

أنني يجب أن أقضي فترة، بصفة عضو مشارك أو ما أشبهه، وبعد مدة أصبح عضواً عاملاً، وأنا لم أشأ أن أقدم لعضوية الاتحاد بهذه الشروط غير المتوازنة، فأن تكون متخرجاً من قسم الصحافة، أو عاملاً في أية مؤسسة رسمية تكتسب العضوية، بينما ذلك لا ينطبق على الإعلام الخاص!

تناقشت مع أعضاء المكتب التنفيذي وهم أصدقاء، قالوا: هناك تعديلات جديدة ستغير هذه الشروط، ونحن ننتظر، فأننا لا أقبل أن أكون عضواً عاملاً في غير سورية، وفي سورية أحتاج إلى مراحل من دون النظر إلى العمر المهني.. هذا الأمر ببساطة ومن دون أي انزعاج، أنا عضو في اتحاد الكتاب العرب، وأتمنى أن أصبح عضواً في اتحاد الصحفيين وهذا شرف لكل صحفي..

فوق ما حلمت؟

- إلى كتابتك القصة القصيرة، فقد كتبت المقالة بأنواعها والدراسة والبحث والزواية. هل تعتبر ذلك يعود لمجال الصحافة الذي تزاوله؟ أم لملكات متنوعة تتمتع بها؟

• بدأت حياتي الأدبية بدراسات نقدية في الجامعة بإشراف أستاذي الدكتور نعيم الياي -رحمه الله-، وذلك من كتاب الأرض

والإنسان، وهو دراسة مسرحية في مسرحيات الكاتب والمخرج علي عقلة عرسان.

وفي الوقت نفسه كنت قد بدأت جمع قصصي القصيرة التي كتبتها والتي أكتب، فأعددت مجموعة (الأكفان تعلن انقلابها) وقد تأخر نشر هذه المجموعة لظروف خاصة قاسية، لأنها ضاعت عند قارئ اتحاد الكتّاب العرب، وقضيت وقتاً حتى جمعت مسوداتها وأعدت كتابتها مجدداً، وخرجت المجموعة الثانية كتابة (وكان حلماً) قبل الأولى كتابة.

طبيعة دراستي وتخصصي في الدراسات العليا في اللغة والنحو فرضت عليّ دراسات وقرئات وجدت نفسي أميل إليها، وكنت كذلك على ارتباط وثيق بالإعلام والدوريات.

أقرأ كل ما تقع عليه يدي من دوريات، خاصة التي توزع في معرض دمشق الدولي، وقد قرأت في الإعلام العربي للكتاب الكبار، وصرت أحاول تقليدهم..

وبقراءاتي بدأت أكتب ملاحظات حول الكتب ما لبثت أن بدأت نشرها في جريدة الثورة من خارج الملاك، إلى أن التقيت مصادفة بالأستاذ الراحل ياسر عبد ربه الذي أغراني وفتح أمامي آفاق مجلة المستقبل، وثم الكفاح العربي، وآفاق مجلة

الشهر التي أسسها، فعلمني ودرّبني وأعدني للكتابة، وعلى يديه تعلمت كيفية الكتابة الصحفية المختلفة اختلافاً جذرياً عن الكتابة الأدبية واللغوية التي أعرفها.. أثناء عملي محاضراً في جامعة الإمارات العربية المتحدة كتبت في جريدة البيان وفي جريدة الخليج، إلى أن عدت إلى دمشق وعملت مجدداً مع الأستاذ وضاح عبد ربه في مجلة الشهر.

وبعد ذلك عملت مديراً لتحرير (أبيض وأسود) ومديراً لتحرير (جهينة) ومع تأسيس جريدة «الوطن» شرفني الأستاذ وضاح عبد ربه بالإشراف على القسم الثقافى ليس من باب التواضع أن أنفي وجود ملكات، وليس من الحكمة أن أترك الأمر لمجرد العمل.

القضية ببساطة تتعلق بميول وموهبة، ومن ثم بظروف تهيأت لي فأفدت منها كما يجب، والحقيقة أنني أعرف نفسي، فأنا قارئ نهم وأجتهد كثيراً، ولا أترك لحظة تمر من دون قراءة أو كتابة..

مجموعة الظروف تهيأت لتشكيلي كما أحب، بل أعترف أن ما وصلت إليه كان فوق ما حلمت به عندما كنت طفلاً يعبث في شوارع قريته (معرباً) أقرب قرية إلى دمشق، وأبعد قرية عنها اليوم!

كون من الإبداع

- أحلام مستغانمي، رجاء الصايغ، سلوى النعيمي، اعتدال رافع، عبد القادر الحصري، ابتسام صمادي.

ما الصفة الأبرز التي تراها كأديب وكقارئ في كل من الأسماء السابقة؟
• يلفت الانتباه أنَّ الأسماء المختارة هي لمبدعات، وبينها كاتب شاعر وهو الصديق عبد القادر الحصري.

مبدئياً أنا لست مع صفة تطلق على إبداع هذا الكاتب أو ذاك، إذ لا يمكن أن يختصر المبدع بصفة أو أكثر، لأنه كون من الإبداع، وكل واحد ممن ذكرت يستحق دراسة مستقلة من اعتدال رافع وذراياتها إلى الانتشار عند أحلام مستغانمي، والرواية الخاصة عند رجاء الصايغ وسلوى النعيمي، وقد أفردت لهما دراسة نشرت في أحد كتبي الصادرة عن وزارة الثقافة، إلى شعرية عبد القادر الحصري وابتسام الصمادي.

إضافة إلى الدراسة والتخصص فأنا أرى أنَّ المزاج في تلقي غاية في الأهمية، كما هو حال المتلقي النفسي، والاجتماعي والسياسي، فما يحمل صفة الآن قد يغادرها في ظرف آخر..

أهم ما أراه أن هؤلاء الذين ذكرت

أسماءهم من المبدعين لهم تجربتهم ومكانتهم التي كانت رهن الظروف والأمكنة، وقد أغنوا المكتبة الأدبية العربية بنتاج قرائهم وإبداعاتهم.

بين قبريهما؟

- للأماكن ذاكرة ولها في قلوب ساكنيها ومحبيها ذكريات.. ما الذي تحمله من ذكريات لبيروت، دمشق، ومغرباً؟

• المكان يعنيني للغاية، ويمكن أن أضيف أماكن أخرى مثل «العين» في الإمارات العربية المتحدة التي أهديتها- مكاناً- كتاباً أنجزته عندما كنت مدرّساً في جامعة الإمارات العربية المتحدة في التسعينيات من القرن العشرين.

كذلك أضيف «القاهرة» العزيزة التي زرتها أكثر من عشر مرات أولها كان عام ١٩٩٦م، وهناك عقدت صداقات لا تذهب من خاطر، فتحت آفاقاً غنية للغاية من أهمها في حياتي صداقتي مع الأستاذ أسامة أنور عكاشة الكاتب القاص والروائي والسيناريسست المبدع، والذي بقيت أزور القاهرة كرمى لوجوده وصداقاته.

وقد دعاني مرة لافتتاح مسرحيته (الناس اللي في التالت) فذهبت وقضيت أياماً كانت

الأغنى مع صديقي العزيز قبل رحيله بوقت، حتى كان وداعنا الأخير في زيارته لدمشق في مهرجان دمشق السينمائي.

وفي القاهرة عرفت الأستاذ المبدع يوسف القعيد والمبدع إبراهيم عبد المجيد والسيدة سميحة أيوب والكاتبة الثائرة فتحية العسال، فالمكان عندي مرتبط بالشخص، كذلك هي «جبل» التي لم أدخلها وأتجول فيها قبل توطد علاقتي بأدونيس فكانت مستراحاً ومكاناً للحب ومن أحب.

وأنا أنظر إلى الأشخاص والأماكن بقدر ما أحصل منهم من إضافة، فمعربا قريتي ومسقط رأسي وسكني، أهلي وحبي الأول والأخير، وإن كانت الأعمال والظروف قد جعلتني أقصر في حقها، لكنني بغاية السعادة أنها تعرفني وتحبني، وتقبل استراحتي ومنامي فيها، ومنحتني منزلاً قرب قبر والديّ أزورهما كل يوم فجراً لأخذ رضاها وتوجيهاتهما.

فأنا لا أقبل الحياة من دون توجيهات والدي إسماعيل وأمي خديجة.. وفي كثير من الأحيان أعدّ قهوتي وأذهب لأشربها معهما بين قبريهما المتجاورين.. ودمشق هي كل شيء، ففيها كانت

طفولتي، وكان شبابي، وكانت دراستي، هي التي سلبت اسمها وأعطتني اسم شام المقدس الذي لا يفارقني.

في شام وقفت بالأموي والتقطت صورة لا تتسى فجاجيت معاوية وأهله الأمويين، ودلفت إلى مقام الحسين، وإلى صلاح الدين فكنيسة الزيتون وحنانيا والطريق المستقيم.. في شام وحدها نصب العذراء على جدار بيت مسلم، وجار الجامع القديم مسيحي.. شام هي التي علمتني معنى الحياة، ومعنى الآخر، وأحزن على من عاش فيها ولم يكتشف هذه الدواخل الخفية!!

شام استوعبت عشقي وشيطناتي في شوارعها، أطعمتني ليمونها الجامد، وخبزها التتوري، وأهدتني صباحاتها التي لا تشبه غيرها.

وبيروت العلم والحرية، فعلى الرغم من أنني كنت رابع دفعتي من الخمسة الأوائل، إلا أن شروط عملي الذي كنت فيه في الثمانينيات من القرن العشرين لم تسمح لي بمتابعة الدراسة، فهرعت إلى بيروت التي احتوتني بحب لا مثيل له، ولم تمنع عني علمها فحصلت فيها على الماجستير في إعراب القرآن بإشراف أستاذي العلم الدكتور العميد أسعد ذبيان.

ولاقية للمكان إن لم يكن لك فيه من يحبك
وتحبه.

نهضوية النخبة

- ما تعريفك للنخبة؟ وكيف ترى تأثير

النخبة العربية على تقدم مجتمعاتها؟

• النخبة مصطلح لا بد من الإقرار به،
ولكنني أرى النخبة هي التي قرأت فأجادت
وخبرت ثم صارت نخبة المجتمع العليا، ولا
أؤمن بمن انخرط بالنخبوية من تلقاء ذاته،
وبمن لا يجيد قراءة ما يكتب ليصف ذاته
بالنخبوية.

والنخبة، بالمعنى الذي أفهمه، ضرورة
للمجتمع، وهي رائدة لكل عملية نهضوية
ينتظرها المجتمع، وعليها تقوم الحركة
الدائبة، ولكن عندما تكون النخبة غير
جديرة، أو من تصنيع السلطات، تفقد
قيمتها، ودورها، وعلى السلطات أن تعطي
المجال واسعاً للنخبة حتى لا تتحول إلى
مرض.

وما يشهده المجتمع العربي اليوم من
تحركات محقة وفوضى أسهمت النخبة فيها
بشكل سلبي، إذ انخرطت النخب بوعي منها
وبغير وعي في تكريس مفهومات الانقسام
الحادة، فلم تشأ النخبة أن تتحول إلى رائد،

في بيروت تعرفت عن قرب إلى المترجم
البارع غفيف دمشقية، وإلى أساتذتي الكبار
الدكتور رفيق عطوي أستاذ الأدب المقارن،
والدكتور أحمد أبو حاقه رحمه الله، وهو
الأستاذ البارع الذي درست على يديه
مادة المنهجية، فعرفت ما كان غائباً عني
والدكتور محمود حلاوي المحقق والتراثي
وغيرهم كثير.

وبعد عشرين عاماً عدت إلى بيروت
بدعوة من أستاذي الدكتور رفيق عطوي
حفظه الله الذي أصرَّ عليّ متابعة الدكتوراه
عنده على الرغم من حصولي عليها من
جامعة أخرى.. ومع أستاذي وعطفه وعلمه
بدأت خطوات الدراسة مجدداً، وهأنذا
أستشق هواء شارع الحمرا المترع بالثقافة
والأدب، وأشرف من بيت أستاذي الذي أحنَّ
إليه دوماً على الشارع العريق فأغني معه
ومع السيدة أم فادي وسحر ورثي أغنية
المطربة صباح (بيته بشارع الحمرا).

ولا يمكن أن أغادر المكان قبل أن أشير
إلى كازاخستان وعاصمتها (أستانا) التي
حظيت منها بمنحة للدكتوراه فكانت لي
زيارة على أسبوعين لا تُتسى حفاوة وكرماً،
ومناقشة، ومحاضرات، وشهادة أعتز بها
قدمها رئيس الجامعة البروفسور «بخيتجان
رحيموف».. فالمكان والشخص واحد لديّ،

فإن شئت أن تصفني بالانطباعية لأبأس، فهي مدرسة نقدية قادرة على الوصول، وإن شئت أن تقتنع معي بأنني مجرد قارئ نهم يضع حواشيه وانطباعاته لا أبأس في ذلك أيضاً.

وأنا أمجّ صفة ناقد، لأنّ النقد هو عملية إبداعية على عملية إبداعية، وأظن أنني لأستحق هذا اللقب، وقد أشار إلى أسلوبه في الدراسة صديقي الرائع الدكتور رياض عصمت في تقديمه لكتابي (الشمس تشرق غداً) الصادر عن وزارة الثقافة هذا العام.. لم أصدر نفسي ناقداً، ولا أحبذ هذه الصفة، حتى بطاقتي العلمية لا أضع لها إلا صفة (قارئ).

بل تحولت إلى طرف مشارك في تهديم المجتمع، وكل متابع يدرك الدور السلبي لهذه النخبة التي باعتنا الأفكار نصف قرن ثم تحولت إلى طرف في صراع دام، كان المعول عليها أن تتقذ المجتمع منه، وقد قدمت في ذلك دراسات عديدة.

قارئ فحسب

- هل تعد نفسك ناقداً انطباعياً أم قارئاً

ذواقة؟

• أنا لا أعدو أن أكون قارئاً، وبحكم دراستي تعرفت إلى المدارس النقدية العربية والغربية، واستوعبتها بشكل مقبول، ثم وجدت نفسي أقارب النص بحب وحميمية وتقدير.



صفحات من النشاط الثقافي



أحمد الحسين

تعيش التجربة وتجيد التعامل معها وتتحدى
الجدران والأسوار.

وأضاف القيم: إن الأدبية كانت في
جميع كتاباتها وإبداعاتها تعبر عمّا تحس
به نفسها وعمّا يتضح أمامها من معاني
الجمال كاشفة لنا جوانب من أسرارها
وخبائياها الزاخرة بالمعاني الوجدانية السامية
والإحساسات التي تتقب عن كل معنى يكمن
وراء الموجودات التي نلمح أطيافها في ثنايا
أدبها من مقالة وقصة ورواية وخواطر
ودراسات صادقة رقيقة.

وبيّن الدكتور القيم أنّ كتابات الأدبية
تتداخل بين الموضوعات الاجتماعية وتحرر
المرأة والتقاليد والعادات والعلاقات العاطفية
والأسرية ومشكلات الزواج والطلاق لكن

قمر كيلاني في ندوة تكريمية:

بمناسبة مرور عام على رحيلها، أقامت
وزارة الثقافة في مكتبة الأسد الوطنية ندوة
تكريمية للأدبية قمر كيلاني شارك فيها كل
من الناقدين خليل موسى وإسماعيل مروة،
وعدد من الأدباء والباحثين.

وأشار الدكتور علي القيم معاون وزيرة
الثقافة في كلمته إلى أنّ الأدبية كيلاني
في جميع كتاباتها الصحفية والروائية
والقصصية كانت تجيد الإلمام بالجواهر
والقدرة على الانتقال من موضوع إلى آخر
ومن وصف إلى آخر مع الاحتفاظ بحيوية
النص وروعة الوصف

وجمال اللغة موضحاً أنّ أعمالها لا تدور
في فراغ لأنّ الهم الوطني شاغلها كما أنّها

✽ أديب وباح في التراث العربي من (سورية).

الهم الوطني والقومي هو الناظم الرئيسي لرواياتها.

بدورها قالت الأديبة لينا كيلاني ابنة الراحلة: إنَّ سورية عرفت الأديبة قمر منذ الخمسينيات من القرن الماضي فهي تعمل على تطابق القول بالفعل وذلك من خلال أغلب الأجناس الأدبية التي تكتبها إذ إنَّها مثقفة من الطراز الرفيع فقد قرأت مكتبة بيتنا الزاخرة بآلاف الكتب تلك هي أُمِّي التي ما خبا شعاعها حتى اللحظة الأخيرة وهي قريبة من كل الأجيال لافتة إلى أن والدتها كانت من أهم أهدافها المحافظة على اللغة العربية في سلوكها وكتاباتنا وفي أعمالها التدريسية.

وأشارت كيلاني إلى أنَّها وجدت في مكتبة والدتها عشرات القصص والروايات غير المنشورة إضافة إلى كثير من المقالات والخواطر كما عثرت على عشرات الأبحاث في الفكر والأدب التي ستشق طريقها إلى النور موضحة أنَّ أمها كانت تركز على النشر في الصحف المحلية والرسومية منها وخاصة البعث والثورة والأسبوع الأدبي كما نشرت في كل أنحاء الوطن العربي.

أمَّا الناقد الدكتور خليل موسى فقال: إنَّ الأديبة كيلاني حاولت في كتاباتها تقديم رسالة تصل فيها إلى المجتمع قوامها النظرة العروبية والقومية والوطنية كما

أنَّها لا تحمل كتاباتها مشكلة تفرق فيها بين الذكورة والأنوثة فإذا قرأنا مجموعتها «عالم بلا حدود» يخيّل إلينا أننا أمام امرأة فلسطينية خالصة كما أنَّها امتدت إلى لبنان ثم إلى مصر وتحدثت عن سليمان المصري الذي قتل سبعة صهاينة واستشهد.

وأضاف موسى: إنَّ كتابات كيلاني تنتمي إلى الواقعية الاشتراكية فاتجاهها قومي واضح تستخدم فنيًا أساليب معاصرة كما نجد في قصصها الشعرية والمونولوج والقصة الحوارية وقصة الرمز فهي كاتبة لم تأخذ حقها من الدراسات النقدية.

ورأى الناقد إسماعيل مروة أنَّ المقالة عند كيلاني تمثل بالنسبة لها حياة وتجربة واستشراق، وهي مفعمة بجوانب الحياة الاجتماعية والقضايا والهموم العامة، فهي لم تكن إنشائية ومن يقرأها يجد أنَّها صدى للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تقدم صورة متكاملة لا تختلف عن الرواية، وقد تكون أهم لأنها صرخة والصرخة لا تحتمل التأجيل حتى الاختمار.

ولفت الشاعر الدكتور «نزار بني المرجة» عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب إلى أنَّ تكريم الأديبة الكبيرة الراحلة قمر كيلاني يمثل وقفة وفاء لمبدعة متعددة أعطت الكثير من وقتها وعمرها في شتى مجالات وحقول الإبداع الأدبي في القصة

في المكتب التنفيذي لاتحاد الكتّاب لأكثر من عشر سنوات... إنَّها قمر كيلاني التي غادرتنا جسداً وستبقى في ذاكرتنا وثقافتنا لتستلهم منها الأجيال طريق الخلاص.

ونذكر من بين مؤلفات قمر كيلاني في مجال القصة القصيرة والرواية والدراسات والأبحاث الأدبية:

- ١- التصوف الإسلامي- دراسة- بيروت - دار شعر - ١٩٦٢م.
- ٢- أيام مغربية- رواية- بيروت - دار الكاتب العربي- ١٩٦٥م.
- ٣- عالم بلا حدود- قصص- بغداد- وزارة الإعلام- ١٩٧٢م.
- ٤- بستان الكرز- رواية- دمشق - اتحاد الكتّاب العرب- ١٩٧٧م.
- ٥- الصيادون ولعبة الموت- قصص- دمشق - اتحاد الكتّاب العرب- ١٩٧٨م.
- ٦- الهودج- رواية- دمشق - اتحاد الكتّاب العرب- ١٩٧٩م.
- ٧- حب وحرب- رواية- الإدارة السياسية- سورية- ١٩٨٢م.
- ٨- امرأة من خزف- قصص- دار الأنوار- سورية- ١٩٨٠م.
- ٩- اعترافات امرأة صغيرة- قصص- وزارة الثقافة - سورية- ١٩٨٠م.
- ١٠- طائر النار- رواية- اتحاد الكتّاب العرب- ١٩٨١م.

والرواية والدراسات والبحوث الأدبية مثلما أعطت في ميادين المسؤولية تاركة بصماتها في كل زاوية من زوايا المكان والزمان فكانت نموذجاً للأدبية الدمشقية العربية السورية التي أعطت بلا حدود فاستحقت منا جميعاً التكريم والوقوف في ذكراها العطرة على دروب الخلود.

وحول مسيرة حياة الأدبية الراحلة قمر كيلاني ودورها ومساهماتها الثقافية والاجتماعية قال الدكتور «حسين جمعة» رئيس اتحاد الكتّاب العرب: إنَّ قمر كيلاني تعدُّ واحدة من الأدباء المبدعين الذين استطاعوا أن يسجلوا أسماءهم في سجل الخالدين بخيوط من ذهب فحينما ننظر إلى دراساتها ندرك أنها منذ كتابها التصوف الإسلامي تعدُّ مبدعة في بابها وكذا كان حديثها عن أسامة بن منقذ وامرئ القيس وإذا كانت لم تعرف باحثة وناقدة فقد عرفت قاصة وروائية منذ إصدارها أوّل مجموعة قصصية بعنوان «امرأة من خزف» ثم توالى المجموعات والروايات لتثبت أنها كانت تتطور تطوراً ملحوظاً في التقنيات الفنية على مستوى اللغة الشعرية ولغة السرد.

وأضاف إن كيلاني حرصت على تأطير العمل الثقافي في نقابات مهنية فكانت من مؤسسي اتحاد الكتّاب العرب والاتحاد النسائي واتحاد الصحفيين ثم غدت عضواً

قضايا اللغة العربية، بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، الذي قررت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة «يونسكو» الاحتفال به سنوياً.

وتضمّن برنامج اليوم الدراسي الذي نظم في المقر الدائم للإيسيسكو في الرباط، عروضاً علمية تتناول قضايا متنوعة ذات صلة بواقع اللغة العربية ومستقبلها، قدّمها الدكتور عبد الهادي التازي، ومحمد العربي المساري والدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، والشاعر فاروق شوشة، والدكتور محمد الأوراعي والدكتور موسى الشامي.

وبهذه المناسبة كرم الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للإيسيسكو، خلال الجلسة الافتتاحية لليوم الدراسي، كل من الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، رئيس جمعية اللسانيات بالمغرب، والشاعر فاروق شوشة، الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة، تقديرًا من الإيسيسكو لجهودهما في خدمة اللغة العربية. كما تمّ في إطار اليوم الدراسي تنظيم معرض لإصدارات الإيسيسكو، ومعرض للخط العربي للخطاط المغربي محمد قرماد.

وجاء تنظيم اليوم الدراسي تعزيزاً لجهود الإيسيسكو على مدى أكثر من ثلاثين سنة في سبيل الارتقاء بمكانة اللغة العربية في العالم الإسلامي، ودعم انتشارها وتحديث

١١- الأشباح- رواية- المنشأة الشعبية للنشر- ليبيا- ١٩٨١م.

١٢- الدوامة- رواية- وزارة الثقافة- سورية- ١٩٨١م.

١٣- المحطة- قصص- اتحاد الكتاب العرب- ١٩٨٧م.

١٤- حلم على جدران السجون (مجموعة قصصية) - الدار العربية للكتاب- تونس- ١٩٨٥م.

١٥- أوراق مسافرة- دار الجليل- سورية- ١٩٨٧م.

١٦- أسامة بن منقذ (دراسة)- دار النوري- سورية- ١٩٨٥م.

١٧- امرؤ القيس (دراسة)- دار طلاس- سورية- ١٩٨٦م.

وذلك عدا مقالاتها المنشورة في الصحف والمجلات والدوريات المحلية والعربية، وقد ترجمت بعض أعمالها إلى اللغات الروسية، والفرنسية، والإنكليزية، والفارسية، والهولندية، وشاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات العربية والدولية، وأدرج اسمها في عدد كبير من الموسوعات العالمية والعربية، وموسوعة أعلام القرن العشرين^(١).

نشاطات بمناسبة يوم اللغة العربية:

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» يوماً دراسياً حول

عام وهناك الاحتفال بيوم اللغة العربية الذي حددته المنظمة العربية للتربية والعلوم في الأول من آذار من كل عام.

من جانبه قال الدكتور غسان غنيم مقرر جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب في تقديم مماثل.. أننا فرحون بانضمام اللغة العربية لتكون واحدة من أهم اللغات الحية في العالم التي تشارك في إقامة الحضارة العالمية ما يؤكد أن لغتنا العربية ذات الأصالة والتاريخ العريق قادرة على أن تكون لغة معاصرة أيضاً تستجيب للعصر ولما يراد منها في التعبير عن المستجدات العلمية والثقافية والإنسانية على الرغم من أن اللغة العربية واحدة من أقدم اللغات في العالم.

وأضاف غنيم: إن الكشف الأثري الحديثة في مدينة ماري تل الحرير والتي ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد دلت على أن الرموز فيها كانت مكتوبة بلغة قريبة جداً من اللغة العربية وبهذا تعد اللغة العربية من أقدم اللغات الحية على الإطلاق ما يؤهلها لتكون واحدة من اللغات الأكثر قدرة لتأدية الأغراض العلمية والمعرفية والحضارية فهي لغة غنية بالأسول والمشتقات الناتجة عن تلك الأسول والقادرة أن تحور معاني هذه المشتقات وفق صياغتها في الجملة ما يعطي اللغة مرونة وقدرة على الاستيعاب بأن هذه اللغة التي تشكل هويتنا

طرائق تعليمها ووسائله، وتيسيرها للناطقين بغيرها داخل العالم الإسلامي وخارجه.

وفي سورية عبر عدد من الأدباء والباحثين عن أهمية ودلالة الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية حيث قال الدكتور محمود السيد رئيس لجنة تمكين اللغة العربية: إن الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية يبين أهمية الموقع الذي تتبوّه لغتنا بين لغات العالم إلى جانب إظهار مكانتها وإسهاماتها في مسيرة الحضارة البشرية.

وأضاف السيد.. أنه كما للوطن حدود ينبغي أن نحافظ عليها كذلك للغة حدود ينبغي أن نحافظ عليها.. من هنا كانت لجنة تمكين اللغة العربية التي صدرت بقرار جمهوري عام ٢٠٠٧م ولجنة تمكين اللغة العربية التي أنيطت بها مهمة وضع خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية على جميع الأصعدة ومتابعة تنفيذ هذه الخطة وذلك عبر لجان للغة العربية في كل وزارة من الوزارات المعنية كوزارات الثقافة والتربية والتعليم العالي والأوقاف والإعلام وفي جميع المحافظات.

وأوضح السيد أن هناك ثلاث مناسبات للاحتفال باللغة العربية فالأولى جانب الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية هناك الاحتفال باللغة الأم الذي حددته منظمة اليونسكو في الواحد والعشرين من شهر شباط من كل

عدد آخر من القصائد، يبلغ ١٢ قصيدة، منها سبع قصائد تمثل المرحلة الرومانسية المبكرة، بينما تمثل بقية القصائد مرحلة الالتزام الماركسي والقومي.

تجدر الإشارة إلى أن لبدر شاكر السيّاب ديوان في جزئين نشرته دار العودة ببيروت سنة ١٩٧١، وجمعت فيه عدة دواوين أو قصائد طويلة صدرت للشاعر في فترات مختلفة: أزهار ذابلة (١٩٤٧م)، وأساطير (١٩٥٠م)، والمومس العمياء (١٩٥٤م)، والأسلحة والأطفال (١٩٥٥م)، وحفّار القبور، وأنشودة المطر (١٩٦٠م)، والمعبّد الغريق (١٩٦٢م)، ومنزل الأفتان (١٩٦٣م)، وشناشيل ابنة الجلبي (١٩٦٤م)، وإقبال (١٩٦٥م).^(٣)

توزيع جوائز مسابقة نازك الملائكة:

أعلن في بغداد عن أسماء الأديبات الفائزات بجائزة نازك الملائكة للإبداع الأدبي النسوي في دورتها الخامسة، وأقيمت بهذه المناسبة احتفالية كبيرة في قاعة تموز في فندق عشتار حضرها الشعراء المشاركون بملتقى بغداد الشعري وحشد من الإعلاميين والأدباء.

وقد فازت بالمركز الأوّل في مجال الشعر نجاة جبار من العراق عن قصيدتها (انعقاد)، وفازت بالمركز الثاني مناصفة كل من هبة السيد من مصر عن نصها (مفتّح)

القومية والرابط الحقيقي بين الناطقين بها هي أهم صلة بين الماضي والحاضر والمستقبل.^(٤)

السياب يظهر من جديد:

صدر عن المجلس الأعلى للثقافة كتاب «بدر شاكر السياب.. أزهار ذابلة وقصائد مجهولة وروائع»، قام بتقديم الكتاب الشاعر حسن توفيق الذي قدّم دراسة مهمة مستفيضة عن شعر بدر شاكر السياب.

يتكون الكتاب من قسمين، القسم الأوّل ويضم الديوان الأوّل الذي أصدره الشاعر في مصر عام ١٩٤٧م وهو ديوان «أزهار ذابلة»، أمّا القسم الثاني فهو يضم قصائد لم تنشر في دواوينه، وهي عشر قصائد تمثل مرحلة الرومانسية المبكرة التي مرّ بها الشاعر في مقتبل حياته الفنية والمعاشة في الوقت نفسه. بينما تمثل القصيدة التاسعة منها مرحلة الالتزام الماركسي، وهي قصيدة تحمل طابع النبوءة بأحداث انتفاضة تشرين ١٩٥٢م في العراق، أمّا القصيدة العاشرة والأخيرة فإنّها تمثل مرحلة الارتداد إلى الرومانسية خلال فترة مرض الشاعر في أواخر أيامه، إلى جانب هذا، هناك ثلاث قصائد لم تنشر في دواوين هي الأخرى، وقد خصصها لمجد الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم.

ويشتمل الكتاب كذلك على نصوص

المستصرية)، والدكتور عبد المنعم جبار عبيد الشولي (كلية التربية/ ابن رشد/ جامعة بغداد)، والدكتورة فاطمة ناظم مطشر العتابي (أديبة وقاصة/ وزارة التربية/ المديرية العامة للمناهج)^(٤).

اليونسكو توافق على توثيق مواقع

الآثار والتراث العربية:

وافقت اليونسكو خلال اجتماع منسقيها الإقليميين على مقترح قدمته وزارة الآثار المصرية بشأن وضع آلية خاصة لنظام معلوماتي جغرافي أثري موحد «GIS» لكل مواقع التراث والآثار في الدول العربية المسجلة على قائمة التراث العالمي، صرح بذلك د. محمد إبراهيم وزير الآثار.

وأشار وزير الآثار المصري إلى أن هذا النظام يهدف إلى التوثيق الإلكتروني الكامل لمواقع الآثار والتراث ويشتمل على المعلومات الأثرية والتاريخية والجغرافية والإدارية والقانونية كافة كإحدى آليات الحفاظ على التراث، وإتاحة هذه المعلومات لصانعي القرار فيما يختص بأعمال التنمية العمرانية والبشرية في هذه المواقع ومحيطها بما يكفل الحفاظ عليها ووضعها في الاعتبار أثناء أعمال التنمية، كما يمكن إتاحة هذه المعلومات للدارسين والباحثين في علم الآثار والتاريخ.

وشروق حمود من سورية عن نصها (من وجهة قلبي).

أمّا المركز الثالث فكان مناصفة أيضاً بين لمياء حسين من العراق عن نصها (خنف)، وسميحة شفرور من الجزائر عن نصها (شيء كالحلم).

وفي مجال القصة القصيرة: نالت المركز الأول (مناصفة) إيمان البياتي من العراق عن قصتها (مدينة الجدار)، وإيناس محمد من الأردن عن قصتها (القمر).

وحلت ثانياً آية عبد الله من الأردن عن قصتها (غربة)، وسعداء الدعاس من الكويت عن قصتها (أيقونة العباس)، بينما كان المركز الثالث من نصيب كل من خديجة أدري من العراق عن قصتها (القشة)، وحنان بيروتي من سورية عن قصتها (نقطة الصفر).

وتمّ حجب الجائزة الأولى في مجال النقد الأدبي، وبذلك ذهبت الجائزة الثانية إلى فائق شوقي من مصر لبحثها (نازك الملائكة والصعود إلى سماء الشعر)، وكانت الجائزة الثالثة من نصيب زهور كرام من المغرب عن بحثها (نازك الملائكة ونظم الاختلاف).

وقد تألفت لجنة التحكيم من الدكتور علاء جبر الموسوي (عميد كلية الآداب/ الجامعة المستصرية)، والدكتور طارق عوني الجناي (كلية التربية/ الجامعة

وفي السياق ذاته أوضح د. أسامة النحاس مدير إدارة المنظمات الدولية بوزارة الدولة لشؤون الآثار أنَّ الاجتماع ناقش أيضاً المقترح المصري بإنشاء مركز إقليمي للتراث العالمي خاص بأفريقيا ليكون مقره القاهرة وطالب الحاضرون اتخاذ المسؤولين المصريين الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا المقترح.

كما تمَّ الاتفاق على قيام مصر بعقد دورات تدريبية للعاملين في مجال الآثار والتراث في الوطن العربي على التوثيق والمسح الأثري والرفع المعماري واستخدام تقنيات الفوتو جراممري وتطبيقات GPS ونظم المعلومات الجغرافية GIS وذلك بالتعاون مع المركز الإقليمي للتراث العالمي بالبحرين.^(٥)

الدورة الخامسة عشرة لمهرجان الفنون الإسلامية:

احتضنت الشارقة انطلاقاً مهرجان الفنون الإسلامية في دورته الخامسة عشرة، برعاية ودعم من الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة.

نظمت المهرجان إدارة الفنون بدائرة الثقافة والإعلام في الشارقة، في كل من مدينة الشارقة، مدن المنطقة الشرقية (خورفكان، كلباء، دبا الحصن)، إضافة لمدينة الذيد بالمنطقة الوسطى، وتنوعت المشاركات

المحلية والدولية لتصل الأعمال المعروضة إلى ١٧٠٠ عمل فني تتنوع بين اللوحة، الفيديو، المجسمات، الأعمال التركيبية، وكذلك أعمال تنتمي للفنون التطبيقية، الجرافيك، الخزف، الحلي، السجاد، كما يبلغ عدد المعارض ٤٥ معرضاً محلياً ودولياً، تعود لـ ١٨ دولة، من بينها الإمارات، السعودية، قطر، بريطانيا، أمريكا، فرنسا، تركيا، أذربيجان، مصر، فلسطين، لبنان، العراق، السودان، والهند.

وحول فلسفة هذه الدورة صرح هشام المظلوم مدير إدارة الفنون: أنَّ المهرجان يتجه لتحقيق التوازن بين فنون راسخة أكدت جدارتها من خلال الطرح الأصيل المستند في جانبه الأكبر على أسس وجماليات ضابطة، وفنون أخرى تبدو في هيئة معاصرة كونها تطرح جملة من المفاهيم الآنية اعتماداً على قدراتها في استلهام معطيات الفنون الإسلامية، بإعادة صوغها عبر تقنيات ووسائل تمتاز بالابتكارية والروح العصرية، التي تتسببها تكنولوجيا رقمية، أتاح لكثير من الفنانين مساحات شاسعة لتقديم أعمال بصرية ناجزة وقادرة على إثارة الدهشة وشحن المخيلة الجمعية.

وقد تضمنت فعاليات هذه الدورة إقامة العديد من الندوات الفكرية التي تمحورت موضوعاتها حول الفنون في الحضارة

الإسلامية ومن بينها ندوة بعنوان (الصيغ المتجددة في الفن الإسلامي المعاصر) تناولت مجموعة من المحاور الهامة كمفهوم المعاصرة بالتطبيق على نتائج الفن الإسلامي في العقدين الأخيرين، تحولات الفنون الإسلامية في الزمان والمكان، أبرز الفنانين المشتغلين بالفن الإسلامي المعاصر، الفلسفات والفكر المرتبط بالمنجز المعاصر للفن الإسلامي.^(١)

غامونيدا يفوز بجائزة الأركانة العالمية:

فاز الشاعر الإسباني «أنطونيو غامونيدا» بجائزة الأركانة العالمية التي تُمنح سنوياً من قبل بيت الشعر في المغرب.

وجاء في تقرير لجنة تحكيم الجائزة التي تكونت من الكاتب والباحث محمد العربي المساري «رئيساً» والناقد عبد الرحمن طنكول، والشعراء حسن نجمي، ونجيب خداري، وخالد الريسوني، أن اللجنة ارتأت أن تتوج هذه السنة الشاعر الإسباني أنطونيو غامونيدا «من مواليد أوبييدو سنة ١٩٣١م» تقديراً منها لتجربة شعرية عميقة تحتفي بالتخوم وتبأمل الموت من مشارف الحياة، ولشاعر إنساني نسج مع الشعر علاقة مصاحبة وتأمل وود.

وذكر تقرير اللجنة أن بيت الشعر في المغرب، وهو يمنح جائزة الأركانة العالمية

للشعر، لأنطونيو غامونيدا، «إنما يتوج فيه الشاعر الكوني المحتفي بشعر الحدود والتخوم، باعتباره يسكن عمق نظرة كونية تتشكل من مادة الوجود والحياة وهما يتأرجحان في مسارهما بين لوجودين: (العدم والموت). كما يتوج فيه الصوت الشعري المتفرد المقيم في خلوته المتأمله للذات وللوجود وللحياة وللموت، في تلك الضفة الشعرية الأخرى التي تسكن وجداننا العربي».

ولذلك فإن تتويج غامونيدا بجائزة الأركانة يعدّ تتويجاً لكل الشعر الإسباني، كما هو تتويج «للصوت الذي استطاع بشعريته المتدفقة أن ينبثق من الهامش، وأن يتمرد بصمت على التجاهل والنسيان بسلطة كلمة الشعر المتألفة، وأن ينال ما يستحقه من مكانة وتشريف في عالم الشعر والأدب لأنه -ببساطة- ظل وفياً للعمق الإنساني الذي يمثله الشعر».

ويعدّ، أنطونيو غامونيدا، عضو الهيئة الشرفية لبيت الشعر، شاعراً كونياً، وقد نال الاعتراف والتتويج ابتداء من سنة ١٩٨٧م حين صدرت أعماله الشعرية تحت عنوان «عمر»، فاجتمعت آراء النقاد والقراء في إسبانيا وخارجها على اعتبار مساره الشعري مساراً متفرداً وتجربته في الكتابة الشعرية تجربة متميزة لا توازي ما كان سائداً من

الملكة صوفيا للشعر الإيبيري- أميركي ٢٠٠٦م، ثم جائزة سيربانطيس للآداب ٢٠٠٦م.^(٧)

رمسيس الثالث ربما قتل ذبحاً:

كشف تحليل جديد أن الملك المصري رمسيس الثالث ربما قتل ذبحاً في إطار مؤامرة، وفق فحص إلكتروني بالأشعة المقطعية للمومياء الخاصة بالملك أظهر وجود جرح عميق بالرقبة يكفي لإحداث الوفاة، ما ينهي سراً خافياً لقرون، وجدلاً دائراً حول كيفية مقتل رمسيس الثالث، حيث أشارت «بردية تورين القضائية»، أنه في عام ١١٥٥ قبل الميلاد حاول بعض حريم الملك قتله في إطار خطة للانقلاب عليه من داخل القصر.

وتروي هذه البردية قصة أربع محاكمات منفصلة، وتحدث عن العقوبات التي طبقت على المتورطين في المؤامرة، ومن بينهم إحدى زوجتي الملك، والمعروفة باسم تاي، وابنها الأمير بنتاؤور، الذي كان وريثاً محتملاً للعرش.

وتقول البردية: إن بنتاؤور، وهو الابن الوحيد من عدة أبناء للملك رمسيس الثالث الذي ثار ضد والده وشارك في هذه المؤامرة، قد تمت إدانته في المحاكمة ثم انتحر.

وقد قام عدد من الخبراء بمحاولات علمية لكشف هذا السر، من بينهم: ألبرت

تجارب، ولا تتناظر مع أي من التيارات أو التقليلات الشعرية المتعايشة فيما بينها داخل خريطة الشعر الإسباني.

وأنطونيو غامونيدا هو ابن الشاعر الإسباني أنطونيو الذي كان ينتمي إلى تيار الحداثة وقام بنشر عمله الشعري الوحيد «حياة أخرى أرقى» عام ١٩١٩م. وفي الثالثة من عمره انتقل أنطونيو غامونيدا مع والدته أميليا لوبون إلى ليون بعد وفاة والده عام ١٩٣٤م، وكانت والدته بمثابة درع الأمان له ضد حالة الرعب وحياة البؤس أثناء الحرب الأهلية الإسبانية وفترة ما بعد الحرب. وقد تعلم غامونيدا القراءة في سن الخامسة بفضل قراءته لكتاب والده، وذلك بعد إغلاق المدارس أبوابها عام ١٩٣٦م.

ينتمي غامونيدا إلى ما يسمى بجيل الخمسينات الذي تطلق عليه تسمية «أطفال الحرب». وقد أصدر عدة دواوين منها «الأرض والشفاء»، «ثورة ثابتة»، «فرائد»، «بلوز قشتالي»، «وصف الأكذوبة»، «لوحات حجرية»، «كتاب البرد»، «يشتل الخسران»، «ثيثلينا» و«أغنية خاطئة».

ونال أنطونيو غامونيدا عدة جوائز أهمها: جائزة قشتالة ليون للآداب ١٩٨٥م، والجائزة الوطنية للشعر ١٩٨٨م، والجائزة الأوروبية للآداب ١٩٩٣م، وجائزة الثقافة لمنطقة مدريد في الآداب ٢٠٠٤م، وجائزة

عبارة عن عين حورس داخل منطقة الجرح، ويعتقد أنها وضعت بواسطة المحنطين أثناء قيامهم بتحنيط الجثة وذلك اعتقاداً منهم بأنها تساعد على الشفاء.^(٨)

روسي يشتري بثمان قياسي رسائل آخر قياصرة روسيا؛

اشترى جامع تحف روسي يعيش في إمارة موناكو، بثمان قياسي بلغ ١٢٠ ألف فرنك سويسري أربعة رسائل كتبها آخر قياصرة روسيا نيقولا الثاني خلال الحرب العالمية الأولى. حسبما قالت صالة مزاد سويسرية.

وباع الرسائل نيكولاس رومانوف (٩٠ عاماً)، قريب القيصر عضو الأسرة الإمبراطورية الروسية السابقة الذي يعيش في سويسرا، الذي قال في بيان «سعدت بالغ السعادة حين علمت أن الذي اشتري هذه الوثائق هو شخص واحد غيور على التاريخ. وكونه روسياً ضاعف من سعادتني».

وأضاف رومانوف «بالطبع أنا آسف لفراقي لها (الرسائل) لكن أنا في التسعين، وقد اتخذت قراراً يعني أنه قبل احتفالات الذكرى المئوية (التي تحل ٢٠١٣م) لتأسيس العائلة، ربما تصل هذه الرسائل إلى يد مؤرخ أو كاتب سيرة أو أي شخص يكتب شيئاً، وأضاف لست قادراً على هذا ولا أملك الوقت وكان علي أن أبدأ منذ زمن بعيد».

زنك المتخصص في علم الباثولوجيا بمعهد المومياوات ورجل الثلج ومقره إيطاليا، الذي فحص مومياة رمسيس الثالث وبقايا مومياة أخرى مجهولة تم العثور عليها في مقبرة ملكية بالقرب من وادي الملوك في مصر والتي يعتقد أنها تعود للأمير بنتاؤر.

وقام فريق البحث بإجراء أشعة مقطعية إلكترونية لهاتين المومياةتين بالإضافة إلى اختبارات الحمض النووي «دي أن إي» وذلك في المتحف المصري بالقاهرة حيث يقبعان الآن، حيث كشفت هذه الأشعة والاختبارات أن رمسيس الثالث أصيب بجرح عميق بالرقبة يبلغ اتساعه ٢,٧ بوصة، ويقول الخبراء إن هذا الجرح ربما كان سببه شفرة حادة وقد يكون تسبب في وفاة فورية.

وقال ألبرت زنك، في ضوء هذه النتائج: «كنا قبل ذلك لا نعرف إلا القليل حول مصير رمسيس الثالث، وتم قبل ذلك فحص جسده، وأجرى خبراء فحوصاً بالأشعة أيضاً عليه لكنهم لم يلاحظوا أية آثار مختلفة، فلم يكن لديهم وسائل الأشعة المقطعية بالكيميوتر التي لدينا الآن».

وأضاف: «لقد اندهشنا كثيراً بما توصلنا إليه، ولسنا على يقين كامل حتى الآن بأنه قتل بسبب هذا الجرح، لكننا نعتقد أنه كان السبب» في مقتله.

واستطاع الخبراء أن يروا تميمة فرعونية

يشار إلى أن أسرة رومانوف كانت الأسرة المالكة الثانية والأخيرة التي تحكم روسيا، وتأسست عام ١٦١٣م وانتهت بقيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧م، وقالت صالة المزاد السويسرية التي أقامت المزاد في جنيف، إنَّ الرسائل غير المنشورة الممهورة بإمضاء القيصر، تتحدث عن قلقه على جيشه الذي خاض الحرب العالمية الأولى.^(٩)

إحالات

- ١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»
WWW.SANA.ORG.
- ٢- موقع ميدل إيست أن لاين
WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.
- ٣- موقع ألف ياء
WWW.ALEFYAA.COM
- ٤- موقع إيلاف
WWW.ELAPH.COM
- ٥- شبكة المعلومات العربية المحيط
WWW.MOHEET.COM
- ٦- وكالة أنباء الخليج
WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET
- ٧- وكالة المغرب العربي للأنباء
WWW.MAP.CO.MA.
- ٨- موقع بي بي سي
WWW.BBC.CO.UK/ARABIC
- ٩- أنباء موسكو/ نوفوش
AR.RIAN.RU



قطرات الشاعر الكبير سليمان العيسى

✽
عبد اللطيف الأرناؤوط



«قطرات» ديوان شعر يدفع به الشاعر سليمان العيسى إلى القارئ العربيّ متحدّياً متاعب الشيخوخة ومنغصّاتها الجسدية من عجز وسكون حركة، ولسان حاله يقول: لن أتخلّى عن هذا العطش الأبدي لنشر الكلمة الجميلة بين الناس: أضاميم زهر وأجنحة فراشات تجمّل حياتهم ما دام في عرق ينبض، وطاقة شعرية خلاقة لم ينفذ إليها الوهن أو الرهق:

قطرات رَشَحَتْ عنها يدي

ويدي من كِبَرٍ ترتعشُ

عطشٌ فيه بدأنا عمرنا

يرحل العمرُ ويبقى العطشُ

✽ ✽ ✽

عنوان الديوان «قطرات» يشرح بوضوح مضمونه ونهجه، فقد كان شاعرنا الكبير في

✽ أديب و كاتب.

مراحل طفولته وبقاعته وشبابه يملك طاقة شعرية متدفقة. كانت قصائده القومية الطوال تتشال في دواوينه كالسيول الجارفة أو كالأعاصير والزوايع، حتى نسي ذاته في

سكتُ، لملت جرحي
تمتتُ؛ صبراً جميلاً
ما دام في العرق نبضُ
فلن أكون بخيلاً
يا جمره حملتني
إلى النشيد رسولا
زال الزوالُ وعاشتُ
لم تستطع أن تزولا



وإشارة الشاعر هنا توحى أنه استعار
نفسه الشعري من المتبني للسير على نهجه
في قصائده الطوال، ثم أدركه العجز فاكتفى
بالمقطوعات القصيرة التي لا تتجاوز أبياتاً
معدودة ارتضى بها مدارياً عجزه على
مض.

في المقدمة التي كتبها رفيقة دربه
الدكتورة ملكة أبيض، تعزو اختياره عنوان
الديوان «قطرات» إلى قلة إنتاجه في مرحلة
الشيخوخة قياساً إلى إنتاجه الغزير في
المراحل السابقة، وتردّ معظم قصائد
الديوان التي كتبها خلال ما لا يزيد عن
عام إلى أحداث طارئة مرّت بالشاعر خاصة
وعامة، ما جعل حياته حافلة بالعلاقات
الإنسانية، والأثر البالغ لمحيطة القلق الذي
يمدّه بالمعاناة والتأملات الواقعية، فقد تقلّص

غمرة حماسته، فلن تجد في هذه الدواوين
صورة سليمان العيسى إنسان اللحم والدم،
لأن أناه ذابت في أنا الجماعة، حتى إذا
داهمته الشيخوخة، وبردت جمره اندفاعه،
عاد إلى نفسه يتأملها، وإلى عالمه الذاتي
يستقرئه إنساناً يعيش في وسط اجتماعي،
ووسط طبيعي، ويقيم علاقات مع الناس، أو
يصادق البشر والشجر والحجر. ويقرأ سفر
الطبيعة والحياة، وثبت لحظات الزمن
الهاربة، فديوانه «قطرات» هو ثمالة الثمالة
إن شئت، أو هو خلاصة عمر مديد من
التجربة الإنسانية والإبداعية. اختار فيه
الشاعر خلاصة ما يمكن أن تتركه الشمس
الفاربة من آثار وملامح بعد غروبها، يظل
الناس يتذكرونها ويسترجعون صورتها من
الآثار التي تركتها بعد الرحيل، لتشرق
مجدداً في حياتهم:

وهذه قطراتي
وكن قبل سيولا
أهدد العمر فيها
أمد ظلي قليلا
أحاور المتنبى
أرتد عنه قليلا
لقد عصاني يراع
غزابي المستحيلا

الحلم.. حلمه القومي أمام صخرة الواقع
المرّ والعجز الجسدي:

تقلّصت بانزياح العمر مملكتي

حتى غدت عَشَّ عصفور ومتكاً

وكنت أطلق خيلي في أعنتها

والآن، لا غُلة أروي ولا ظمأ



ومع أن الشاعر لم يتحوّل عن حلمه
القومي، فظلّ يتبنّاه بإصرار تارة مفصحاً،
وتارة صامتاً، فسكوته ليس تخلياً عنه، لأنّ
الصمت لغة مفصحة، كما يقول في «ظماً»:

أنا ما أزال على ركود مجامري

ظماً إلى اللهب القديم يتمتم

أتظنني خطباً؟

كفتني جذوة

صمتت بأعماقي، وبوح ملجئ..!



ولم يتخلّ عن اندفاع الشباب، فهو دائم
التحسر على ذهاب مرحلة شبابه «وجنونها»
الأثير لديه، فهي أفضل في نظره من حكمة
الشيخوخة الواقعية، ولو كانت عقلانية:

وكنت أغوص في كوبي طويلاً

وأنهل ما يشاء لي الجنون

وها أنا قد هدأت

فلا شرأ

يعرّب في العباب، ولا سفين



ويتمنى لو يعود إليه الشباب ومعه «جنونه»
الجميل، يقول تحت عنوان «لنعرف»:

جنون الشباب، شباب الجنون

ألا ليت أيامك الخالية

تعرّب في دمن مرة

لنعرف طعم الصبا ثانية



ولكن على الرغم من حنينه الدائب إلى
شعره المجلجل الهادر في مرحلة الشباب،
فإن سرّ هذا التحوّل لدى الشاعر، من
الشعر الحماسي الخطابي إلى الشعر الهامس
المعبّر عن الذات في قطرات، لم يكن مردّه
-في تقديري- إلى ظروف عجزه فحسب،
وإنما بدا من خلال استعراض دواوينه في
مرحلة الشيخوخة منذ الثمالات. بل قبلها،
أنه نهج تجديدي اختاره الشاعر أسلوباً بعد
أن احتدمت المعركة بين أنصار التجديد
الشعري ودعاة التقليد، فلم يجد الشاعر
«سليمان» لدى المحدثين من الشعراء الذين
اتخذوا من الشعر الغربي مثلاً لهم ما
يحقق رغبته في نقلة شعرية تحرر الشعر

التقليدي من خطابيته، واسترساله أحياناً وراء تفاصيل شعرية متسطحة تفقد تأثيره. وهو في الوقت ذاته كان يطمح إلى لون من الشعر يحتفظ بقدر من الوضوح، مع كثيف الخطاب الشعري القديم الطويل النَّفَس، من غير أن يفقد الشعر جماهيريته وهويته، إضافة إلى ذلك اطلاع الشاعر على محاولات التجديد الحقيقية في الشعر الغربي، حيث فرض العصر اختزال الخطاب الشعري المعاصر، وتكثيفه في «قطرات» تغني عن سيول جارفة، وتؤدي التأثير ذاته، فأكثر دواوين الشعراء المعاصرين في الغرب تحتفي بالفكرة المركزة والمكثفة، ومعظم كتّاب القصة اليوم يتبنون في عصر السرعة ما عرف بالقصة القصيرة جداً، وأكثر النتاج الشعري المعاصر يميل إلى الاستبطان الذاتي، والتأمل الداخلي، وينأى عن الضجة التي تشوش القصيدة حين يصرفها التعبير عن العالم الخارجي عن عالم النفس وأعماقها. وقد توافرت للشاعر سليمان العيسى كل مقومات هذا اللون الجديد من الشعر الهامس، فهو شاعر رومانسي حالم بمقدار ما هو صاحب حلم واقعي وموضوعي. فاهتمامه بالأطفال ليس حلماً خيالياً، ونحن نشهد في عالمنا المعاصر احتفاء الساسة العالميين بالتربية، وما تبني

عليها الأمم من أمل منشود. والشاعر «سليمان» يؤمن بدور الكلمة الشعرية في حياة الجماهير العربية إلى الآن، وما تحمل من أبعاد وقيم مادية وروحية، فيقول تحت عنوان «كلهم حولي»:

لم يزل في بلدي للكلمة

سحرها

كانت حياتي كلمة

الصبايا والشباب

والحكايات العذاب

كلهم حولي.. لأجل الكلمة

وأغني.. وأنا بعض حطام

إنما الشعر كلام

هو بين الله والأرض نداء

يصل الأرض بأسرار السماء



فإيمانه بالشعر أُلِمَّه إلى رومانسية لم تكن متشائمة، أو فردية ناقمة، فهو إنسان منفتح على الآخر، منسجم مع الحياة والواقع، ودود ومسعف ومتكيف، لا يحمل قلبه الحقد والأذى لمخلوق أو جنس. لم يهَجُ إنساناً في شعره وهو صديق للطبيعة يسحره جمالها. صديق للمكان ومعالمه وآثاره، وبعيد عن العنصرية، له في كل مكان حل به أصدقاء ومعارف وصحبة دائمة، هذا البعد

الإنساني لرؤيته الشعرية هو ما أراد تثبيته في ديوانه «قطرات» فمن خلاله نلمح عبر هذه الخواطر أو القطرات اتجاهه الشعري التجريدي الذي بدأ مبكراً في دواوينه السابقة على صورة أبيات محدودة يوجهها إلى صديق وفيّ، أو لوحة طبيعية مشهدية يرسم من خلالها مشاعره، أو صورة إنسانية تتبص بالحياة لشخصية شعبية مغمورة جمعته بها أحوال الحياة في فندق أو مقهى أو مجلس. وعلى مرّ الزمن رسخ هذا الاتجاه الذي يسميه النقاد خطأً شعر المناسبات، والأجدر أن يطلق عليه: شعر الحياة أو الشعر الإنساني النبيل. وخاصة إذا كان صادقاً، مجرداً من المصلحة والمبالغات. لقد رثى سليمان العيسى الشاعر نزار قباني بقصيدة جميلة مطوّلة، ورثى الكاتب المناضل غسان كنفاني بكلمة مؤثرة، ورثى الشاعر السعودي غازي القصيبي فحرّر الرثاء التقليدي من المبالغات المقيتة، ولم يقل في المرثي إلا ما يحدّده حقاً، فالراحل القصيبي:

زراع الرمل أقحواناً وورداً

ومشى في الهجير ظلاً وبرداً

شاعرٌ من عرار نجد سقته

نفحات العرار عطراً ونذاً

ذات يوم قرأته فرماني

في تخوم من نشوة، تتحدى
كان في صوته امرؤ القيس والأعشى
ونجد حلو يغازل نجداً
هكذا تُنبِتُ الرمال قوافيها
فتخوضر القفار وتندى



وما يلفت النظر في «قطرات» الشاعر أنه لا يُقدّم من الخواطر واللوحات والذكريات إلا ما يبهجه ويسرّه، ويجعله يغرق بفرح الحياة وسعادتها، ولا يتناول أي وجه عابس من الحياة يزيد هموم القارئ ومتاعبه سواداً ويعكر صفوه. ومع أن الشاعر سليمان العيسى مرّت في حياته مواقف وظروف قاسية جديدة بالتسجيل، منها سجنه مراراً، وتشردّه، لكنه آثر أن ينأى عن إشراك قارئه في جهامة تلك الذكريات وعبوسها. والجانب السلبي الوحيد الذي يثيره في خواطره ما يراه من فساد ذوق أو تشويه متعمد وتضليل فكري مقصود، فيما يقرأ من الوقائع والنصوص والمرويات، فيردّ على ذلك بعنف... يكتب تحت عنوان (احتجاج شديد اللهجة) معلقاً على بيت منحول نسب إلى «ولادة بنت المستكفي» ورد فيه:

أمكن عاشقي من صحن خدي

وأعطي قبلي من يشتهيها

فيعترض على هذا النحل، ويربأ أن تكون
الشاعرة الأندلسية الأميرة في هذا المستوى
من الانحدار والسخف، فيعلق عليه:

كلامٌ من سخيِّ القول، فجَّ

أُضيفَ إليَّ ممجوجاً كريها
أحبُّ فأجعل الدنيا نشيدا

على وترٍ، أجل، وأتية تيتها
وأعشق، حين أعشق، عبقرياً

يجوب بي المجرة لا سفيها

وتحت عنوان «الشاعر والخيال» يُبدي
رأيه في خيال الشاعر، فيرى فيه جناح
الشعر للتخليق والرؤى، لكن ضمن الحدود
التي يقرّها منطق الفن وجمال التخيل:

الخيالُ المَجَنُّحُ

فرسُ الجن يسبحُ

في غيوبٍ من الرؤى تنداحُ

ما يشاء الجنون والانسحاقُ

غير أني أحدهُ

عن جنوني أردّه

بالبيان الذي يُفيدُ

عبثَ القول لا أريدُ

وفي بعض هذه القطرات المنتقاة من
البيان وروعة التشبيه ما يشهد للشاعر
بالتميز الفني، يقول تحت عنوان «من أجل

حمص»، وقد عاتبته رفيقته لأنه لم يكتب
عن مدينة «حمص» شيئاً، وهي بلد الشعراء،
وحاضنة العاصي والميماس:

لم تقل في «حمص» شيئاً إنَّها

بلدُ الشعروبيتِ الشعراءِ

لم لا تنشدها أغنية

برؤى الميماس والعاصي تضاء

فيعلق على عتابها قائلاً:

أطرق الشاعرُ والشعرُ فقد

الجم العتبُ ينابيعَ الغناءِ

إنه السرُّ الذي يجعلنا

نكتمُ الأعلى ونهوى في الخفاءِ

ومن أمثال ذلك، تلك الصورة الشعرية
المحلقة التي جسّد فيها النبوغ وشروطه،
تحت عنوان «ريشة أو ريشتان»:

ريشة.. ريشتانِ

لا تكفيانِ

لتُعدَّ الجناحَ للطيرانِ

نفضت ريشها العقابُ.. فكانت

ملءَ سمعِ الفضاءِ..

ملءَ الزمانِ

أو هذه الخاطرة بعنوان «تاريخ» التي
تختزل تحت كلماتها مجلدات:

اشتعلتُ

نارُ

في بلدي

في منتصفِ

القرنِ

الفاثتِ

ما زالَ

العالمُ

مشغولاً

في إخمادِ

اللهبِ

الصامتِ



نلاحظ في هذه الخاطرة تشكيلاً جديداً
لكلمات النص على الورق فهو يعبر عن نزعة
تجديدية معاصرة لدى الشاعر تتعلق بشكل
الشعر وتأثيره، فكل كلمة تستقل في سطر
منفرد. وكأن كل مفردة تحمل من العبء ما
يستغرق علاجه زمناً، يمثله التدرج الطويل
البطيء لترتيبها على مساحة البياض.
فاذا أضفنا إلى ملامح تجديد الشاعر
وحدة المضمون في دواوينه الأخيرة، وإعادة
النظر في توزيع ديوانه الكبير إلى وحدات

مضمونية، تبين أن الشاعر سليمان العيسى
يتبنى رؤية عصرية تجديدية للشعر العربي.
فالأحداث الكبرى في حياة الأمة ليست إلا
مناسبات يطويها الزمن، ويهت ما قيل فيها
بعد غيابها من ساحة التاريخ، أما الذي
يبقى فيها ويخلده فهو قيم الإنسان، لأنها
تدعونا إلى أن نسعف عالمنا القلق، وندعوه
لأن يسعفنا في تقبّل الحياة، فهو يداوي
جراحنا، ويهب وجودنا معنى..

مثل هذا الشعر الإنساني الذي تقدمه
(قطرات) فيه من الدفء الإنساني وجمال
الروح ما يشدنا إلى أن نقرأه ونعيد قراءته
مراراً، لأنه الخالد السرمدي، يغني فيه
الشاعر لجمال الحياة، وللناس من حوله،
ولمن يجيء بعدهم.. يغني والمرارة في حلقه،
قال ذلك معبراً عن شقاء حرفة الشعر في
مقدمة شعرية لكلمة نثرية وجّهها إلى صديق
شاعر بعنوان «صديقي زاهر»:

هو شاعرٌ..

لندعه والخَطَر الذي أسرى له واختاره

خَطَرَ الغناء..

أنا لست أعرفُ مهنةَ

أشقى وأمتع..

أجل.. إذا شئت أن تبحث عن الشاعر
 سليمان العيسى لسان الأمة المعبر، فالتمسه
 في شعر شبابه؛ وإذا أردت صورة «سليمان»
 الإنسان.. إنسان الحب والصدقة والحكمة
 وكل ما هو جميل يمتع القلب ويفرحه
 فالتمسه في شعر كهولته، ومن خلال قطراته
 المنتقاة، فإنها ستكون زاداً لك لتجدد إيمانك
 بالحياة والمثل العليا، وواحة نقيء إليها إذا
 أتعبتك الحياة..

لست أعرف..
 إنها في عرفه، في عرفنا سر البقاء
 لنَدْعُهما..
 هو واللَّهيبُ الحلو
 يصطرعان..
 ما جدوى الوجود بلا وتر؟
 يفنى بدندنة..
 ليمسح بعض أوجاع البشر..





رئيس التحرير

النوادر السلطانية

ترك لنا بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ هـ ت ١٢٣٤ م) في كتابه الشهير «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» شواهد رائعة عن عصر حافل بالأحداث وعن قائد مرحلة مضيئة في تاريخ أمتنا العربية، هو صلاح الدين الأيوبي.. لقد كان ابن شداد شاهد عيان يسجل ما يشاهد، بل وما يعاني، فكان كتابه بحق أفضل ما كتب، وأروع ما سطر في سيرة هذا البطل الخالد في تاريخنا العربي.

روى ابن شداد في «نواذره السلطانية» العبر والأحداث والقصص التي تحمل مضامين، وتنير جوانب من التاريخ، في ذكر بعضها عظة ودروس ومنتعة وفائدة.. يقول ابن شداد:

لقد كان السلطان كثير المروءة، ندي الوجه، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه في شيء إلا وينجزه...

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه.

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أيقنت أني ما أرى إلا الخير، فرق له، ومنّ عليه، وأطلقه.



عن جهاد السلطان صلاح الدين الأيوبي، يقول ابن شداد: لقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه، استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آله، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحبه عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملأذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً.

عندما يذكر صلاح الدين، تذكر حطين، وتذكر قصة تلك المرأة الصليبية التي فقدت ابنتها يقول ابن شداد:

لقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض البيزكية (لفظ فارسي معناه: طلائع الجيش) ومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء، متواترة الدق على صدرها، فقال البيزكي: إن هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها، فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها، فقالت: إن اللصوص، دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسرقوا ابنتي، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة

النهَار، فقل لي: الملك هو رحيم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما أعرف ابنتي إلا منك. فرق لها ودمعت عينه، وحركته مروءته، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة: من اشتراها، ويدفع له ثمنها، ويحضرها، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها، فخرت إلى الأرض تعضّ وجهها في التراب، والناس ييكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول، فسلمت ابنتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم.

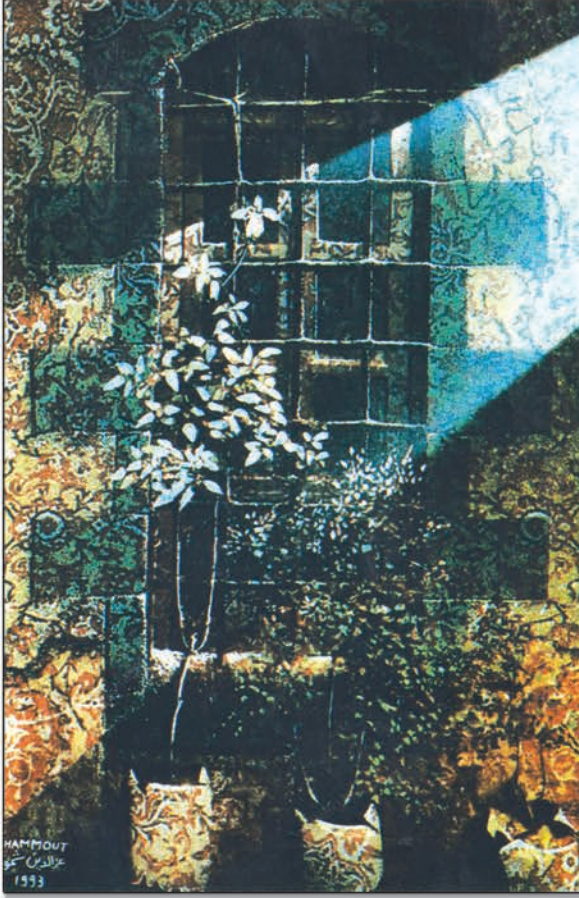


من إصدارات وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب



من كروم الجمال

اللوحة: نافذة - الفنان: عز الدين شموط (دمشق - ١٩٤٠)



تمثل هذه اللوحة إحدى انعطافات تجربة الفنان شموط العديدة، غير أن هذه الانعطافات لم تخرج عن الإطار الواسع والعريض للواقعية والواقعية السحرية أو ما فوق الواقعية، وكان في هذه الانعطافات كافة، الفنان الباحث، المتمكن، الخبير، والواعي لكل خطوة يخطوها.

(نافذة) لوحة رومانسية ساحرة، تمثل شباكاً في بيت دمشقي عتيق، يغمره الضوء، وتطرزه الزخارف، وتنهض أمامه أصص الورود والنباتات.

تنتمي هذه اللوحة إلى سلسلة اللوحات التي كرسها الفنان لجماليات البيت الدمشقي القديم الذي خرج منه، وظل وفياً له في حله وترحاله، وكان دائم العودة إليه، للترود من جمالياته الساحرة، بما يرمم الروح، ويوقظ الأحاسيس، ويلهم الأنامل الموهوبة، مزيداً من الإبداع والإضافة والابتكار.

يزاوج الفنان شموط في هذه اللوحة بين داخل البيت الدمشقي القديم وخارجه. فهو يصور النافذة بإطارها الحجري الجميل المدعوم بتشابكات حديد الحماية، وأبواب النافذة الخشبية، وأصص الورد والنباتات، ويماهي بعد ذلك، هذه العناصر كافة، بتطاريز وزخارف السجاد الشرقي، ليؤكد العلاقة الجمالية العميقة، بين خارج البيت الدمشقي وداخله، محققاً بذلك معادلة هامة وجديدة، هي الجمع الموفق والمعبّر، بين موجودات هذا البيت الداخلية والخارجية، والرافلة بجماليات متفردة ونادرة، تنضج بالعذوبة والنداوة والسحر الذي لا يشيخ، وكل ذلك، قدّمه الفنان عز الدين شموط بلغة فنية تنم عن موهبة وخبرة كبيرتين.

د. محمود شاهين



استسلام ملك بيت المقدس للسلطان صلاح الدين - للفنان علي الصابوني

فِي العدد القادم

- فرانز كافكا، انطلق من نور العالم إلى كهف مظلم.
- الزهايمر ذاكرة تائهة وداء غير مؤكد.
- كيف تصنع المستقبل.
- الموسيقى والغناء في لبنان.
- الإعلام والفوضى ذراعا القوة الناعمة المعاصرة.
- التعامل مع الأطفال أثناء الأزمات.
- مفهوم المعرفة وأنواعها.



الهيئة العامة
للمكتبات



وزارة الثقافة

مكتبة الهيئة العامة السورية للمكتبات - ٢٠١٣ م